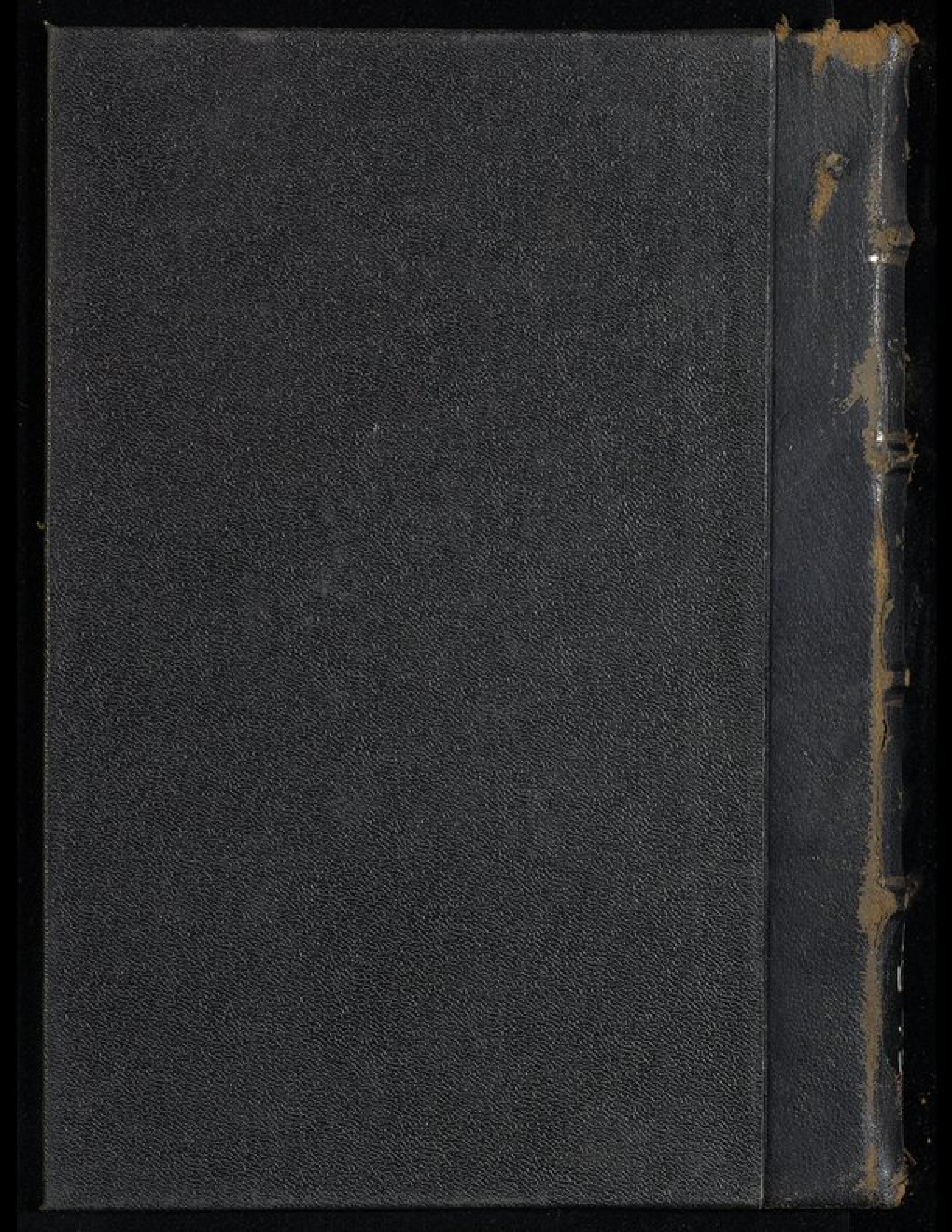
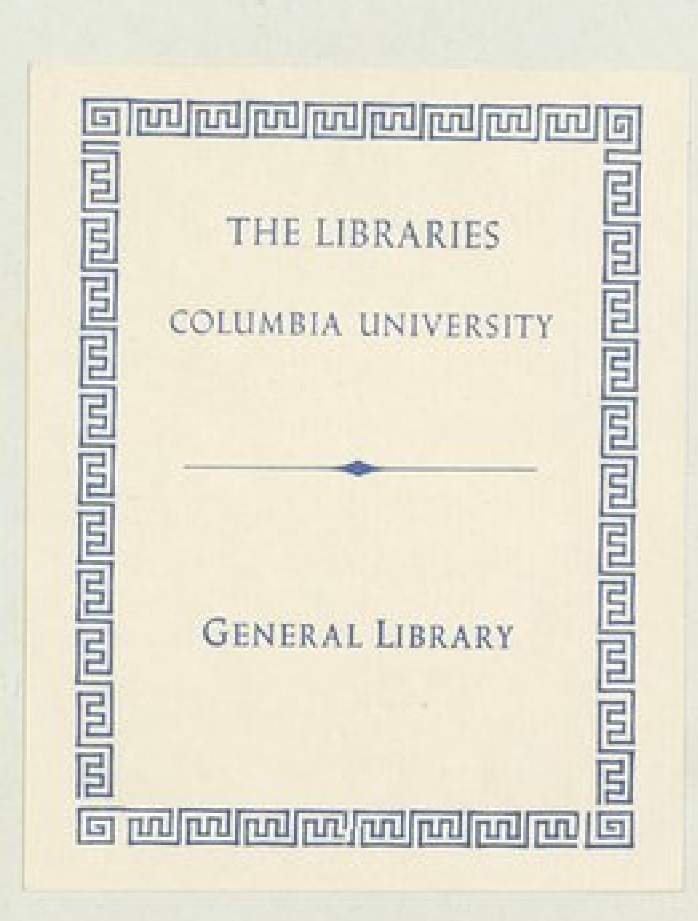
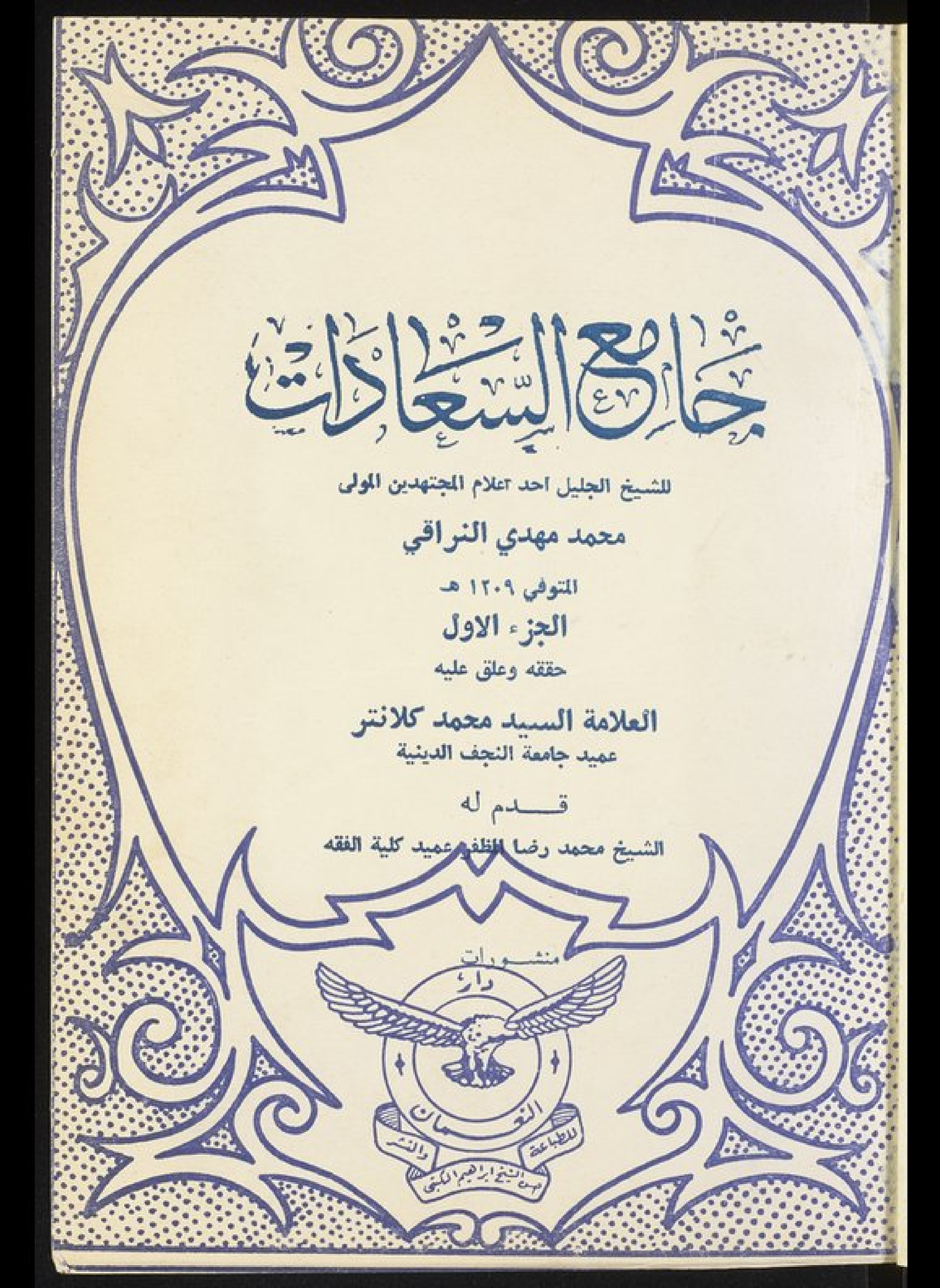



THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY
GENERAL LIBRARY



جامع السعادات

للشيخ الجليل احد اعلام المجتهدين المولى

محمد مهدي النراقي

المتوفي ١٢٠٩ هـ

الجزء الاول

حققه وعلق عليه

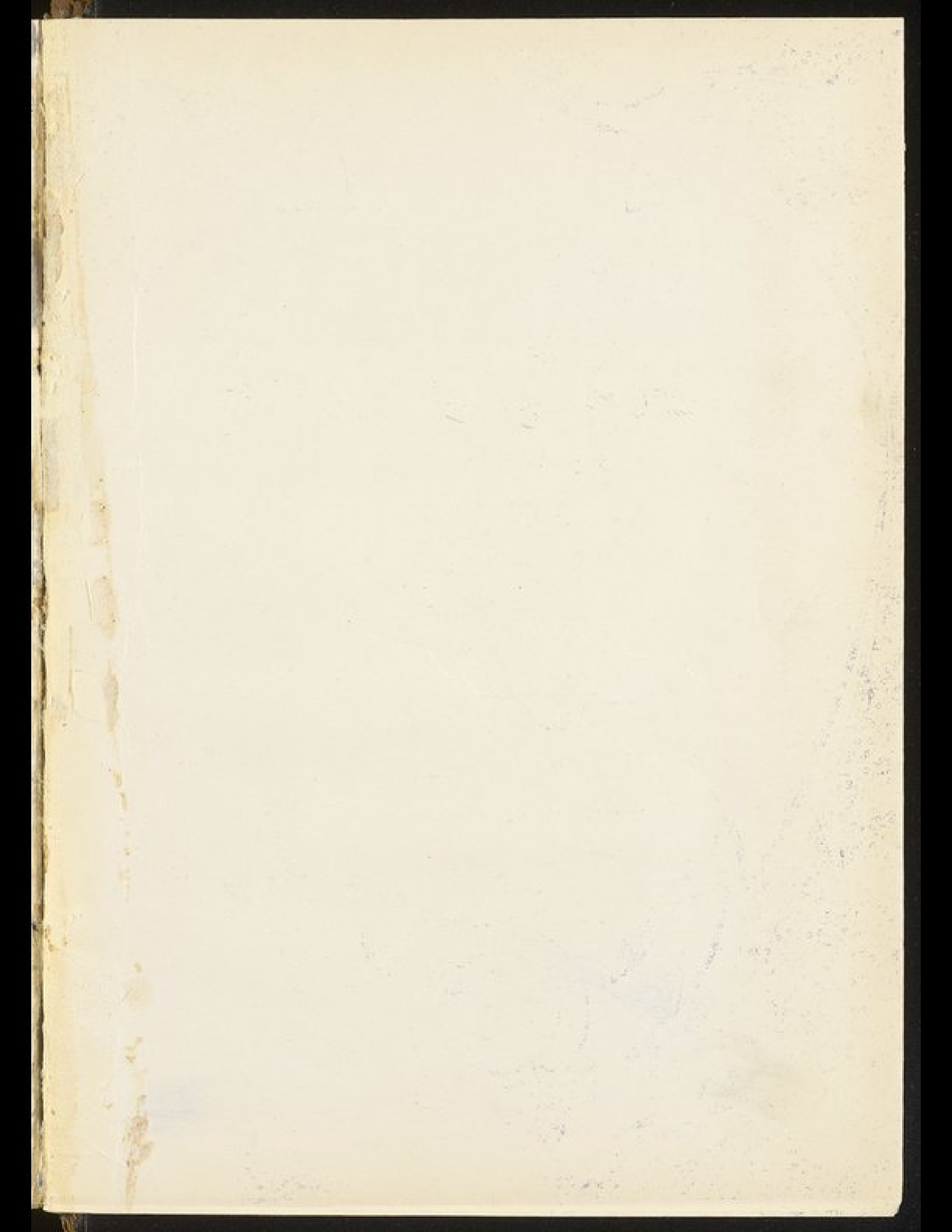
العلامة السيد محمد كلانتر

عميد جامعة النجف الدينية

قدم له

الشيخ محمد رضا المظفر عميد كلية الفقه

منشورات
دار النعمان للطباعة والنشر



جامع السعادات

للشيخ الجليل احد اعلام المجتهدين المولى

محمد مهدي النراقي

المتوفي ١٢٠٩ هـ

الجزء الاول

حققه وعلق عليه

العلامة السيد محمد كلانتر

عميد جامعة النجف الدينية

قـــدم له

الشيخ محمد رضا المظفر عميد كلية الفقه

منشورات





مطبعة النعمان ــ النجف الاشرف تلفون ٩٩٧

كلمة دار النعمان

بسم الله الرحمن الرحيم

« الحمد لله الذي هدانا لهـذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله » .

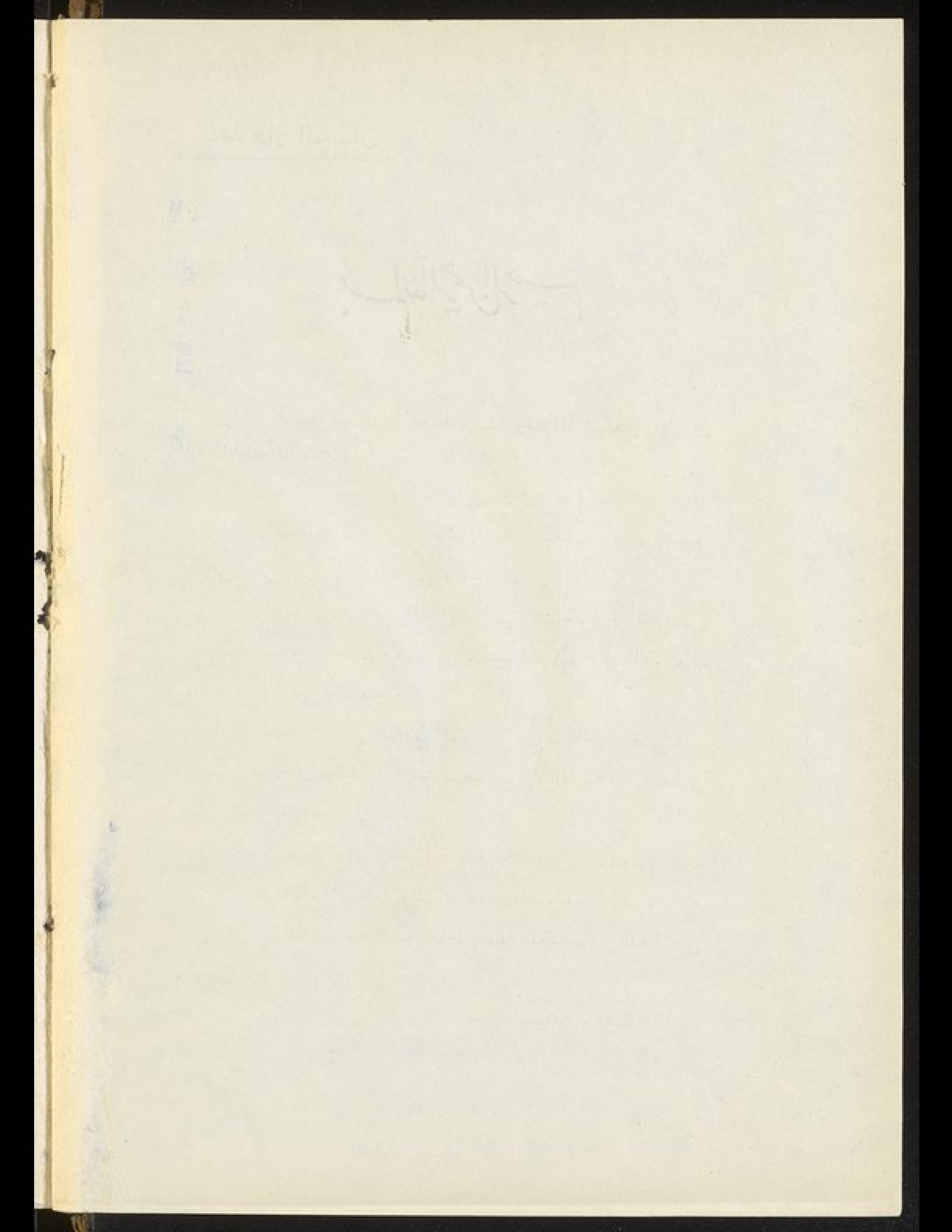
كانت دار النعمان وما تزال بين اونة وأخرى ، تقدم لقرائها الكرام وللمكتبة الاسلامية : كتباً قيمة ومفيدة ، بأثمان زهيدة، وهي ترمي من وراء ذلك الى غرضين مهمين :

احدهما : أخراج تراثنا الاسلامي القـديم أخراجا فنياً ، يرتضيه الذوق الحديث ويأنس به ، ليستطيع القراء من الاستفادة منه ويقبلوا على مطالعته .

وثانيهما : جعل الكتاب الاسلامي في متناول الجميـع ، بحيث يصبح فيحوزة اكبر عدد ضخم من القراء الكرام ،ويحصل عليه الغني والفقير على حد سواء .

وانا لنرجوا في هذه المرة بأخراجنا اجل كتاب من كتب الاخلاق ــ جامع السعادات ــ أن نكون قد وفقنا لما نصبوا اليه من نشر الثقافة الدينية الصحيحة ، خدمة للعقيدة ، وطلبا لرضى الخالق ، والله من وراء القصد .

حسن محمد ابراهيم الكتبي



بسم الله الرحمن الرحيم

حياة المؤلف

١١٢٨ ـ ١٢٠٩

هو الشيخ الجليل المولى (محمد مهدي بن ابي ذر النراقي) احد اعلام المجتهدين فى القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الهجرة ، ومن أصحاب التاليفات القيمة . ويكاد أن يعد فى الدرجة الثانية او الثالثة من مشاهير علماء القرنين .

وهو عصامي لايعرف عن والده (ابي ذر) الا انه كان موظفا فى الدولة الايرانية بوظيفة صغيرة فى قرية (نراق) ، ولولا ابنه هذا لذهب ذكره فى طيات التاريخ كملايين البشر من امثاله ، ولا يعلم ما اذا كان لشيخنا النراقي اخوة، ولكن له ولد نابه الذكر ، هو المولى احمد النراقي المتوفى ١٢٤٤ ، صاحب (مستند الشيعة) المشهور فى الفقه ، وصاحب التاليفات الثمينة ، احد اقطاب العلماء فى القرن الثالث عشر . وكفاه فخرا انه احد اساتذة الشيخ العظيم المولى مرتضى الانصاري المتوفى ١٢٨١ .

ولعل النراقي الصغير هذا هو من اهم اسباب شهرة والده وذيوع صيته، لما وطيء عقبه وناف عليه بدقة النظر وجودة التاليف . كما حذا حذوة في تاليفاته . فان الاب المكرم الف فى الفقه (معتمد الشيعة) ، والابن الجليل الف مستندها . وذاك الف فى الاخلاق (جامع السعادات) ـ هذا الكتاب الذي نقدمه ـ وهذا الف (معراج السعادة) فى الفارسية . وذاك الف (مشكلات العلوم) وهذا الف (الخزائن) ... وهكذا نسج على منواله واحكم النسج .

مولده ووفاته

ولد الشيخ المترجم له — رحمه الله تعالى — فى (نراق) كعراق (١) ، وهي قرية من قرى كاشان بايران ، تبعد عنها عشرة فراسخ . وكذا كانت مسقط راس ولده المتقدم الذكر. ولم يذكر التاريخ سنة ولادته ، وعلى التقريب يمكن استخراجها من بعض المقارنات التاريخية ، فانه تلمذ — فى اول نشأته على ما يظهر — على الشيخ المحقق الحكيم المولى اسماعيل الخاجوئي ثلاثين سنة، مع العلم ان استاذه هذا توفى عام ١١٧٣ ، فتكون اول تلمذته عليه عام ١١٤٣ على اقل تقدير ، اذا فرضنا انه لازمه الى حين وفاته . ولنفرض على اقرب تقدير انه قد حضر عليه وهو فى سن ١٥ عاما ، وعليه فتكون ولادته عام ١١٢٨ او قبل ذلك .

اما وفاته فقد كانت عام ١٢٠٩ فى النجف الاشرف ، ودفن فيها ، فيكون قد بقى بعد وفاة أستاذه الوحيد البهبهاني سنة واحدة ، ويكون عمره ٨١ عاما على الاقل .

وفى (رياض الجنة) المخطوط ، تاليف السيد حسن الزنوزي المعاصر للمترجم له — حسب نقل الاستاذ حسن النراقي — : ان عمره كان ٦٣ سنة ، فتكون ولادته سنة ١١٤٦ هـ . وهذا لايتفق ابدا مع ماهو معروف فى تأريخه: انه تلمذ على المولى اسماعيل الخاجوئي ثلاثين سنة ، لانه يكون عمره على حسب هذا التأريخ حين وفاة استاذه ٢٧ سنة فقط .

نشأته العلمية واساتذته

عاش شيخنا كما يعيش عشرات الآلاف من أمثاله من طلاب العلم : خامل الذكر ، فقير الحال ، منزويا فى مدرسته ، لايعرف من حاله الا انه طالب مهاجر ، ولا يتصل به الا اقرانه فى دروسه ، الذين لايهمهم من شانه الا انه طالب كسائر الطلاب ، يتردد فى حياة رتيبة بين غرفته ومجالس دروسه ، ثم بعد ذلك لاينكشف لهم من حاله الا بزته الرثة التي الفوا منظرها فى آلاف طلاب العلم ، فلا تثير اهتمامهم ولا اهتمام الناس .

---

(١) وفى أعيان الشيعة — ج ١٠ ص ٢٥٠ — : انها بفتح النون .

وبطبيعة الحال لايسجل له التاريخ شيئا فى هذه النشاة ، وكذلك كل طالب علم لايسجل حتى اسمه مالم يبلغ درجة يرجع اليه الطلاب فى تدريس ، او الناس فى تقليد ، او تكون له مؤلفات تشتهر . ومن هنا تبتديء معرفة حياة الرجل العالم ، وتظهر آثاره ويلمع اسمه .

ومع ذلك ، فانا نعرف عن شيخنا : ان اسبق اساتذته واكثرهم حضورا عنده هو المولى اسماعيل الخاجوئي المتقدم الذكر . وهذا الاستاذ كان مقره فى اصفهان ، وفيها توفى ودفن ، والظاهر انه لم ينتقل عنها حتى فى الكارثة التاريخية المفجعة التي اصابتها من الافغانيين الذين انتهكوها بما لم يحدث التاريخ عن مثلها ، وذلك سنة ١١٣٤ . فتكون نشاة شيخنا المترجم له العلمية فى مبدأ تحصيله فى اصفهان على هذا الشيخ الجليل . والظاهر انه عليه قرأ الفلسفة ؛ لان هذا الشيخ من اساتذة الفلسفة المعروفين الذين تنتهي تلمذتهم فى ذلك العصر الى المولى صدر الدين الشيرازي صاحب الاسفار . وكفى ان من تلاميذه المولى محراب ، الآلهي المعروف ، الذي طورد لقوله بوحدة الوجود ، ولما جاء الى احدى العتبات المقدسة متخفيا . وجد فى الحرم شيخا ناسكا يسبح بلعن ملا صدرا وملا محراب ، ولما ساله عن السبب فى لعنهما قال : لانهما يقولان (بوحدة واجب الوجود) ، فقال له ساخرا : انهما حقا يستحقان منك اللعن !

ودرس ايضا شيخنا المترجم له ـ والظاهر ان ذلك فى اصفهان ايضا ـ على العالمين الكبيرين : الشيخ محمد بن الحكيم العالم الحاج محمد زمان ، والشيخ محمد مهدي الهرندي . وهما من اساتذة الفلسفة على ما يظهر .

ولا شك انه انتقل الى كربلا والنجف ، فدرس على الاعلام الثلاثة : الوحيد البهبهاني الآتي ذكره ـ وهو آخر اساتذته واعظمهم ، وتخريجه كان على يديه ـ والفقيه العالم صاحب الحدائق الشيخ يوسف البحراني المتوفى ١١٨٦ ، والمحقق الجليل الشيخ مهدي الفتوني المتوفى ١١٨٣ .

فجملة اساتذته سبعة ، سماهم ولده فى بعض اجازاته على ما نقل عنه بـ (الكواكب السبعة) . وهم خيرة علماء ذلك العصر ، وعلى راسهم الآقا الوحيد استاذ الاساتذة .

ولما فرغ هذا الشيخ من التحصيل فى كربلا ، رجع الى بلاده واستقام فى كاشان . وهناك اسس له مركزا علميا تشد اليه الرحال ، بعد ان كانت كاشان مقفرة من العلم والعلماء ، واستمرت بعده على ذلك مركزا من مراكز العلم فى ايران ، وليس لدينا مايشير الى تأريخ انتقاله الى كاشان .

ورجع الى العراق ، وتوفى فى النجف الاشرف ودفن فيها . والظاهر ان مجيئه هذا — وكان معه ولده — بعد استاذه الوحيد ، جاء لزيارة المشاهد المقدسة فتوفى . اما ولده فقد بقى بعده ليدرس العلم على اعلامه يومئذ ، كبحر العلوم ، وكاشف الغطاء .

عصره

يمضي القرن الثاني عشر للهجرة على العتبات المقدسة فى العراق ، بل على اكثر المدن الشيعية فى ايران التي فيها مركز الدراسة الدينية العالية — كاصفهان وشيراز وخراسان — وتطغى فيه ظاهرتان غريبتان على السلوك الديني : الاولى: النزعة الصوفية التي جرت الى مغالاة فرقة الكشفية . والثانية : النزعة الاخبارية .

وهذه الاخيرة خاصة ظهرت فى ذلك القرن قوية مسيطرة على التفكير الدراسي ، وتدعو الى نفسها بصراحة لاهوادة فيها ، حتى ان الطالب الديني فى مدينة كربلا خاصة اصبح يجاهر بتطرفه وبغالي ، فلا يحمل مؤلفات العلماء الاصوليين الا بمنديل ، خشية ان تنجس يده من ملامسة حتى جلدها الجاف . وكربلا يومئذ اكبر مركز علمي للبلاد الشيعية .

وفى الحقيقة ان هذا القرن يمر والروح العلمية فاترة الى حد بعيد ، حتى انه بعد الشيخ المجلسي صاحب البحار المتوفى فى اول هذا القرن عام ١١١٠ ، لم تجد واحدا من الفقهاء الاصوليين من يلمع اسمه ويستحق ان يجعل فى الطبقة الاولى ، او تكون له الرئاسة العامة ، الا من ظهر فى اواخر القرن ، كالشيخ الفتوني الجليل فى النجف المتوفى ١١٨٣ ، ثم الشيخ آقا الوحيد البهبهاني فى كربلا المتوفى ١٨٠٢ ، الذي تم على يديه تحول العلم الى ناحية جديدة من التحقيق .

وهذا الفتور العلمي ، وطغيان نزعة التصوف من جهة ، ونزعة الاخبارية من جهة اخرى فى هذا القرن بالخصوص ، مما يدعو الى التفكير والعجب . وليس بايدينا من المصادر ما يكفي للجزم باسباب ذلك . واغلب الظن ان اهم الاسباب التي نستطيع الوثوق بها هو الوضع السياسي والاجتماعي اللذان آلت اليهما البلاد الاسلامية فى ذلك القرن ، من نحو التفكك واختلال الأمن فى جميع اطراف البلاد ، والحروب الطاحنة بين الامراء والدول ، لاسيما بين الحكومتين الايرانية والعثمانية وبين الايرانية والافغانية ، تلك الحروب التي اصطبغت على الاكثر بصبغة مذهبية . وهذا كله مما يسبب البلبلة فى الافكار والاتجاهات ، وضعف الروح العامة المعنوية .

فاوجب ذلك من جهة ضعف ارتباط رجال الدين بالحياة الواقعيةوالسلطات الزمنية . ويدعو ذلك عادة الى الزهد المغالي فى جميع شؤون الحياة ، واليأس من الاصلاح . فتنشا هنا نزعـة التصوف ، وتتخذ يومئذ صرحا علميا على انقاض الفلسفة الاشراقية الاسلامية المطاردة المكبوتة ، التي سبق ان دعا لها انصار اقوياء ، كالمولى صدرالدين الشيرازي المتوفى عام ١٠٥٠ واضرابه واتباعه، مع المغالاة فى افكارها . وساند طريقة التصوف مبدئيا ان السلطة الزمنية فى ايران — وهي (سلطة الصفويين) — قامت على اساس الدعوة الى التصوف ، وظلت تؤيدها وتمدها سرا .

ومن جهةاخرى يحدث رد فعل لهذا الغلو ، فينكر على الناس ان يركنوا الى العقل وتفكيره ، ويلتجا الى تفسير التعبد بما جاء به الشارع المقدس بمعنى الاقتصار على الاخبار الواردة فى الكتب الموثوق بها فى كل شيء ، والجمود على ظواهرها . ثم يدعو الغلو بهؤلاء الى ادعاء ان كل تلك الاخبار مقطوعة الصدور على ما فيها من اختلاف . ثم يشتد بهم الغلو ، فيقولون بعـدم الاخـذ بظواهر القرآن وحده ، من دون الرجوع الى الاخبار الواردة . ثم ضربوا بعد ذلك علم الاصول عرض الجدار ، بادعاء ان مبانيه كلها عقلية لاتستند الى الاخبار ، والعقل ابدا لايجوز الركون اليه فى كل شيء ، ثم ينكرون الاجتهاد وجواز التقليد . وهكذا تنشا فكرة الاخبارية الحديثة الى اول من دعا اليها او غالى فى الدعوة اليها المولى امين الدين الاسترابادي المتوفى ١٠٣٣ . ثم يظهر

آخر شخص لهذه النزعة لمكانته العلمية المحترمة فى الفقه هو صاحب الحدائق المتقدم ذكره . وهذا الثاني — وان كان اكثر اعتدالا من الاول واضرابه — كاد أن يتم على يديه تحول الاتجاه الفكري بين طلاب العلم فى كربلا الى اعتناق فكرة الاخبارية هذه .

وعندما وصلت هذه الفكرة الاخبارية الى اوجها ، ظهر فى كربلاء علم الاعلام الشيخ الوحيد الآقا البهبهاني ، الذي قيل عنه بحق : مجدد المذهب على راس المائة الثالثة عشرة . فان هذا العالم الجليل كان لبقا مفوها ومجاهدا خبيرا ، فقد شن على الاخبارية هجوما عنيفا بمؤلفاته ، وبمحاججاته الشفوية الحادة مع علمائها — وقد نقل فى بعض فوائده الحائرية ورسائله نماذج منها — وبدروسه القيمة التي كان يلقيها على تلامذته الكثيرين الذين التفوا حوله ، وعلى يديه كان ابتداء تطور علم الاصول الحديث ، وخروجه عن جموده الذي الفه عدة قرون ، واتجه التفكير العلمي الى ناحية جديدة غير مالوفة .

فانكمشت فى عصره النزعة الاخبارية على نفسها ، ولم تستطع ان تثبت امام قوة حجته . وتخرج على يديه جماعة كبيرة من اعلام الامة ، كبحر العلوم ، وكاشف الغطاء ، والمحقق القمي ، والشيخ النراقي — المترجم له — واشباههم .

فيبرز شيخنا المترجم له فى عنفوان المعركة الاخبارية والاصولية ، وساحتها كربلا ، وفى عنفوان معركة الدعوة الى التصوف ، وساحتها اصفهان على الاكثر ، فيكون أحد أبطال هاتين المعركتين ، بل أحد القواد الذين رفعوا راية الجهاد بمؤلفاته وتدريسه ، وساعده على ذلك انه — رحمه الله — كان متفننا فى دراسة العلوم ، ولم يقتصر على الفقه والاصول ومقدماتهما ، فقد شارك العلوم الرياضية كالهندسة والحساب والهيئة ، وله مؤلفات فيها سياتي ذكرها . كما درس الفلسفة ، ويظهر اثر تضلعه فى الفلسفة فى كتابه هذا (جامع السعادات) ، لاسيما فى الباب الاول ، وفى تقسيمه لابواب الكتاب وفصوله على اساس علمي متقن برّز فيه على كتب الاخلاق السابقة عليه من هذه الناحية . وسياتي بيان ذلك .

كما أن تأليفه لهذا الكتاب يشعرنا بأمرين :

(الاول) طغيان التصوف من جهة ، وطغيان التفكك الاخلاقي عند العامة

من جهة اخرى ، وانهما هما اللذان الجاه الى ان يرشد الناس الى الاعتدال فى السلوك الاخلاقي المستقى من منابعه الشرعية ، فانه فى الوقت الذي يبنى كتابه على مبادىء الفلسفة الاشراقية ، حارب فيه من طرف خفي نزعة التصوف ، وجعل آراءه ودعوته الى الاخلاق على اساس الذوق الاسلامي الذي يتمثل فى الاحاديث النبوية وما جاء عن آل البيت — عليهم السلام — ، فهو فى وقت واحد هادم وبان ، وبهذا يختلف كتابه عن مثل (احياء العلوم) الذي يعتمد بالدرجة الاولى على الروح الصوفية ، وهي غايته المثلى .

و (الثاني) من الامرين حسن اختيار صاحب الترجمة ، فانه لم يسبقه احد من علماء الامامية — بعد خرّيت هذه الصناعة ابن مسكويه المتوفى ٤٢١ ، والشيخ المولى محسن الفيض المتوفى ١٠٩١ — الى تأليف كتاب كامل فى الاخلاق مبنى على اساس علمي فلسفي موجود بين ايدينا .

شخصية المترجم له واخلاقه

ان اعاظم الناس ونوابغهم لا تأتيهم العظمة والنبوغ عفوا ومصادفة ، من دون قوة كامنة فى شخصيتهم او ملكة راسخة فى نفوسهم ، هي سر عظمتهم وتفوقهم على سائر الناس . وما كلمة الحظ فى هذا الباب الا تعبير مبهم عن تلك القوة التي اودعها الله تعالى فى شخص النابغة . وقد تكون تلك القوة مجهولة حتى لشخص صاحبها الذي يتحلى بها ، بل على الاكثر هي كذلك ، فيندفع العبقري الى تلك القمة التي خلقت له او خلق لها بدافع تلك القوة الكامنة اندفاعا لاشعوريا ، وان كانت اعماله الجزئية التي يقوم بها هي شعورية بمحض اختياره .

وتلاحظ قوة شخصية شيخنا المترجم له فى صبره وقوة ارادته وتفانيه فى طلب العلم ، ثم عزة نفسه ، وان كانت هذه الفاظا عامة قد يعبر بها عن كثير من الناس ، ويصح التعبير بها بلا كذب ولا خداع ، الا أن الدرجة الخاصة من الصبر والارادة والحب والعزة ونحوها التي بها يمتاز الشخص النابغ تضيق اللغة عن التعبير عنها بخصوصها الا بهذه الألفاظ العامة الدارجة وتظهر الدرجة الخاصة التي يختص بها صاحبنا من هذه الأمور فى ثلاث حوادث منقولة عنه :

(الاولى) — فيما ينقل انه كان فى ايام التحصيل فى غاية الفقر والفاقة — والفقر دائما شيمة العلماء ، بل هو من اول شروط النبوغ فى العلم ، وهو الذي يصقل النفس فيظهر جوهرها الحقيقي — فكان صاحبنا قدتشتدبه الفاقة فيعجز عن تدبير ثمن السراج الذي لايتجاوز فى عصره عن ان يكون من زيت او شمع ، فيدعوه حرصه على العلم الى الدخول فى بيوت مراحيض المدرسة ، ليطالع على سراجها ، ولكنه تأبى عزته ان يدع غيره يشعر بما هو فيه ، فيوهم الداخلين — بالتنحنح — انه جالس للحاجة الخاصة . وتتجلى فى هذه الحادثة الصغيرة عزة نفسه وقوة ارادته وصبره على طلب العلم بدرجة غير اعتيادية الا للنوابغ الافذاذ .

(الحادثة الثانية) — ان احد الكسبة الذي كان حانوته فى طريق المدرسه بكاشان التي كان يسكنها هذا الطالب النراقي ، ان هذا الكاسب المؤمن لاحظ على هذا الطالب انه رث الثياب ، وكان معجبا به ، اذ كان يشتري منه بعض الحاجيات كسائر الطلاب ، فرأى ان يكسيه تقربا الى الله ، فهيأ له ملبوسا يليق بشأنه ، وقدمه له عندما اجتاز عليه ، فقبله بالحاح . ولكن هذا الطالب الابي فى اليوم الثاني رجع الى رفيقه الكاسب وارجع له هذا الملبوس قائلا : اني لما لبسته لاحظت على نفسي ضعة لا اطيقها ، لاسيما حينما اجتاز عليك ، فلم اجد نفسي تتحمل هذا الشعور المؤلم ، والقاه عليه ومضى معتزا بكرامته .

(الحادثة الثالثة) — فيماينقل عنه ايضا — وهي اهم من الاولى والثانية — انه كان لايفض الكتب الواردة اليه ، بل يطرحها تحت فراشه مختومة ، لئلا يقرا فيها ما يشغل باله عن طلب العلم . والصبر على هذا الامر يتطلب قوة ارادة عظيمة ليست اعتيادية لسائر البشر . ويتفق ان يقتل والده (ابو ذر) المقيم فى نراق وطنه الاصلي ، وهو يومئذ فى اصفهان ، يحضر على استاذه الجليل المولى اسماعيل الخاجوئي ، فكتبوا اليه من هناك بالنبأ ليحضر الى نراق ، لتصفية التركة وقسمة المواريث وشؤون اخرى ، ولكنه على عادته لم يفض هذا الكتاب ، ولم يعلم بكل ما جرى . ولما طالت المدة على من فى نراق ، كتبوا له مرة اخرى ، ولكن لم يجبهم ايضا . ولما ايئسوا منه كتبوا بالواقعة الى استاذه المذكور ليخبره بالنبأ ويحمله على المجيء . والاستاذ فى دوره —

ملى عادة الناس ـ خشى ان يفاجئه بالنبأ ، وعندما حضر مجلس درسه اظهر له ـ تمهيدا لاخباره ـ الحزن والكآبة ، ثم ذكر له : ان والده مجروح، ورجح له الذهاب الى بلاده . ولكن هذا الولد الصلب القوي الشكيمة لم تلن قناته، ولم يزد أن دعا لوالده بالعافية ، طالبا من استاذه ان يعفيه من الذهاب . وعندئذ اضطر الاستاذ الى ان يصرح له بالواقع ، ولكن الولد ايضا لم يعبأ بالامر ، واصر على البقاء لتحصيل العلم . الا ان الاستاذ هذه المرة لم يجد بدآ من ان يفرض عليه السفر ، فسافر امتثالا لأمره المطاع ، ولم يمكث فى نراق اكثر من ثلاثة ايام ، على بعد الشقة وزيادة المشقة ، ثم رجع الى دار هجرته . وهذه الحادثة لها مغزاها العميق فى فهم نفسية هذا العالم الآلهي ، وتدل على استهانته بالمال وجميع شؤون الحياة فى سبيل طلب العلم .

مؤلفاتـــه

لشيخنا المترجم له عدة مؤلفات نافعة ، تدل على قابلية فى التاليف وصبر على البحث والتتبع ، وعلى علم غزير . ونحن نعد منها ما وصل بحثنا اليه ، واكثر اعتمادنا فى تعدادها وبعض أوصافها على كتاب (رياض الجنة) المذكور فى مصادر هذه الطبعة :

(فى الفقه) :

١ ـ (لوامع الاحكام فى فقه شريعة الاسلام) : وهو كتـاب استدلالي مبسوط ، وقد خرج منه كتاب الطهارة فى مجلدين يقرب من (٣٠) الف بيت.

٢ ـ (معتمد الشيعة فى احكام الشريعة) : هو اتم استدلالا واخصر تعبيرا من كتاب اللوامع السالف الذكر ، خرج منه كتاب الطهارة ونبذ من الصلاة والحج والتجارة والقضاء . قال فى الروضات عن الكتابين : « ينقل عنهما ولده المحقق فى المستند والعوائد كثيرا » .

٣ ـ (التحفة الرضوية فى المسائل الدينية) : فى الطهارة والصلاة فارسى، يقرب من (١٠) آلاف بيت .

٤ ـ (انيس التجار) : فى المعاملات ،فارسى ، يقرب من (٨) آلاف بيت.

٥ ـ (انيس الحجاج) : فى مسائل الحج والزيارات ، فارسي ، يقرب

من (٤) آلاف بيت .

٦ ـ (المناسك المكية) : فى مسائل الحج ايضا ، يقرب من الف بيت .

٧ ـ (رسالة صلاة الجمعة) : ذكرها وما قبلها حفيده (الاستاذ حسن النراقي) فى رسالته لنا .

(فى اصول الفقه) :

٨ ـ (تجريد الاصول) : مشتمل على جميع مسائل الاصول مع اختصاره، يقرب من (٣) آلاف بيت . قال عنه فى الروضات : « شرحه ولده فى مجلدات غفيرة جمة » .

٩ ـ (انيس المجتهدين) : توجد منه نسخة مخطوطة فى مكتبة الامام امير المؤمنين (ع) العامة بالنجف الاشرف (برقم ٤٠٨ ـ سجل المخطوطات)، تقع فى ٤١١ صفحة ، بخط محمد حسين بن علي نقي البزاز ، فرغ منها بتاريخ ٣ صفر من سنة ١١٨١ . وفى تقدير رياض الجنة يقرب من (١٠) آلاف بيت.

١٠ ـ (جامعة الاصول) : يقرب من (٥) آلاف بيت .

١١ ـ) رسالة فى الاجماع (: يقرب من (٣) آلاف بيت .

(فى الحكمة والكلام) :

١٢ ـ (جامع الافكار) : فى الآلهيات ، يقرب من (٣٠) الف بيت ، قد فرغ من تاليفه سنة ١١٩٣ ، وعليه فليس هو من أوائل مؤلفاته ، كما قال عنه صاحب (رياض الجنة) ، وستجد راموزا للصفحتين الاولى والاخيرة منه بخط المؤلف ، منقولتين عن النسخة التي هي بحوزة احد احفاده (الاستاذ حسن النراقي) . والذي يجلب الانتباه فى الصفحة الاخيرة ما ذكره من الحوادث المروعة فى الوباء وغيره التي وقعت فى تلك الفترة .

١٣ ـ (قرة العيون) : فى احكام الوجود والماهية ، يقرب من (٥) آلاف بيت .

١٤ ـ (اللمعات العرشية) : فى حكمة الاشراق ، يقرب من (٢٥) الف بيت .

١٥ ـ (اللمعة) : وهو مختصر اللمعات ، تقرب من الفي بيت .

١٦ ـ (الكلمات الوجيزة) : وهو مختصر اللمعة ، يقرب من ثمانمائة بيت.

١٧ ـ (انيس الحكماء) : فى المعقول ، وهو من اواخر تاليفاته ، لم يتم. احتوى على نبذ من الامور العامة والطبيعيات ، يقرب من (٤) آلاف بيت .

١٨ ـ (أنيس الموحدين) : فى اصول الدين ، فارسي ، يقرب من (٤) آلاف بيت .

١٩ ـ (شرح الشفا) : فى الآلهيات ، النسخة الاصلية بخط المؤلف موجودة عند احد احفاده (الاستاذ حسن النراقي) .

٢٠ ـ (الشهاب الثاقب) : فى الامامة ، فى رد رسالة الفاضل البخاري ، يقرب من (٥) آلاف بيت .

(فى الرياضيات) :

٢١ ـ (المستقصى) : فى علوم الهيئة ، خرج منه مجلدان الى مبحث اسناد الحركات ، يقرب من (٤٠) الف بيت ، قال عنه فى رياض الجنة : « لم يعمل ابسط وادق منه فى علم الهيئة ، ولقد طبق فيه اكثر البراهين الهندسية بالدلائل العقلية ، لم يتم » .

٢٢ ـ (المحصل) : كتاب مختصر فى علم الهيئة ، يقرب من (٥) آلاف بيت .

٢٣ ـ (توضيح الاشكال) : فى شرح تحرير اقليدس الصوري فى الهندسة، وقد شرحه الى المقالة السابعة ، فارسي ، يقرب من (١٦) الف بيت .

٢٤ ـ (شرح تحرير اكرثا ذو سنيوس) يقرب من (٣) آلاف بيت .

٢٥ ـ (رسالة فى علم عقود الانامل) : فارسية ، تقرب من الف بيت .

٢٦ ـ (رسالة فى الحساب) : ذكرها فى روضات الجنات .

(فى الاخلاق والمواعظ) :

٢٧ ـ (جامع السعادات) : هذا المطبوع بثلاثة اجزاء ـ حسب تقسيمنا له ـ قال عنه فى رياض الجنة : « يقرب من (٢٥) الف بيت » . وقد طبع فى ايران على الحجر سنة ١٣١٢ بجزءين ، وسيأتي وصفه ، وقد تقدم شيء من وصفه . وهذه الطبعة الثالثة له على الحروف بالنجف الاشرف .

٢٨ ـ (جامع المواعظ) : فى الوعظ ، يقرب من (٤٠) الف بيت ، لم يتم

فى المتفرقات :

٢٩ ـ (محرق القلوب) : فى مصائب آل البيت ، فارسي ، يقرب من (١٨) الف بيت ، قال عنه فى روضات الجنات : « طريف الاسلوب » .

٣٠ ـ (مشكلات العلوم) : فى المسائل المشكلة من علوم شتى ، مطبوع على الحجر بايران ، يشبه بعض الشيء كشكول البهائي . وقد نسج على منواله ولده المحقق فى كتابه (الخزائن) المطبوع على الحجر بايران .

٣١ ـ (رسالة نخبة البيان) : ذكرها حفيده الاستاذ حسن النراقي .

٣٢ ـ (معراج السماء) : ذكره ايضا حفيده المذكور .

جامع السعادات وعلم الاخلاق

لاشك ان القدرة على التاليف موهبة من الله تعالى فوق موهبة العلم والفهم ، وليس كل من كان عالما استطاع التاليف .

والتاليف فى حد ذاته من ابرز الخدمات التي يؤديها العالم للناس فى حياته ، ومن اعظم الحظوظ للانسانية ، وبسببه استطاعت ان تتقدم على مرور الاجيال . ومع ذلك ليس كل تاليف يعد خدمة للناس وحظا للانسانية .

واذا أردنا ان نضع المؤلفات فى رفوف حسب قيمتها ، فانما فى فترات متقطعة تظهر مؤلفات من النوابغ يصح ان نضعها فى الرف الاعلى ، ويصدق عليها بحق انها مما ينفع الناس ، فتمكث فى الارض ، وتفرض نفسها للخلود والبقاء اذا سلمت من عوادي الدهر الغاشمة . ومن سوء الحظ ان الفراغ لا يزال كثيرا فى هذا الرف الاعلى .

ومن بين الفترات لابد ان تبرز فى كل علم من المؤلفات هي من حقها ان توضع فى الرف الثاني او ما دونه . وحظها ان تنسج على منوال غيرها لتحييها وتهيئ انتهاء الفترة لظهور الاثر الخالد مما يوضع فى الرف الاعلى . وهذه غير الغثاء الذي يذهب جفاء ، ومن حقه ان يلقى فى سلة المهملات . وما اكثر هذا النوع الرخيص ، لاسيما فى عصرنا الحاضر الذي سهلت له الطباعة الاسفاف .

ويجب الا نغالي فى مؤلفات شيخنا النراقي فنضعها فى الرف الاعلى ؛ ولكن (جامع السعادات) الذي نقدمه ، هو بالخصوص من الآثار الخالدة ، وان لم يكن موضعه هذا الرف الاعلى كسائر الكتب الاخلاقية فى الدورة الاسلامية .

ولا ندري السر فى ذلك ، الأن الفترة بعد لم تنته لعلم الاخلاق بخصوصه كيما يظهر الاثر الخالد المنتظر الذي سيكون فى الرف الاعلى ، ام لان هذا العلم ليس له تلك الفترات ، بل كله فى فترة مستديمة ليأس العلماء الاخلاقيين من التأثير على الناس بمجرد التاليف ؟ !

وهذا الثاني هو الاقرب الى الواقع . والحق مع الاخلاقيين فى يأسهم ، فان الاخلاق لاتكتسب بالتعلم وقراءة الكتب ، وانما هي صفات وملكات لاتحصل للانسان الا بالتمرينات القاسية والتربية الطويلة ، لاسيما فى ايام الطفولة وفى السن المبكرة قبل ان يفرض فى الانسان ان يكون اهلا للقراءة ، ولو كانت قراءة الكتب وحدها كافية لخلق الفضيلة فى النفس او تنميتها لكانت كتب الاخلاق من أثمن ما خلق الله ، ولاغنى البشرية كتاب واحد يفي بذكر الاخلاق الفاضلة ، بل لاكتفينا بالقرآن الكريم وحده ، او بنهج البلاغة بعده الذي تريد خطبه ومواعظه ان تصهر الناس فى بوتقتها الملتهبة لتخرجهم أبريزا صافيا كصاحبها ، ولكن البشرية الظالمة لنفسها بدل ان تنصهر بهذا اللهب تخبو جذوتها وتزيد جمودا على مساوئها .

وليس هذا الراي عن الكتب الاخلاقية فيه شيء من المغالاة على مااعتقد، الا اني مع ذلك لا اظلم بعض زمرة صالحة من اهل الفتوة وارباب القلوب الحية، اذ نجدهم يتاثرون بالكلمة الاخلاقية الموجهة اليهم ممن يعول على قوله ، ويتتبعون باخلاص مجهودات المؤلفين فى الاخلاق ، ليترسموا خطاهم فيهذبوا انفسهم .

ومن هنا نجد السبيل الى انصاف الاخلاقيين واعطاء مؤلفاتهم حقها من التقدير ، لنعتقد انهم لم يعملوا عملا باطلا لانفع فيه ، بل الحق ان له قيمته العظيمة ، وكفى ان يتاثر بدعوتهم بعض فتيان كرام بررة . وهذا التاثر على قلته له قيمة معنوية لاتوازن بشيء فى الدنيا ، بل سير الحياة وتقدمها يتوقف مبدئيا على هذا التاثر ، وان كان محدودا . وما التقدم الاجتماعي الذي يحصل فى امة فى بعض الفترات من الزمن الا نتيجة من نتائج هذا التاثر المحدود .

ومع ذلك ، فان تاثير الدعوة الاخلاقية هذا التأثير المحدود لا يأتي من مجرد شحن الكتاب بالنظريات الاخلاقية المجردة . بل لروحية المؤلف اعظم الاثر فى اجتذاب قلوب الفتيان الكرام الى الخير . ومن هنا أشترطوا فى الواعظ

ان يكون متعظا .

وعلى هذا الاساس ينبغي ان توضع كتب الاخلاق فى رفوفها ، فليس للنظريات الفلسفية ورصانة التاليف وتركيزه على المباديء العلمية ـ فى نظر ارباب القلوب ـ تلك الاهمية الاخلاقية التي تعلق عليها ، ولا تقاس بالاثر الاخلاقي الذي يحصل من روحية المؤلف ومقدار تاثره هو باقواله ، وما كانت شهرة (مجموعة ورام) ، وما كانت اهميتها الا لأنها ناشئة من قلب صادق ، ذلك قلب الامير الزاهد الألهي (الشيخ ورام ابن ابي فراس المالكي الاشتري) ، وليس فيها صفة علمية أو فنية تقضى بهذا الاهتمام . ومن العجيب أن قلب الرجل الاخلاقي يبرز ظاهرا على قلمه فى مؤلفاته ، فتلمسه فى ثنايا كلماته . وبالعكس ذلك الذي لاقلب له ، فانك لاتقرأ منه الا كلاما جافا لاروح فيه ، مهما بلغت قيمته فى حساب النظريات الفلسفية .

وفى نظري ان قيمة (جامع السعادات) فى الروح المؤمنة التي تقراها فى ثناياه أكثر بكثير من قيمته العلمية . واني لاتحدى قاريء هذا الكتاب اذا كان مستعدا للخير ان يخرج منه غير متأثر بدعوته ، وهذا هو السر فى اقبال الناس عليه وفى شهرته ، على انه لايزيد من ناحية علمية على بعض الكتب المتداولة التي لانجد فيها هذا الذوق والروحانية . والكتاب نفسه يكشف لنا عن نفسية المؤلف ، وما كان عليه من خلق عال وايمان صادق .

واني لأؤمن ايمانا لايقبل الشك : ان انتشار هذا الكتاب بين الناس فى هذا العصر سيكون له اثره المحسوس فى توجيه امتنا نحو الخير ، بعد ان نفدت طبعته الاولى وعزت نسخته ، ولا سيما ان خطباء المنابر ـ فيما اعتقد ـ سيكون لهم الحصة الوافرة فى التاثر به ونقل تاثرهم الى سواد الامة الذين هم المعول عليهم فى نهضتنا الاخلاقية المقبلة .

وهذا ما دفعني ـ والله هو الشاهد عليَّ ـ الى السهر على تصحيح الكتاب وتدقيقه ، ليخرج بهذه الحلة ، وان كانت ظروفى الخاصة كادت ان تحول دون التفرغ له ، لولا اني توكلت على الله تعالى ووطنت على تجاهلها واهمال كثير مما يجب العناية به ، والحمد لله على توفيقه .

النواحي الفنية في الكتاب

من اهم ما يؤاخذ به كتابنا هذا ، اعتماده على المراسيل في الاحاديث ، وتسجيل كل ما يرى امامه من المنقولات : غثها وسمينها ، من دون اشارة الى التمييز ولا الى المصادر ، حتى نقل كثيرا عن احياء العلوم ، وتعمد النقل عن مثل جامع الاخبار ومصباح الشريعة ، اللذين يشهد اسلوبهما على وضع اكثر ما فيهما . وقد وجدنا صعوبة كبيرة في العثور على جملة من مصادر هذه المنقولات لتصحيحها . وقد يستغرق البحث للعثور على مصدر خبر واحد اياما كما قد يذهب البحث سدى . وما كان يهمنا من الرجوع الى المصادر الا تصحيح المنقولات لا اثبات مصادرها ، فلذلك لانشير في الحاشية الى المصدر الا اذا وجدنا اختلافا في نصه في النسخ ، فنقول: صححناه على كذا مصدر . وبهذه المناسبة لابد من الاعتراف بالجميل ، فنذكر الاستاذ الفاضل السيد عبدالرزاق المقرم بالشكر لما اعاننا عليه من الفحص عن بعض الروايات .

والذي يهوّن الخطب في هذه المؤاخذة — على ان لها قيمتها الفنية — انها لاتختص بهذا الكتاب وحده من بين كتب الاخلاق الاسلامية ، بل هذا ديدنها ، وكأن هم اصحابها من الاستشهاد بالمنقولات نفس اداء الفكرة ، فاذا كانت بحسب نظرهم صحيحة مقبولة في نفسها فلا يجب عندهم ان يكون الحديث الذي يتضمنها صحيحا مقبولا في عرف أهل الحديث ، فاذا قال المحدث : « قال النبي والامام كذا » ، يعني بذلك ان هذا القول ثابت بالنقل الصحيح الموثوق به ، والا فيقول « روى عنه كذا » او ما يشبه ذلك ، اما الاخلاقي فلا يعنى بذلك القول الا انه مروى عنه بأي طريق كان .

ولعل لهذا التسامح عذرا مقبولا في مذهبهم على ماقدمنا ، لو لم تكن فيه اساءة الى امانة النقل في اهم تراث اسلامي ديني ، في حين كان من الممكن تحاشيها بقليل من التحقيق والبحث ، على ان في الثابت الصحيح عن آل البيت — عليهم السلام — ما فيه الكفاية للالمام بنواحي الاخلاق المطلوبة ، (واق الكاق) كاف وحده في هذا الباب . وكنا نتمنى — اثناء التصحيح — على صاحب كتابنا هذا الا يتبع هذه العادة عند الاخلاقيين ، فيزيد على فائدته الاخلاقية فائدة اخرى في تحقيق الاحاديث الصحيحة .

اما اسلوب الكتاب الادبي ، فهو يمثل الى حد ما عصره الذي ضعفت فيه اللغة الى حد كبير ، بالرغم على ان الفلاسفة الاشراقيين اشتهروا فى تلك العصور بحسن البيان وقوة الاسلوب ، لاسيما فى العصر السابق على عصر المؤلف ، كالسيد الداماد العظيم المتوفى ١٠٤١ ، وتلميذه النابغة الجليل المولى صدرا المتقدم ذكره ، حتى كان يسمى الاول : امير البيان ، ولعل الثاني احق بهذا اللقب . غير ان صاحبنا لايحسب فى عداد الفلاسفة وان ارتشف من منهلهم. على انه كان يقتبس كثيرا نص عبارات غيره استراحة اليها . وهذه سنة مستساغة عند المؤلفين الاخلاقيين ، وكأن كتبهم يجدونها مشاعة بين الجميع ؛ أو لأن همهم اداء الفكرة كما كان عذرهم فى مراسيل الاحاديث .

وبهذه المناسبة نقول : انا وجدنا اثناء تصحيح الكتاب كثيرا من الالفاظ والعبارات مما لم نجد له مسوغا من اللغة العربية ، ككلمة (القادسة) و (الهلاكة) ، ففضلنا ان نبقيها على ما وجدناها ، حرصا على امانة النقل واهملنا التنبيه عليها ، ومثل كلمة (سيما) فضلنا ان نصححها ونضع كلمة (لا) بين قوسين اشارة الى زيادتها منا .

واذا كانت امانة النقل هي العذر لنا فى ذلك ، فهي التي تقضي علينا ان نصرح ان عناوين الكتاب على الاكثر هي من وضعنا لا من وضع المؤلف .

واما اسلوبه العلمي ، فقد بناه مؤلفه من أوله الى آخره على نظرية الوسط والاطراف فى الاخلاق ، تلك النظرية الموروثة من الفلسفة اليونانية . وقد بحث عنها المؤلف فى (الجزء الاول ص ٥٩) . وليس من حقنا ان نناقشها ، ولا يمتاز بها هذا الكتاب وحده ، فان شانه فى الاعتماد على هذه النظرية الاساسية شان سائر كتب الاخلاق الاسلامية العلمية .

ولكن الذي امتاز به كتابنا — بعد ان بحث مؤلفه بحثا فلسفيا متوسطا عن النفس وقواها ، والخير والسعادة ، والفضائل والرذائل ، فى البابين الاول والثاني ، كما صنع اسلافه — ان جعل اساس تقسيمه للكتاب على القوى الثلاث : العاقلة والشهوية والغضبية ، معللا ذلك بأن « جميع الفضائل والرذائل لاتخرج عن التعلق بالقوى الثلاث » (١ / ٦٦) . وذكر لكل قوة ما يتعلق بها من اجناس الفضائل والرذائل منفردة ومنضمة الى الاخرى ، ثم ذكر

انواعها ، واستقصى ذكر الانواع ، مطبقا على كل نوع نظرية الوسط والاطراف، فجاء فى استقصائه والحاقه كل فضيلة ورذيلة بالقوة التي تتعلق بها ، بما لم يجيء به غيره ولم يسبقه اليه احد فيما نعلم ، وهو نفسه ادعى ذلك فقال : « ان احصاء الفضائل والرذائل وضبطهما ، وادخال البعض فى البعض ، والاشارة الى القوة الموجبة لها على ما فصلناه ، مما لم يتعرض له علماء الاخلاق » (١ / ٧١) .

وهذه اهم ناحية فنية فى الكتاب ، وفتح جديد فى تحقيق منشأ حدوث خلق الفضيلة والرذيلة ، لو اتفق لغيره ان يترسم خطاه ، ويتم مافتحه من هذا الباب من التحقيق ، لتقدم على يديه علم الاخلاق تقدما كبيرا . وعلى اساس تحقيقه هذا اسقط فضيلة العدالة من حسابه ، فلم يجعلها جنسا مقابلا لاجناس الفضائل الثلاث الاخرى ، وهي الحكمة والعفة والشجاعة ، باعتبار ان العدالة جامعة لجميع الكمالات بأسرها ، لا انها فى مقابلها . وقد فصل هذا الراي فى الباب الثاني ، ولا اظن احدا يقره عليه ، ولا يثبت امام النقد . ولكن هذه المقدمة تضيق عن مثل هذه الابحاث الدقيقة ، كما تضيق عن مقارنة هذا التاليف بالمؤلفات الاخلاقية الاخرى . وقصدنا ان هذا التقسيم من المؤلف ، وارجاع الفضائل والرذائل الى اسبابها ، وجعل مواضيع الابحاث هي تلك القوى ، واحصاء انواع الاخلاق بنوعيها ولوازمها ، كل ذلك مستجد ، وهي طريقة علمية امتاز بها الكتاب .

تصحيح الكتاب ومراجعه

وعدت الاخ الفاضل الالمعي السيد محمد كلانتر ، ناشر الكتاب وملتزمه تصحيحا وتعليقا ــ جزاه الله خير ما يجزي العاملين ــ : على الاشتراك معه واعانته على تدقيق وتحقيق هذا السفر الجليل وتصحيحه ايضا عند الطبع ، اذا توفق لتهيئة ما يلزم لطبعه ، وذلك قبل سنتين . وشاء التوفيق ان يحقق هذه الامنية ، فلم اجد للتخلي عن الوفاء بالوعد سبيلا مهما كلفني الامر .

ويعجبني من هذا الرجل صبره وجلده على المشاق فى سبيل نشره ، باعتباره احد الكتب التي يجب احياؤها فى هذا العصر . وهذا منه احد شواهدي على تاثر الفتيان الكرام الابرار بهذا السفر الاخلاقي . وقد شاهدت

صبره لاول مرة فى ايران فى صيف العام الماضي ، لما اشترك هو والعلامة الاخ بالروح الشيخ محمد شيخ الشريعة ، فى قسم من الكتاب على النسخة المخطوطة الآتي ذكرها فى المراجع رقم ٢ الى حد ص ١٧٦ من الجزء الاول من هـذا المطبوع ، فاودعا فى التعليقة آراءهما القيمة فى تحقيقة وتصحيحه . ولئن عدنا فى التصحيح من أوله لما استقبلت المطبعة النسخة للطبع ، فانا اعتمدنا كثيرا على تلك التحقيقات القيمة الماضية .

ولا ننسى ان نذكر ان النسخة المطبوعة فى ايران على الحجر ، فيها من التحريف والتصحيف ما يذهب بالاطمئنان اليها ، ويشوه المقصود والمعنى . ومن الغريب ان نجد التحريف حتى فى الآيات القرآنية والاحاديث الشريفة .اما تذكير المؤنث وتانيث المذكر ، وتشويه الاملاء والتبويب ، فهذه امور حدث عنها ولا حرج . ويكفى ان تقارن صفحة واحدة منها بمطبوعنا ، لتعرف اي مجهود بذل للتصحيح والاخراج ، وتجد العناية على كل سطر منه ، بل كل كلمة .

ومن سوء الحظ ، ان النسخة المخطوطة المرجع رقم (٢) لم تكن اكثر حظا فى الصحة من اختها المطبوعة . وهذا ما دعانا الى ان نرجع الى كتب اخرى تمت بالموضوع بصلة لتحقيق الكتاب ، كالكتب الاخلاقية وكتب الحديث. واكثر ما كان يعنينا تصحيح الاحاديث الشريفة بالرجوع الى مصادرها الذي جشمنا بحثا مضنيا كان يستغرق اكثر أوقاتنا ، وقد نذكر احيانا فى التعليقة المصدر المرجوع اليه ، وعلى الاكثر لانذكر المرجع الا عندما يكون مخالفا لنسخ الكتاب . ويحسن الآن ان نذكر اهم المراجع التي اعتمـدنا عليها لتصحيح الكتاب ، وهي :

١ ــ النسخة من الكتاب ــ المشار اليها آنفا ــ المطبوعة على الحجر بايران سنة ١٣١٢ .

٢ ــ النسخة المخطوطة منه التي تفضل بها شيخنا الحجة الشيخ محمد محسن الشهير بـ (آغا بزرگ) مؤلف الذريعة ، وقد نسخت سنة ١٢٠٨ . ونعبر عنها فى التعليقة بـ (نسختنا الخطية) .

٣ ــ النسخة المخطوطة منه فى مكتبة سپه سالار بطهران . ولا يحضرنا الآن تأريخ نسخها ورقمها فى المكتبة . وقد قوبلت النسخة الى حد صفحة

١٧٦ من الجزء الاول .

٤ ـ النسخة المطبوعة ، التي يملكها الخطيب السيد جواد شبر ، وفيها بعض التقييدات والتصحيحات .

٥ ـ احياء العلوم ـ للشيخ ابي حامد الغزالي .

٦ ـ احياء الاحياء ـ المجلد الرابع المطبوع فى ايران على الحجر سنة ١٣٢٦ ، للشيخ المولى محسن الفيض الكاشاني .

٧ ـ نسخة اصول الكافى ـ المخطوطة سنة ١١٠٢ ، فى مكتبة منتدى النشر برقم (٤٤٦) ، وهي نسخة ظاهر عليها التصحيح ودقة المقابلة على نسخ صحيحة .

٨ ـ نسخة اصول الكافى ـ المخطوطة التي تحت تصرفنا .

٩ ـ فروع الكافى ـ المطبوع بالحجر سنة ١٣١٥ ، وهو من المطبوعات الحجرية الصحيحة .

١٠ ـ الوسائل ـ المطبوعة سنة ١٣٢٣ ، المعروفة بطبعة عين الدولة .

١١ ـ البحار ـ المجلد ١٥ بجميع اجزائه الاربعة ، المطبوع على الحجر .

١٢ ـ كنز العمال ـ المطبوع بحيدر آباد دكن سنة ١٣١٢ .

١٣ ـ مستدرك الوسائل ـ للشيخ المحدث النوري ، المطبوع على الحجر سنة ١٣١٩ .

١٤ ـ الوافى ـ للشيخ المولى محسن الفيض ، المطبوع على الحجر سنة ١٣٢٥ ، وهو من المطبوعات الحجرية الصحيحة .

١٥ ـ سفينة البحار ـ المطبوع على الحجر بالنجف الاشرف سنة ١٣٥٢ ، للمحدث الثقة الجليل الشيخ عباس القمي .

١٦ ـ جامع الاخبار ـ المطبوع بالهند على الحجر .

١٧ ـ مصباح الشريعة ـ المطبوع بالهند على الحجر .

وهذه غير المراجع التي رجعنا اليها نادرا : كمجموعة الشيخ ورام ، والحقائق للفيض ، ومجمع البحرين للشيخ فخر الدين الطريحي ، ونهاية ابن

الاثير ... ونحوها كثير لافائدة فى احصائه . وهذه المراجع هي التي روجعت لتصحيح اجزاء الكتاب ، والله تعالى هو الموفق للصواب .

ويجب الا ننسى فى الختام شكر حسن الشيخ ابراهيم الكتبي على جهوده التي بذلها فى تصحيح الكتاب عند الطبع ، والاشتراك فى مقابلة النسخة الاصلية وتدقيقها ، جزاه الله خير ما يجزي العاملين .

النجف الاشرف

٢٠ رجب ١٣٦٨ هـ **محمد رضا المظفر**

مراجع البحث فى الترجمة :

١ ـ (روضات الجنات) : للسيد محمد باقر الخوانساري ، المطبوع بايران على الحجر سنة ١٣١٦ .

٢ ـ (الروضة البهية) : للسيد محمد شفيع الحسيني ، المطبوع بايران على الحجر .

٣ ـ (اعيان الشيعة) : للسيد محسن الامين ـ الطبعة الاولى ـ فى ترجمة الشيخين : احمد النراقي واسماعيل الخاجوئي .

٤ ـ (مستدرك الوسائل) : ـ الجزء الثالث ـ للمحدث ميرزا حسين النوري .

٥ ـ (الذريعة) : ـ للشيخ محمد محسن الشهير بآغا بزرگ الطهراني .

٦ ـ (الاسناد المصفي) : له ايضا ، المطبوع بالنجف الاشرف سنة ١٣٥٦ .

٧ ـ (رياض الجنة) : المخطوط ، للسيد حسن الزنوزي المعاصر للمؤلف ، ومن تلامذة الوحيد البهبهاني ، نسخة منه محفوظة بخزانة الحاج حسين آغا ملك العامة بطهران تحت رقم (٤٣٨٠) . وقد اعتمدنا عليها فى تجديد النظر فى الترجمة سنة ١٣٨٣ ، على ما نقله لنا عنها مكاتبة احد احفاد المترجم له (الاستاذ حسن النراقي) . واكثر ما اعتمدنا على هذا المصدر فى تعداد مؤلفات المترجم له .

٨ ـ (قصص العلماء) : للميرزا محمد بن سليمان التنكابني ، المطبوع على الحجر بطهران .

ملاحظـــة :

في سفرتي الاخيرة الى ايران في العام الماضي ـ لامور تخص :

(جامعة النجف الدينية)

ـ التقيت مع الاخ الاستاذ (حسن النراقي) ـ دام فضله ـ من احفاد المؤلف ـ قدس سره ـ ، جرى الحديث فيه حول شيخنا المؤلف وعظمته .

فاراني الاخ النراقي نموذجا من خطوط المؤلف الراقية ، فجذبني حسن الخط وروعته ، ولا سيما تلكم الصفحات من كتاب :

(جامع الافكار وناقد الانظار)

ففكرت في طبع نموذج الصفحة الاولى والاخيرة من الكتاب المذكور ، تثبيتا لعظمة ناحية اخرى من نواحي حياة المؤلف المليئة بجلائل الفنون الروائع .

وقد ابدى الاستاذ النراقي موافقته على ذلك في اطار من التبجيل الصادق والادب الجميل ... مما يخص نفسيته الواسعة .

فشكرا له وتقديرا .

السيد محمد كلانتر

نموذج الصفحة الاولى من كتاب (جامع الافكار وناقد الانظار) بخط المؤلف

(جامع الافكار وناقد الانظار)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي دل على ذاته بذاته وتجلى لخلقه ببدايع مصنوعاته ، أظهر من عجائب قدرته ما حير ثواقب العقول والافهام ، وابرز من غرائب عظمته مابهر نوافذ المدارك والاوهام ، خرق علمه باطن غيب السترات ، واحاط بغموض عقائد السريرات ، والصلاة على مهابط المعارف والاسرار ووسائط الفيوضات والانوار ، من الانبياء المكرمين الاخيار وخلفائهم الراشدين الاطهار .

وبعد فيقول اضعف المحتاجين : مهدي بن أبي ذر النراقي — نور الله قلبه بنور اليقين وجعله من الصادقين المقربين — : هذا يااخواني ما اردتم من أصول المعارف الحقيقية وجوامع العقائد اليقينية : من العلم بالله وصفات كماله ومعرفة اسمائه ونعوت جلاله ، وما يتلوهما من المباحث الآلهية العالية والمطالب الحقة المتعالية ، مما يرتقى به الى منازل الاخيار ويعرج به الى عوالم العقول والانوار ، ويتوجه به الى شطر كعبة الملكوت ويسلك به الى صقع عالم الجبروت . وقد بعث الله السفراء لاجله ، وانعقد اجماع الامة على وجوب أخذه فيلزم على الكل حمله ولا يسع لاحد جهله ، واسأل الله ان يجعله خالصا لوجهه ويحرسه عن غير اهله ، ولاشتماله على جمع الافكار الآلهية ونقدها ، سيما ماتعلق بالشرح الجديد للتجريد من الحواشي ، وسميته بـ (جامع الأفكار وناقد الانظار) ، ورتبته على مقدمات ومقالات :

المقدمة الاولى — فى ابطال ترجح المساوي والمرجوح وترجيحهما .

بيان الاول : ان معنى المساوات كون شيئين فى مرتبة واحدة بالنظر الى ثالث ، ومعنى المرجوحية كون الشيئين احدهما أبعد من الآخر ، والراجحية كونه اقرب منه ، فلو ترجح المساوي او المرجوح لزم التناقض .

وبعد ما ثبت ان الواجب ـ سبحانه ـ صرف الوجود ومحض الموجود وليس فيه نقص ولا ممازجة ، وانه ليس جسما وجسمانيا ، ثبت معه نفي التحيز والجهة والحلول والاتحاد والالم واللذة المزاجية عنه سبحانه ، وبذلك تم مباحث الصفات السلبية ، وهو آخر ما أردنا ايراده فى هذا الكتاب . والحمد لله على تأييده على الاتمام ، والصلاة على سيد الانام وعلى عترته امناء الاسلام. ووقع اتمامه فى اول يوم من شهر ربيع الاول من سنة ١١٩٣ ـ ثلاث وتسعين ومائة بعد الالف من الهجرة المباركة النبوية ـ وقد كان ذلك عند تراكم الهموم والاحزان وتفاقم الغموم والاشجان ، وفرط الملال وضيق البال ، من هجوم المصائب والمحن وتواتر النوائب والفتن ، من ابتلائنا اولا فى بلدة كاشان ـ حماها الله عن طوارق الحدثان ـ بالزلازل الهائلة المفزعة والرجفات المزعزعة المزعجة ، وانهدام جميع الابنية والمساكن وجلّ البيوت والمواطن ، وهلاك كثير من الاصدقاء والاحباب وذهاب غير واحد من الاحبة والاصحاب ، ثم ابتلائنا بالامراض الشديدة الغريبة والاسقام الوبائية العجيبة ، بعد ارتحالنا لعدم السكنى وغيره من اختلال الامور الى بعض القرى ، واحتراق فؤادي بذهاب بعض اولادي الذي تقر به عيني فى ظلمات الاحزان والهموم ويسكن الله قلبي عند اضطرابه من هجوم الاشجان والغموم ، ثم وقوعنا فى الداهية العظمى والفتنة الكبرى : اعني موت السلطان ووقوع الاضطراب والوحشة بين اهل ايران . فاحمد الله على السراء والضراء والشدة والرخاء والعافية والبلاء ، ونسأله ان يكون ذلك آخر الرزايا والمصائب وخاتمة البلايا والنوائب ، وان يصلح جميع امور المسلمين بمحمد وآله سادات الخلق اجمعين .

نموذج الصفحة الاخيرة من كتاب (جامع الافكار وناقد الانظار) بخط المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

الحمد الله الذي خلق الانسان ،وجعله أفضل أنواع الاكوان ، وصيره نسخة لما أوجده من عوالم الامكان ، أظهر فيه عجائب قدرته القاهرة . وابرز فيه غرائب عظمته الباهرة ، ربط به الناسوت باللاهوت ، وأودع فيه حقائق الملك والملكوت ، خمّر طينته من الظلمات والنور ، وركّب فيه دواعي الخير والشرور ، عجنه من المواد المتخالفة ، وجمع فيه القوى والاوصاف المتناقضة ، ثم ندبه الى تهذيبها بالتقويم والتعديل ، وحثه على تحسينها بعد ما سهل له السبيل ، والصلاة على نبينا الذي أوتي جوامع الحكم ، وبعث لتتميم محاسن الاخلاق والشيم ، وعلى آله مصابيح الظلم ، ومفاتيح أبواب السعادة والكرم صلى الله عليه وعليهم وسلم .

أما بعد فيقول طالب السعادة الحقيقية (مهدي بن أبي ذر النراقي) بصّره الله نفسه ، وجعل يومه خيرا من أمسه : انه لاريب في ان الغاية من وضع النواميس والاديان ، وبعثة المصطفين من عظماء الانسان ، هو سوق الناس من مراتع البهائم والشياطين ، وايصالهم الى روضات العليين ، وردعهم عن مشاركة أسراء ذل الناسوت ، ومصاحبة قرناء جب الطاغوت الى مجاورة سكان صقع الملكوت ، ومرافقة قطان قدس الجبروت ، ولا يتيسر ذلك الا بالتخلي عن ذمائم الاخلاق ورذائلها ، والتحلي بشرائف الصفات وفضائلها . فيجب على كل عاقل ان يأخذ أهبته ، ويبذل همته في تطهير قلبه عن أوساخ الطبيعة وارجاسها ، وتغسيل نفسه عن أقذار الجسمية وانجاسها قبل ان يتيه في بيداء الشقاق ، ويهوي في مهاوي الضلالة والهلاكة ، ويصرف جده ويجتهد جهده في استخلاص نفسه عن لصوص القوى الامارة ما دام الاختيار بيده ، اذ لاتنفعه الندامة والحسرة في غده .

ثم لاريب في ان التزكية موقوفة على معرفة مهلكات الصفات ومنجياتها ، والعلم بأسبابها ومعالجاتها ، وهذا هو الحكمة الحقة التي مدح الله أهلها ،

ولم يرخص لأحد جهلها ، وهي الموجبة للحياة الحقيقية ، والسعادة السرمدية، والتارك لها على شفا جرف الهلكات ، وربما أحرقته نيران الشهوات •

وقد كان السلف من الحكماء يبالغون في نشرها وتدوينها ، وجمعها وتبيينها ، على ما أدت اليه قوة انظارهم ، وادركوه بقرائحهم وافكارهم • ولما جاءت الشريعة النبوية « على صادعها الف صلاة وتحية » حثت على تحسين الاخلاق وتهذيبها ، وبينت دقائقها وتفصيلها بحيث اضمحل في جنبها ما قرره أساطين الحكمة والعرفان ، وغيرهم من أهل الملل والاديان ، الا انه لما كان ما ورد منها منتشرا في موارد مختلفة ، ومتفرقا في مواضع متعددة ، تعسّر ان يحيط به فلابد من ضبطه في موضع واحد ليسهل تناوله للكل ، فجمعت في هذا الكتاب خلاصة ما ورد من الشريعة الحقة ، مع زبدة ما أورده أهل العرفان والحكمة على نهج تقربه اعين الطالبين ، وتسر به افئدة الراغبين •

ونذكر أولا بعض المقدمات النافعة في المطلوب ، ثم نشير الى أقسام الاخلاق ، ومبادئها من القوى ونضبطها باجناسها وأنواعها ونتائجها وثمراتها، ثم الى المعالجة الكلية لذمائم الاخلاق والجزئية لكل خلق مذموم : مما له اسم مشهور ، وما ينشأ عنه من الافعال المذمومة ، وفي تلوه نذكر ضده المحمود ، وما يدل على فضله عقلا ونقلا ، لأن العلم بفضيلة كل خلق والمداومة على آثاره أقوى علاج لازالة ضده ، ولا نتابع القوم من تقديم الرذائل بأسرها على الفضائل ، بل نذكر أولا ما يتعلق بالقوة العقلية من الفضائل والرذائل على النحو المذكور ، ما يتعلق بالغضبية ، ثم ما يتعلق بالشهوية ، ثم ما يتعلق باثنتين منها او ثلاث ، لأن ذلك ادخل في ضبط الاخلاق ، ومعرفة أضدادها ، والعلم بمبادئها وأجناسها ، وهو من أهم الامور لطالبي هذا الفن •

وما تعرضت لتدبير المنزل وسياسة المدن ، لأن غرضنا في هذا الكتاب انما هو مجرد اصلاح النفس ، وتهذيب الاخلاق ،وسميته « بجامع السعادات» ورتبته على ثلاثة أبواب •

الباب الاول فى المقدمات

أقسام حقيقة الانسان وحالاته بالاعتبار ـ تجرد النفس وبقاؤها ـ التذاذ النفس وتألمها ـ فضائل الاخلاق ورذائلها ـ الاخلاق الذميمة تحجب عن المعارف ـ حصول الملكات بتضاعف الاعمال ـ العمل نفس الجزاء ـ القول بتجسد الاعمال والملكات ـ المضادة بين الدنيـا والآخرة ـ للجبلة والمزاج دخل في جودة الملكات ورداءتها ـ حقيقة الخلق وماهية الملائكة ـ الاقوال في تبدل الاخلاق والملكات ـ شرف علم الاخلاق ـ تعريف النفس وأساميها بأختلاف الاعتبارات ـ في الاشارة الى أعتبار مدافعة القوى الاربع ـ اقهار النفس بتسخير القوة العالية ـ أختلاف الصفات يوجب اختلاف النفوس ـ ائتلاف حقيقة الانسان من الجهات المتقابـلة ـ حقيقة الخير والسعادة ـ والجمع بين الاقوال المختلفة فيها ـ شرائط حصول السعادة ـ غاية ما يمكن الوصول اليه من السعادة ـ تقسيم اللذات والآلام ـ اللذة في الحقيقة هي العقلية دون الحسية ـ ايقاظ فيه موعظة ونصيحة ـ التنبيه على ان الفائت لايتدارك •

فصـــل

انقسام حقيقة الانسان وحالاته بالاعتبار

اعلم ان الانسان منقسم الى سر وعلن وروح وبدن ولكل منهما منافيات وملائسات ، وآلام ولذات ، ومهلكات ومنجيات •

ومنافيات البدن وآلامه هى الامراض الجسمانية وملائماته هى الصحــة واللذات الجسمانية • والمتكفل لبيان تفاصيل هذه الامراض ومعالجاتها هو علم الطب • ومنافيات الروح وآلامه هى رذائل الاخلاق التى تهلكه وتشقيه ، وصحته رجوعه الى فضائلها التي تسعده وتنجيه وتوصله الى مجاورة أهل الله ومقربيه • والمتكفل لبيان هذه الرذائل ومعالجاتها هو (علم الاخلاق) •

ثم ان البدن مادي فان، والروح مجرد باق ،فإن اتصف بشرائف الصفات كان في البهجة والسعادة أبدا ، وان اتصف برذائلها كان في العذاب والشقاوة مخلدا ، ولابد لنا من الاشارة الى تجرده وبقائه بعد خراب البدن ترغيبا للطالبين على السعي في تزكيته وحفظه عن الشقاوة الابدية •

فصــل

فى تجرد النفس وبقائها

لاريب في تجرد النفس وبقائها بعد مفارقتها عن البدن . أما الاول (والمراد به عدم كونها جسما وجسمانية) فيدل عليه وجوه :

(منها) ان كل جسم لايقبل صورا واشكالا كثيرة لزوال كل صورة او شكل فيه بطريان مثله، والنفس تقبل الصور المتعددة المختلفة من المحسوسات والمعقولات من دون ان تزول الاولى بورود الاخرى ، بل كلما قبلت صورة ازدادت قوتها على قبول الاخرى ، ولذلك تزيد القوة على ادراك الاشياء بالرياضيات الفكرية وكثرة النظر ، فثبت عدم كونها جسما .

و (منها) ان حصول الابعاد الثلاثة للجسم لايتصور الا بأن يصير طويلا عريضا عميقا وحصول الالوان والطعوم والروائح له لايتصور الا بأن يصير ذا لون وطعم ورائحة وهي تحصل للنفس وقوتها الوهمية بالادراك من غير ان تصير كذلك ، وايضا حصول بعضها للجسم يمنع من حصول مقابله له ، ولا يمنع ذلك في النفس بل تقبلها كلها في آن واحد على السواء .

و (منها) ان النفس تلتذ بما لايلائم الجسم من الامور الالهية والمعارف الحقيقية ، ولا تميل الى اللذات الجسية والخيالية والوهمية ، بل تحن أبدا الى الابتهاجات العقلية الصرفة التي ليس في الجسم وقواه فيها نصيب ، وهذا اوضح دليل على أنها غيرهما ، اذ لاريب في ان ما يحصل لبعض النفوس الصافية عن شوائب الطبيعة من البهجة والسرور بادراك العلوم الحقة الكلية والذوات المجردة النورية القدسية ، وبالمناجاة والعبادات والمواظبة على الاذكار في الخلوات مع صفاء النيات لامدخلية للجسم فيها وقواه الخيالية والوهمية وغيرهما ، اذ النفس قد تغفل في تلك الحالة عنها بالكلية ، وربما أستغرقت بحيث لاتشعر بالبدن ولا تدري ان لها بدنا فكأنها منخلعة عنه ، فهذا يدل على انها من عالم آخر غير عالم الجسم وقواه ، اذ التذاذهما منحصر بالملائمات الجزئية التي تدركها الحواس الظاهرة والباطنة .

و (منها) ان النفس تدرك الصور الكلية المجردة فتكون محلا لها ، ولا ريب في ان المادي يكون محلا للمجرد اذ كــل مادي ذو وضع قابل

للانقسام ، وكون المحل ذا وضع قابل للانقسام يستلزم ان يكون حاله أيضا كذلك كما ثبت في محله ، والمجرد لايمكن كذلك والا خرج عن حقيقته ، فالنفس لاتكون مادية واذا لم تكن مادية كانت مجردة لعدم الواسطة .

و (منها) ان القوى الجسمية الباطنية لاتكتسب العلوم الا من طريق الحواس الظاهرة اذ مالم يدرك الشيء بها لم تتمكن الحواس الباطنة ان تدركه وهذا وجداني وضروري . والنفس قد تدرك مالا طريق لشيء من الحواس الى ادراكه كالامور المجردة والمعاني البسيطة الكلية ، وأسباب الاتفاقات والاختلافات التي بين المحسوسات ، والضرورة العقلية قاضية بأنه لامدخلية لشيء من الحواس في ادراك شيء من ذلك .

وأيضا تحكم بانه لا واسطة بين النقيضين ، وهذا الحكم غير مأخوذ من مبادىء حسية اذ لو كان مأخوذا منها لم يكن قياسا أوليا ، فمثله مأخوذ من المبادىء الشريفة العالية التي تبنى عليها القياسات الصحيحة .

وأيضا هي حاكمة على الحس في صدقه وكذبه وقد تخطئه في أفعاله وترد عليه أحكامه كتخطئته للبصر فيما يراه أصغر مما هو عليه في الواقع أو بالعكس ، وفيما يراه مستديرا وهو مربع ، او مكسورا وهو صحيح ، أو معوجا وهو مستقيم ، او منكوسا وهو منتصب ، او مختلفا في وضعه الواقعي ، وفي رؤيته للاشياء المتحركة على الاستدارة كالحلقة والطوق ، وكتخطئته للسمع فيما يدركه في المواضع الصقيلة المستديرة عند الصدى ، وللذوق في ادراكه الحلو مرا ومثله ، كذا الحال في الشم واللمس ، ولاريب في ان تخطئة النفس الحواس في هذه الادراكات وحكمها بما هو المطابق للواقع انما يكون مسبوقا بالعلم الذي لايكون مأخوذا من الحس ، لان الحاكم على الشيء أعلى رتبة منه فلا يكون علمه الذي هو مناط مأخوذا عنه .

ومما يؤكد ذلك انها عالمة بذاتها وبكونها مدركة لمعقولاتها . ومعلوم ان هذا العلم مأخوذ من جوهرها دون مبادىء أخر .

و (منها) انا نشاهد ان البدن وقواه يضعفان في افعالهما وآثارهما ، والنفس تقوى في ادراكاتها وصفاتها ، كما في سن الكهولة ، او يكونان قويين في الافعال مع كونها ضعيفة فيها كما في سن الشباب ، فلو كانت جسما او

جسمانية لكانت تابعة لهما في الضعف والقوة .

(فان قلت) الادراك وسائر الصفات الكمالية للنفس يضعف اويختل بضعف البدن أو أختلاله كما نشاهد في المشايخ والمرضى وتجردها ينافي ذلك.

(قلنا) الضعف او الاختلال انما يحدث في الادراك والافعال المتعلقة بالقوى الجسمية ، وأما مايحصل للنفس بجوهرها اوبواسطة القوى الجسمية بعد صيرورته ملكة لها يحصل فيه أختلال وضعف ، يصير ظهوره أشد وتأثيره أقوى .

وأما الثاني اعنى بقاءها بعد المفارقة عن البدن فالدليل عليه بعد ثبوت تجردها ان المجرد لايتطرق اليه الفساد لانه حقيقة والحقيقة لاتبيد كما صرح به المعلم الاول وغيره ، ووجهه ظاهر .

فصــل

بيان تلذذ النفس وتالمها

اذا عرفت تجرد النفس وبقاءها أبدا ، فاعلم انها اما ملتذة متنعمة دائما أو معذبة متألمة كذلك . والتذاذها يتوقف على كمالها الذي يخصها ، ولما كانت لها قوتان النظرية والعملية ، فكمال القوة النظرية الاحاطة بحقائق الموجودات بمراتبها والاطلاع على الجزئيات غير المتناهية بأدراك كلياتها . والترقي منه الى معرفة المطلوب الحقيقي وغاية الكل حتى يصل الى مقام التوحيد ويتخلص عن وساوس الشيطان ويطمئن قلبه بنور العرفان . وهذا الكمال هو الحكمة النظرية .

وكمال القوة العملية التخلي عن الصفات الردية والتحلي بالاخلاق المرضية ثم الترقي منه الى تطهير السر وتخليته عما سوى الله سبحانه . وهذا هو الحكمة العملية التي يشتمل هذا الكتاب على بيانها .

وكمال القوة النظرية بمنزلة الصورة وكمال القوة العملية بمنزلة المادة، فلا يتم أحدهما بدون الآخر ، ومن حصل له الكمالان صار بأنفراده عالما صغيرا مشابها للعالم الكبير ، وهو الانسان التام الكامل الذي تلألأ قلبه بأنوار الشهود وبه تتم دائرة الوجود .

فصــل

فى فضائل الاخلاق ورذائلها

فضائل الاخلاق من المنجيات الموصلة الى السعادة الابدية ، ورذائلها من المهلكات الموجبة للشقاوة السرمدية ، فالتخلي عن الثانية والتحلي بالاولى من أهم الواجبات والوصول الى الحياة الحقيقية بدونهما من المحالات . فيجب على كل عاقل ان يجتهد في اكتساب فضائل الاخلاق التي هي الاوساط[1] المثبتة من صاحب الشريعة والاجتناب عن رذائلها التي هي الاطراف ، ولو قصر أدركته الهلاكة الابدية ، اذ كما ان الجنين لو خرج عن طاعة ملك الارحام المتوسط في الخلق لم يخرج الى الدنيا سويا سميعا بصيرا ناطقا ، كذلك من خرج عن طاعة نبي الاحكام المتوسط في الخلق لم يخرج الى عالم الآخرة كذلك .

ومن كان فى هذه اعمى فهو فى الآخرة اعمى واضل سبيلا (٢) .

ثم مالم تحصل التخلية لم تحصل التحلية ولم تستعد النفس للفيوضات القدسية ، كما ان المرآة مالم تذهب الكدورات عنها لم تستعد لارتسام الصور فيها ، والبدن مالم تزل عنه العلة لم تتصور له أفاضة الصحة ، والثوب مالم ينقّ عن الاوساخ لم يقبل لونا من الالوان ، فالمواظبة على الطاعات الظاهرة لاتنفع مالم تتطهر النفس من الصفات المذمومة كالكبر والحسد والرياء ، وطلب الرياسة والعلى وارادة السوء للأقران والشركاء ، وطلب الشهرة في البلاد وفي العباد ، وأي فائدة في تزيين الظواهر مع أهمال البواطن .

ومثلُ من يواظب على الطاعات الظاهرة ويترك تفقد قلبه كبئر الحش[3] ظاهرها جص وباطنها نتن ، وكقبور الموتى ظاهرها مزينة وباطنها

---

(١) اشارة الى ان الفضيلة وسط بين رذيلتين وقد دعى الشارع الى تحصيل الوسط بقوله صلى الله عليه وآله وسلم : ((خير الامور أواسطها) وسيأتي شرح المعنى من الوسط والطرفين .

(٢) الاسراء الآية ٧٢ .

(٣) الحش بالفتح او الضم ثم التشديد والفتح اكثر من الضم : المخرج وموضع الحاجة واصله من الحش بمعنى البستان ، لانهم كانوا يتغوطون فى

جيفة ، او كبيت مظلم وضع السراج على ظاهره فأستنار ظاهره وباطنه مظلم، أو كرجل زرع زرعا فنبت ونبت معه حشيش يفسده فأمر بتنقية الزرع عن الحشيش بقلعه عن أصله فأخذ يجز رأسه ويقطعه فلا يزال يقوى أصله وينبت فان الاخلاق المذمومة في القلب هي مغارس المعاصي فمن لم يطهر قلبه منها لم تتم له الطاعات الظاهرة ، او كمريض به جرب وقد أمر بالطلاء ليزيل ما على ظهره ويشرب الدواء ليقلع مادته من باطنه فقنع بالطلاء وترك الدواء متناولا ما يزيد في المادة فلا يزال يطلى الظاهر والجرب يتفجر من المادة التي في الباطن .

ثم اذا تخلت عن مساويء الاخلاق وتحلت بمعاليها على الترتيب العلمي استعدت لقبول الفيض من رب الارباب ، ولم يبق لشدة القرب بينهما حجاب ، فترتسم فيها صور الموجودات على ماهي عليها ، على سبيل الكلية ، أي بحدودها ولوازمها الذاتية لامتناع احاطتها بالجزئيات من حيث الجزئية ، لعدم تناهيها ، وان علمت في ضمن الكليات لعدم خروجها عنها ، وحينئذ يصير [٤] موجودا تاما أبدى الوجود سر مدى البقاء ، فائزا بالرتبة العليا ، والسعادة القصوى ، قابلا للخلافة الإلهية ، والرئاسة المعنوية ، فيصل الى اللذات الحقيقية ، والابتهاجات العقلية التي ما رأتها عيون الاعيان ، ولم تتصورها عوالي الاذهان .

فصل

الاخلاق الذميمة تحجب عن المعارف

الاخلاق المذمومة هي الحجب المانعة عن المعارف الإلهية ، والنفحات القدسية اذ هي بمنزلة الغطاء للنفوس فما لم يرتفع عنها لم تتضح لها جلية الحال أتضاحا ، كيف والقلوب كالاواني فاذا كانت مملوءة بالماء لايدخلها الهواء ، فالقلوب المشغولة بغير الله لاتدخلها معرفة الله وحبه وانسه ، والى ذلك أشار النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله : « لولا ان الشياطين يحرمون

البساتين ، فلما اتخذوا الكنف اطلقوا عليها الاسم مجازا ، فالمراد هنا من بئر الحش خزانة الكنيف .

(٤) تذكير الضمير باعتبار ارادة الانسان لانه صاحب النفس بل هو هي .

الى قلوب بني آدم لنظروا الى ملكوت السموات والارض » فبقدر ما تتطهر القلوب عن هذه الخبائث تتحاذى شطر الحق الاول (٥) وتلألأ فيها حقائقه كما أشار اليه النبي صلى الله عليه وآله : « ان لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها » ، فإن التعرض لها انما هو بتطهير القلوب عن الكدورات الحاصلة عن الاخلاق الردية (٦) فكل اقبال على طاعة وأعراض عن سيئة يوجب جلاء ونورا للقلب يستعد به لافاضة علم يقيني ، ولذا قال سبحانه :

والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا . (٧) .

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم » فالقلب اذا صفى عن الكدورات الطبيعية بالكلية يظهر له من المزايا الإلهية والافاضات الرحمانية مالا يمكن لاعاظم العلماء كما قال سيد الرسل : « ان لي مع الله حالات لايحتملها ملك مقرب ولا نبي مرسل » .

وكل سالك الى الله انما يعرف من الالطاف الإلهية والنفحات الغيبية ما ظهر له على قدر استعداده ، وأما ما فوقه فلا يحيط بحقيقته علما لكن قد يصدق به ايمانا بالغيب كما انا نؤمن بالنبوة وخواصها ونصدق بوجودها ولا نعرف حقيقتهما كما لايعرف الجنين حال الطفل والطفل حال المميز والمميز من العوام حال العلماء والعلماء حال الانبياء والاولياء .

فالرحمة الإلهية بحكم العناية الازلية مبذولة على الكل غير مضنون بها على أحد ، لكن حصولها موقوف على تصقيل مرآة القلب وتصفيتها عن الخبائث الطبيعية ، ومع تراكم صدأها الحاصل منها لايمكن أن يتجلى فيها شيء من الحقائق ، فلا تحجب الانوار العلمية والاسرار الربوبية عن قلب من القلوب لبخل من جهة المنعم تعالى شأنه عن ذلك ، بل الاحتجاب انما هو من جهة القلب لكدورته وخبثه واشتغاله بما يضاد ذلك .

ثم ما يظهر للقلب من العلوم لطهارته وصفاء جوهره هو العلم الحقيقي

---

(٥) المراد من الحق الاول عون الله تبارك وتعالى فكما ان الحق صفة له كذلك الاول فهو صفة بعد صفة .

(٦) المراد من النفحات هي الافاضات المعنوية لا النسمات كما وردت بالمعنى الثاني في بعض الاخبار .

(٧) العنكبوت الآية : ٦٩ .

النوراني الذي لايقبل الشك وله غاية الظهور والانجلاء لاستفادته من الانوار الإلهية والالهامات الحقةالربانية ،وهو المراد بقوله (ع) : « انما هو نوريقذفه الله في قلب من يشاء » واليه أشار مولانا امير المؤمنين (ع) بقوله : « أن من أحب عباد الله اليه عبدا أعانه الله على نفسه فأستشعر الحزن وتجلبب الخوف فزهر مصباح الهدى في قلبه » (الى ان قال) : « قد خلع سرابيل الشهوات ، وتخلى من الهموم الا هما واحدا أنفرد به ، فخرج من صفة العمى ومشاركة أهل الهوى ، وصار من مفاتيح أبواب الهدى ومغاليق أبواب الردى ، قد ابصر طريقه وسلك سبيله وعرف مناره ، وقطع غماره [٨]، وأستمسك من العرى بأوثقها ومن الجبال بأمتنها فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس » وفي كلام آخر له (ع) « قد أحيى قلبه وأمات نفسه ، حتى دقّ جليله [٩] ولطف غليظه ، وبرق له لامع كثير البرق ، فأبان له الطريق وسلك به السبيل ، وتدافعته الابواب الى باب السلامة ودار الاقامة، وتثبت رجلاه لطمأنينة بدنه في قرار الأمن والراحة بما استعمل قلبه وأرضى به» .

وقال (ع) في وصف الراسخين من العلماء : « هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة وباشروا روح اليقين وأستلانوا ما أستوعره المترفون وأنسوا بما أستوحش منه الجاهلون وصحبوا الدنيا بأبدان ارواحهامعلقة بالمحل الاعلى»

وبالجملة مالم يحصل للقلب التزكية لم يحصل له هذا القسم من المعرفة اذ العلم الحقيقي عبادة القلب وقربة السر ، وكما لاتصح الصلاة التي هي عبادة الظاهر الا بعد تطهيره من النجاسة الظاهرة فكذلك لاتصح عبادة الباطن الا بعد تطهيره من النجاسة الباطنية التي هي رذائل الاخلاق وخبائث الصفات ، كيف وفيضان أنوار العلوم على القلوب انما هو بواسطة الملائكة وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لاتدخل الملائكة بيتا فيه كلب » فاذا كان بيت القلب مشحونا بالصفات الخبيثة التي هي كلاب نابحة لم تدخل فيه الملائكة القادسة والحكم بثبوت النجاسة الظاهرة للمشرك ، مع كونه مغسول الثوب نظيف البدن ، انما هو لسراية نجاسته الباطنية فقوله صلى الله

(٨) غموة الشيء شدته ومزدحمة جمعه غمرات وغمار وغمرو منه غمرات الموت اي مكارهه وشدائده .

(٩) الجليل : الكبير فى الحجم .

عليه وآله وسلم « بنى الدين على النظافة » يتناول زوال النجاستين . وماورد من أن الطهور نصف الايمان المراد به طهارة الباطن عن خبائث الاخلاق ، وكان النصف الآخر تحليته بشرائف الصفات وعمارته بوظائف الطاعات .

وبما ذكر ظهر ان العلم الذي يحصل من طريق المجادلات الكلامية والاستدلالات الفكرية ، من دون تصقيل لجوهر النفس ،لايخلو عن الكدرة والظلمة ، ولا يستحق اسم اليقين الحقيقي الذي يحصل للنفوس الصافية ، فما يظنه كثير من أهل التعلق بقاذورات الدنيا انهم على حقيقة اليقين في معرفة الله سبحانه خلاف الواقع ، لأن اليقين الحقيقي يلزمه « روح » [١٠] ونور وبهجة وسرور ، وعدم الالتفات الى ما سوى الله ، والاستغراق في أبحر عظمة الله ، وليس شيء من ذلك حاصلا لهم ، فما ظنوه يقينا اما تصديق مشوب بالشبهة ، او اعتقاد جازم لم تحصل له نورانية وجلاء وظهور وضياء، لكدرة قلوبهم الحاصلة من خبائث الصفات .

والسر في ذلك ان منشأ العلم ومناطه هو التجرد كما بين في مقامه ، فكلما تزداد النفس تجردا ايمانا ويقينا ، ولا ريب في انه مالم ترتفع عنها أستار السيئات وحجب الخطيئات لم يحصل لها التجرد الذي هو مناط حقيقة اليقين فلابد من المجاهدة العظيمة في التزكية والتحلية حتى تنفتح أبواب الهداية وتتضح سبل المعرفة كما قال سبحانه :

(والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) (١١) .

فصل

أن العمل نفس الجزاء

كل نفس في بدء الخلقة خالية عن الملكات بأسرها ، وانما تتحقق كل ملكة بتكرر الافاعيل والآثار الخاصة به [١٢] بيان ذلك ان كل قول أوفعل ما دام وجوده في الاكوان الحسية لاحظ له من الثبات لان الدنيا دار

---

(١٠) هذه الكلمة غير موجودة فى نسختنا الخطية لكنها موجودة فى نسخة خطية اخرى .

(١١) العنكبوت الآية : ٦٩ .

(١٢) هكذا وجدت فى النسخة المطبوعة ونسختنا الخطية والاصح «بها» وان كانت الكلمة غير موجودة فى نسخة خطية اخرى .

التجدد والزوال ، ولكنه يحصل منه أثر في النفس ، فاذا تكرر استحكم الاثر فصار ملكة راسخة مثاله الحرارة التي تحدث في الفحم فانها ضعيفة أولا واذا اشتدت تجمرت ثم استضاءت ، ثم صارت صورة نارية محرقة لما قارنها مضيئة لما قابلها ، وكذلك الاحوال النفسانية اذا تضاعفت قوتها صارت ملكات راسخة وصورا باطنة تكون مباديء للآثار المختصة بها ، فالنفوس الانسانية في أوائل الفطرة كصحائف خالية من النقوش والصور تقبل كل خلق بسهولة ،واذا أستحكمت فيها الاخلاق تعسر قبولها لاضدادها، ولذلك سهل تعليم الاطفال وتأديبهم وتنقيش نفسهم بكل صورة وصفة ويتعسر او يتعذر تعليم الرجال البالغين وردهم عن الصفات الحاصلة لهم لاستحكامها ورسوخها .

ثم لاخلاف في أن هذه الملكات وأفعالها اللازمة لها ان كانت فاضلة كانت موجبة للالتذاذ والبهجة ومرافقة الملائكة والاخيار ، وان كانت ردية كانت مقتضية للألم والعذاب ومصاحبة الشياطين والاشرار ، وانما الخلاف في كيفية ايجابها للثواب او العذاب ، فمن قال ان الجزاء مغاير للعمل قال ان كل ملكة وفعل يصير منشأ لترتب ثواب أو عقاب مغاير له بفعل الله سبحانه على التفصيل الوارد في الشريعة .

ومن قال ان العمل نفس الجزاء قال ان الهيئات النفسانية أشتدت وصارت ملكة تصير متمثلة ومتصورة في عالم الباطن والملكوت بصورة يناسبها اذ كل شيء يظهر في كل عالم بصورة خاصة ، فان العلم في عالم اليقظة أمر عرضي يدرك بالعقل او الوهم وفي عالم النور يظهر بصورة اللبن ،فالظاهر في العالمين شيء واحد وهو العلم لكنه تجلى في كل عالم بصورة ، والسرور يظهر في عالم النوم بصورة البكاء ، ومنه يظهر انه قد يسرك في عالم مايسوءك في عالم آخر ، فاللذات الجسمانية التي تسرك في هذا العالم تظهر في دار الجزاء بصورة تسوءك وتؤذيك ، وتركها وتحمل مشاق العبادات والطاعات والصبر على المصائب والبليات يسرك في عالم الآخرة مع كونها مؤذية في هذا العالم .

ثم القائل بهذا المذهب قد يطلق على هذه الصورة اسم الملك ان كانت

من فضائل الاخلاق او فواضل الاعمال واسم الشيطان ان كانت من أضدادها
وقد يطلق على الاولى اسم الغلمان والحور وأمثالهما ، وعلى الثانية اسم
الحيات والعقارب وأشباههما ، ولا فرق بين الاطلاقين في المعنى ، وانما
الاختلاف في الاسم .

وهذا المذهب يرجع الى القول بتجسد الاعمال بصورة مأنوسة مفرحة
أو صورة موحشة معذبة ، وقد ورد بذلك أخبار كثيرة : منها : ما روى
أصحابنا عن قيس بن عاصم عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال :
ياقيس « ان مع العز ذلا ومع الحياة موتا ومع الدنيا آخرة ، وان لكل شيء
رقيبا وعلى كل شيء حسيبا ، وان لكل أجل كتابا ، وانه لابد لك من قرين
يدفن معك وهو حي وتدفن معه وأنت ميت ، فان كان كريما أكرمك ، وان
كان لئيما ألأمك ، ثم لايحشر الا معك ولا تحشر الا معه ولا تسأل الاعنه،
فلا تجعله الا صالحا : فانه ان صلح انست به وان فسد لاتستوحش الا
منه وهو فعلك » . ومنها : ما أستفاض من قولهم عليهم السلام « ان من
فعل كذا خلق الله تعالى ملكا يستغفر له الى يوم القيامة » . ومنها :
ما ورد « ان الجنة قيعان وغراسها سبحان الله » : ومنها ما روى « انالكافر
خلق من ذنب المؤمن » ومنها : قولهم « المرء مرهون بعمله » . ومنها قوله
صلى الله عليه وآله وسلم : « الذي يشرب في آنية الذهب والفضة انما
يجري في بطنه نار جهنم » ويدل عليه قوله سبحانه :

(وان جهنم لمحيطة بالكافرين) (١٣) .

وربما كان بقوله تعالى :

(ولا تجزون الا ما كنتم تعملون) (١٤) وقوله تعالى :

(انما تجزون ما كنتم تعملون) (١٥) .

اشارة اليه حيث قال عز وجل (ما كنتم) ولم يقل بما كنتم .

وقال : فيثاغورس الحكيم « ستعارض لك في أفعالك وأقوالك

---

(١٣) التوبة الآية : ٤٩ .
(١٤) يس الآية : ٥٤ .
(١٥) الطور الآية : ١٦ .

وأفكارك [١٦] وسيظهر لك من كل حركة فكرية او قولية او عملية صورة روحانية ، فان كانت الحركة غضبية او شهوية صارت مادة لشيطان يؤذيك في حياتك ويحجبك عن ملاقاة النور بعد وفاتك ، وان كانت الحركة عقلية صارت ملكا تلتذ بمنادمته في دنياك وتهتدي به في أخراك الى جوار الله وكرامته » انتهى .

وهذه الكلمات صريحة في أن مواد الاشخاص الاخروية هي التصورات الباطنية والنيات القلبية والملكات النفسية المتصورة بصور روحانية وجودها وجود ادراكي ، والانسان اذا انقطع تعلقه عن هـذه الدار وحان وقت مسافرته الى دار القرار وخلص عن شواغل الدنيا الدنية وكشف عن بصره غشاوة الطبيعة ، فوقع بصره على وجه ذاته والتفت الى صفحة باطنه وصحيفة نفسه ولوح قلبه وهو المراد بقوله سبحانه :

(واذا الصحف نشرت) (١٧) وقوله تعالى : (فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) (١٨) .

صار أدراكه فعلا وعلمه عينا وسره عيانا ، فيشاهد ثمرات أفكاره واعماله ، ويرى نتائج أنظاره وأفعاله ويطلع على جزاء حسناته وسيئاته ، ويحضر عنده جميع حركاته وسكناته ، ويدرك حقيقة قوله سبحانه :

(وكل انسان الزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا * اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) (١٩) .

فمن كان في غفلة عن أحوال نفسه ومضيعا لساعات يومه وأمسه يقول :

(ما لهذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا) (٢٠) (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود او أن بينها وبينه أمدا بعيدا) (٢١) .

وقد أيد هذا المذهب أعني صيرورة الملكات صورا روحانية باقية أبد الدهر موجبةللجبهة والالتذاذ والتوحش والتألم ، بأنه لولم تكن تلكالملكات

---

(١٦) هكذا وجدنا العبارة فى النسخة الخطية والمطبوعة ولا يخفى ما فيها من الاجمال .

(١٧) التكوير الآية ١٠ .

(١٨) ق الآية ٢٢ .

(١٩) الاسراء الآية ١٣ — ١٤ .

(٢٠) الكهف الآية ٤٩ .

(٢١) آل عمران الآية ٣٠ .

والنيات باقية أبدا لم يكون للخلود في الجنة او النار وجه صحيح ، اذ لو كان المقتضى للثواب او العذاب نفس العمل والقول ، وهما زائلان لزم بقاء المسبب مع زوال السبب وهو باطل ، وكيف يجوز للحكيم ان يعذب عباده أبد الدهر لأجل المعصية فيزمان قصير ، فإذاً منشأ الخلود هو الثبات فيالنيات والرسوخ في الملكات ، ومع ذلك فمن يعمل مثقال ذرة من الخير او الشر يرى أثره في صحيفة نفسه او في صحيفة أعلى وارفع من ذاته أبدا كما قال سبحانه :

(في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بايدي سفرة) (٢٢) .

والسر فيه أن الامر الذي يبقى مع النفس الى حين مفارقتها من الدنيا ولم يرتفع عنها في دار التكليف يبقى معها أبدا ولا يرتفع عنها أصلا لعدم تجدد ما يوجب ازالته بعد مفارقته عن عالم التكليف .

ثم الظاهر ان هذا المذهب ـ عند من قال به من أهل الشرائع ـ بيان لكيفية الثواب والعقاب الروحانيين مع اذعانه بالجنة والنار الجسمانيين » اذ لو كان مراده قصر اللذة والثواب والالم والعقاب والجنات والقصور والغلمان والحور والنار والجحيم والزقوم والضريع وساير ما ورد في الشريعة القادسة من أمور القيامة على ما ذكر فهو مخالف لضرورة الدين .

(تنبيه) الدنيا والآخرة متضادتان ، وكل ما يقرب العبد الى أحداهما يبعد عن الاخرى وبالعكس ، كما دلت عليه البراهين الحكمية والشواهد الذوقية والادلة السمعية ، فكل ملكة أو حركة او قول او فعل يقرب العبد الى دار الطبيعة والغرور يبعده عن عالم البهجة والسرور ، وبالعكس ، فأسوأ الناس حالا من لم يعرف حقيقة الدنيا والآخرة وتضادهما ولم يخف سوء العاقبة وأفنى عمره في طلب الدنيا واصلاح أمر المعاش وقصر سعيه على جر المنفعة لبدنه من نيل شهوة او بلوغ لذة او اكتساب ترفع ، ورئاسة او جمع المال من غير تصور لما يصل اليه من فائدته ، كما هو عادة اكثر ابناء الدنيا ، ولم يعرف غير هذه الامور من المعارف الحقيقية والفضائل الخلقية والاعمال الصالحة المقربة الى عالم البقاء فكأنه يعلم خلوده في الدنيا ، ولا يرجو بعد الموت ثواب عمل ، ولا جزاء فعل ، ولا يعتقد بما يرجو به المؤمنون

---

(٢٢) عبس الآية : ١٣ ـ ١٥ .

ويؤمله المتقون من الخير الدائم ، واللذات المخالفة لهذه اللذات الفانية التي يشارك فيها السباع والبهائم ، فاذا أدركه الموت مات على حسرة وندامة آيسا من رحمة الله قائلا :

ياحسرتى على ما فرطت فى جنب الله (٢٢) .

أعاذنا الله تعالى من سوء الخاتمة ووفقنا لتحصيل السعادة الدائمة .

فصل

تاثير المزاج على الاخلاق

للمزاج مدخلية تامة في الصفات : فبعض الامزجة فيأصل الخلقةمستعد لبعض الاخلاق ، وبعضها مقتض لخلافه ، فانا نقطع بأن بعض الاشخاص بحسب جبلته ، ولو خلي عن الاسباب الخارجية ، بحيث يغضب ويخاف ويحزن بأدنى سبب ، ويضحك بأدنى تعجب ، وبعضهم بخلاف ذلك . وقد يكون أعتدال القوى فطريا بحيث يبلغ الانسان كامل العقل ، فاضلالاخلاق غالبة قوته العاقلة على قوتي الغضب والشهوة ، كما في الانبياء والائمة عليهم السلام . وقد يكون مجاوزتها عن الوسط كذلك بحيث يبلغ ناقص العقل ردى الصفات مغلوبة عاقلته تحت سلطان الغضب والشهوة ، كما في بعض الناس .

الا أن الحق — كما يأتي — امكان زوالها بالمعالجات المقررة في علم الاخلاق ، فيجب السعي في ازالة نقائضها وتحصيل فضائلها . وعجبا لأقوام يبالغون في اعادة الصحة الجسمانية الفانية ، ولا يجتهدون في تحصيل الصحة الروحانية الباقية ، يطيعون قول الطبيب المجوسى في شرب الاشياء الكريهة ومزاولة الاعمال القبيحة ، لأجل صحة زائلة ، ولا يطيعون أمر الطبيب الالهي لتحصيل السعادة الدائمة .

وبقاء النفس على النقصان اما لعدم صرفها الى طلب المقصود لملابسة العوائق والموانع ، او مزاولة النقيض لتمكن موجبة ، او لكثرة اشتغالها بالشواغل المحسوسة ، او لضعف القوة العاقلة ، فان لم تدركها العنايةالالهية فلا يزال يتزايد النقصان ويبعد عن الكمال الذي خلق لأجله ، الى ان تدركها الهلاكة الابدية والشقاوة السرمدية ، نعوذ بالله من ذلك ، وان ادركتهالرحمة

---

(٢٣) الزمر الآية ٥٦ .

الازلية ، فيصرف همه في ازالة النقائص ، واكتساب الفضائل ، فلا يزال يتصاعد من مرتبة من الكمال الى فوقها ، حتى يصير من أهل مشاهدة الجلال والجمال ، ويتشرف بجوار الرب ، المتعال ويصل الى السرور الحقيقي، الذي لاعين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، والى قرة الاعين التي يشير اليها في قوله سبحانه :

(فلا تعلم نفس ما اخفى لهم من قرة اعين) (٢٤) .

فصل

تاثير التربية على الاخلاق

الخلق عبارة عن « ملكة للنفس مقتضية لصدور الافعال بسهولة من دون احتياج الى فكر وروية »والملكة : كيفية نفسانية بطيئة الزوال .وبالقيد الاخير خرج الحال لانها كيفية نفسانية سريعة الزوال ، وسبب وجود الخلق اما المزاج كما مر ، أو العادة بان يفعل فعلا بالروية ، او التكلف ويصبر عليه الى أن يصير ملكة له (٢٥) ويصدر عنه بسهولة وان كان مخالفا لمقتضى المزاج .

وأختلف الاوائل في امكان ازالة الاخلاق وعدمه ، وثالث الاقوال ان بعضها طبيعي يمتنع زواله وبعضها غير طبيعي حاصل من أسباب خارجة يمكن زواله . ورجح المتأخرون الاول وقالوا : ليس شيء من الاخلاق طبيعيا ولا مخالفا للطبيعة ، بل النفس بالنظر الى ذاتها قابلة للاتصاف بكل من طرفي التضاد ، اما بسهولة ان كان موافقا للمزاج ، او بعسر ان كان مخالفا له ، فأختلاف الناس في الاخلاق لاختلافهم في الاختيار والمزاولة لاسباب خارجة .

(حجة القول الاول) أن كل خلق قابل للتغيير وكل قابل للتغيير ليس طبيعيا فينتج لاشيء من الخلق بطبيعي والكبرى بديهية، والصغرى وجدانية. فأنا نجد ان الشرير يصير بمصاحبته الخيّر خيرا ، والخير بمجالسته الشرير

(٢٤) السجدة الآية ١٧ .

(٢٥) ما بين القوس فى الموضع غير موجود فى نسختنا الخطية لكنه موجود فى نسخة خطية أخرى وفى المطبوعة .

شريرا • ونرى ان التأديب « في السياسات [٢٦] » فيه أثر عظيم في زوال الاخلاق ، ولولاه لم يكن لقوة الروية فائدة وبطلت التأديبات والسياسات ولغت الشرائع والديانات ، ولما قال الله سبحانه : (قد أفلح من زكاها) [٢٧]. ولما قال النبي صلى الله عليه وآله : حسنوا أخلاقكم ، ولما قال : بعثت لأتمم مكارم الاخلاق •

ورد : بمنع كلية الصغرى فانا نشاهد ان بعض الاخلاق في بعض الاشخاص غير قابل للتبديل (لا) سيما ما يتعلق بالقوة النظرية ، كالحدس والتحفظ ، وجودة الذهن ، وحسن التعقل ، ومقابلاتها كما هو معلوم من حال بعض الطلبة ، فانه لاينجح سعيهم في التبديل مع مبالغتهم في المجاهدة •

وما قيل : من لزوم تعطل القوة المميزة وبطلان التأديب والسياسات مردود : بأن هذا اللزوم اذا لم يكن شيء من الاخلاق قابلا للتغيير ، وأما مع قبول بعضها او اكثرها له فلا يلزم شيء مما ذكر ، ولو كان عدم قبول بعض الاخلاق للتغيير موجبا لبطلان علم الشرائع والاخلاق لكان عدم قبول بعض الامراض للصحة مقتضيا لبطلان علم الطب ، مع انا نعلم بديهة ان بعض الامراض لايقبل العلاج •

(وحجة القول الثاني) ان الاخلاق بأسرها تابعة للمزاج ، والمزاج لايتبدل، واختلاف مزاج شخص واحد في مراتب سنة لاينافي ذلك ، لجواز تابعيتها لجميع مراتب عرض المزاج ، وأيّد ذلك بقوله (ص) :

(الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام) وبقوله (ص) : (اذا سمعتم انجبلا زال عن مكانه فصدقوه ، واذا سمعتم برجل زال عن خلقه فلا تصدقوه ، فانه سيعود الى ما جُبِل عليه) •

و (الجواب) ان توابع المزاج من المقتضيات التي يمكن زوالها لامن اللوازم التي يمتنع انفكاكها ، لما ثبت في الحكمة من أن النفوس الانسانية متفقة في الحقيقة ، وفي بدو فطرتها خالية عن جميع الاخلاق والاحوال كما هو شأن العقل الهيولاني • ثم ما يحصل لها منهما أما من مقتضيات الاختيار

---

(٢٦) ما بين القوس فى الموضعين غير موجود فى نسختنا الخطية لكنه موجود فى نسخة خطية اخرى وفى المطبوعة .

(٢٧) الشمس الآية : ٩ .

والعادة او استعدادات الابدان والامزجة ،والمقتضى ما يمكن زواله كالبرودة للماء ، لاما يمتنع انفكاكه كالزوجة للاربعة . والخبر الاول لا يفيد المطلوب بوجه . والثاني مع عدم ثبوته عندما يدل على خلاف مطلوبهم ، لان قوله : (سيعود الى ماجبل عليه) يفيد امكـان ازالة الخلق بالاسبـاب الخارجية من التاديب والنصائح وغيرهما ، وبعد ازالته بها يعود بارتفاعها كبرودة الماء التى تزول ببعض الاسباب وتعود بعد زوال السبب ، فلو دام على حفظ الاسباب وابقائها لم يحصل العود أصلا .

واذ ثبت بطلان القولين الاولين فالحق القول بالتفصيل ، يعني قبـول بعض الاخلاق بل اكثرها بالنسبة الى الاكثر التبديل للحس والعيان ، ولبطلان السياسات والشرائع لولاه ولامكان تغير خلق البهائم ، اذ ينتقـل الصيد من التوحش الى الانس والفرس من الجماح الى الانقياد والكلب من الهراشة الى التادب ، فكيف لايمكن في حق الانسان ، وعدم قبـول بعضها بالنسبة الى البعض له ، للمشاهدة والتجربة ، وهذا البعض مما لا يكون متعلق التكليف كالاخلاق المتعلقة بالقوة العقلية من الذكاء والحفظ وحسن التعقل وغيرها . والتصفح يعطي اختلاف الاشخاص والاخلاق في الازالة والاتصاف بالضد بالامكان والتعـذر والسهولة والتعسر وبالتقليل والرفع بالمرة ، ولذا لو تصفحت أشخاص العالم لم تجد شخصين متشابهين في جميع الاخلاق ، كما لاتجد اثنين متماثلين في الصورة . ويشير الى ذلك قوله صلى الله عليه وآله : « أعملوا فكل ميسر لما خلق له » .

وقال ارسطاليس : « يمكن صيرورة الاشـرار أعيارا بالتأديب الا أن هذا ليس كليا ، فانه ربما أثر في بعضهم بالزوال وفي بعضهم بالتقليل وربما لم يؤثر أصلا » .

ثم المراد من التغيير ليس رفع الغضب والشهوة مثلا واماتتهما بالكلية فان ذلك محال لانهما مخلوقتان لفائدة ضرورية في الجبلة ، اذ لو انقطـع الغضب عن الانسان بالكلية لم يدفع عن نفسه مايهلكه ويؤذيه وامتنع جهاد الكفار ، ولو انعدم عنه شهوة الطعام لم تبق حياته ، ولو بطل عنه شهوة الوقاع بالمرة لضاع النسل ، بل المراد ردهما من الافراط والتفريط الى

الوسط. فالمطلوب في صفة الغضب خلو النفس عن الجبن والتهور ، والاتصاف بحسن الحمية ، وهو ان يحصل اذا أستحسن حصوله شرعا وعقلا ، ولايحصل اذا استحسن عدمه كذلك . وكذا الحال في صفة الشهوة .

ولا ريب في ان رد بعض الموجودات الناقصة من القوى وغيرها اذا وجدت فيه قوة الكمال الى كماله ممكن اذا كان له شرط يرتبط بأختيار العبد ، فكما ان النواة يمكن ان تصير نخلا بالتربية ، لوجود قوة النخلية فيه . وتوقف فعليتها على شرط التربية التي بيد العبد . فكذلك يمكن تعديل قوتي الغضب والشهوة بالرياضة والمجاهدة ، لوجود قوة التعديل فيهما ، وتوقف فعليتهما على شرط ارتبط بأختيار العبد أعني الرياضة والمجاهدة ، وان لم يمكن لناقلعهما بالكلية ، كما لايمكن لنا أعدام شيء من الموجودات، ولا ايجاد شيء من المعدومات .

ثم شرائط الرد تختلف بالنسبة الى الاشخاص والاخلاق ، ولذا ترى ان التبديل يختلف بأختلاف مراتب السياسيات والتأديب ، فيمكن ان لايرتفع مذموم خلق بمرتبة من التأديب ، ويرتفع بمرتبة منه فوقها ، والاسهل قبول لكل خلق الاطفال لخلو نفوسهم عن الاضداد المانعة من القبول ، فيجب على الآباء تأديبهم بالآداب الجميلة ، وصونهم عن ارتكاب الاعمال القبيحة ، حتى تعتاد نفوسهم بترك الرذائل ، وارتكاب الفضائل ، والمؤدب الاول هوالناموس الالهي ، والثاني اولو الاذهان القويمة من أهل المعارف الحقة ، فيجب تقييد من يراد تأديبه بالنواميس الربانية أولا ، وتنبيهه بالحكم والمواعظ ثانيا .

فصل

شرف علم الاخلاق لشرف موضوعه وغايته

لما عرفت ان الحياة الحقيقية للانسان تتوقف على تهذيب الاخلاق الممكن بالمعالجات المقررة في هذه الصناعة ، تعرف أنها أشرف العلوم وانفعها لان شرف كل علم انما هو بشرف موضوعه أو غايته ، فشرف صناعة الطب على صناعة الدباغة بقدر شرف بدن الانسان واصلاحه على جلود البهائم ، وموضوع هذا العلم هو النفس الناطقة التي هي حقيقة الانسان ولبه ، وهو أشرف الانواع الكونية كما برهن عليه في العلوم العقلية ، وغايته اكمال وايصاله

من أول افق الانسان الى آخره ، ولكونه ذا عرض عريض متصلا أوله بأفق البهائم وآخره بأفق الملائكة ، لايكاد ان يوجد التفاوت الذي بين اشخاص هذا النوع في أفراد سائر الانواع ، فان فيه أخس الموجودات ومنه أشرف الكائنات كما قيل :

ولم أرَ أمثال الرجال تفاوتت   لدى المجدحتىعد ّ الفبواحد

وبالفارسية :

أي نقدأصل وفرع ندانم چه گوهري   كز آسمان بلندتر واز خاك كمتري

والى ذلك التفاوت يشير قول الرسل صلى الله عليه وآله وسلم : «اني وزنت بأمتي فرجحت بهم » ولا ريب في أن هذا التفاوت لأجل الاختلاف في الاخلاق والصفات ، لاشتراك الكل في الجسمية ولواحقها .

وهذا العلم هو الباعث للوصول الى أعلى مراتبهما ، وبه تتم الانسانية، ويعرج من حضيض البهيمية الى ذرى الرتب الملكية ، وأي صناعة أشرف مما يوصل أخس الموجودات الى أشرفها ، ولذلك كان السلف من الحكماء لايطلقون العلم حقيقة الا عليه ، ويسمونه بالاكسير الاعظم ، وكان أول تعاليمهم ، ويبالغون في تدوينه وتعليمه ، والبحث عن اجماله وتفصيله ، ويعتقدون ان المتعلم مالم يهذب أخلاقه لاتنفعه سائر العلوم .

وكما أن البدن الذي ليس بالنقي كلما غذوته فقد زدته شراً ، فكذلك النفس التي ليست نقية عن ذمائم الاخلاق لايزيده تعلم العلوم الا فسادا . ولذا ترى أكثر المتشبهين بزي العلماء أسوأ حالا من العوام مائلين عنوظائف الايمان والاسلام ، اما لشدة حرصهم على جمع المال ، غافلين عن حقيقة المآل ، أو لغلبة حبهم الجاه والمنصب ، ظنا منهم انه ترويج للدين والمذهب ، أو لوقوعهم في الضلالة والحيرة لكثرة الشك والشبهة ، أو لشوقهم الى المراء والجدال في أندية الرجال ، اظهارا لتفوقهم على الاقران والامثال ، او لاطلاق ألسنتهم على الآباء المعنوية من أكابر وأعاظم الحكماء ، ولعدم تعبدهم برسوم الشرع والملة ، ظنا منهم انه مقتضى قواعد الحكمة ، ولم يعلموا ان الحكمة الحقيقية ما أعطته النواميس الالهية والشرائع النبوية ، فكأنهم لم يعلموا أن العلم بدون العمل ضلال ، ولم يتفطنوا قول نبيهم صلى الله عليه

وآله وسلم : « قصم ظهري رجلان ، عالم متهتك ، وجاهل متنسك » ولم يتذكروا قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « البلاهة أدنى الى الاخلاص من فطانة بتراء » وكل ذلك ليس الا لعدم سعيهم في تهذيب الاخلاق وتحسينها وعدم الامتثال لقوله سبحانه :

واتو البيوت من ابوابها (٢٨) .

فصــل

النفس واسماؤها وقواها الاربع

ما عرفت من تجرد النفس انما هو التجرد في الذات دون الفعل لافتقارها فعلا الى الجسم والآلة ، فحدها أنها جوهر ملكوتي يستخدم البدن في حاجاته ، وهو حقيقة الانسان وذاته ، والاعضاء والقوى آلاته التي يتوقف فعله عليها ، وله اسماء مختلفة بحسب اختلاف الاعتبارات ، فيسمى (روحا) لتوقف حياة البدن عليه و (عقلا) لادراكه المعقولات و (قلبا) لتقلبه في الخواطر ، وقد تستعمل هذه الالفاظ في معان أخرى تعرف بالقرائن .

وله قوى أربع : قوة عقلية ملكية ، وقوة غضبية سبعية ، وقوة شهوية بهيمية ، وقوة وهمية شيطانية . و (الاولى) شأنها ادراك حقائق الامور ، والتمييز بين الخيرات والشرور ، والامر بالافعال الجميلة ، والنهي عن الصفات الذميمة و (الثانية) موجبة لصدور أفعال السباع من الغضب والبغضاء ، والتوثب على الناس بأنواع الاذى . و (الثالثة) لايصدر عنها الا أفعال البهائم من عبودية البهائم من عبودية الفرج والبطن ، والحرص على الجماع والاكل . و (الرابعة) شأنها استنباط وجوه المكر والحيل ، والتوصل الى الاغراض بالتلبيس والخدع .

والفائدة في وجود القوة الشهوية بقاء البدن الذي هو آلة تحصيل كمال النفس ، وفي وجود الغضبية أن يكسر سورة الشهوية والشيطانية ، ويقهرهما عند انغمارهما في الخداع والشهوات ، وأصرارهما عليهما ، لانهما لتمردهما لاتطيعان العاقلة بسهولة ، بخلاف الغضبية فانهما تطيعانها وتتأدبان بتأديبها بسهولة .

---

(٢٨) البقرة الآية ١٢٩ .

ولذا قال افلاطون في صفة السبعية والبهيمية : « أما هذه أي السبعية فهي بمنزلة الذهب في اللين والانعطاف ، وأما تلك اي البهيمية فهي بمنزلة الحديد في الكثافة والامتناع » وقال أيضا : « ما أصعب ان يصير الخائض في الشهوات فاضلا ،فمن لاتطيعه الواهمية والشهوية في ايثار الوسط فليستعن بالقوة الغضبية المهيجة للغيرة ، والحمية حتى يقهرهما » فلو لم يمتثلا مع الاستعانة فان لم تحصل له ندامة بعد ارتكاب مقتضاهما دل على غلبتهما على العاقلة ومقهوريتها عنهما ، وحينئذ لايرجى صلاحه ، والا فالاصلاح ممكن فليجتهد فيه ولا ييأس من روح الله ، فان سبل الخيرات مفتوحة ، وأبواب الرحمة الالهية غير مسدودة .

والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا (٢٩) .

والفائدة في القوة الوهمية ادراك المعاني الجزئية ، واستنباط الحيل والدقائق التي يتوصل بها الى المقاصد الصحيحة .

وبيان ذلك أن الواهمة والخيال والمتخيلة ثلاث قوى متباينة ، ومباينة للقوى الثلاث الاول ، وشأن الاولى ادراك المعاني الجزئية ، وشأن الثانية ادراك الصور ، وشأن الثالثة التركيب والتفصيل بينهما . وكل من مدركاتها اما مطابق للواقع ، او مخترع من عند انفسها من غير تحقق له في نفس الامر أيضا ، وأما من مقتضيات العقل والشريعة ، ومن الوسائل الى المقاصد الصحيحة ، او من دواعي الشيطان وما يقتضيه الغضب والشهوة ، وعلى الاول يكون وجودها خيرا وكمالا ، وان كان وجودها على الثاني شرا وفسادا . والحال في جميع القوى كذلك .

هذا وقيل : ما ورد في القرآن من النفس المطمئنة واللوامة والامارة بالسوء ، اشارة الى القوى الثلاث اعني العاقلة والسبعية والبهيمية .

والحق انها أوصاف ثلاثة للنفس بحسب اختلاف أحوالها ، فاذا غلبت قوتها العاقلة على الثلاث الاخر ، وصارت منقادة لها مقهورة منها ، وزال أضطرابها الحاصل من مدافعتها سميت « مطمئنة » ، لسكونها حينئذ تحت الاوامر والنواهي ، وميلها الى ملائماتها التي تقتضي جبلتها ، واذا لم تتم

---

(٢٩) العنكبوت الآية : ٦٩ .

غلبتها وكان بينها تنازع وتدافع ، وكلما صارت مغلوبة عنها بارتكاب المعاصى حصلت للنفس لوم وندامة سميت « لوامة » . واذا صارت مغلوبة منهـا مذعنة لها من دون دفاع سميت « امارة بالسوء » لانه لما اضمحلت قوتها العاقلة واذعنت للقوى الشيطانية من دون مدافعة ، فكأنما هي الآمرة بالسوء.

ثم مثل اجتماع هذه القوى في الانسان كمثل اجتماع ملك ، او حكيم وكلب وخنزير وشيطان في مربط واحد . وكان بينها منازعة ، وأيها صار غالبا كان الحكم له ، ولم يظهر من الافعال والصفات الا ما تقتضيه جبلته ، فكان اهاب الانسان وعاء اجتمع فيه هذه الاربع ، فالملك او الحكيم هو القوة العاقلة ، والكلب هو القوة الغضبية ، فان الكلب ليس كلبا ومذموما للونه وصورته بل لروح معنى الكلبية والسبعية اعنى الضراوة والتكلب على الناس بالعقر والجرح ، والقوة الغضبية موجبة لذلك ، فمن غلب فيه هذه القوة هو الكلب حقيقة ، وان اطلق عليه اسم الانسان مجازا ، والخنزير هو القوة الشهوية ، والشيطان هو القوة الوهمية ، والتقريب فيهما كما ذكر، والنفس لاتزال محل تنازع هذه القوى وتدافعها الى أن يغلب أحداها ، فالغضبية تدعوه الى الظلم والايذاء ، والبغضاء ، والبهيمية تدعوه الى المنكر والفواحش ، والحرص على المآكل والمناكح ، والشيطانية تهيج غضب السبعية وشهوة البهيمية ، وتزيد [٣٠] فعلهما ، وتغرى احداهما بالاخرى ، والعقل شأنه ان يدفع غيظ السبعية بتسليط الشهوية عليها ، ويكسر سورة الشهوية بتسليط السبعية عليها ، ويرد كيد الشيطان ومكره بالكشف عن تلبيسه ببصيرته النافـذة ، ونورانيتـه الباهرة ، فان غلب على الـكل بجعلهـا مقهورة تحت سياسته غير مقدمة على فعل الا باشارته جرى الكل على المنهج الوسط ، وظهر العدل في مملكة البدن ، وان لم يغلب عليها وعجز عن قهرها قهروه واستخدموه فلا يزال الكلب في العقر والايذاء ، والخنزير في المنكر والفحشاء ، والشيطان في استنباط الحيل ، وتدقيق الفكر في وجوه المكر والخدع ، ليرضى الكلب ويشبع الخنزير ، فلا يزال في عبادة كلب عقور ، او خنزير هلوع او شيطان عنود ، فتدركه الهلاكة الابدية ، والشقاوة السرمدية

(٣٠) وفى نسختنا الخطية هكذا « تزين » .

ان لم تغثه العناية الالهية ، والرحمة الازلية .

وقد يمثل اجتماع هذه القوى في الانسان براكب بهيمة طالب للصيد يكون معه كلب وعين من قطاع الطريق ، فالراكب هو العقل ، والبهيمة هي الشهوة ، والكلب هو الغضب ، والعين هو القوة الوهمية التي هي من جواسيس الشيطان ، فان كان الكل تحت سياسة الراكب فعل ما يصلح للكل ونال ما بصدده ، وان كانت الغلبة والحكم للبهيمة او الكلب لهلك الراكب بذهابه معهما فيما لايصلح له من التلال والوهاد ، واقتحامه في مواردالهلكات وان كان الكل تحت نهي العين وأمره ، وافتتنوا بخدعه ومكره لأضلهم بتلبيسه عن سواء السبيل حتى يوصلهم الى أيدي السارقين .

وكذلك لو كانت القوى بأسرها تحت اشارة العقل وقهرها وغلب عليها وقعت لانقيادها له المسالمة والممازجة بين الكل ، وصار الجميع كالواحد ، لأن المؤثر والمدبر حينئذ ليس الا قوة واحدة تستعمل كلا منها في المواضع اللائقة والاوقات المناسبة ، فيصدر عن كل منها ما خلق لأجله ، على ماينبغي من القدر والوقت والكيفية ، فتصلح النفس وقواها .

قد أفلح من زكاها (٢١) .

ولو لم يغلب العقل حصل التدافع والتجاذب بينه وبين سائر القوى ، ويتزايد ذلك الى أن يؤدي الى انحلال الآلة والقوة لو يصير العقل مغلوبا فتهلك النفس وقواها .

وقد خاب من دساها (٢٢) .

(تتميم) لما تبين ان للنفس اربع قوى متخالفة ، ولها قوى أخر أيضا كما تبين في العلم‌الطبيعي ، فبحسب غلبة بعض هذه القوى على بعض‌يحصل في النفس اختلاف عظيم ، والاختلاف في النفوس انما هو باختلاف صفاتها الحاصلة من غلبة بعض قواها المتخالفة .اذ هي في بدو فطرتها خالية عن جميع الاخلاق والملكات ، وليس لها فعلية ، بل هي محض القوة ، ولذا ليس

---

(٢١) الشمس الآية ٩ .
(٢٢) الشمس الآية ١٠ .

لها قوام بذاتها وانما تتقوم بالبدن ،ثم بتوسط قواها تكتسب العلوم والاخلاق وترتسم بالصور والاعمال الى ان تتقوم بها ، وتصل الى ما خلقت لأجله .

ولما كانت قواها متخالفة متنازعة فما لم يغلب أحداها لم تدخل النفس في عالمه [٣٣] الذي تخصه فلا تزال من تنازعها معركة للآثار المختلفة والاحكام المتباينة الى أن يغلب أحداها فتظهر في النفس آثاره ويدخل في عالمه الخاص.

ولما كانت القوة العاقلة من سنخ الملائكة ، والواهمة من حزب الابالسة والغضبية من أفق السباع ، والشهوية من عالم البهائم ، فبحسب غلبة واحدة منها تكون النفس اما ملكا أو شيطانا او كلبا او خنزيرا ، فلو كانت الغلبة والسلطنة لقهرمان العقل ظهر في مملكة النفس احكامه وآثاره ، وانتظمت أحوالها ، ولو كانت لغيره من القوى ظهر فيها آثاره فتهلك النفس ويختل معاشها ومعادها .

ثم المنشأ للتنازع والتجرد والبقاء في نفس الانسانية انما هو قوتها العقلية لأن التدافع انما بينها وبين سائر القوى ، فليس في نفوس سائر الحيوانات لفقدانها العاقلة تنازع وتجاذب وان اختلفت في غلبة ما فيها من القوى ، فان الغلبة في الشياطين للواهمة ، وفي السباع للغضب ، وأما الملائكة فتنحصر قوتها بالعاقلة فليس فيهاسائر القوى فلا يتحقق فيها تدافع وتنازع. فالجامع لعوالم الكل هوالانسان وهو المخصوص من بين المخلوقات بالصفات المتقابلة ، ولذلك صار مظهرا للأسماء المتقابلة الالهية ، وقابلا للخلافة الربانية وقائما بعمارة عالمي الصورة والمعنى .

والملائكة وان كانوا مخصوصين بالجنة الروحانية ولوازمها من الاشراقات العلمية ، وتوابعها من اللذات العقلية ، الا انه ليس لهم جهة جسمانية ولوازمها والاجسام الفلكية وان كانت لها نفوس ناطقة على قواعد الحكمة الا أنها خالية عن الطبائع المختلفة ، والكيفيات المتباينة ، وليس لها سير في المدارج المتخالفة ، والمراتب المتفاوتة ، ولا تقلب في أطوار النقص والكمال ، ولا تحول في جميع التقاليب والاحوال ، بخلاف الانسان فانه محيط بجميع المراتب المختلفة ، وسائر في الاطوار المتباينة من الجمادية والنباتية والحيوانية

---

(٣٣) في نسختنا الخطية هكذا « في علله التي تخصها » .

والملكية ، وله الترقي عن جميع تلك المراتب بأن تتحقق له مرتبة مشاهدة الوحدة الصرفة فيتجاوز عن افق الملائكة ، فهو النسخة الجامعة لحقائق الملك والملكوت ، والمعجون المركب من عالمي الامر والخلق ، قال امير المؤمنين (ع) « ان الله خص الملك بالعقل دون الشهوة والغضب ، وخص الحيوانات بهما دونه وشرّف الانسان باعطاء الجميع ، فان انقادت شهوته وغضبه لعقله صار أفضل من الملائكة لوصوله الى هذه المرتبة مع وجود المنازع والملائكة ليس لهم مزاحم » .

وصـــل

قد ظهر بما ذكر أن الانسان ذو جنبة روحانية يناسب بها الارواح الطيبة والملائكة القادسة ، وذو جنبة جسمانية يشابه بها السباع والانعام ، فبالجزء الجسماني أقيم في هذا العالم الحسي مدة قصيرة ، وبالجزء الروحاني ينتقل الى العالم العلوي ، ويقيم فيه أبدا في مصاحبة الارواح القدسية ، بشرط أن يتحرك بقواه نحو كمالاتها الخاصة ، حتى يغلب الجزء الروحاني على الجسماني وينفض عن نفسه كدورات الطبيعة ، وتظهر فيه آثار الروحانيات من العلم بحقائق الاشياء والانس بالله تعالى والحب له والتحلي بفضائل الصفات . وحينئذ يقوم بغلبة روحانيته بين الملأ الأعلى يستمد منهم لطائف الحكمة ، ويستنير بالنور الالهي ويزيد ذلك بحسب دفع العلائق الجسمية ، حتى اذا ارتفعت عنه حجب الغواسق الطبيعية بأسرها ، وازيلت عنه أستار العوائق الهيولانية برمتها ، خلي عن جميع الآلام والحسرات ، وكان أبدا مسرورا بذاته ، مغتبطا بحاله ، مبتهجا بما يرد عليه من فيوضات النور الاول ،ولا يسر الا بتلك اللذات ، ولا يغتبط الا بها ، ولا يهش الا باظهار الحكمة الحقة بين أهلها ، ولا يرتاح الا بمن ناسبه وأحب الاقتباس منه ، ولا يبالي بمفارقة الدنيا وما فيها ، ويرى جسمه وماله وجميع خيرات الدنيا وبالا وكلا عليه الا ما هو ضروري يحتاج اليه بدنه الذي يفتقر اليه في تحصيل كماله ، ويحن أبدا الى مصاحبة الذوات النورية ، ولا يفعل الا ما أراد الله تعالى منه ، ولا يتعرض الا لما يقربه اليه ، ولا يخالفه في متابعة الشهوات الردية ، ولاينخدع

بخدائع الطبيعة ، ولا يلتفت الى شيء يعوقه عن سعادته ، ولا يحزن على فقد محبوب ، ولا فوت مطلوب ، واذا صفى من الامور الطبيعية بالكلية زالت عنه العوارض النفسانية ، والخواطر الشيطانية بأسرها ، وفنى عنه ارادته المتعلقة بالامور الخارجة . وحينئذ يمتلى من المعارف الالهية ، والشوق الالهي والبهجة الالهية ، والشعار الالهي ، وتتقرر الحقائق في عقله كتقرر القضايا الاولية فيه ، بل يكون علمه بها أشد اشراقا وظهورا من علمه بها . واذا بلغ هذه الغاية فقد استعد للوصول الى المرتبة القصوى ، ومجاورة الملأ الأعلى فيصل الى مالا عين رأت ، ولا اذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ويفوز بما اشير اليه في الكتاب الالهي بقوله :

فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين (٣٤) .

فصل

الاقوال فى الخير والسعادة والتوفيق بينها

اعلم ان الغاية في تهذيب النفس عن الرذائل وتكميلها بالفضائل هو الوصول الى الخير والسعادة . والسلف من الحكماء قالوا : ان « الخير » على قسمين مطلق ومضاف ، والمطلق هو المقصود من ايجاد الكل ، اذ الكل يتشوقه وهو غاية الغايات ، والمضاف ما يتوصل به الى المطلق . و «السعادة» هو وصول كل شخص بحركته الارادية النفسانية الى كماله الكامن في جبلته . وعلى هذا فالفرق بين الخير والسعادة ان الخير لا يختلف بالنسبة الى الاشخاص والسعادة تختلف بالقياس اليهم .

ثم الظاهر من كلام ارسطاطاليس ان الخير المطلق هو الكمالات النفسية والمضاف ما يكون معدا لتحصيلها كالتعلم والصحة ، او نافعا فيه كالمكنة والثروة .

واما السعادة فعند الأقدمين من الحكماء راجعة الى النفوس فقط ، وقالوا ليس للبدن فيها حظ ، فحصروها في الأخلاق الفاضلة ، واحتجوا على ذلك بأن حقيقة الانسان هي النفس الناطقة والبدن آلة لها ، فلا يكون ما يعد كمالا له سعادة للانسان . وعند المتأخرين منهم كأرسطو ومن تابعه راجعة الى الشخص حيث التركيب ، سواء تعلقت بنفسه أو بدنه ، لأن كل ما يلائم جزءا

---

(٣٤) السجدة الآية : ١٧ .

من شخص معين فهو سعادة جزئية بالنسبة اليه ، مع انه يتعسر صدور الافعال الجميلة بدون اليسار ، وكثرة الأعوان والانصار ، والبخت المسعود ، وغير ذلك مما لا يرجع الى النفس ، ولذا قسموا السعادة الى ما يتعلق بالبدن من حيث هو كالصحة واعتدال المزاج ، والى ما يتوصل به الى افشاء العوارف ، ومثله مما يوجب استحقاق المدح كالمال وكثرة الاعوان ، والى ما يوجب حسن الحديث وشيوع المحمدة ، والى ما يتعلق بانجاح المقاصد والأغراض على مقتضى الامل ، والى ما يرجع الى النفس من الحكمة والاخلاق المرضية . وقالوا كمال السعادة لا يحصل بدون هذه الخمسة ، وبقدر النقصان فيها تنقص . قالوا وفوق ذلك سعادة محضة لا تدانيها سعادة ، وهو ما يفيض الله سبحانه على بعض عباده من المواهب العالية ، والاشراقات العلمية ، والابتهاجات العقلية بدون سبب ظاهر .

ثم الاقدمون لذهابهم الى نفي السعادة للبدن صرحوا بأن السعادة العظمى لا تحصل للنفس ما دامت متعلقة بالبدن ، وملوثة بالكدورات الطبيعية، والشواغل المادية، بل حصولها موقوف عنها، لان السعادة المطلقة لا تحصيل لها ما لم تصر مشرقة بالاشراقات العقلية ، ومضيئة بالانوار الإلهية ، بحيث يطلق عليها اسم التام ، وذلك موقوف على تخلصها التام عن الظلمة الهيولانية، والقصورات المادية .

وأما المعلم الاول واتباعه فقالوا ان السعادة العظمى تحصل للنفس مع تعلقها بالبدن أيضا ، لبداهة حصولها لمن استجمع الفضائل بأسرها، واشتغل بتكميل غيره. وما أقبح أن يقال مثله ناقص واذا مات يصير تاما ، فالسعادة لها مراتب ، ويحصل للنفس الترقي في مدارجها بالمجاهدة الى أن تصل الى أقصاها وحينئذ يحصل تمامها وان كان قبل المفارقة، وتكون باقية بعدها ايضا.

ثم المتأخرون عن الطائفتين من حكماء الاسلام قالوا ان السعادة في الاحياء لا تتم الا باجتماع ما يتعلق بالروح والبدن ، وأدناها ان تغلب السعادة البدنية على النفسية بالفعل ، الا ان الشوق الى الثانية ، والحرص على اكتسابها يكون أغلب ، وأقصاها أن تكون الفعلية والشوق كلاهما في الثانية أكثر ، الا انه قد يقع الالتفات الى هذا العالم وتنظيم أموره بالعرض .

وأما في الاموات فيختص بما يتعلق بالنفس فقط لاستغنائهم عن الامور

البدنية ، فتختص السعادة فيهم بالملكات الفاضلة ، والعلوم الحقة اليقينية ، والوصول الى مشاهدة جمال الأبد ، ومعاينة جـلال السرمد . وقالوا ان الاولى لشوبها بالزخارف الحسية ، والكدورات الطبيعية ناقصة كدرة ، وأما الثانية فلخلوها عنها تامة صافية ، لأن المتصف بها يكون أبدا مستنيرا بالأنوار الإلهية ، مستضيئا بالاضواء العقلية ، مستهترا [٣٥] بذكر الله وانسه ، مستغرقا في بحر عظمته وقدسه ، وليس له التفات الى ما سوى ذلك ، ولا يتصور له تحسر على فقده لذة أو محبوب ، ولا شوق الى طلب شيء مرغوب ، ولا رغبة الى أمر من الامور ، ولا رهبة من وقوع محذور ، بل يكون منصرفا بجزئه العقلي مقصورا همه على الامور الإلهية من دون التفات الى غيرها .

وهذا القول ترجيح لطريقة المعلم الاول ، من حيث اثبات سعادة للبدن ، ولطريقة الأقدمين من حيث نفي حصول السعادة العظمى للنفس ما دامت متعلقة بالبدن . وهو «الحق المختار» عندنا ، اذ لا ريب في كون ما هو وصلة الى السعادة المطلقة سعادة اضافية . ومعلوم ان غرض القائل بكون متعلقـات الأبدان كالصحة والمال والاعوان سعادة انها سعادة اذا جعلت آلة لتحصيل السعادة الحقيقية لا مطلقا ، اذ لا يقول عاقل ان الصحة الجسمية ، والحطام الدنيوي سعادة ، ولو جعلت وسيلة الى اكتساب سخط الله وعقابه ، وحاجبة عن الوصول الى دار كرامته وثوابه . وكذا لا ريب في أن النفس ما دامت متعلقة بالبدن مقيدة في سجن الطبيعة لا يحصل لها العقل الفعلي ، ولا تنكشف لها الحقائق كما هي عليه انكشافا تاما ، ولا تصل الى حقيقة ما يترتب على العلم والعمل من الابتهاجات العقلية واللذات الحقيقيـة . ولـو حصلت لبعض المتجردين عن جلباب البدن يكون في آن واحد ويمر كالبرق الخاطف .

هذا وقد ظهر من كلمات الجميع ان حقيقة الخير والسعادة ليست الا المعارف الحقة ، والاخلاق الطيبة ، والامر وان كان كذلك من حيث ان حقيقتهما ما يكون مطلوبا لذاته ، وباقيا مع النفس ابدا وهما كذلك ، الا انه لا ريب في ان ما يترتب عليهما من حب الله وانسه ، والابتهاجات العقلانية ، واللذات الروحانية مغاير لهما من حيث الاعتبار ، وان لم ينفك عنهما ، ومطلوبيته

---

(٣٥) مستهترا به على بناء اسم المفعول اي مولع به لا لمتحدث بغيره .

لذاته أشد وأقوى ، فهو باسم الخير والسعادة أولى واحرى ،وان كان الجميع خيرا وسعادة • وبذلك يحصل الجمع بين اقوال أرباب النظر والاستدلال ، وأصحاب الكشف والحال ، واخوان الظاهر من أهل المقال ، حيث ذهبت (الفرقة الاولى) الى ان حقيقة السعادة هو العقل والعلم ، و (الثانية) الى انها العشق ، و (الثالثة) الى انها الزهد ، وترك الدنيا •

فصــل

لاتحصل السعادة الا باصلاح جميع الصفات والقوى دائما

لا تحصل السعادة الا باصلاح جميع الصفات والقوى دائما ، فلا تحصل باصلاحها بعضا دون بعض ، ووقتا دون وقت ، كما ان الصحة الجسمية ، وتدبير المنزل، وسياسة المدن لا تحصل الا باصلاح جميع الاعضاء والاشخاص والطوائف في جميع الاوقات ، فالسعيد المطلق من أصلح جميع صفاته وأفعاله على وجه الثبوت والدوام بحيث لا يغيره تغير الاحوال والازمان ، فلا يزول صبره بحدوث المصائب والفتن ، ولا شكره بورود النوائب والمحن ، ولا يقينه بكثرة الشبهات ، ولا رضاه بأعظم النكبات ، ولا احسانه بالاساءة ، ولا صداقة بالعداوة • وبالجملة لا يحصل التفاوت في حاله ، ولو ورد عليه ما ورد على ايوب النبي عليه السلام أو على برناس الحكيم ، لشهامة ذاتــه ، ورسوخ أخلاقه وصفاته، وعدم مبالاته بعوارض الطبيعة ، وابتهاجه بنورانيته وملكاته الشريفة • بل السعيد الواقعي لتجرده وتعاليه عن الجسمانيات خارج عن تصرف الطبائع الفلكية ، متعال عن تأثير الكواكب والاجرام الاثيرية فلا يتأثر عن سعدها ونحسها ، ولا ينفعل عن قمرها وشمسها • أهل التسبيح والتقديس لا يبالون بالتثليث والتسديس ، وربما بلغ تجردهم وقوة نفوسهم مرتبة تحصل لهم ملكة الاقتدار على التصرف في مواد الكائنات ، ولو في الأفلاك وما فيها، كما حصل لفحل الانبياء وسيد الاوصياء صلوات الله عليهما وآلهما من شق القمر وردّ الشمس •

وقد ظهر مما ذكر ان من يجزع بورود المصائب الدنيوية ، ويضطرب من الكدورات الطبيعية ، ويدخل نفسه في معرض شماتة الاعــداء وترحم

الأحباء ، خارج عن زمرة السعداء ، لضعف غريزتهوغلبة الجبن على طبيعته، وعدم نيله بعد الى الابتهاجات التي تدفع عن النفس امثال ذلك .

ومثله لو تكلف الصبر والرضا وتشبه ظاهرا بالسعداء لكان في الباطن متألما مضطربا ، وهذا ليس سعادة لأن السعادة الواقعية انما هو صيرورة الاخلاق الفاضلة ملكات راسخة بحيث لا تغيرها المغيرات ظاهرا وباطنا . بلغنا الله وجميع الطالبين الى هذا المقام الشريف .

فصل

غاية السعادة التشبيه بالمبدا

صرح الحكماء بأن غاية المراتب للسعادة أن يتشبه الانسان في صفاته بالمبدأ : بأن يصدر عنه الجميللكونه جميلا ، لا لغرضآخر من جلبمنفعة، أو دفعمضرة ، وانما يتحقق ذلك اذا صارت حقيقته المعبر عنها بالعقل الإلهي والنفس الناطقة خيرا محضا ، بأن يتطهر عن جميع الخبائث الجسمانية ، والاقذار الحيوانية ،ولا يحوم حوله شيء من العوارض الطبيعية ، والخواطر النفسانية، ويمتليء من الانوار الالهية ،والمعارف الحقيقية ، ويتيقن بالحقائق الحقة الواقعية ، ويصير عقلا محضا بحيث يصير جميع معقولاته كالقضايا الاولية ، بل يصير ظهورها أشد ، وانكشافها أتم ، وحينئذ يكون له اسوة حسنة بالله سبحانه ، في صدور الافعال وتصير إلهية أي شبيهة بأفعال الله سبحانه في أنه لصرافة حسنة يقتضي الحسن ، ولمحوضة جماله يصدر عنه الجميل من دون داع خارجي ، فتكون ذاته غاية فعله ، وفعله غرضه بعينه ، وكلما يصدر عنه بالذات وبالقصد الاول فانما يصدر لأجل ذاته ، وذات الفعل وان ترشحت منه الفوائد الكثيرة على الغير بالقصد الثاني وبالعرض. قالوا واذا بلغ الانسان هذه المرتبة فقد فاز بالبهجة الالهية ، واللذة الحقيقية الذاتية ، فيشمئز طبعه من اللذات الحسية الحيوانية ، لأن من أدرك اللذة الحقيقية علم انها لذّة ذاتية، والحسية ليست لذة بالحقيقة لتصرمها ودثورها وكونها دفع وألم .

وأنت خبير بأن هذا التصريح محل تأمل لمخالفته ظواهر الشرع فتأمل.

فصــل

بازاء كل واحدة من القوى الاربع لذة وألم

لما عرفت أن القوى في الانسان اربع : قوة نظرية عقلية ، وقوة وهمية خيالية ، وقوة سبعية غضبية ، وقوة بهيمية شهوية ــ فاعلم انه بازاء كل واحدة منها لذة وألم ، لأن اللذة ادراك الملائم ، والالم ادراك غير الملائم ، فلكل من الغرائز المدركة لذة هو نيله مقتضى طبعه الذي خلق لأجله ، وألم هو ادراكه خلاف مقتضى طبعه :

(فغريزة العقل) لما خلقت لمعرفة حقائق الامور ، فلذتها في المعرفةوالعلم، وألمها في الجهل ، و (غريزة الغضب) لما خلقت للتشفي والانتقام فلذتها في الغلبة التي يقتضيها طبعها وألمها في عدمها ، و (غريزة الشهوة) لما خلقت لتحصيل الغذاء الذي به قوام البدن ، فلذتها في نيل الغذاء ، وألمها في عدم نيله ، وهكذا في غيرها ، فاللذات والآلام أيضا على أربعة اقسام : العقلية والخيالية والغضبية والبهيمية .

فاللذة العقلية كالانبساط [٣٦] الحاصل من معرفة الاشياء الكلية وادراك الذوات المجردة النورية ، والالم العقلي كالانقباض الحاصل من الجهل . واللذة الخيالية كالفرح الحاصل من ادراك الصور والمعاني الجزئية الملائمة ، والالم الخيالي كأدراك غير الملائمة منها . واللذة المتعلقة بالقوة الغضبية كالانبساط الحاصل من الغلبة ونيل المناصب والرياسات ، والالم المتعلق بها كالانقباض الحاصل من المغلوبية والعزل والمرؤسية . واللذة البهيمية هي المدركة من الاكل والجماع وأمثالهما ، والالم البهيمي ما يدرك من الجوع والعطش والحر والبرد وأشباهها . وهذه اللذات والآلام تصل الى النفس وهي الملتذة والمتألمة حقيقة الا أن كلا منها يصل اليها بواسطة القوة التي تتعلق بها . والفرق بين الكل ظاهر .

وربما يشتبه بين ما يتعلق بالوهم والخيال وما يتعلق بالقوة الغضبية من حيث أشتراكهما في الترتب على التخيل .

ويدفع الاشتباه بأن ما يتعلق بالغضبية وان توقف على التخيل الا أن

---

(٣٦) وفى النسخة المخطوطة عندنا « الابتهاج » .

المتأثر بالالتذاذ والتألم بعد التخيل هو الغضبية وبواسطتها تتأثر النفس ، ففي هذا النوع من اللذة والالم تتأثر الغضبية لم تتأثر النفس .

وأما ما يتعلق بالوهم والخيال فالمتأثر بالالتذاذ والتألم هاتان القوتان ويصل التأثر منهما الى النفس من دون توسط القوة الغضبية .

ومما يوضح الفرق ان الالتذاذ والتألم الخياليين لايتوقفان على وجود غلبة ومغلوبية مثلا في الخارج ، وأما الغضبيان فيتوقفان عليهما .

ثم أقوى اللذات هي العقلية لكونها فعلية ذاتية غير زائلة باختلاف الاحوال ، وغيرها من اللذات الحسية انفعالية عرضية منفعلة زائلة ، وهي في مبدأ الحال مرغوبة عند الطبيعة ، وتتزايد بتزايد القوة الحيوانية، وتتضعف بعضها الى أن تنتفي بالمرة ، ويظهر قبحها عند العقل ، وأما العقلية فهي في البداية منتفية ، لان ادراكها لايحصل الا للنفوس الزكية المتحلية بالاخلاق المرضية ، وبعد حصولها يظهر حسنها وشرفها ، وتتزايد بتزايد القوة العقلية، الى أن ينتهي الى أقصى المراتب ، ولا يكون لها نقص ولا زوال .

والعجب ممن ظن انحصار اللذة في الحسية وجعلها غاية كمال الانسان وسعادته القصوى .والمتشرعون منهم قصروا اللذات الآخرة على الجنة والحور والغلمان وأمثالها ، وآلامها على النار والعقارب والحيات وأشباهها ، وجعلوا الوصول الى الاولى والخلاص عن الثانية غاية لزهدهم وعبادتهم ، وكأنهم لم يعلموا أن هذه عبادة الاجراء والعبيد تركوا قليل المشتبهات ليصلوا الى كثيرها . وليت شعري أن ذلك كيف يدل على الكمال الحقيقي والقرب من الله سبحانه ! ولا أدري أن الباكي خوفا من النار وشوقا الى اللذات الجسمية المطلوبة للنفس البهيمية كيف يعد من أهل التقرب الى الله سبحانه ويستحق التعظيم ويوصف بعلو الرتبة ! وكأنهم لم يدركوا الابتهاجات الروحانية ، ولا لذة المعرفة بالله وحبه وانسه ولم يسمعوا قول سيد الموحدين [٣٧](ص) « الهي ما عبدتك خوفا من نارك ولا طمعاً في جنتك ولكن وجدتك أهلا للعبادة فعبدتك » .

وبالجملة لا ريب في أن الانسان في اللذة الجسمية يشارك الخنافس

---

(٣٧) المعنى به هو امير المؤمنين علي عليه الصلاة والسلام .

والديدان والهمج من الحيوان ، وانما يشابه الملائكة في البصيرة الباطنة والاخلاق الفاضلة ، وكيف يرتضي العاقل أن يجعل النفس الناطقة الشريفة خادمة للنفس البهيمية الخسيسة .

والعجب من هؤلاء الجماعة [٣٨] مع هذا الاعتقاد يعظمون من يتنزه عن الشهوات الحيوانية ويستهين باللذات الحسية ويتخضعون له ويعدون أنفسهم أشقياء بالنسبة اليه ، ويذعنون أنه أقرب الناس الى الله سبحانه وأعلى رتبة منهم بتنزهه عن الشهوات الطبيعية ، وقد اتفق كلهم على تنزه مبدع الكل وتعاليه عنها مستدلين بلزوم النقص فيه لولاه ، وكل ذلك يناقض رأيهم الاول .

والسر فيه أنهم وان ذهبوا الىهذا الرأي الفاسد الا أنه لما كانت غريزة العقل فيهم بعد موجودة ، وان كانت ضعيفة ، فيرى ما هو كمال حقيقي لجوهرها كمالا ، ويحكم بنورانيتها الذاتية ، على كون ما هو فضيلة في الواقع فضيلة ، وما هو رذيلة في نفس الامر رذيلة ، فيضطرهم الى اكرام أهل التنزه عن الشهوات ، والاستهانة بالمكبين عليها .

ومما يدل على قبح اللذات الحيوانية ان أهلها يكتمونها ويخفون ارتكابها ويستحيون عن اظهارها ، واذا وصفوا بذلك تتغير وجوههم ، كما هو ظاهر من وصف الرجل بكثرة الاكل والجماع ، مع ان الجميل على الاطلاق يحسن اذاعته ، وصاحبه يحب أن يظهره ويوصف به ، هذا مع أن البديهة حاكمة بأن هذه اللذات ليست لذات حقيقية ، بل هي دفع آلام حادثة للبدن [٣٩] فان ما يتخيل لذة عند الاكل والجماع انما هو راحة من آلم الجوع ولذع المني ولذا لايلتذ الشبعان من الاكل ، ومعلوم أن الراحة من الالم ليس كمالا وخيرا ، اذ الكمال الحقيقي والخير المطلق ما يكون كمالا وخيرا أبدا .

---

(٣٨) المراد هم الذين حضروا اللذات فى الحسية والكلام كله فى هذا الراي .

(٣٩) الحق ان كل لذة بدنية ونفسية انما هي اشباع شهوة او غريزة تتطلب الاشباع ، حتى طلب المعارف والعلم أنما هولاشباع غريزة حب الاستطلاع الا ان طلب العلم لايصل الى حد الاشباع ابدا ، ولذا قال صلى الله عليه وآله وسلم : « منهومان لايشبعان طالب علم ، وطالب مال » وليست كذلك الغريزة الجنسية وغريزة حب الاكل وأمثالهما فانها تصل الى حد الاشباع فتكتفي .

ايقاظ

فيه موعظة ونصيحة

لما عرفت أن الانسان في اللذة العقلية يشارك الملائكة ، وفي غيرها من الحسية المتعلقة بالقوى الثلاث ، أعني السبعية والبهيمية والشيطانية ، يشارك السباع والبهائم والشياطين — فأعلم ان من غلبت عليه احدى اللذات الاربع كانت مشاركته لماينسب اليه أكثر حتى اذا صارت الغلبة تامة لكان هو هو .

فأنظر ياحبيبي أين تضع نفسك ، فان الغلبة لو كانت لقوتك الشهوية حتى يكون أكثر همك الشهوات الحيوانية كالاكل والشرب والجماع وسائر النزوات البهيمية ، كنت واحدا من البهائم . وان كانت لقوتك الغضبية حتى يكون جلّ ميلك الى المناصب والرياسات الردية ، وايذاء الناس بالضرب والشتم ، وباقي الحركات السبعية ، نزلت منزلة السباع . وان كانت لقوتك الشيطانية حتى يكون غالب سعيك في استنباط وجوه المكر والحيل للوصول الى مقتضيات قوتي الشهوة والغضب بأنواع الخداع والتلبيسات الوهمية دخلت في حزب الابالسة . وان كانت لقوتك العقليـة حتى يكون جـدك مقصورا على « أخذ » [٤٠] المعارف الالهية واقتناء [٤١] الفضائل الخليقة عرجت الى افق الملائكة القادسية . فمن كان عاقلا غير عدو لنفسه وجب عليه أن يصرف جل همه في تحصيل السعادة العلمية والعملية ، وازالة النقائض الكامنة في نفسه ، وليقتصر على الامور الشهوانية ، واللذات الجسمانية بقدر الضرورة ، بأن يكتفي من الغذاء بما يحفظ أعتدال مزاجه وقوام حياته ، ولا يكون قصده منه الالتذاذ ، بل سد الضرورة ودفع الالم ، ولا يضيع وقته في تحصيل أزيد من ذلك ، فان تجاوز عنه فبقدر ما يحفظ رتبته ، ولا يوجب مهانته وذلته ، ومن اللباس بقدر ما يستر العورة ، ويدفع الحر والبرد ، فان تجاوز عن ذلك فبقدر ما لايؤدي الى حقارته ، ولا يوجب السقوط بين أقرانه وأهل طبقته ، ومن الجماع بقدر ما يحفظ نوعه ، ويبقى

---

(٤٠) لم توجد فى نسختنا الخطية ولكنها موجودة فى نسخة خطية اخرى وفى المطبوعة .

(٤١) فى نسختنا الخطية هكذا « واقتناء » .

نسله ، وان تعدى فبقدر مالا يخرجه عن السنة ، وليحذر عن الانهماك في مقتضيات قوتي الشهوة والغضب ، لانه يوجب الشقاوة الدائمة والهلاكة السرمدية . فالله الله في نفوسكم معاشر الاخوان أدركوها قبل ان تغرقوا في بحار المهالك ، وتنبهوا عن نوم الغفلة قبل أن تنسد عليكم السبل والمهالك ، وبادروا الى تحصيل السعادات قبل ان تستحكم فيكم الملكات المهلكة ، والعادات المفسدة ، فان ازالة الرذائل بعد استحكامها في غاية الصعوبة والمجاهدة مع أحزاب الشياطين بعد الكبر قلما يفيد الاثر ، والغلبة على النفس الامارة بعد ضعف الهرم في غاية الاشكال ، الا أنه في أي حال لاينبغي أن تيأسوا من روح الله ، فأجتهدوا بقدر القوة والاستطاعة ، فانه خير من التمادي في الباطل ، فلعل الله يدركم بعظيم رحمته .

ولقد قال الشيخ [٤٢] الفاضل احمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه وهو الاستاذ في علم الاخلاق ، وأقدم الاسلاميين في تدوينه : « اني تنبهت عن نوم الغفلة بعد الكبر واستحكام العادة ، فتوجهت الى فطام نفسي عن رذائل الملكات ، وجاهدت جهادا عظيما حتى وفقني الله لاستخلاصها عما يهلكها ، فلا ييأس أحد من رحمة الله ، فان النجاة لكل طالب مرجوة ، وأبواب الافاضة أبدا مفتوحة » فبادروا اخواني الى تهذيب نفوسكم قبل

(٤٢) هو الحكيم الاعظم والفيلسوف الاكبر « ابو علي احمد بن محمد » بن يعقوب ابن مسكويه الخازن « الرازي » الاصل والاصفهاني المسكن والخاتمة كان من اعيان العلماء وأركان الحكماء معاصرا للشيخ ابي علي بن سينا . صحب الوزير المهلبي فى ايام شبابه وكان من خاصته الى ان اتصل بصحبة « عضد الدولة » البويهي فصار من كبار ندمائه ورسله الى نظرائه ثم اختص بالوزير « ابن العميد » وابنه « ابي الفتح » له مؤلفات كثيرة بعضها فى الحكمة ومنه كتاب « الفوز الاكبر » وكتاب « الفوز الاصغر » « وجاويدان خرد » بالفارسية فى الحكمة وهو يقرب من خمسة آلاف بيت وبعضها فى التأريخ ومنه « تجارب الامم » وبعضها فى الاخلاق ومنه كتاب « الطهارة » المشهور وهو الذي قصده « المصنف ره » هنا لانه اول كتاب صنف فى علم الاخلاق ، وقد مدحه استاذ البشر وأعلم اهل البدو والحضر الحجة الاعظم الفيلسوف المحقق الخواجة «نصير الدين الطوسي » قدس سره بأبيات . وكان (ره) من علمائنا الامامية قدس الله اسرارهم وقبره (بأصفهان) على باب (درب جناد) وقد اشتهر ان السيد (الدماد) الذي كان من اعاظم علمائنا واكابر حكمائنا كان كلما أجتاز يقف على قبره ويقرأ الفاتحة (الترجمة عن الكنى والالقاب للمحدث الشهير الحاج شيخ (عباس القمي) قدس سره مع تصرف يسير منا) .

أن يصير الرئيس مرؤسا ، والعقل مقهورا ، فيفسد جوهركم ، وتمسخ حقيقتكم ، ويدركم الانتكاس في الخلق الذي هو خروج عن أفق الانسان ودخول في زمرة البهائم والسباع والشياطين ، نعوذ بالله ونسأله العصمة من الخسران الذي لانهاية له . وقد شبه الحكماء من أهمل سياسة نفسه الغافلة بمن له ياقوتة شريفة حمراء ، فرماها في نار مضطرمة فيحرقها ، حتى تصير كلسا [٤٣] لا منفعة فيها .

(تتميم) ولا تظنن أن ما يفوت عن النفس من الصفاء والبهجة لأجل مايعتريها من الكدرة الحاصلة من معصية من المعاصي يمكن تداركه ، فان ذلك محال ، اذ غاية الامر أن تتبع تلك المعصية بحسنة تمحى آثارها ، وتعيد النفس الى ماكانت عليه قبل تلك المعصية ، فلا تزداد بتلك الحسنة اشراقا وسعادة ، ولو جاء بها من دون سيئة لزاد بها نور القلب وبهجته ، وحصلت له درجة في الجنة ، ولما تقدمت السيئة سقطت هذه الفائدة وانحصرت فائدتها في مجرد عود القلب الى ما كان عليه قبلها ، وهذا نقصان لا حيلة لجبره ، ومثال ذلك ان المرآة التي تدنست بالخبث والصدأ اذا مسحت بالمصقلة وان زال به هذا الخبث ، الا أنه لاتزيد به جلاء وصفاء ، بخلاف ما اذا لم تتدنس أصلا ، فان التصقيل يزيدها صفاء وجلاء ، والى ما ذكر أشار النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله : « من قارف ذنبا فارقه عقل لم يعد اليه أبدا » .

---

(٤٣) الكلس ما يقوم به الحجر والرخام ونحوهما ويتخذ منها باحراقها .

الباب الثاني

فى بيان اقسام الاخلاقي وتفصيل القول فيها

وفيــه فصول

أجناس الفضائل الاربعة والاقوال في حقيقة العدالة ـ حقيقة العدالة انقياد العقل العملي للعقل النظري ولوازم الاقوال في العدالة ـ العقل النظري هو المدرك للفضائل والرذائل ـ دفع أشكال في تقسيم الحكمة ـ تحقيق الوسط والاطراف ـ أجناس الرذائل وأنواعها ـ الفرق بين الفضيلة الرذيلة ـ العدالة أشرف الفضائل ـ أصلاح النفس قبل اصلاح الغير وأشرف وجوه العدالة عدالة السلطان ـ لاحاجة الى العدالة مع رابطـة المحبة ـ التكميـل الصناعي لاكتساب الفضائل على طبق ترتيب الكمال الطبيعي .

فصـــل

اجناس الفضائل الاربع والاقوال في حقيقة العدالة

قد تبين في العلم الطبيعي ان للنفس الناطقة قوتين : «اولاهما» : قوة الادراك و «ثانيتهما» : قوة التحريك ، ولكل منهما شعبتان : (الشعبة الاولى) للاولى العقل النظري ، وهو مبدأ التاثر عن المبادىء العالية بقبول الصور العلمية ،و (الشعبة الثانية) لها العقل العملي ، وهو مبدأ تحريك البدن في الاعمال الجزئية بالروية[1] . وهذه اشعبة من حيث تعلقها بقوتي الشهوة والغضب مبدأ «لحدوث»[2] بعض الكيفيات الموجبة لفعل أو انفعال ، كالخجل والضحك والبكاء وغير ذلك ، ومن حيث استعمالها الوهم والمتخيلة مبـدأ لاستنباط الآراء والصنائع الجزئية . ومن حيث نسبتها بالعقل وحصـول الازدواج بينهما سبب لحصول الاراء الكليه المتعلقة بالاعمال كحسن الصدق، وقبح الكذب، ونظائرهما . (الشعبة الاولى) للثانية قوة الغضب وهي مبدأ دفع غير الملائم على وجه الغلبة ، و (اشعبة الثانية) لها قوة الشهوة وهي مبدأ جلب الملائم .

ثم اذا كانت القوة الاولى غالبة على سائر القوى ولم تنفعل عنها ، بل كانت هي مقهورة عنها مطيعة لها فيما تأمرها به وتنهاها عنه ، كان تصرف كل منها على وجه الاعتدال ، وانتظمت امور النشأة الانسانية ، وحصل تمام القوى الاربع وتمازجها ، فتهذب كل واحد منها ، ويحصل له ما يخصه من الفضيلة ، فيحصل من تهذيب العاقلة العلم وتتبعه الحكمة ، ومن تهـذيب العاملة العدالة ، ومن تهذيب الغضبية الحلم وتتبعه الشجاعة ، ومن تهذيب الشهوية العفة وتتبعه السخاوة . وعلى هذا تكون العدالة كمالا للقوة العملية.

بطريق آخر

قيل : ان النفس لما كانت ذات قوى اربع العاقلة والعاملة والشهوية

---

(١) اذا كان العقل العملي مبدا لتحريك البدن فهو قوة تحريك لا قوة ادراك وفي الحقيقة ان غرضهم من العقل العملي هو ادراك ما ينبغي ان يعمل.

(٢) وفي النسخة المخطوطة عندنا « الحصول » .

والغضبية ، فان كانت حركاتها على وجه الاعتدال ، وكانت الثلاث الاخيرة مطيعة للاولى ، واقتصرت من الافعال على ما تعين لها ، حصلت اولا فضائل ثلاث هي الحكمة والعفة والشجاعة ، ثم يحصل من حصولها المترتب على تسالم القوى الاربع ، وانقهار الثلاث تحت الاولى حالة متشابهة هي كمال القوى الاربع وتمامها ، وهي العدالة . وعلى هذا لا تكون العدالة كمالا للقوة العملية فقط ، بل تكون كمالا للقوى بأسرها .

وعلى الطريقين تكون اجناس الفضائل اربعا : «الحكمة» وهي معرفة حقائق الموجودات على ما هي عليه والموجودات ان لم يكن وجودها بقدرتنا واختيارنا فالعلم المتعلق بها هو الحكمة النظرية ، وان كان وجودها بقدرتنا واختيارنا فالعلم المتعلق بها هو الحكمة العملية . «والعفة» هي انقياد القوة الشهوية للعاقلة فيما تأمرها به وتنهاها عنه حتى تكتسب الحرية ، وتتخلص عن اسر عبودية الهوى . «والشجاعة» وهي اطاعة القوة الغضبية للعاقلة في الاقدام على الامور الهائلة ، وعدم اضطرابها بالخوض فيما يقتضيه رأيها حتى يكون فعلها ممدوحا ، وصبرها محمودا . وتفسير هذه الفضائل الثلاث لا يتفاوت بالنظر الى الطريقين .

وأما «العدالة» فتفسيرها على الطريق الاول هو انقياد العقل العملي للقوة العاقلة وتبعيته لها في جميع تصرفاته، أو ضبطه الغضب والشهوة تحت اشارة العقل والشرع الذي يحكم العقل ايضا بوجوب اطاعته ، او سياسة قوتي الغضب والشهوة ، وحملها على مقتضى الحكمة ، وضبطهما في الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاه . والى هذا يرجع تعريف الغزالي « انها حالة للنفس وقوة بها يسوس الغضب والشهوة ، ويحملهما على مقتضى الحكمة، ويضبطهما في الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاها » اذ المراد من الحالة والقوة هنا قوة الاستعلاء التي للعقل العملي لا نفس القوة العملية.

وتفسيرها على الطريق الثاني هو ائتلاف جميع القوى ، واتفاقها على امتثالها للعاقلة ، بحيث يرتفع التخالف والتجاذب ، وتحصل لكل منها فضيلته المختصة به . ولا ريب في ان اتفاق جميع القوى وائتلافها هو كمال لجميعها لا للقوة العملية فقط .

أللهم الا أن يقال ان الائتلاف انما يتحقق باستعمال كل من القوى على الوجه اللائق ، واستعمال كل قوة ولو كانت قوة نظرية انما يكون من القوة العملية ، لأن شأنها تصريف القوى في المحال اللائقة على وجه الاعتدال ، وبدونها لا يتحقق صدور فعل عن قوة .

ثم العدالة على الطريق الاول تكون امرا بسيطا مستلزمة للملكات الثلاث أعني الحكمة والعفة والشجاعة ، وعلى الثاني تحتمل البساطة والتركيب على الظاهر ، وان كانت البساطة أقرب نظرا الى ان الاعتدال الخلقي بمنزلة الاعتدال المزاجي الحاصل من ازدواج العناصر المتخالفة ، وقد برهن في اصول الحكمة ان المزاج كيفية بسيطة .

وتفصيل الكلام في المقام انه اذا حصلت الملكات الثلاث حصل للعقل العملي قوة الاستعلاء والتدبير على جميع القوى ، بحيث كانت الجميع منقادة له ، واستعمل كلا منها على ما يقتضيه رأيه ، فان جعلت العدالة عبارة عن نفس هذه القوة ، او نفس تدبير التصرف في البدن وامور المنزل والبلد ، دون الملكات الثلاث كانت العدالة بسيطة وكانت كمالا للعقل العملي فقط ، وان جعلت نفس الملكات كانت مركبة ، وحينئذ لا يناسب جعلها فضيلة على حدة معدودة في اعداد الفضائل ، لأن جميع الاقسام لا يكون قسما منها ، وليس الائتلاف والامتزاج هيئة وحدانية عارضة للملكات الثلاث حتى تكون شيئا على حدة ونوعا مركبا .

ثم على الطريقين يتحقق التلازم بين العدالة والملكات الثلاث الا انه على الطريق الاول تكون العدالة علة ، والملكات الثلاث معلولة ، وعلى الطريق الثاني ينعكس ذلك لتوقف حصول العدالة على وجود تلك الملكات وامتزاجها ، فهي أجزاء للعدالة أو بمنزلتها .

تكملة

العدالة انقياد العقل العملي للعقل النظري

الحق ان حقيقة العدالة هو التفسير الاول المذكور في الطريق الاول ، أعني انقياد العقل العملي للقوة العاقلة ، وسائر التفاسير المذكورة في الطريقين لازمة له ، اذ الانقياد المذكور يلزمه اتفاق القوى وقوة الاستعلاء والسياسة

للعقل العملي على قوتي الغضب والشهوة ، أو نفس سياسته اياهما وضبطهما تحت اشارة العقل النظري ، وامثال ذلك ، وعلى هذه التفاسير اللازمة للأول يلزم ان تكون العدالة جامعة لجميع الفضائل ، ويتحقق معناها في كل فضيلة حتى تكون فردا لها .

وتحقيق المقام ان انقياد العقل العملي للعاقلة يستلزم ضبط قوتي الغضب والشهوة تحت اشارة العقل ، وسياسته اياهما ، واستعلائه عليهما . وهذا يستلزم اتفاق جميع القوى وامتزاجها . فجميع الفضائل الصادرة عن قوتي الغضب والشهوة ، بل عن العاقلة ايضا ، انما تكون بتوسط العقل العملي وضبطه اياها ، الا ان ذلك لا يوجب كونها كمالا له حتى يعد من فضائله ، ووجهه ظاهر ، ولا كون الضبط المذكور عدالة .

فالحق ان حقيقة العدالة هو مجرد انقياد العاملة للعاقلة ، ومثل الضبط والاستعلاء والسياسة من لوازمه ، والفضائل الصادرة عن القوى الاخرى بتوسط العقل العقلي انما تندرج تحت لازم العدالة ، لا عينها . فمن أدرج جميع الفضائل تحت العدالة نظره الى اعتبار ما يلزمها ، ومن لم يدرجه تحتها نظره الى عدم اعتباره . وعلى هذا لا بأس بأن يقال ان للعدالة اطلاقين (احدهما) العدالة بالمعنى الأخص (وثانيهما) العدالة بالمعنى الاعم .

ثم ان القوم ذكروا لكل واحد من الفضائل الأربع أنواعا ، فكما أدرجوا تحت كل من الحكمة والعفة والشجاعة أنواعا ، فكذا ادرجوا تحت العدالة أيضا انواعا كالوفاء والصداقة والعبادة وغيرها .

وأنت — بعد ما علمت ان العدالة بالتفسير الاول هو انقياد العاملة للعاقلة في استعمال نفس العاقلة وقوتي الغضب والشهوة — تعلم ان الفضائل بأسرها انما تحصل باستعمال العاملة القوى الثلاث ، فكل فضيلة انما تتعلق حقيقتها باحدى الثلاث ، وان كان حصولها بتوسط العاملة وضبطها الثلاث ، اذ كون الاستعمال والضبط منها لا يقتضي استناد ما يحصل من الفضائل باستعمالها اليها مع صدورها حقيقة عن سائر القوى . وكذا لا يقتضي استناد ما يحصل من الرذائل لعدم انقيادها للعاقلة اليها . ومعلوم انه لا يترتب على مجرد انقيادها أو عدمه لها فضائل ورذائل لم يكن لها تعلق بالثلاث أصلا ،

اذ كل فضيلة ورذيلة اما متعلق بالقوة العقلية ، او بقوتي الغضب والشهوة بتوسط العاملة ،وليس لها في نفسها فضيلة ورذيلة على حدة كما لا يخفى. مع انه لو كان الاستعمال والضبط منشأ لاستناد ما يحصل من الفضائل اليها لزم ان تستند اليها جميع الفضائل ، فكان اللازم ادخال جميع الفضائل تحت العدالة . وكذا الحال على تفسير العدالة بالطريق الثاني كما ظهر .

وعلى هذا فيلزم من عدهم بعض الفضائل من أنواع العدالة دون بعض آخر تخصيص بلا مخصص ، فالفضائل التي جعلوها انواعا مندرجة تحت العدالة بعضها من انواع الشجاعة أو لوازمها ، وبعضها من انواع العفة أو آثارها ،وان كان للعاملة من حيث التوسط مدخلية في حصول الجميع .فنحن لا نتابع القوم ، ونجري على مقتضى النظر من جعل انواع الفضائل والرذائل واصنافها ونتائجها متعلقة بالقوى الثلاث دون العقل العملي ، وادخال جميعها تحت اجناسها على ما ينبغي من دون ادخال شيء منها تحت العدالة وضدها.

ثم ان الرذائل والفضائل مع مدخلية القوة العملية فيها بالاستعمال ، اما متعلقة بمجرد أحدى القوى الثلاث ، أو باثنتين منها ، او بالثلاث . ومثال المتعلق بأحداها ظاهر كالجهل والعلم المتعلقين بالعاقلة ، والغضب والحلم المتعلقين بالقوة الغضبية ، والحرص والقناعة المتعلقين بالقوة الشهوية ، أما ما يتعلق باثنتين منها أو الثلاث ، فأما ان يكون له أصناف يتعلق بعضها ببعض وبعضها ببعض آخر ، كحب الجاه أعني طلب المنزلة في القلوب : فانه ان كان المقصود منه الاستيلاء على الخلق والتفوق عليهم ، كان من رذائل قوة الغضب . وان كان المقصود منه طلب المال ليتوسل به الى شهوة البطن والفرج ، كان من رذائل قوة الشهوة ، وكذا الحسد أعني تمني زوال النعمة عن الغير : ان كان باعثه العداوة كان من رذائل القوة الغضبية . وان كان باعثه مجرد وصول النعمة اليه كان من رذائل القوة الشهوية . او يكون للثلاث او الاثنتين مدخلية بالاشتراك في نوع الفضيلة والرذيلة أو بعض أصنافه ، كالحسد الذي باعثه العداوة ، وتوقع وصول النعمة اليه معا ، وكالغرور وهو سكون النفس الى ما يوافق الهوى ، وتمييل النفس اليه بخدعة من الشيطان ، فان النفس ان كانت مائلة بالطبع الى شيء من مقتضيات

الشهوة ، واعتقدت جهلا كونه خيرا لها كان ذلك من رذائل قوتي العاقلة والشهوة ، وان كانت مائلة الى شيء من مقتضيات قوة الغضب • واعتقدت جهلا كونه خيرا لها كان ذلك من رذائل قوتي العاقلة والغضب ، وان كانت مائلة الى شيء من مقتضياتهما معا مع اعتقادها كونه خيرا لها كان من رذائل الثلاث معا •

ثم مرادنا من تعلق صفة بالقوى المتعددة وكونها معدودة من رذائلها أو فضائلها ان يكون لكل منها تأثير في حدوثها وايجادها ، أي يكون من جملة عالها الفاعلة الموجدة ، بحيث لو قطع النظر عن فعل واحدة منها لم تتحقق هذه الصفة ، فان الغرور يتحقق بالميل والاعتقاد ، بمعنى ان كلامنهما مؤثر في ايجاده واحداثه ، ولو لم يكن الاعتقاد المتعلق بالعاقلة والميل المتعلق بالشهوة والغضب لم يوجد غرور • فلو كانت مدخلية قوة في صفة بمجرد الباعثية ، أي كانت باعثة لقوة أخرى على ايجاد هذه الصفة واحداثها ، بحيث أمكن تحقق هذه الصفة مع قطع النظر عن هذه القوة بباعث آخر لم تكن متعلقةبها ، ولم نعدها من رذائلها او فضائلها، بل كانت متعلقة بالقوة الاخرى التي هي مباشرة لإحداثها وايجادها ، مثل الغضب الحاصل من فقد شيء من مقتضيات شهوة البطن والفرج ، وان كان باعثه قوة الشهوة الا أنه ليس لقوة الشهوة وفعلها شركة في احداثه وايجاده ، بل الاحداث انما هو من القوة الغضبية ،ومدخلية الشهوية انما هو بتحريكها وتهييجها الغضبية للإحداث والايجاد ، ولا ريب في ان للعاقلة هذه الباعثية في صدور اكثر الصفات مع عدم عدها من رذائلها « او فضائلها » [٣] •

واذا عرفت ذلك فاعلم أنا نذكر اولا ما يتعلق بالعاقلة من الرذائل والفضائل ثم مايتعلق بالقوة الغضبية منهما ، ثم مايتعلق بالشهوية منهما ، ثم مايتعلق بهما أو الثلاث •

---

(٣) لم توجد فى نسختنا الخطية لكنها موجودة فى نسخة خطية اخرى وفى المطبوعة .

فصـــل

العقل النظري هو المدرك للفضائل والرذائل

اعلم أن كل واحد من العقل العملي والعقل النظري رئيس مطلق من وجه أما «الاول» فمن حيث ان استعمال جميع القوى حتى العاقلة على النحو الاصلح موكول اليه ، واما «الثاني» فمن حيث ان السعادة القصوى وغاية الغايات أعني التحلي بحقائق الموجودات مستندة اليه ، وأيضا ادراك ماهو الخير والصلاح من شانه فهو المرشد والدليل للعقل العملي في تصرفاته .

وقيل : ان ادراك فضائل الاعمال ورذائلها من شأن العقل العملي ، كما صرح به الشيخ في الشفاء بقوله : « ان كمال العقل العملي استنباط الاراء الكلية في الفضائل والرذائل من الاعمال على وجه الابتناء على المشهورات المطابقة في الواقع للبرهان ، وتحقيق ذلك البرهان متعلق بكمال القوة النظرية» .

والحق ان مطلق الادراك والارشاد انما هو من العقل النظري فهـو بمنزلة المشير الناصح، والعقل العملي بمنزلة المنفذ الممضى لاشاراته وما ينفذ فيه الاشارة فهو قوة الغضب والشهوة .

دفع الاشكال

فى تقسيم الحكمة

ان قيل : ان القوم قسموا الحكمـة اولا الى النظرية والعملية ، ثم قسموا العملية الى ثلاثة اقسام: واحد منها علم الاخلاق المشتمل على الفضائل الاربع التي احداها الحكمة ، فيلزم ان تكون الحكمة قسما من نفسها .

قلنا: الحكمة التي هي المقسم هو العلم بأعيان الموجودات ، سواء كانت لموجودات الهية أي واقعة بقدرة الباري سبحانه ، أو موجودات انسانية أي واقعة بقدرتنا واختيارنا ، ولما كان هذا العلم أعني الحكمة التي هي المقسم قسما من الموجودات بالمعنى الثاني ، فلا بأس بالبحث عنه في علم الاخلاق، فان غاية ما يلزم ان تكون الحكمة موضوعا لمسألة هي جزؤها بان يجعل عنوانا فيها ويحمل عليها كونها ملكة محمودة ، او طريق اكتسابها كذا .

وبالجملة لا مانع من ان يجعل علم يبحث فيه عن احوال الموجودات

موضوعا لمسألة ،ويبحث عنه فيه باثبات صفة له لأجل انه ايضا من الموجودات كما انه في العلم الاعلى الذي يبحث فيه عن الموجودات من حيث وجودها ، يبحث عن نفس العلم لكونه من الموجودات ، ويجعل موضوعا لمسألة من مسائله ، ولا يلزم من هذا كون الشيء جزءا لنفسه . وايضا نقول كما ان الحكمة العملية قسم من مطلق الحكمة لتعلق العمل بالنظر ، فكذا المطلق قسم منها لتعلق النظر بالعمل ، وحينئذ كما ان العدالة من الحكمة باعتبار فكذا الحكمة من العدالة باعتبار آخر ، فتختلف الحيثية ولا يلزم محذور .

وقيل : في الجواب ان المراد من الحكمة التي هي احدى الفضائل الاربع استعمال العقل على الوجه الاصلح ، وحينئذ فلا يرد اشكال أصلا لعدم كون الحكمة بهذا المعنى عين المقسم لأنها جزء له . وفيه ان الحكمة بهذا المعنى هي العدالة على ما تقرر ، مع ان العدالة ايضا احدى الفضائل الاربع .

«تنبيه» قد صرح علماء الاخلاق بأن صاحب الفضائل الاربع لا يستحق المدح ما لم تتعد فضائلها الى الغير ، ولذا لا يسمى صاحب ملكة السخاء بدون البذل سخيا بل منفاقا ، ولا صاحب ملكة الشجاعة بدون ظهور آثارها شجاعا بل غيورا ، ولا صاحب ملكة الحكمة بدونها حكيما بل مستبصرا .

والظاهر ان المراد باستحقاق المدح هو حكم العقل بوجوب المدح ، فان من تعدى أثره يرجى نفعه ، ويخاف ضره ، فيحكم العقل بلزوم مدحه جلبا للنفع ، أو دفعا للضرر ، واما من لا يرجى خيره وشره فلا يحكم العقل بوجوب مدحه وان بلغ في الكمال ما بلغ .

فصل

تحقيق الوسط والاطراف

لا ريب . في انه بازاء كل فضيلة رذيلة هي ضدها ، ولما عرفت ان اجناس الفضائل اربعة فأجناس الرذائل ايضا في باديء النظر اربعة : الجهل، وهو ضد الحكمة ، والجبن ،وهو ضد الشجاعة ، والشره وهو ضد العفة، والجور، وهو ضد العدالة . وعند التحقيق يظهر ان لكل فضيلة حدا معينا، والتجاوز عنه بالافراط أو التفريط يؤدي الى الرذيلة ، فالفضائل بمنزلة الاوساط ، والرذائل بمثابة الاطراف ، والوسط واحد معين لا يقبل التعدد،

والاطراف غير متناهية عددا . فالفضيلة بمثابة مركز الدائرة ، والرذائل بمثابة سائر النقاط المفروضة من المركز الى المحيط ، فان المركز نقطة معينة ، مع كونه ابعد النقاط من المحيط ، وسائر النقاط المفروضة من جوانبه غير متناهية ، مع ان كلا منها أقرب منه من طرف اليه .

فعلى هذا يكون بازاء كل فضيلة رذائل غير متناهية، لان الوسط محدود معين ، والاطراف غير محدودة ، وتكون الفضيلة في غاية البعد عن الرذيلة التي هي نهاية الرذائل ، ويكون كل منها اقرب منها الى النهاية[٤] ، ومجرد الانحراف عن الفضيلة من أيّ طرف اتفق يوجب الوقوع في رذيلة . والثبات على الفضيلة والاستقامة في سلوك طريقها بمنزلة الحركة على الخط المستقيم وارتكاب الرذيلة كالانحراف عنه ، ولا ريب في أن الخط المستقيم هو أقصر الخطوط الواصلة بين النقطتين ، وهو لا يكون الا واحدا ، واما الخطوط المنحنية بينهما فغير متناهية،فالاستقامة في طريق الفضيلة وملازمتها على نهج واحد ، والانحراف عنه تكون له مناهج غير متناهية ، ولذلك غلبت دواعي الشر على بواعث الخير .

ويظهر مما ذكر ان وجدان الوسط الحقيقي صعب ، والثبات عليه بعد الوجدان أصعب . لأن الاستقامة على جادة الاعتدال في غاية الاشكال ، وهذا معنى قول الحكماء « اصابة نقطة الهدف أعسر من العدول عنها ، ولزوم الصوب[٥] بعد ذلك حتى لا يخطيها أسر » ولذلك لما أُمِرَ فخر الرسل بالاستقامة في قوله تعالى :

« **فاستقم كما أمرت** » (٦) .

قال شيّبتني سورة هود عليه السلام، اذ وجد ان الوسط الحقيقي فيما بين الاطراف الغير المتناهية المتقابلة مشكل ،والثبات عليه بعد الوجدان اشكل.

وقال (المحقق الطوسي) وجماعة : « ان ما ورد في اشارات النواميس من ان الصراط المستقيم أدق من الشعر ، وأحد من السيف اشارة الى هذا المعنى» وغير خفي بأن هذا التأويل جرأة على الشريعة القويمة ، وهتك لأستار السنة

---

(٤) اي ان كلا من الرذائل اقرب من الفضيلة الى النهاية .

(٥) الصواب : يقال فلان مستقيم الصوت اذا لم يزغ عن قصده يمينا وشمالا .

(٦) هود الآية : ١١٢ .

الكريمة . والواجب الاذعان بظاهر ما ورد منأمور الآخرة . نعم يمكن ان يقال كما مر : ان الامور الاخروية التي حصل بها الوعد والوعيد كلها أمور محققة ثابتة على ما اخبر به ، الا انها صور للاخلاق ، والصفات المكتسبة في هذه النشأةقد ظهرت بتلك الصور في دار العقبىبحسب المرتبة ، اذ ظهورات الاشياء مختلفة بحسب اختلاف المراتب والنشآت ، فمواد ما يؤذي ويريح من الصور في موطن المعاد انما هو الاخلاق والنيات المكتسبة فيهذه النشأة. وهذا المذهب مما استقر عليهآراء اساطينالحكمة والعرفان ، وذكرنا الظواهر الدالة عليه من الآيات والاخبار ، واشرنا الى حقيقة الحال فيه . وعلى هذا فالصراط المستقيم الممدود كالجسر على الجحيم صورة لتوسط الاخلاق ، والجحيم صورة لاطرافها ، فمن ثبت قدمـــه على الوسط هنا لم يزل عن الصراط هناك ووصل الى الجنة التيوعدها الله المتقين ،ومن مال الىالاطراف هنا سقط هناك في جهنم التي احاطت بالكافرين .

ثم الوسط اما حقيقي وهو ما تكون نسبته الى الطرفين على السواء كالاربعة بالنسبة الى الاثنين والستة ، وهذا كالمعتدل الحقيقي الذي انكر الاطباء وجوده ، أو اضافي وهو اقرب ما يمكن تحققه للنوع أو الشخص الى الحقيقي ، ويتحقق به كمالهما «اللائق بحالهما»[٧] وان لم يصل اليه، فالتسمية بالوسط انما هو بالنسبة الى الاطراف التي هي ابعد من الحقيقي بالاضافة اليه . وهذا كالاعتدالات النوعية والشخصية التي اثبتها الاطباء، فان المراد منها الاعتدالات التي يمكن تحققها للانواع والاشخاص ، وهو القدر الذي يليق بكلنوع أو شخص أن يكون عليه ، وان لم يكن اعتدالا حقيقيا بمعنى تساوي الاجزاء البسيطة العنصرية وتكافؤها في القوة والاقربية الى الحقيقي بالنسبة الى سائر الاطراف سمي اضافيا .

ثم الوسط المعتبر هنا هو الاضافي لتعذر وجدان الحقيقي والثبات عليه ، ولذا تختلف الفضيلة باختلاف الاشخاص والاحوال والازمان ، فربما كانت مرتبة من الوسط الاضافي فضيلة بالنظر الى شخص او حال أو

---

(٧) غير موجودة فى نسختنا الخطية لكنها موجودة فى نسخة خطية اخرى وفى المطبوعة .

وقت ، ورذيلة بالنسبة الى غيره .

وتوضيح الكلام انه لا ريب في ان الوسط الحقيقي في الاخلاق لكونه في حكم نقطة غير منقسمة لا يمكن وجدانه ولا الثبات عليه ، ولذا ترى من هو متصف بفضيلة من الفضائل لا يمكن الحكم بكون تلك الفضيلة « هي الوسط الحقيقي ، الا انه لما كانت تلك الفضيلة »[٨] قريبة اليه ولا يمكن وجود الاقرب منها اليه له ، يحكم بكونها وسطا اضافيا لأقربيتها اليه بالنسبة الى سائر المراتب فالاعتدال الاضافي له عرض ، وسطه الاعتدال الحقيقي ، وطرفاه طرفا الافراط والتفريط ، الا انه ما لم يخرج عن هذين الطرفين يكون اعتدالا اضافيا ، وكلما كان اقرب الى الحقيقي كان أكمل وأقوى ، واذا خرج عنهما دخل في الرذيلة .

لا يقال : على هذا ينبغي ان يكون الاعتدال الطبي في المزاج ايضا كذلك أي له عرض وسطه الاعتدال الحقيقي وطرفاه خارجان عن الاعتدال الطبي، حتى انه كلما قرب الى الحقيقي صار الطبي أقوى وأكمل مع انه ليس الامر كذلك ، اذ القياس يقتضي الخروج عن الاعتدال الطبي ، أو ضعفه لقربه الى الحقيقي .

«بيان ذلك» ان الاعتدال الحقيقي في المزاج ان تكون أجزاء العناصر متكافئة القوة ، والاعتدال الطبي في نوع الانسان أو شخص من اشخاصه ان تكون الاجزاء الحارة مثلا من عشرة الى اثني عشرة ، والباردة من ثمانية الى تسعة ، واليابسة من سبعة الى ثمانية ،والرطبة من ستة الى سبعة، فاذا كانت الاجزاء الحارة ستة ، والباردة خمسة ،واليابسة اربعة ، والرطبة ثلاثة كانت خارجة عن الاعتدال الطبي ، مع صيرورته أقرب الى الحقيقي ، بل اذا فرضت تكافؤ اجزاء العناصر الاربعة حتى حصل نفس الاعتدال الحقيقي خرجت أيضا عنه ، فلا يكون الحقيقي وسط الطبي حتى انه كلما يصير اليه أقرب يكون أقوى وأكمل .

لأنا نقول نحن لا ندعي : ان الحقيقي وسط الطبي بل هو أمر مغاير له ، والحقيقي في طرفه الخارج ، فان له طرفين : « احدهما » ان تصير

---

(٨) هذه العبارة بتمامها لم توجد فى نسختنا الخطية .

الاجزاء أقرب في التساوي مما كان للطبي الى ان يبلغ الى الحقيقي ، «والثاني» ان يصير أبعد فيه مما كان له الى غير النهاية ، الا ان بعض مراتب الطرفين التي منها الاعتدال الحقيقي غير ممكن الوقوع فتأمل .

فان قيل : ان الوسط المعتبر هنا ان كان اضافيا ، لكان له عرض كعرض المزاج ، فلا يناسب وصفه بالحدة والدقة ، قلنا : كما في عرض المزاج مرتبة هي أفضل المراتب وأقربها الى الحقيقي ، وهي المطلوبة بالذات ، ولا ريب في ان خصوص هذه ليس لها عرض واسعة ، فلا بأس بوصفها بالدقة والحدة ، وأما سائر المراتب المعدودة من الوسط وان لم تكن خالية عن شوائب الافراط والتفريط ، الا انه لما كان لها قرب محدود الى المرتبة المطلوبة بحيث يصدق معه كون النوع أو الشخص باقيا على كماله اللائق به عدت من الاوساط والفضائل ، كما ان غير الاقرب الى الاعتدال الحقيقي من مراتب عرض المزاج يعد من الاعتدال : لكون النوع أو الشخص معه باقيا محفوظا بحيث لا يظهر خلل بين في أفعاله وان لم يخل عن الانحراف ، ولو وصف هذه المراتب ايضا بالحدة والدقة مع سعتها فوجهه ان وجدانها والثبات عليها لا يخلو ايضا من صعوبة .

فصل

أجناس الرذائل وأنواعها

قد ظهر مما ذكر انه بازاء كل فضيلة رذائل غير متناهية من طرفي الافراط والتفريط ، وليس لكل منها اسم معين ولا يمكن عد الجميع وليس على صاحب الصناعة حصر مثلها ، لأن وظيفته بيان الاصول والقوانين الكلية ، لا أحصاء الاعداد الجزئية .

والقانون اللازم بيانه هو ان الانحراف عن الوسط اما الى طرف الافراط أو الى طرف التفريط ، فيكون بازاء كل فضيلة جنسان من الرذيلة ، ولما كانت أجناس الفضائل أربعة فتكون أجناس الرذائل ثمانية (اثنان) بازاء الحكمة «الجربزة والبله» : و (الاول) في طرف الافراط وهو استعمال الفكر فيما لا ينبغي أو في أقل منه ، والاولى ان يعبر عنهما (بالسفسطة) أي الحكمة المموهة ، و (الجهل) أي البسيط منه ، لان حقيقة الحكمة هو العلم

بحقائق الاشياء على ما هي عليه وهو موقوف على اعتدال القوة العاقلة ، فاذا حصلت له حدة خارجة عن الاعتدال يخرج عن الحد اللائق ويستخرج امورا دقيقة غير مطابقة للواقع ، والعلم بهذه الامور هو ضد الحكمة من طرف الافراط واذا حصلت لها بلادة لا ينتقل الى شيء فلا يحصل لها العلم بالحقائق وهذا هو الجهل وهو ضده من طرف التفريط (واثنان) بازاء الشجاعة «التهور والجبن» : (الاول) في طرف الافراط وهو الاقدام على ما ينبغي الحذر عنه، و (الثاني) في طرف التفريط وهو الحذر عما ينبغي الاقدام عليه • (واثنان) بازاء العفة وهما : «الشره والخمود» : و (الاول) في طرف الافراط وهو الانهماك ـ اللذات الشهوية على ما لا يحسن شرعا وعقلا ، و (الثاني) في طرف التفريط وهو سكون النفس عن طلب ما هو ضروري للبدن • (واثنان) بازاء العدالة وهما : «الظلم والانظلام»: و (الاول) في طرف الافراط وهو التصرف في حقوق الناس وأموالهم بدون حق ، و (الثاني) في طرف التفريط وهو تمكين الظالم من الظلم عليه وانقياده له فيما يريده من الجبر والتعدي على سبيل المذلة ، هكذا قيل •

والحق ان العدالة مع ملاحظة ما لا ينفك عنها من لازمها ، لها طرف واحد يسمى جورا وظلما ، وهو يشمل جميع ذمائم الصفات ، ولا يختص بالتصرف في حقوق الناس واموالهم بدون جهة شرعية ، لان العدالة بهذا المعنى ـ كما عرفت ـ عبارة عن ضبط العقل العملي جميع القوى تحت اشارة العقل النظري ، فهو جامع للكمالات بأسرها ، فالظلم الذي هو مقابله جامع للنقائص بأسرها ، اذ حقيقة الظلم وضع الشيء في غير موضعه ، وهو يتناول جميع ذمائم الصفات والافعال فتمكين الظالم من ظلمه لما كان صفة ذميمة يكون ظلما ، على ان من مكن الظالم من الظلم عليه وانقاد له ذلة ، فقد ظلم نفسه ، والظلم على النفس ايضا من أقسام الظلم • هذا هو بيان الطرفين لكل من الاجناس الاربعة للفضيلة •

ثم لكل واحد من اجناس الرذائل والفضائل انواع ولوازم من الاخلاق والافعال ذكرها علماء الاخلاق في كتبهم ، وقد ذكروا للعدالة ايضا انواعا، وقد عرفت فيما تقدم ان تخصيص بعض الصفات بالاندراج تحتها مما لا وجه

له ، اذ جميع الرذائل والفضائل لا يخرج عن التعلق بالقوى الثلاث ، اعني العاقلة والغضبية والشهوية ، وان كان للقوة العملية مدخلية في الجميع من حيث التوسط ، فنحن ندخل الجميع تحت اجناس القوى الثلاث من غير اندراج شيء منها تحت العدالة ، وقد عرفت ان بعضها متعلق بالعاقلة فقط ، وبعضها بالقوة الغضبية فقط ، وبعضها بالشهوية فقط ، وبعضها بالاثنين منهما او الثلاث معا ، فنحن نذكر ذلك في مقامات اربعة .

ولمزيد الاحاطة نشير هنا اجمالا الى اسماء الاجناس والانواع واللوازم التي لكل جنس ، ونذكر اولا ما يتعلق بالعاقلة ، ثم ما يتعلق بالغضبية ، ثم ما يتعلق بالشهوية ، ثم ما يتعلق بالثلاث او الاثنتين منها ، ونذكر اولا الرذيلة، ثم نشير الى ضدها من الفضيلة ان كان له اسم ، ثم في باب المعالجات نذكر معالجة كل رذيلة من الاجناس والانواع والنتائج ونذيلها بذكر ضدها من الفضيلة، ونذكر اولا جنسي الرذيلة لكل قوة ،ونذيلهما بضدهما الذي هو جنس فضيلتها ، ثم نذكر الانواع والنتائج على النحو المذكور ، أي نذكر اولا الرذيلة باحكامها «ومعالجاتها»[٩] ، ثم نشير الى ضدها ، وما ورد في مدحه ترغيبا للطالبين على أخذه والاجتناب عن ضده ، ولذلك لم نتابع القوم في التفريق بين الرذائل والفضائل وذكر كل منهما على حدة .

ثم بيان الانواع واللوازم على ما ذكر أكثره القوم لا يخلو عن الاختلال اما في التعريف والتفسير ، أو في الفرق والتمييز ، أو في الادخال تحت ما جعلوه نوعا له ، او غير ذلك من وجوه الاختلال ، فنحن لا نتبعهم في ذلك، ونبينها ادخالا وتمييزا وتعريفا ما يقتضيه النظر الصحيح ، فنقول :

أما جنسا الرذيلة للقوة العقلية ، «فأولهما» (الجربزة والسفسطة) وهي من طرف الافراط ، و «ثانيهما» (الجهل البسيط) وهو من طرف التفريط وضدهما (العلم والحكمة) ، واما الانواع واللوازم المترتبة عليهما ، فمنها (الجهل المركب) وهو من باب رداءة الكيفية . ومنها (الحيرة والشك) وهو من طرف الافراط على ما قيل ، وضد الجهل المركب ادراك ما هو الحق أو زوال العلم بأنه يعلم ، وضد الحيرة الجزم بأحد الطرفين . وبذلك يظهر ان

---

(٩) هذه الكلمة موجودة فى نسختنا الخطية فقط .

اليقين ضد لكل منهما ، لأنه اعتقاد جازم مطابق للواقع ، فمن حيث اعتبار الجزم فيه يكون ضدا للحيرة ، ومن حيث اعتبار المطابقة للواقع يكون ضدا للجهل المركب ، ومنشأ حصول اليقين هو استقامة الذهن وصفاؤه مع مراعاة شرائط الاستدلال ، ومنشأ الجهل المركب اعوجاج الذهن ، أو حصول الخطأ في الاستدلال ، أو وجود مانع من افاضة الحق كعصبية ، او تقليد أو امثال ذلك ، ومنشأ الحيرة هو قصور الذهن وكدرته ،أو الالتهاب الموجب للتجاوز عن المطلوب ، او عدم الاحاطة بمقدماته ، ومنها (الشرك) وضده التوحيد. ومنها «الوساوس» النفسانية والخواطر الباطلة الشيطانية ، وهذا ايضا من باب رداءة الكيفية ، وكان الظاهر ان يعد ذلك من رذائل قوتي الوهم والمتخيلة دون العاقلة ، اذ الغالب انها لا تنفك عن الاختلال فيهما ، الا انك قد عرفت العذر في ذلك ، وضدها الخواطر المحمودة التي من جملتها الفكر في بدائع صنع الله سبحانه وعجائب مخلوقاته. ومنها (استنباط المكر والحيلة) للوصول الى مقتضيات الشهوة والغضب ، وهو من طرف الافراط .

وأما جنسا الرذائل للقوة الغضبية ، فاولهما (التهور) وثانيهما (الجبن) وقد عرفت ان ضدهما من الفضيلة (الشجاعة) .وأما الانواع واللوازم والنتائج المترتبة عليها ، فمنها (الخوف) وهو هيئة نفسانية مؤذية تحدث من توقع مكروه أو زوال مرغوب ، وهو مذموم الا ما كان لاجل المعصية والخيانة، أو من الله وعظمته . والمذموم من رذائل تلك القوة ومن نتائج الجبن وضده الامن من مكر الله ، وهو ـ أي الممدوح من الخوف ـ يلازم الرجاء وضده

الأمن من مكر الله ، وهو ـ أي الممدوح من الخوف ـ يلازم الرجاء

وضده اليأس . ومنها (صغر النفس) أي ملكة العجز عن تحمل الواردات وهو من نتائج الجبن ، وضده كبر النفس اي ملكة التحمل لما يرد عليه كائنا ما كان . ومن جملة التحمل التحمل على الخوض في الاهوال ، وقوة المقاومة مع الشدائد والآلام ويسمى (بالثبات) فهو أخص من كبر النفس، وضده الاضطراب في الاهوال والشدائد . ومن جملة الثبات الثبات في الإيمان ، ومنها (دناءة الهمة) وهو القصور عن طلب معالي الامور وهو من لوازم ضعف النفس وصغرها ، وضده (علو الهمة) الذي هو من لوازم

كبر النفس وشجاعتها ، أي السعي في تحصيل السعادة والكمال وطلب الامور العالية من دون ملاحظة منافع الدنيا ومضارها . ومن أفراد علو الهمة الشهامة ، ويأتي تفسيرها . ومنها (عدم الغيرة والحمية) أي الاهمال في محافظة ما يلزم حفظه ، وهو أيضا من نتائج صغر النفس وضعفها وضده ظاهر . ومنها (العجلة) وهو المعنى الراتب [١٠] في القلب الباعث على الاقدام على الامر بأول خاطر من دون توقف فيه ، وهو أيضا من نتائج صغرالنفس وضعفها ، وضدها الاناءة والتأني ، (التعسف) قريب من العجلة ، وضده أعني (التوقف) قريب من الاناءة ، ويأتي الفرق بينهما ، والوقار يتناول التأني والتوقف ، وهو اطمئنان النفس وسكونها عند الحركات والافعال في الابتداء والاثناء ، وهو من لوازم كبر النفس وشجاعتها . ومنها (سوء الظن بالله تعالى وبالمؤمنين) وهو من لوازم الجبن وضعف النفس ، وربما كان من باب رداءة الكيفية ، فضده أعني حسن الظن بهما من آثار الشجاعة وكبر النفس . ومنها (الغضب) وهو حركة نفسانية يوجب حركة الروح من الداخل الى الخارج للغلبة وهو من باب الافراط ، وضده الحلم . ومنها (الانتقام) وهو من نتائج الغضب ، وضده العفو . ومنها (العنف) وهو أيضا من نتائج الغضب ، وضده الرفق .ومنها (سوء الخلق) بالمعنى الاخص وهو أيضا من نتائجه ، وضده (حسن الخلق) بالمعنى الاخص ، ومنها (الحقد) وهو العداوة الكامنة ، أي ارادة الشر وقصد زوال الخير من المسلم ، وهو أيضا من ثمرات الغضب . ومنها (العداوة) الظاهرة ، وضدها (النصيحة) أي ارادة الخير والصلاح ، ودفع الشر والفساد عن كل مسلم. ثم للغضب والحقد لوازم هي الضرب والفحش واللعن والطعن . ومنها (العجب) وهو استعظام النفس ، وضده انكسارها واستحقارها [١١] . ومنها (الكبر) وهو التعظيم الموجب لرؤية النفس فوق الغير ، وضده (التواضع) وهو ان لايرى لنفسه مزية على الغير . ومنها (الافتخار) وهو المباهاة بما يظنه كمالا وهو من شعب الكبر . ومنها (البغي) وهو عدم

---

(١٠) الراتب : عيش راتب : اي دائم ثابت .

(١١) من كلمة (منها) الى قوله و (استحقارها) بتمام العبارة لم توجد فى نسختنا الخطية لكنها موجودة فى نسخة خطية اخرى .

الانقياد لمن يجب أن ينقاد وهو أيضا من شعب الكبر • وضده (التسليم) والانقياد لمن يجب الانقياد اليه واطاعته ،وقد يفسر بمطلق العلو والاستطالة[١٢] ومنها (تزكية النفس) وضده الاعتراف بنقائصها • ومنها (العصبية) وهي الحماية عن نفسه وعما ينتسب اليه بالباطل والخروج عن الحق • ومنها (كتمان الحق) وضدهما الانصاف والاستقامة على الحق • ومنها (القساوة) وهو عدم التأثر عن مشاهدة تألم ابناء النوع ، وضدها الرحمة •

وأما جنسا الرذائل المتعلقة بالقوة الشهوية فأحدهما (الشره) وثانيهما (الخمود) وضدهما (العفة) ، وأما الانواع والنتائج واللوازم المتعلقة بها، فمنها (حب الدنيا) • ومنها (حب المال) وضدها الزهد • ومنها (الغنى) وضده الفقر • ومنها (الحرص) وضده القناعة • ومنها (الطمع) وضده الاستغناء عن الناس • (البخل) وضده السخاء ، وتندرج تحته وجوه الانفاقات بأسرها • ومنها (طلب الحرام) وعدم الاجتناب عنه ، وضده الورع والتقوى بالمعنى الخاص • ومنها (الغدر والخيانة) وضدهما الامانة• ومنها (أنواع الفجور) من الزنا واللواط وشرب الخمر والاشتغال بالملاهي وأمثالها • ومنها (الخوض في الباطل) • ومنها (التكلم بمالا يعنيوبالفضول) وضدهما الترك والصمت ، او بالتكلم بما يعني بقدر الضرورة •

وأما الرذائل والفضائل المتعلقة بالقوى الثلاث ، او باثنتين منها : فمنها (الحسد) وضده النصيحة • ومنها (الايذاء والاهانة والاحتقار) وضدها كف الاذى والاكرام والتعظيم ، والايذاء قريب من الظلم بالمعنى الاخص أو أعم منه ، وضد الظلم بالمعنى الاخص العدالة بالمعنى الاخص • ومنها (اخافة المسلم وادخال الكرب في قلبه) وضدها ازالة الخوف والكرب عنه • ومنها (ترك اعانة المسلمين) وضده قضاء حوائجهم • ومنها (المداهنة) في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وضده السعي فيهما • ومنها (الهجرة والتباعد عن الاخوان) وضده التآلف والتزاور • ومنها (قطع الرحم) وضدهالصلة• ومنها (عقوق الوالدين) وضده البر اليهما • ومنها (تجسس العيوب)

---

(١٢) من كلمة (منها) الى قوله و (الاستطالة) بتمام العبارة لم توجد في نسختنا الخطية لكنها موجودة في نسخة خطية اخرى .

وضده الستر • ومنها (افشاء السر) وضده الكتمان • ومنها (الافساد بين الناس) وضده الاصلاح بينهم • ومنها (الشماتة بسلم) • ومنها (المراء والجدال والخصومة) وضدهما طيب الكلام • ومنها (السخرية والاستهزاء) وضدهما المزاح • ومنها (الغيبة) وضدها المدح ودفع الذم • ومنها (الكذب) وضده الصدق ، ولجميع آفات اللسان مما له ضد خاص ، ومما ليس له ضد بخصوصه ضد عام هو الصمت • ومنها (حب الجاه والشهرة) وضده حب الخمول • ومنها (حب المدح وكراهة الذم) وضده مساواتهما• ومنها (الريا) وضده الاخلاص • ومنها (النفاق) وضده أستواء السر والعلانية • ومنها (الغرور) وضده الفطانة والعلم والزهد • ومنها (طول الامل) وضده قصره • ومنها (مطلق العصيان) وضده الورع والتقوى بالمعنى الاعم • ومنها (الوقاحة) وضده الحياء • ومنها (الاصرار على المعصية) وضده التوبة ، وأقصى مراتبها الانابة والمحاسبة والمراقبة قريبة من التوبة في ضديتها للاصرار • ومنها (الغفلة) وضدها النية والارادة • ومنها (عدم الرغبة) وضده الشوق • ومنها (الكراهة) وضده الحب • ومنها (الجفاء) وضده الوفاء وهو من تمام الحب • ومنها (البعد) وضده الانس ومن لوازمه حب الخلوة والعزلة • ومنها (السخط) وضده الرضا، وقريب منه التسليم ويسمى تفويضا ، بل هو فوق الرضا كما يأتي • ومنها (الحزن) وضده السرور • ومنها (ضعف الوثوق والاعتماد على الله)وضده التوكل • ومنها (الكفران) وضده الشكر • ومنها (الجزع والهلع) وضده الصبر • ومنها (الفسق) وهو الخروج عن طاعة الله وعبادته ،وضده الطاعة والعبادة ، وتندرج تحتها (العبادات الموظفة في الشرع) [١٣] من الطهارة ، والصلاة ، والذكر وتلاوة القرآن ، والزكاة والخمس والصوم والحج والزيارات • ونحن نذكر الزكاة والخمس في وجوه الاتفاق ، وما سواهما في العبادات •

(تنبيه) أعلم أن احصاء الفضائل والرذائل وضبطهما ، وادخال البعض في البعض ، والاشارة الى القوة الموجبة لها على ما فصلناه ، مما لم يتعرض

(١٣) هذه العبارة بتمامها غير موجودة في نسختنا الخطية .

له علماء الاخلاق ، بل انما تعرضوا لبعضها ، ويظهر من كلامهم في بعض المواضع المخالفة في الادخال .

والسر فيه أن كثيرا من الصفات لها جهات مختلفة كل منها يناسب قوة كما أشرنا اليه ، فالاختلاف في الادخال لأجل اختلاف الاعتبار للجهات« وقد عرفت أن ماله جهات مختلفة يتعلق بالقوى المتعددة نحن نجعل مبدأه الجميع ونعده من رذائله أو فضائله ، ولا نخصه بواحدة منها » . ثم بعض الصفات ربما كان ببعض الاعتبارات معدودا من الرذائل ، وذلك كالمحبة والخوف والرجاء ، فان الحب ان كان متعلقا بالدنيا ومتعلقاتها كان مذموما وان كان متعلقا بالله وأوليائه كان محمودا معدودا من الفضائل ، والخوف ان كان مما لايخاف منه عقلا كان من رذائل قوة الغضب ، وان كان من المعاصي او من عظمة الله كان من فضائلها ، والرجاء ان لم يكن في موقعه كان من الرذائل ، وان كان في موقعه كان من الفضائل ، وقس عليها غيرها مما له الاعتبارات المختلفة .

فصل

الفرق بين الفضيلة والرذيلة

قد دريت اجمالا أن الفضائل المذكورة ملكات مخصوصة ، لها آثار معلومة ، وربما صدر عن بعض الناس أفعال شبيهة بالفضائل ، وليست بها ، فلابد من بيان الفرق بينهما لئلا يشتبه على الغافل فيضل ويضل ، فنقول :

قد عرفت أن فضيلة الحكمة عبارة عن العلم بأعيان الموجودات على ماهي عليه ، وهو لاينفك عن اليقين والطمأنينة ، فمجرد أخذ بعض المسائل وتقريرها على وجه لائق من دون وثوق النفس واطمئنانها ليست حكمة ، والآخذ بمثله ليس حكيما ، اذ حقيقة الحكمة لاتنفك عن الاذعان القطعي واليقيني وهما مفقودان فيه ، فمثله كمثل الاطفال في التشبه بالرجل ، أو بعض الحيوانات في محاكاة ماللانسان من الاقوال والافعال .

وأما فضيلة العفة ، فقد عرفت أنها عبارة عن ملكة انقياد القوةالشهوية للعقل ، حتى يكون تصرفها مقصورا على أمره ونهيه ، فيقدم على ما فيه المصلحة وينزجر عمايتضمن المفسدة بتجويزه ، ولا يخالفه في أوامره ونواهيه،

وينبغي أن يكون الباعث للاتصاف بتلك الملكة وصدور آثارها مجرد كونها فضيلة وكمالا للنفس وحصول السعادة الحقيقية بها ، لاشيء آخر من دفع ضر ، او جلب نفع ، او أضطرار والجاء ، فالاعراض عن اللذات الدنيوية لتحصيل الازيد من جنسها ليس عفة ، كما هو شأن بعض تاركي الدنيا للدنيا وكذا الحال في تركها لخمود القوة وقصورها وضعف الآلة وفتورها ، أو لحصول النفرة من كثرة تعاطيها ، او للحذر من حدوث الامراض والاسقام، أو أطلاع الناس وتوبيخهم ، او لعدم درك تلك اللذات كما هو شأن بعض أهالي الجبال والبوادي .. الى غير ذلك .

وأما فضيلة الشجاعة ، فقد عرفت أنها ملكة انقياد القوة الغضبية للعقل حتى يكون تصرفها بحسب أمره ونهيه ، ولا يكون للاتصاف بها وصدور آثارها داع سوى كونها كمالا وفضيلة ، فالاقدام على الامور الهائلة ، والخوض في الحروب العظيمة ، وعدم المبالاة من الضرب والقطع والقتل لتحصيل الجاه والمال ، او الظفر بامرأة ذات جمال ، او للحذر من السلطان ومثله ، او للشهوة بين أبناء جنسه ، ليست صادرة عن ملكة الشجاعة ، بل منشأها اما رذيلة الشره أو الجبن ، كما هو شأن عساكر الجائرين ، وقاطعي الطرق والسارقين ، فمن كان أكثر خوضا في الاهوال ، وأشد جرأة على الابطال للوصول الى شيء من تلك الاغراض ، فهو أكثر جبنا وحرصا ، لا اكثر شجاعة ونجدة . وقس على ذلك الوقوع في المهالك والاهوال ، تعصبا عن الاقارب والاتباع ، وربما كان باعثه تكرر ذلك منه مع حصول الغلبة ، فأغتر بذلك ولم يبال بالاقدام اتكالا على العادة الجارية . ومثله مثل رجل ذي سلاح لم يبال بالمحاربة مع طفل أعزل ، فان عدم الحذر عنه ليس لشجاعته، بل لعجز الطفل . ومن هذا القبيل ما يصدر عن بعض الحيوانات من الصولة والاقدام ، فانه ليس صادرا عن ملكة الشجاعة ، بل عن طبيعة القوة والغلبة .

وبالجملة : الشجاع الواقعي ما كانت أفعاله صادرة عن اشارة العقل ولم يكن له باعث سوى كونها جميلة حسنة ، فربما كان الحذر عن بعض الاهوال من مقتضيات العقل فلا ينافي الشجاعة ، وربما لم يكن الخوض في بعض الاخطار من موجباته فينافيها ، ولذا قيل عدم الفزع مع شدة الزلازل وتواتر

الصواعق من علائم الجنون دون الشجاعة ، وايقاع النفس في الهلكات بلا داع عقلي أو شرعي كتعرضه للسباع المؤذية ، او القاء نفسه من المواضع الشاهقة ، أو في البحار والشطوط الغامرة من دون علم بالسباحة من امارات القحة والحماقة .

ثم الشجاع الحقيقي من كان حذره من العار والفضيحة أكثر من خوفه من الموت والهلاك ، فمن لايبالي بذهاب شرفه ، وفضيحة أهله وحرمه ، فهو من أهل الجنون والحماقة ، ولا يستحق اسم العقل والشجاعة ، كيف والموت عند الشجاع مع بقاء الفضيلة أحسن من الحياة بدونها ، ولذا يختار الموت الجميل على الحياة القبيحة . على أن الشجاعة في المبادىء ربما كانت مؤذية، وانما تظهر لذتها في العاقبة (لا) سيما اذا حصلت بها الحماية عن الدين والملة ، والذب عن العقائد الحقة ، فان الشجاع لحبه الجميل وثباته على الرأي الصحيح اذا علم أن عمره في معرض الزوال والدثور ، وأثر الفعل الجميل يبقى على مر الدهور ، يختار الجميل الباقي على الرذيل الفاني ، فيحامي عن دينه وشريعته ، ولايبالي بما يحذر عنه غيره من ابناء طبيعته ، لعلمه بأن الجبان المقصر في حماية الدين ، ومقاومة جنود الشياطين ان بقى أياما معدودة ، فمع تكدرها بالذل والصغار تكون زائلة ، ولا ترضى نفسه بالحرمان عن السعادة الباقية ، ولذا قال فخر الشجعان وسيد ولد عدنان عليه صلوات الله الملك الرحمان لاصحابه : « أيها الناس انكم ان لم تقتلوا تموتوا والذي نفس ابن أبي طالب بيده لالف ضربة بالسيف على الرأس أهون من ميتة على الفراش » .

وبالجملة : كل فعل يصدر عن الشجاع في أي وقت يكون مقتضى للعقل مناسبا لهذا الوقت واقعا في موقعه ، وله قوة التحمل على المصائب ، وملكة الصبر على الشدائد والنوائب ، ولا يضطرب من شدائد الامور ، ويستخف بما يستعظمه الجمهور ، واذا غضب كان غضبه بمقتضى العقل ، وكان انتقامه مقصورا على ما يستحسن عقلا وشرعا ، ولا يتعدى الى مالا ينبغي . وليس مطلق الانتقام مذموما ، فربما كان في بعض المواضع مستحسنا عند العقل والشرع ، وقد صرح الحكماء بأن عدم الانتقام ممن يستحقه يحدث في النفس

ذبولا لايرتفع الا بالانتقام ، وربما ادى هذا الذبول الى بعض الرذائل المهلكة .

وأما العدالة فقد عرفت أنها عبارة عن انقياد القوة العملية للعاقلة ، او أمتزاج القوى وتسالمها وانقهار الجميع تحت العاقلة ، بحيث يرتفع بينها التنازع والتجاذب ، ولا يغلب بعضها على بعض ، ولا يقدم على شيء غير ماتسقط له العاقلة . وانما يتم ذلك اذا حصلت للانسان ملكة راسخة تصدر لاجلها جميع الافعال على نهج الاعتدال بسهولة ، ولا يكون له غاية في ذلك سوى كونها فضيلة وكمالا ، فمن يتكلف أعمال العدول رياء وسمعة ، أو لجلب القلوب ، او تحصيل الجاه والمال ليس عادلا .

وقس على ذلك جميع أنواع الفضائل المندرجة تحت الاجناس المذكورة فانه بازاء كل منها رذيلة شبيهة بها ، فينبغي لطالب السعادة ان يعرفها ويجتنب عنها ، مثلا السخاء عبارة عن ملكة سهولة بذل المال على المستحق ، مع كون الغاية الباعثة له عليه مجرد كونه فضيلة وكمالا ، دون الاغراض الاخر ، فبذل المال لتحصيل الازيد ، او لدفع الضرر ، او نيل الجاه ، للوصول الى شيء من اللذات الحيوانية ليس سخاء ، وكذا بذله لغير المستحق والاسراف في انفاقه ، فان المبذر جاهل بعظم قدر المال ، والاحتياج اليه في مواقع لولاه لادى الى تضييع الاهل والعيال والعجز عن كسب المعارف وفضائل الاعمال ، وله دخل عظيم في ترويج احكام الملة ونشر الفضيلة والحكمة ، ولذا ورد في الصحيفة السليمانية (ان الحكمة مع الثروة يقظان ، ومع الفقر نائم)[١٤] وربما كان منشأ التبذير عدم العلم بصعوبة تحصيل الحلال منه ، وهكذا يكون في الاغلب لمن يظفر بمال بغتة من ميراث أو غيره مما لايحتاج الى كد وعمل ، فان مثله غافل عن صعوبة كسب الحلال منه ، اذ المكاسب الطيبة قليلة جدا ، وارتكابها للاحرار مشكل ، ولذا ترى أفاضل الاحرار ناقصي الحظوظ منه شاكين عن بختهم ، وأضدادهم على خلاف ذلك ، لعدم مبالاتهم من تحصيله بأي نحو كان . وقد قال بعض الحكماء : « ان تحصيل المال بمنزلة نقل الحجر الى قلة الجبل وانفاقه كاطلاقه » .

---

(١٤) كذا فى النسخ ولم نعثر على مصدر لهذه الكلمة لتصحيحها .

فصــل

العدالة أشرف الفضائل

العدالة أشرف الفضائل وأفضلها ، اذ قد عرفت أنها كل الفضائل او مايلزمها ، كما أن الجور كل الرذائل أو ما يوجبها ، لانها هيئة نفسانية يقتدر بها على تعديل جميع الصفات والافعال ، ورد الزائد والناقص الى الوسط ، وانكسار سورة التخالف بين القوى المتعادية ، بحيث يمتزج الكل وتتحقق بينها مناسبة واتحاد تحدث في النفس فضيلة واحدة تقتضي حصول فعل متوسط بين افعالها المتخالفة ، وذلك كما تحصل الامتزاج والوحدة بين الاشياء المتخالفة صورة وحدانية يصدر عنها فعل متوسط بين افعالها المتخالفة فجميع الفضائل مترتبة على العدالة ، ولذا قال افلاطون الالهى : (العدالة اذا حصلت للانسان اشرق بها كل واحد من اجزاء نفسه ، ويستضيء بعضها من بعض ، فتنتهض النفس حينئذ لفعلها الخاص على أفضل مايكون ، فيحصل لها غاية القرب الى مبدعها سبحانه) .

ومن خواص العدالة وفضيلتها انها أقرب الصفات الى الوحدة ، وشأنها اخراج الواحد من الكثرات ، والتأليف بين المتباينات ، والتسوية بين المختلفات، وردّ الاشياء من القلة والكثرة والنقصان والزيادة الى التوسط الذي هو الوحدة فتصير المتخالفات في هذه المرتبة متحدة نوع اتحاد ، وفي غيرها توجد اطراف متخالفة متكاثرة ، ولا ريب في ان الوحدة أشرف من الكثرة ، وكلما كان الشيء أقرب اليها يكون أفضل وأكمل وأبقى وأدوم ، ومن تطرق البطلان والفساد أبعد ، فالمتخالفات اذا حصل بينها مناسبة واتحاد وحصلت منها هيئة وحدانية صارت اكمل مما كان ، ولذا قيل : كمال كل صفة ان يقارب ضدها، وكمال كل شخص ان يتصف بالصفات المتقابلة بجعلها متناسبة متسالمة، وتأثير الاشعار الموزونة والنغمات والايقاعات المتناسبة ، وجذب الصــور الجميلة للنفوس،انما هو لوحدة التناسب ، ونسبة المساواة في صناعة الموسيقى أو غيرها اشرف النسب لقربها الى الوحدة ، وغيرها من النسب يرجع اليها.

وبالجملة : اختلاف الاشياء في الكمال والنقص بحسب اختلافها في الوحدة والكثرة ، فأشرف الموجودات هو الواحد الحقيقي الذي هو موجد

الكل ومبدؤه ، ويفيض نور الوحدة على كل موجود بقدر استعداده كما يفيض عليه نور الوجود كذلك ، فكل وحدة من الوحدات جوهرية كانت أو خلقية أو فعلية أو عددية أو مزاجية ، فهو ظل من وحدته الحقة ، وكلما كان أقرب اليها يكون أشرف وجودا ، ولولا الاعتدال والوحدة العرضية التي هي ظل الوحدة الحقيقية لم تتم دائرة الوجود ، لان تولد المواليد من العناصر الاربعة يتوقف على حصول الاتحاد والاعتدال ، وتعلق النفس الربانيةبالبدن انما هو لحصول نسبة الاعتدال ، ولذا يزول تعلقها به بزوالها، بل النفس عاشقة لتلك النسبة الشريفة أينما وجدت .

والتحقيق انها معنى وحداني يختلف باختلاف محالها ، فهي في الاجزاء العنصرية الممتزجة اعتدال مزاجي، وفي الاعضاء حسن ظاهري ، وفي الكلام فصاحة، وفي الملكات النفسية عدالة ،وفي الحركات غنج ودلال ، وفي النغمات ابعاد شريفة لذيذة والنفس عاشقة لهذا المعنى في أي مظهر ظهر ، وبأي صورة تجلى ، وبأي لباس تلبس .

فاني احب الحسن حيث وجدته   وللحسن في وجه الملاح مواقع

والكثرة والقلة والنقصان والزيادة تفسد الاشياء اذا لم تكن بينها مناسبة يحفظ عليها الاعتدال والوحدة بوجه ما ،وفي هذا المقام تفوح نفحات قدسية تهتز بها نفوس أهل الجذبة والشوق ، ويتعطر منها مشام اصحاب التأله والذوق ، فتعرض لها ان كنت أهلا لذلك .

واذا عرفت شرف العدالة وايجابها للعمل بالمساواة ، ورد كل ناقص وزائد الى الوسط، فاعلم : انها اما متعلقة بالاخلاق والافعال ،او بالكرامات وقسمة الاموال ، أو بالمعاملات والمعارضات ، او بالاحكام والسياسات . والعادل في كل واحد من هذه الامور ما يحدث التساوي فيه برد الافراط والتفريط الى الوسط، ولا ريب في انه مشروط بالعلم بطبيعة الوسط ،حتى يمكن رد الطرفين اليه ،وهذا العلم في غاية الصعوبة ، ولا يتيسر الا بالرجوع الى ميزان معرف للاوساط في جميع الاشياء ، وما هو الا ميزان الشريعة الالهية الصادرة عن منبع الوحدة الحقة الحقيقية ، فانها هي المعرفة للاوساط في جميع الاشياء على ما ينبغي ، والمتضمنة لبيان تفاصيل جميع مراتب الحكمة

العملية ، فالعادل بالحقيقة يجب ان يكون حكيما عالما بالنواميس الالهية الصادرة من عند الله سبحانه لحفظ المساواة .

وقد ذكر علماء الاخلاق ان العدول ثلاثة : «الاول» العادل الاكبر ، وهو الشريعةالالهية الصادرةمن عند الله سبحانه لحفظ المساواة . «الثاني» العادل الاوسط ، وهو الحاكم العادل التابع للنواميس الالهية والشريعة النبوية فانه خليفة الشريعة في حفظ المساواة . « الثالث » العادل الصامت، وهو الدينار لانه يحفظ المساواة في المعاملات والمعاوضات .

بيان ذلك : ان الانسان مدني بالطبع فيحتاج بعض افراده الى بعض آخر ، ولا يتم عيشهم الا بالتعاون،فيحتاج الزارع الى عمل التاجروبالعكس والنجار الى عمل الصباغ وبالعكس ، وهكذا فتقع بينهم معاوضات ، فلا بد من حفظالمساواة بينها دفعا للتنازع والتشاجر ،ولا يمكن حفظهابالاعمال لاختلافها بالزيادة والنقصان والقلة والكثرة وغير ذلك ، وربما كان ادنى عمل مساويا لعملكثير كنظر المهندس ، وتدبير صاحب الجيش ،فان نظرهما في لحظة واحدة بما ساوى عملا كثيرا لمن يعمل ويحارب ، فحفظ المساواة بينها بالدينار والدرهم بأن تقوم بهما الاعمال والاشياء المختلفة ، ليحصل الاعتدال والاستواء ، ويتبين وجه الاخذ والاعطاء ، وتصح المشاركات والمعاملات على نهجلا يتضمن افراطا ولا تفريطا قيل: وقد اشير الى العدول الثلاثة في الكتاب الالهي بقوله سبحانه :

(وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وانزلنا الحديد فيه باس شديد ومنافع للناس) (١٥) .

فان الكتاب اشارة الى الشريعة ، والميزان الى آلة معرفة النسبة بين المختلفات ومنها الدينار ، والحديد الى سيف الحاكم العادل المقوم للناس على الوسط .

هذا والمقابل للعادل — أعني الجائر المبطل للتساوي أيضا — أما جائر اعظم — وهو الخارج عن حكم الشريعة — ويسمى كافرا — أو جائر اوسط — وهو من لا يطيع عدولالحكام في الاحكام — ويسمى طاغيا وباغيا —أو

---

(١٥) الحديث : الآية : ٢٥ .

جائر اصغر — وهو من لا يقوم على حكم الدينار ، فيأخذ لنفسه أكثر من حقه ويعطي غيره أقل من حقه — ويسمى سارقا وخائنا — .

ثم العدالة على أقسام ثلاثة :

«احدها» ما يجري بين العباد وبين خالقهم سبحانه ، فانها لما كانت عبارة عن العمل بالمساواة على قدر الامكان ، والواجب سبحانه واهب الحياة والكمالات وما يحتاج اليه كل حي من الارزاق والاقوات ، وهيأ لنا في عالم آخر من البهجة والسرور ما لا عين رأت ، ولا اذن سمعت ، وما من يوم الا ويصل الينا من نعمه وعطاياه ما تكل الالسنة عن حصره وعده ، فيجب ان يكون له تعالى علينا حق يقابل به تلك النعم التي لا تحصى كثرة حتى تحصل عدالة في الجملة ، اذ من أعطي خيرا ولم يقابله بضرب من المقابلة فهو جائر .

ثم المقابلة والمكافأة تختلف باختلاف الاشخاص ، فان ما يؤدى به حق احسان السلطان غير ما يؤدى به حق احسان غيره ، فان مقابلة احسانه انما تكون بمثل الدعاء ونشر المحاسن ، ومقابلة احسان غيره تكون بمثل بذل المال والسعي في قضاء حوائجه وغير ذلك . والواجب سبحانه غني عن معونتنا ومساعينا ، ولا يحتاج الى شيء من اعمالنا وافعالنا ، ولكن يجب علينا بالنظر الى شرع العدالة حقوق تحصل بها مساواة في الجملة ، كمعرفته ومحبته ، وتحصيل العقائد الحقة والاخلاق الفاضلة ، والاجتهاد في أمتثال ما جاءت به رسله وسفراؤه من الصوم والصلاة ، والسعي الى المواقف الشريفة وغير ذلك وان كان التوفيق لادراك ذلك كله من جملة نعمائه ، الا ان العبد اذا أدى ما له فيه مدخلية واختيار من وظائف الطاعات ، وترك ما تقتضي الضرورة بتمكنه على تركه من المعاصي والسيئات ، لخرج عن الجور المطلق ولم يصدق عليه انه جائر مطلق ، وان كان أصل تمكنه واختياره ، بل اصل وجوده وحياته كلها من الله سبحانه .

«الثاني» ما يجري بين الناس بعضهم لبعض : من أداء الحقوق وتأدية الامانات والنصفة في المعاملات والمعاوضات وتعظيم الاكابر والرؤساء واغاثة المظلومين والضعفاء ، فهذا القسم من العدالة يقتضي ان يرضى بحقه ، ولا يظلم احدا ، ويقيم كل واحد من ابناء نوعه على حقه بقدر الامكان ، لئلا يجور

بعضهم بعضا ، ويؤدي حقوق أخوانه المؤمنين بحسب استطاعته . وقد ورد في الحديث النبوي : « ان للمؤمن على اخيه ثلاثين حقا لا براءة له منها الا بالاداء أو العفو : يغفر زلته ، ويرحم غربته ، ويستر عورته ، ويقيل عثرته، ويقبل معذرته ، ويرد غيبته ، ويديم نصيحته ، ويحفظ خلته ، ويرعى ذمته، ويعود مرضته ، ويشهد ميتته ، ويجيب دعوته ، ويقبل هديته ، ويكافيء صلته ، ويشكر نعمته ، ويحسن نصرته ، ويحفظ حليلته ، ويقضي حاجته، ويشفع مسألته ، ويسمت عطسته ، ويرشد ضالته ، ويرد سلامه ، ويطيب كلامه ، ويبر انعامه ، ويصدق أقسامه ، ويواليه ولا يعاديه ، وينصره ظالما أو مظلوما ، فأما نصرته ظالما فيرده عن ظلمه ، وأما نصرته مظلوما فيعينه ظلمه ، وأما نصرته مظلوما فيعينه على اخذ حقه ، ولا يسأمه ، ولا يخذله، ويحب له من الخير ما يحب لنفسه ، ويكره له من الشر ما يكره لنفسه ».

«الثالث» ما يجري بين الاحياء وذوي حقوقهم من الاموات : من أداء ديونهم وانفاذ وصاياهم والترحم عليهم بالصدقة والدعاء . وقد أشار خاتم الرسالة صلى الله عليه وآله وسلم الى أقسام العدالة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « التعظيم لامر الله والشفقة على خلق الله » ، وبقوله صلى الله عليه وآله وسلم في خبر آخر : « الدين النصيحة، قيل لمن ؟ قال : لله ولرسوله ولعامة المؤمنين » .

ايقاظ

قد ظهر مما ذكر ان الكمال كل الكمال لكل شخص هو العدل والتوسط في جميع صفاته وافعاله الباطنة والظاهرة ، سواء كانت مختصة بذاته أو متوسطة بينه وبين أبناء نوعه ، ولا تحصل النجاة والسعادة الا بالاستقامة على وسط الاشياء المتخالفة ، والتثبت على مركز الاطراف المتباعدة . فكن يا حبيبي جامعا للكمالات ، متوسطا بين مراتب السعادات ، ومركزا لدائرة نيل الافاضات . فكن اولا متوسطا بين العلم والعمل جامعا بينهما بقدر الامكان ، ولا تكتف بأحدهما حتى لا تكون واحدا من الرجلين القاصمين[16]

---

(١٦) اشارة الى قوله صلى الله عليه وآله وسلم : (قصم ظهري رجلان: عالم متهتك وجاهل متنسك) .

لظهر فخر الثقلين صلى الله عليه وآله وسلم . وكن في العمل متوسطا بين حفظ الظاهر والباطن ، فلا تكن في باطنك خبيثا وظاهرك نقيا ، حتى تكون كشوهاء ملبسة بزي حوراء مدلسة بأنواع التدليسات ، ولا بالعكس لتكون مثل درة ملوثة بأقسام القاذورات ، بل ينبغي ان يكون ظاهرك مرآة لباطنك حتى يظهر من محاسنك بقدر ما اقتضته ملكاتك الفاضلة الباطنة . وكن في جميع ملكاتك الباطنة وافعالك الظاهرة متوسطا بين الافراط والتفريط على ما يقرع سمعك في هذا الكتاب . ثم كن في العلوم متوسطا بين العلوم الباطنة العقلية والعلوم الظاهرة الشرعية ، فلا تكن من الذين قصروا أنظارهم على ظواهر الآيات ولم يعرفوا من حقائق البينات ،يذمون علماء الحقيقة وينسبونهم الى الالحاد والزندقة ، ولا من الذين صرفوا اعمارهم في فضول أهل يونان وهجروا ما جاء به حامل الوحي والفرقان ، يذمون علماء الشريعة ويثبتون لهم سوء القريحة ، يدعون لانفسهم الذكاء والفطانة وينسبون ورثة الانبياء الى الجهل والبطالة . ثم كن في العقليات متوسطا بين طرق العقلاء من غير جمود على واحدة منها بمجرد التقليد او التعصب ، فتوسط بين الحكمة والكلام والاشراق والعرفان ،واجمع بين الاستدلال وتصفية النفس بالعبادة والرياضة ، فلا تكن متكلما صرفا لا تعرف سوى الجدل ، ولا مشائيا محضا اضاع الدين وأهمل ، ولا متصوفا استراح بدعوى المشاهدة والعيان من دون بينة وبرهان . وكن في العلوم الشرعية متوسطا بين الاصول والفروع ، فلا تكن اخباريا تاركا للقواعد القطعية ، ولا اصوليا عاملا بقياسات عامية. وقس على ذلك جميع امورك الباطنة والظاهرة ، واعمل به حتى يرشدك الى طريق السداد ، ويوفقك لاكتساب زاد المعاد .

دفع اشكال

ان قيل : قد تلخص مما ذكر : أن الفضيلة في جميع الاخلاق والصفات انما هو المساواة من غير زيادة ونقصان ، مع انه قد ثبت ان للتفضل محمود وهو زيادة فلا يدخل تحت العدالة الراجعة الى المساواة . (قلنا) : التفضل احتياط يقع لتحصيل القطع بعدم الوقوع في النقصان ، وليس الوسط في طرفين من الاخلاق على نهج واحد ، فان الزيادة في السخاء اذا لم يؤد الى

الاسراف احسن من النقصان عنه ، واشبه بالمحافظة على شرائطه . فالتفضل انما يصدر عن فضيلة العدالة ، لانها مبالغة فيها ولا يخرجها عن حقيقتها ، اذ المتفضل من يعطي المستحق أزيد مما يستحقه ، وهذه الزيادة ليست مذمومة بل هي العدالة مع الاحتياط فيها ، ولذا قيل : « ان المتفضل أفضل من العادل » ، والمذموم ان يعطى غير المستحق أو يترك المساواة بين المستحقين لانه انفق فيما لا ينبغي أو على ما لا ينبغي ، وصاحبه لا يسمى متفضلا بل مضيعا ، ولكون التفضل احتياطا انما يحسن من الرجل بالنسبة الى صاحبه في المعاملة التي بينهما . ولو كان بين جماعة ولم يكن له نصيب في ما يحكم فيه لم يسعه الا العدل المحض ولم يجز له التفضيل .

تتميم

قد تلخص ان حقيقة العدالة أو لازمها ان يغلب العقل الذي هو خليفة الله على جميع القوى حتى يستعمل كلا منها فيما يقتضي رأيه ، فلا يفسد نظام العالم الانساني ، فان الواجب سبحانه لما ركب الانسان بحكمته الحقة ومصلحته التامة من القوى الكثيرة المتضادة ، فهي اذا تهايجت وتغالبت ولم يقهرها قاهر خير ، حدثت فيه بهيجانها واضطرابها أنواع الشر ، وجذبه كل واحدة منها الى ما يقتضيه ويشتهيه ، كما هو الشأن في كل مركب . وقد شبه المعلم الاول مثله بمن يجذب من جهتين حتى ينقطع وينشق بنصفين أو من جهات كثيرة فيتقطع بحسبها . فيجب على كل انسان ان يجاهد حتى يغلب عقله الذي هو الحكم العدل والخير المطلق على قواه المختلفة ، ليرفع اختلافها وتجاذبها ويقيم الجميع على الصراط القويم .

ثم كل شخص ما لم يعدل قواه وصفاته لم يتمكن من اجراء احكام العدالة بين شركائه في المنزل والبلد ، اذ العاجز عن اصلاح نفسه كيف يقدر على اصلاح غيره ، فان السراج الذي لا يضيء قريبه كيف يضيء بعيده ، فمن عدل قواه وصفاته اولا واجتنب عن الافراط والتفريط واستقر على جادة الوسط ، كان مستعدا لسلوك هذه الطريقة بين ابناء نوعه ، وهو خليفة الله في ارضه ، واذا كان مثله حاكما بين الناس وكان زمام مصالحهم في قبضة اقتداره ، لتنورت البلاد بأهلها ، وصلحت امور العباد بأسرها ، وزاد

الحرث والنسل ، ودامت بركات السماء والارض .

وغير خفي ان اشرف وجوه العدالات وأهمها وأفضل صنوف السياسات وأعمها هو عدالة السلطان ، اذ غيرها من العدالات مرتبطة بها ولولاه لم يتمكن أحد من رعاية العدالة ، كيف وتهذيب الاخلاق وتدبير المنزل يتوقف على فراغ البال وانتظام الاحوال ، ومع جور السلطان امواج الفتن متلاطمة ، وافراج المحن متراكمة ، وعوائق الزمان متزاحمة ، وبوائق[١٧] الحدثان متصادمة ، وطالبو الكمال كالحيارى في الصحارى لا يجدون الى منازله سبيلا ولا الى جداوله مرشدا ودليلا ، وعرصات العلم والعمل دراسة الآثار ، ومنازلهما مظلمة الارجاء والاقطار ، فلا يوجد ما هو الملاك في تحصيل السعادات ، اعني تفرغ الخاطر والاطمئنان وانتظام أمر المعاش الضروري لافراد الانسان . ولذا لو تصفحت في أمثال زماننا زوايا المدن والبلاد واطلعت على بواطن فرق العباد ، لم تجد من الالوف واحدا تمكن من اصلاح نفسه ويكون يومه خيرا من أمسه ، بل لا تجد دينا الا وهو باك على فقد الاسلام وأهله ، ولا طالبا الا وهو لعدم المكنة باق على جهله ، ولعمري ان هذا الزمان هو الزمان الذي أخبر عنه سيد الانام وعترته الابرار الكرام عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام من انه : «لا يبقى من الاسلام الا اسمه ، ولا من القرآن الا رسمه » .

وبالجملة : المناط كل المناط في تحصيل الكمالات واخراج النفوس من الجهالات ، هو عدالة السلطان ، واعتناؤه باعلاء الكلمة ، وسعيه في ترويج أحكام الدين والملة ، ولذا ورد في الآثار : (أن السلطان اذا كان عادلا كان شريكا في ثواب كل طاعة تصدر عن كل رعية ، وان كان جائرا كان سهيما في معاصيهم) . وقال سيد الرسل صلى الله عليه وآله وسلم : «اقرب الناس يوم القيامة الى الله تعالى الملك العادل وأبعدهم عنه الملك الظالم » . وورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم : « عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة » . والسر ان اثر عدل ساعة واحدة ربما يصل الى جميع المدن والامصار ويبقى على مر الدهور والاعصار ، وقال بعض الاكابر : لو علمت انه يستجيب

(١٧) البائقة : الداهية والشر . ويقال : رفعت عنك بائقة فلان اي غائلته وشره ، جمعه بوائق .

لي دعوة واحدة لخصصتها باصلاح حال السلطان حتى يعم نفعه ٠

تنوير

لاحاجة الى العدالة مع رابطة المحبة

لو استحكمت رابطة المحبة وعلاقة المودة بين الناس لم يحتاجوا الى سلسلة العدالة ، فان أهل الوداد والمحبة في مقام الايثار ولو كان بهم خصاصة ، فكيف يجور بعضهم على بعض٠ والسر ان رابطة المحبة أتم وأقوى من رابطة العدالة ، لان المحبة وحدة طبيعية جبلية ، والعدالة وحدة قهرية قسرية ٠ على انها لا تنتظم بدون المحبة ، لكونها باعثة للايجاد ، كما اشير اليه في الحديث القدسي : « كنت كنزا مخفيا فأحببت ان اعرف » ٠ فالمحبة هو السلطان المطلق ، والعدالة نائبها وخليفتها(١٨) ٠

وصل

التكميل الصناعي لاكتساب الفضائل على طبق ترتيب الكمال الطبيعي

لاكتساب الفضائل ترتيب ينبغي ان لا يتعدى عنه ٠ وبيان ذلك : ان مبادىء الحركات المؤدية الى الكمالات : اما طبيعية كحركة النطفة في الاطوار المختلفة الى بلوغ كمال الحيوانية ، أو صناعية كحركة الخشب بتوسط الآلات الى بلوغ كمال السريرية ٠ ثم الطبيعية وتحريكاتها لاستنادها الى المبادىء العالية تكون متقدمة على الصناعية المستندة الى الانسان ، ولما كان كمال الثواني ان تتشبه بالاوائل ، ينبغي ان تقتدي الصناعية في تحريكاتها المؤدية الى كمالها بالطبيعية ٠

واذ ثبت ذلك فاعلم : ان تهذيب الاخلاق لما كان امرا صناعيا لزم ان يقتفي في تحصيله من حيث الترتيب بأفعال الطبيعة في ترتيب حصولها ، فنقول: لا ريب في ان أول ما يحصل في الطفل قوة طلب الغذاء ، واذا زادت تلك القوة يبكي ويرفع صوته لاجل الغذاء ، واذا قويت حواسه وتمكن من حفظ

(١٨) ولذلك ان الشريعة الاسلامية اول ما دعت فيما دعت الى الاخوة والتآلف بين الناس ، وكثير من احكامها مثل الجماعة والجمعة والايثار والاحسان وتحريم الغيبة والنبز ونحو ذلك تستهدف ايجاد رابطة الحب بين الشعوب والقبائل والافراد ، ليستغنوا عن الاخذ بقانون العدل الصارم المر ٠

بعض الصور يطلب صورة الام أو الظئر[١٩] ، وجميع ذلك متعلق بالقوة الشهوية. ونهاية هذه القوة وكمالها ان يتم ما يتعلق بالشخص من الامور الشهوية وينبعث منه الميل الى استبقاء النوع، فيحدث ميل النكاح والوقاح . ثم تظهر فيه آثار القوة الغضبية حتى يدفع عن نفسه ما يؤذيه ولو بالاستعانة بغيره . وغاية كمال هذه القوة حصول التمكن من حفظ الشخص والاقدام على حفظ النوع ،فيحدث فيه الميل الى ما يحصل به التفوق من اصناف الرئاسات والكرامات. ثم تظهر فيه آثار قوة التميز وتتزايد الى ان يتمكن من تعقل الكليات .

وهنا يتم ما يتعلق بالطبيعة من التدبير والتكميل ،ويكون ابتداء التكميل الصناعي،فلو لم يحصل الاستكمال بالكسب والصناعة بقى على هذه الحالة، ولم يبلغ الى الكمال الحقيقي الذي خلق الانسان لاجله، لانه لم يخلق احد مجبولا على الاتصاف بجميع الفضائل الخلقية الا من أيد من عند الله بالنفس القدسية ، وان كان بعض الناس اكثر استعدادا لتحصيل بعض الكمالات من بعض آخر ، فلا بد لجل الانام في تكميل نفوسهم من الكسب والاستعلام.

فظهر مما ذكر : ان الطبيعة تولد أولا قوة الشهوة ، ثم قوة الغضب ، ثم قوة التميز ، فيجب ان يقتدى به في التكميل الصناعي ،فيهذب اولا القوة الاولى ليكتسب العفة ، ثم الثانية ليتصف بالشجاعة ، ثم الثالثة ليتحلى بالحكمة ،فمن حصل بعض الفضائل على الترتيب الحكمي كان تحصيل الباقي له في غاية السهولة ، ومن حصله لا على الترتيب ، فلا يظن ان تحصيل الباقي حينئذ متعذر بل هو ممكن ، وان كان أصعب بالنسبة الى تحصيله بالترتيب، فان عدم الترتيب يوجب عسر الحصول لا تعذره ، كما ان الترتيب يوجب يسره لا مجرد امكانه . فلا يترك السعي والجد في كل حال ولا ييأس من رحمة الله الواهب المتعال ، وليشمر ذيل الهمة على منطقة الطلب حتى ييسر الله له الوصول الى ما هو المقصد والمطلب .

ثم الفضيلة ان كانت حاصلة لزم السعي في حفظها وابقائها ، وان لم تكن حاصلة بل كان ضدها حاصلا وجب تحصيلها بازالة الضد . ولذا كان فن الاخلاق على قسمين : (احدهما) راجع الى حفظ الفضائل ، (وثانيهما)

(١٩) يريد بها المرضعة .

نافع في دفع الرذائل ،فيكون شبيها بعلم الطب ، من حيث انقسامه الى قسمين: (احدهما) في حفظ الصحة ، (وثانيهما) في دفع المرض ، ولذا يسمى طبا روحانيا، كما ان الطب المتعارف يسمى طبا جسمانيا •ومن هنا كتب جالينوس الى روح الله (ع) : «من طبيب الابدان الى طبيب النفوس» • فكما ان لكل من حفظ الصحة ودفع المرض في الطب الجسماني علاجا خاصا ، فكذلك لكل من حفظ الفضائل وازالة الرذائل في الطب الروحاني معالجات معينة ، كما نذكره ان شاء الله تعالى •

الباب الثالث

فى طريق حفظ اعتدال الاخلاق المحمودة واستحصالها

بازالة نقائضها المذمومة

الطريق لحفظ اعتدال الفضائل ــ قانون العلاج في الطب الروحاني ــ طريقة معرفــة الامراض النفسية ــ المعالجات الكليــة لامراض النفس ــ المعالجات الخاصة لامراض النفس . وله اربعة مقامات :

(الاول) ما يتعلق بالقوة العاقلة من الرذائل والفضائل وكيفية علاج الرذائل

(الثاني) ما يتعلق بالقوة الغضبية من الرذائل والفضائل وكيفية العلاج .

(الثالث) ما يتعلق بالقوة الشهوية من الرذائل والفضائل وكيفية العلاج .

(الرابع) ما يتعلق بالقوى الثلاث أو باثنتين منها .

وفيه فصول[1] :

فصـــل

الطريق لحفظ اعتدال الفضائل

قد تقرر في الطب الجسماني ان حفظ الصحـــة بايراد المثل وملائم المزاج ، فيجب ان يكون حفظ اعتدال الفضائل ايضا بذلك • وايراد المثل لحفظ اعتدالها يكون بامور :

«منها» اختيار مصاحبة الاخيار ، والمعاشرة مع اولى الفضائل الخلقية، واستماع كيفية سلوكهم مع الخالق والخليقة ، والاجتناب عن مجالسة الاشرار وذوي الاخلاق السيئة ، والاحتراز عن استماع قصصهم وحكاياتهم وما صدر عنهم من الافعال ومزخرفاتهم ، فان المصاحبة مع كل أحد أقوى باعث على الاتصاف بأوصافه ، فان الطبع يسترق من الطبع كلا من الخير والشـــر • والسر : ان النفس الانسانية ذات قوى بعضها يدعو الى الخيرات والفضائل وبعضها يقتضي الشرور والرذائل ،وكلما حصل لاحدهما أدنى باعث لما تقتضيه جبلته مال اليه وغلب على صاحبه الى الخير ، ولكون دواعي الشر من القوى أكثر من بواعث الخير منها ، يكون الميل الى الشر أسرع وأسهل بالنسبة الى الميل الى الخير ، ولذا قيل : ان تحصيل الفضائل بمنزلة الصعود الى الاعالي ، وكسب الرذائل بمثابة النزول منها • والى ذلك يشير قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات » •

«ومنها» اعمال القوى في شرائف الصفات ، والمواظبة على الافعال التي هي آثار فضائل الملكات ، وحمل النفس على الاعمال التي يقتضيها الخلق الذي يريد حفظه ، فالحافظ لملكة الجود يجب ان يواظب على انفاق المال وبذله على المستحقين ، ويقهر على نفسه عند وجدان ميلها الى الامساك ، والحافظ لملكة الشجاعة يجب ألا يترك الاقدام في الاخطار والاهوال بشرط اشارة العقل ، ويغضب على نفسه عند وجدان الجبن منها • وهكذا الحال في سائر الصفات • وهذا بمثابة الرياضة الجسمانية في حفظ الصحة البدنية•

---

(١) هذه الفصول كتمهيد للمقامات الاربعة التي تتعلق بالعلاج الخاص لذمائم الاخلاق .

« ومنها » ان يقدم التروي على كل مايفعله ، لئلا تصدر عنه غفلة خلاف ما تقتضيه الفضيلة . ولو صدر عنه أحيانا خلاف مقتضاها ، فليؤدب نفسه بارتكاب ما يضاده ، ويشق عليها عقوبة ، بعد تعييرها وتوبيخها ، كما اذا أكل ما يضره من المطاعم فيؤدبها بالصوم ، واذا صدر عنه غضب مذموم في واقعةفليؤدبها بايقاعها في مثلها مع الصبر عليها ،أو في معرض اهانة السفهاء حتى يكسر جاهه أو يؤدبها بارتكاب ما يشق عليها من النذر والصدقة وغير ذلك . وينبغي الا يترك الجد والسعي في التحصيل والحفظ وان بلغ الغاية، لان التعطيل يؤدي الى الكسالة وهي الى انقطاع فيوضات عالم القدس ، فتنسلخ الصورة الانسانية وتحصل الهلاكة الابدية ، والسعي يوجب ازدياد تجرد النفس وصفائها والانس بالحق والالف بالصـدق[٢] ، فيتنفر عن الكذب والباطل ، ويتصاعد في مدارج الكمالات ومراتب السعادات ، حتى تنكشف له الاسرار الالهية والغوامض الربانية ،ويتشبه بالروحانيات القادسة، وينخرط في سلك الملائكة المقدسة . ويجب ان يكون سعيه في امور الدنيا بقدر الضرورة ، ويحرم على نفسه تحصيل الزائد ، لانه لا شقاوة أشد من صرف الجوهر الباقي النوراني في تحصيل الخزف الفاني الظلماني الذي يفوته عنه وينتقل الى اعدائه من الوراث وغيرهم .

«ومنها» ان يحترز عما يهيج الشهوة والغضب رؤية وسماعا وتخيلا ، ومن هيّجهما كمن هيج كلبا عقورا او فرسا شموسا ، ثم يضطر الى تدبير الخلاص عنه . واذا تحركتا بالطبع فليقتصر في تسكينهما بما يسد الخلة ولا ينافي حفظ الصحة ، وهو القدر الذي جوزه العقل والشريعة .

«ومنها» ان يستقصي في طلب خفايا عيوب نفسه ، واذا عثر على شيء منها اجتهد في ازالته . ولما كانت النفس عاشقة لصفاتها وافعالها ، فكثيرا مايخفى عليها بعض عيوبها ، فيلزم على كل طالب للصحة وحافظها ان يختار بعض اصدقائه ليتفحص عن عيوبه ويخبره بما اطلع عليه ، واذا أخبره بشيء منها فليفرح وليبادر الى ازالته حتى يثق صديقه بقوله ، ويعلم ان اهداء شيء من عيوبه اليه احسن عنده من كل ما يحبه ويهواه ، وربما كان العدو

(٢) كذا فى النسخ . والصحيح « للصدق » .

في هذا الباب انفع من الصديق ، لان الصديق ربما يستر العيب ولا يظهره، والعدو مصر على اظهاره ، بل ربما يتجاوز الى البهتان ، فاذا أظهر الاعداء عيوبه فليشكر الله على ذلك وليبادر الى رفعها وقمعها .

ومما ينفع في المقام ان يجعل صور الناس مرايا لعيوبه ويتفقد عيوبهم ، واذا عثر على عيب منهم تأمل في قبحه ، ويعلم ان هذا العيب اذا صدر عنه يكون قبيحا ويدرك غيره هذا القبح ، فليجتهد في ازالتـه . وينبغي ان يحاسب نفسه في آخر كل يوم وليلة ، ويتفحص عن جميع ما صـدر من الافعال فيهما ، فان لم يصدر عنه شيء من القبائح والذمائم فليحمد الله على حسن تأييده ، وان صدر عنه شيء من ذلك فليعاتب نفسه ويتوب ، ويجتهد في ألا يصدر عنه بعد ذلك مثله .

قانون العلاج فى الطب الروحاني

« تنبيه » قد تبين ان للطب الروحاني أسوة بالطب الجسماني . والقانون في معالجة الامراض الجسمانية ان يعرف جنس المرض أولا ، ثم الاسباب والعلامات ، ثم يبين كيفية العلاج . والعلاج فيه اما كلي يتناول جميـع الامراض ، أو جزئي يختص بمرض دون مرض ، فكذلك الحال في الطب الروحاني . ونحن نشير الى ذلك في فصول :

فصـــل

طريق معرفة الامراض النفسانية

الامراض النفسانية هي انحرافات الاخلاق عن الاعتدال . وطـريق معرفتها : أنك قد عرفت ان القوى الانسانية محصورة في انواع ثلاثة : (احدها) قوة التمييز ، (وثانيها) قوة الغضب ويعبر عنها بقوة الدفع ، (وثالثها) قوة الشهوة ويعبر عنها بقوة الجذب . وانحراف كل منها اما في الكمية أو في الكيفية ، والانحراف في الكمية اما للزيادة من الاعتدال أو للنقصان عنه . والانحراف في الكيفية انما يكون برداءتها . فامراض كل قوة اما بحسب الافراط أو التفريط ، او بحسب رداءة الكيفية .

فالافراط في قوة التمييز : كالجربزة والدهاء ، والتجاوز عن حد النظر،

والمبالغة في التنقير [٣] ،والتوقف في غير موضعه للشبه الواهية ، والحكم على المجردات بقوة الوهم ، واعمال الذهن في ادراك ما لا يمكن دركه ، والتفريط فيه كالبلاهة ، وقصور النظر عن درك مقدار الواجب ، كاجراء أحكام المحسوسات على المجردات . والرداءة كالسفسطة في الاعتقاد، والميل الى العلوم الغير اليقينية — كعلم الجدل والخلاف — أزيد مما يميل الى اليقينيات ، واستعمالهما في مقام اليقينيات ،والشوق الى علم الكهانة والشعبذة وأمثالهما للوصول الى الشهوات الخسيسة .

وأما الافراط في قوة الدفع : كشدة الغضب والغيظ وفرط الانتقام بحيث يتشبه بالسباع . وأما التفريط : كعدم الغيرة والحمية والتشبه بالاطفال والنسوان في الاخلاق والصفات .وأما الرداءة فيها :كالغيظ على الجمادات والبهائم أو على الناس لا بسبب موجب للانتقام .

وأما الافراط في قوة الجذب : فكالحرص على الاكل والجماع أزيد من قدر الضرورة . والتفريط فيه : فكالفتور عن تحصيل الاقوات الضرورية وتضييع العيال والخمود عن الشهوة حتى ينقطع عنه النسل . أما الرداءة فيها : كشهوة الطين والميل الى مقاربة الذكور .

ثم انك قد عرفت ان اجناس الفضائل اربعة ، فأجناس الرذائل بحسب الكمية ثمانية ، لكل فضيلة ضدان كل منهما ضد للآخر ، وبحسب الكيفية أربعة ، ويحصل من تركيبها وامتزاجها انواع واصناف لا يعد كثرة ، كما عرفت أكثرها .

فصل

اسباب الامراض النفسانية

اعلم ان اسباب الانحراف في الاخلاق ، اما نفسية حاصلة في النفس في بدو فطرتها ، أو حادثة من مزاولتها للاعمال الردية ، أو جسمية — وهي الامراض الموجبة لبعض الملكات الردية — والسر في ذلك ان النفس لما كانت متعلقة بالبدن علاقة ارتباطية ، فيتأثر كل منهما بتأثر الآخر ، وكل كيفية تحدث في احدهما تسري في الآخر ، كما ان غضب النفس او تعشقها يوجب اضطراب البدن وارتعاشه،وتأثر البدن بالامراض ، (لا) سيما اذا حدثت

---

(٣) التنقير : البحث والتتبع .

في الاعضاء الرئيسية يوجب النقص في ادراك النفس وفساد تخيلها . وكثيرا ما يحدث من بعض الامراض السوداوية فساد الاعتقاد والجبن وسوء الظن، ومن بعضها التهور ، ويحصل من أكثر الامراض سوء الخلق .

فصـــل

المعالجات الكلية لمرض النفس

سبب الانحراف ان كان مرضا جسمانيا فيجب ان يبادر الى ازالتـــه بالمعالجات الطبية ، وان كان نفسانيا فالمعالجة الكلية هنا كالمعالجة الكلية في الطب الجسماني . والمعالجة الكلية فيه ان يعالج المرض اولا بالغذاء الذي هو ضد المرض طبعا ، كأن يعالج المرض البارد بالغذاء الحار ، فان لم ينفع فبالدواء ، وان لم ينجع فبالسمومات ، وان لم يحصل بها البرء فبالكي أو القطع ، وهو آخر العلاج . فالقانون الكلي في المعالجة هنا ايضا كذلك ، وهو ان يبادر بعد معرفة الانحراف الى تحصيل الفضيلة التي هي ضده ، والمواظبة على الافعال التي هي آثارها ، وهذا بمنزلة الغذاء المضاد للمرض. فكما ان حصول الحرارة في المزاج يدفع البرودة الحادثة فيه ، فكذا كل فضيلة تحدث في النفس تزيل الرذيلة التي هي ضدها . فان لم ينفع فليوبخ النفس ويعيرها على هذه الرذيلة فكرا او قولا أو عملا ، ويعاتبها ويخاطبها بلسان الحال والمقال : ايتها النفس الامارة قد هلكت وتعرضت لسخط الله وغضبه ، وعن قريب تعذبين في النار مع الشياطين والاشرار . فان لم يؤثر ذلك فليرتكب آثار الرذيلة التي هي ضد هذه الرذيلة ، بشرط محافظة التعديل، فصاحب الجبن مثلا يعمل اعمال المتهورين ، فيخوض في المخاوف والاهوال ويلقى نفسه في موارد الحذر والاخطار . وصاحب البخل يكثر من بذل الاموال ، بشرط ان يكف اذا قرب زوال الجبن والبخل لئلا يقع في التهور والاسراف ، وهذا بمنزلة المداواة بالسم . فان لم ينفع ذلك لقوة استحكام المرض فليعذب النفس بأنواع التكاليف الشاقة والرياضات المتعبة المضعفة للقوة الباعثة على هذه الرذيلة ، وهذا بمثابة الكي والقطع ، وهو آخر العلاج.

المعالجات الخاصة لمرض النفس

« تنبيه » لما عرفت المعالجة الكلية الشاملة لجميع الرذائل بأجناسها

وأنواعها وأصنافها ، فلنشتغل الآن ببيان معالجة كل من الرذائل بخصوصه. وقد عددنا قبل ذلك ما يتعلق بالقوى الثلاث من الرذائل واضدادها من الفضائل مما له اسم مشهور ، فههنا نذكر معالجة كل رذيلة بخصوصها ، ونذيله بذكر ما يضادها من الفضيلة ، وما ورد في مدحها عقلا ونقلا ، لان العلم بمعرفة كل فضيلة وحسنة أعون شيء على ازالة ما يضادها من الرذيلة . وربما كانت جملة من الرذائل المختلفة في الاسم مشتركة في المعالجة ، وربما كان للرذائل أو الفضائل المتعددة ضد واحد منهما ، فنحن نشير الى ذلك، ونشير ايضا في تلو كل رذيلة وفضيلة الى ما يتولد منهما من أفعال الجوارح مع معالجته — ان كان له ذلك — ونراعي الترتيب المذكور في مقام الاجمال : فنذكر اولا ما يتعلق بالقوة العاقلة من الجنسين وانواعهما ، ثم ما يتعلق بالقوة الغضبية ، ثم ما يتعلق بالشهوية ، ثم ما يتعلق بالثلاث والاثنين منها، فهنا اربعة مقامات:

المقام الاول

في معالجة الرذائل المتعلقة بالقوة العاقلة

الجربزة وعلاجها — الجهل البسيط وعلاجه — شرف العلم والحكمة — آداب التعلم والتعليم — العلم الالهي والاخلاق والفقه أشرف العلوم — أصول العقائد المجمع عليها — الجهل المركب والشك — اليقين — علامات صاحبه — مراتب اليقين — الشرك — التوحيد — التوكل على الله — حق التوكل بماذا يحصل — مناجاة السر لأرباب القلوب — الخواطر النفسانية والوساوس — اقسام الخواطر ومنها الالهام — المطاردة بين جندي الملائكة والشياطين في معركة النفس — العلائم الفارقة بين الالهام والوسوسة — علاج الوساوس — ما يتم به علاج الوساوس — مايتوقف قطع الوساوس عليه — حديث النفس لامؤاخذة عليه — الخاطر المحمود والتفكر — مجاري التفكر في العوالم والمخلوقات .

أما جنسا رذائلها (٤) (فاولهما) :

الجربزة

الموجبة للخروج في الفكر عن الحد اللائق وعدم استقالة الذهن على شيء، بل لايزال يستخرج أمورا دقيقة غير مطابقة للواقع ويتجاوز عن الحق ولا يستقر عليه ، وربما أدى في العقليات الى الالحاد وفساد الاعتقاد ، بل الى نفي حقائق الاشياء رأسا كما للسوفسطائية ، وفي الشرعيات الى الوساوس . (وعلاجه) بعد تذكر قبحه وايجابه للهلاك ، أن يكلف نفسه على الاستقامة على مقتضى الادلة المعتبرة عند أولى الافهام المستقيمة ، ولا يتجاوز عن معتقدات أهل الحق المعروفين بالتحقيق واستقامة القريحة ، ولا يزال يكلف نفسه على ذلـك حتى يعتاد القيـام على الوسط . وربما كان للاشتغال بالتعليمات نفع في ذلك .

(وثانيهما) :

الجهل البسيط

وقد عرفت أنه من باب التفريط ، وهو خلو النفس عن العلم من دون أعتقاد بكونها عالمة . وهو في البداية غير مذموم لتوقف التعلم عليه ، اذ مالم تعتقد النفس جهلها بالمعارف لم تنتهض لتحصيلها . وأما الثبات عليه فهو من المهلكات العظيمة . والطريق في ازالته أمور : (الاول) أن يتذكر ما يدل على قبحه ونقصه عقلا ، وهو ان يعـلم ان الجاهل ليس انسانا بالحقيقة ، وانمـا يطلق عليه الانسان مجازا ، اذ فضل الانسان عن سائر الحيوانات انما هو ادراك الكلي المعبر عنه بالعلم ، لمشاركتها معه في سائر الامور من الجسمية والقوى الغضبية والشهوية والصوت وغير ذلك ، فلولا علمه بحقائق الاشياء وخواصها لكان حيوانا بالحقيقة ، ولذا ترى ان من كان في محل محاورات العلماء وكان جاهلا بأقوالهم لم يكن فرق بينه وبين البهائم بالنسبة اليهم . وأي هلاك أعظم من الخروج عن حدود الانسانية والدخول في حد البهيمية . (الثاني) أن يتذكر ما ورد في الشريعة من الذم عليه مثل قوله — صلى الله عليه وآله وسلم — : « ستة يدخلون في النار

---

(٤) أي القوة العاقلة .

قبل الحساب لسنة » وعد منهم أهل الرساتيق بالجهالة . (الثالث) أن يتذكر ما يدل على فضيلة العلم عقلا ونقلا كما نذكره . واذا وقف على جميع ذلك فليتيقظ عن سنة الغفلة ، ويصرف في ازالته الهمة ، ويجتهد في تحصيل العلم عن أهاليه ، ويصرف فيه أيامه ولياليه .

فصل

شرف العلم والحكمة

قد علم أن ضد الجنسين ـ أي الجربزة والسفسطة والجهل ـ هو الحكمة ، اعني العلم بحقائق الاشياء . فلنذكر أولا بعض ما يدل على شرافته عقلا ونقلا ، ترغيبا للطالبين على السعي في تحصيله وازالة الجهل عن نفوسهم ، فنقول :

لاريب في أن العلم افضل الفضائل الكمالية وأشرف النعوت الجمالية ، بل هو أجل الصفات الربوبية وأجمل السمات الالوهية ، وهو الموصل الى جوار رب العالمين والدخول في أفق الملائكة المقربين ، وهو المؤدي الى دار المقامة التي لاتزول ومحل الكرامة التي لاتحول ، وقد تطابق العقل والبرهان واجماع أرباب الاديان على : أن السعادة الابدية والقرب من الله سبحانه لايتيسران بدونه ، وأي شيء أفضل مما هو ذريعة اليهما . وأيضا قد ثبت في الحكمة المتعالية : ان العلم والتجرد متلازمان ، فكلما تزداد النفس علما تزداد تجردا ، ولا ريب في أن التجرد أشرف الكمالات المتصورة للانسان ، اذ به يحصل التشبه بالملأ الأعلى وأهل القرب من الله تعالى .

ومن جملة العلوم معرفة الله التي هي السبب الكلي لايجاد العلم العلوي والسفلي ، كما دل عليه الخبر القدسي : « كنت كنزا مخفيا فأحببت ان أعرف فخلقت الخلق » . على أن العلم لذيذ في نفسه محبوب في ذاته ، وما يحصل منه من اللذة والابتهاج قلما يحصل من غيره . والسر فيه ان ادراك الاشياء والاحاطة بها نوع تملك وتصرف لها ، اذ تتقرر في ذات المدرك حقائقها وصورها ، ومثل هذا التملك لدوامه وجزئية المدرك للمدرك أقوى من ملكية الاعيان المباينة لذات المالك الزائلة عنه . والتحقيق : أن اطلاق الملكية عليه مجازى ، والنفس لكونها من سنخ عالم الربوبية تحب القهر والاستيلاء على

الاشياء والمالكية لها بأي نحو كان ، اذ معنى الربوبية التوحيد بالكمال والاقتدار والغلبة على الاشياء .

ثم من فوائد العلم في الدنيا العز والاعتبار عند الاخيار والاشرار ، ونفوذ الحكم على الملوك وأرباب الاقتدار ، فان طباع الانام من الخاص والعام مجبولة على تعظيم أهل العلم وتوقيرهم ووجوب أطاعتهم واحترامهم ، بل جميع الحيوانات من البهائم والسباع مطيعة للانسان مسخرة له ، لاختصاصه بقوة الادراك ومزيد التمييز . ولو تصفحت آحاد الناس لم تجد أحدا له تفوق وزيادة على غيره في جاه او مال او غير ذلك الا وهو راجع الى اختصاصه بمزيد تمييز وادراك ، ولو كان من باب المكر والحيل .

هذا وما يدل على شرافة العلم من الآيات والاخبار أكثر من ان تحصى . نبذة منها قوله تعالى :

« انما يخشى الله من عباده العلماء » (٥) .

وقوله تعالى :

« هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » (٦) .

وقوله تعالى :

« ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيرا كثيرا » (٧) .

وقوله تعالى :

« وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون » (٨) .

وقول النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — : « اللهم ارحم خلفائي . قيل : يارسول الله ! من خلفاؤك ؟ قال : الذين يأتون من بعدي ويروون حديثي وسنتي » . وقوله — صلى الله عليه وآله وسلم — لأبي ذر : «جلوس ساعة عند مذاكرة العلم أحب الى الله تعالى من قيام الف ليلة يصلى في كل ليلة الف ركعة وأحب اليه من ألف غزوة ، ومن قراءة القرآن كله اثنى عشر

---

(٥) الفاطر ، الآية : ٢٨ .
(٦) الزمر ، الآية : ٩ .
(٧) البقرة ، الآية : ٢٦٩ .
(٨) العنكبوت ، الآية : ٤٣ .

الف مرة ، وخير من عبادة سنة صام نهارها وقام ليلها ، ومن خرج من بيته ليلتمس باباً من العلم كتب الله عز وجل له بكل قدم ثواب نبي من الانبياء ، وثواب ألف شهيد من شهداء بدر ، وأعطاه الله بكل حرف يسمع او يكتب مدينة في الجنة ، وطالب العلم يحبه الله وتحبه الملائكة والنبيون ، ولا يحب العلم الا السعيد ، وطوبى لطالب العلم ، والنظر في وجه العالم خير من عتق ألف رقبة ، ومن أحب العلم وجبت له الجنة ، ويصبح ويمسى في رضى الله ، ولا يخرج من الدنيا حتى يشرب من الكوثر ويأكل من ثمرة الجنة ، ولا يأكل الدود جسده ، ويكون في الجنة رفيق خضر (ع) » .

وقول أمير المؤمنين : « ان كمال الدين طلب العلم والعمل به ، وان طلب العلم أوجب عليكم من طلب المال ، وان المال مقسوم مضمون لكم قد قسمه عادل بينكم ، وقد ضمنه وسيفى لكم ، والعلم مخزون عند أهله فأطلبوه » . وقوله (ع) : « اذا مات مؤمن وترك ورقة واحدة عليها علم ، تكون تلك الورقة سترا بينه وبين النار ، وأعطاه الله بكل حرف عليها مدينة اوسع من الدنيا سبع مرات » .

وقول سيد الساجدين علي بن الحسين ــ عليهما السلام ــ : « لو يعلم الناس مافي طلب العلم لطلبوه ، ولو بسفك المهج وخوض اللجج » .

وقول الباقر (ع) : « عالم ينتفع بعلمه أفضل من سبعين ألف عابد » .

وقول الصادق « لو يعلم الناس ما في فضل معرفة الله تعالى ما مدوا أعينهم الى ما متع به الاعداء من زهرة الحياة الدنيا ونعيمها ، وكانت دنياهم أقل عندهم مما يطؤن بأرجلهم ، ولتنعموا بمعرفة الله وتلذذوا بها تلذذ من لم يزل في روضات الجنان مع أولياء الله . ان معرفة الله تعالى انس من كل وحشة ، وصاحب من كل وحدة ، ونور من كل ظلمة ، وقوة من كل ضعف ، وشفاء من كل سقم ، قد كان قوم قبلكم قوم يقتلون ويحرقون وينشرون وتضيق عليهم الارض برحبها ، فما يردهم عما هم عليه شيء مما هم فيه من غير ترة وتروا من فعل ذلك بهم ولا أذى بما نقموا منهم :

« الا ان يؤمنوا بالله العزيز الحميد »[٩] .

---

(٩) البروج ، الآية : ٨ .

فاسألوا ربكم درجاتهم ، وأصبروا على نوائب دهركم تدركوا سعيهم » .

وعن الرضا (ع) عن آبائه — عليهم السلام — عن النبي — صلى الله عليه وآلهوسلم — انه قال : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ، فأطلبوا العلم في مظانه ، واقتبسوه من أهله ، فان تعلمه لله تعالى حسنة ، وطلبه عبادة ،ـوالمذاكرة بهتسبيح ، والعمل به جهاد ، وتعليمه من لايعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة الى الله ، لانه معالم الحلال والحرام ، ومنار سبيل الجنة ، والمؤنس في الوحشة ، والصاحب في الغربة والوحدة ، والمحدث في الخلوة، والدليل على السراء والضراء ، والسلاح على الاعداء . والزين عند الاخلاء، يرفع الله به أقواما ، ويجعلهم في الخير قادة ، تقتبس آثارهم ، ويقتدى بأفعالهم ، وينتهي الىآرائهم ، ترغب الملائكة في خلتهم ، وبأجنحتها تمسحهم وفي صلاتها تبارك عليهم ، ويستغفر لهم كل رطب ويابس حتى حيتانالبحر وهوامه وسباع البر وأنعامه . ان العلم حياة القلوب من الجهل ، وضياء الابصار من الظلمة ، وقوة الابدان من الضعف ، يبلغ بالعبد منازل الاخيار ومجالس الابرار والدرجات العلى في الآخرة والاولى . الذكر فيه يعدل بالصيام ومدارسته بالقيام . وبه يطاع الرب ويعبد ، وبه توصل الارحام ، ويعرف الحلال والحرام . العلم امام والعمل تابعه ، يلهمه السعداء ويحرمه الاشقياء ، فطوبى لمن لم يحرمه الله من حظه » .

آداب التعلم والتعليم

(تنبيه) لكل من التعلم والتعليم آداب وشروط :

(أما آداب التعلم) :

(فمنها) أن يجتنب المتعلم عن اتباع الشهوات والهوى والاختلاط بأبناء الدنيا . ولقد قال بعض الاكابر : « كما ان الحاسة الجليدية اذا كانت مؤوفة برمد ونحوه فهي محرومة من الاشعة الفائضة عن الشمس ، كذلك البصيرة اذا كانت مؤوفة بمتابعة الشهوات والهوى والمخالطة بأبناء الدنيا فهي محرومة من ادراك الانوار القدسية ومحجوبة عن ذوق اللذات الانسية » .

(ومنها) ان يكون تعلمه لمجرد التقرب الى الله والفوز بالسعادات

الاخروية ، ولم يكن باعثه شيئا من المراء والمجادلة ، والمباهاة والمفاخرة ، والوصول الى جاه ومال ، او التفوق على الاقران والامثال . قال الباقر عليه السلام : « من طلب العلم ليباهي به العلماء او يماري به السفهاء او يصرف به وجوه الناس فليتبوأ مقعده من النار ، ان الرئاسة لاتصلح الا لأهلها » . وقال الصادق (ع) : « طلبة العلم ثلاثة ، فأعرفهم بأعيانهم وصفاتهم : صنف يطلبه للجهل [١٠] والمراء ، وصنف يطلبه للاستطالة والختل ، وصنف يطلبه للفقه والعقل . فصاحب الجهل والمراء مؤذ ممار ، متعرض للمقال في أندية الرجال بتذاكر العلم وصفة الحلم ، وقد تسربل بالخشوع وتخلى من الورع ، فدق الله من هذا خيشومه وقطع منه حيزومه . وصاحب الاستطالة والختل ذو خب وملق ، يستطيل على مثله من أشباهه ، ويتواضع للأغنياء من دونه ، فهو لحلوانهم [١١] هاضم ولدينه حاطم ، فأعمى الله على هذا خبره وقطع من آثار العلماء أثره . وصاحب الفقه والعقل ذو كآبة وحزن وسهر ، قد تحنك في برنسه وقام الليل في حندسه ، يعمل ويخشى وجلا داعيا مشفقا مقبلا على شأنه عارفا بأهل زمانه مستوحشا من أوثق أخوانه ، فشد الله من هذا أركانه وأعطاه يوم القيامة أمانه » .

(ومنها) أن يعمل بما يفهم ويعلم ، فان من عمل بما يعلم ورثه الله مالم يعلم . وقال الصادق (ع) : « العلم مقرون الى العمل ، من علم عمل ، ومن عمل علم ، والعلم يهتف بالعمل فان أجابه والا ارتحل عنه » . وعن السجاد (ع) : « مكتوب في الانجيل : لاتطلبوا علم مالا تعملون ولما تعملوا بما علمتم ، فان العلم اذا لم يعمل به لم يزدد صاحبه الا كفرا ولم يزدده من الله الا بعدا » . وعن النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — : « من أخذ العلم من أهله وعمل بعلمه نجا ، ومن أراد به الدنيا فهي حظه » . وعنه

---

(١٠) (الجهل) هنا بمعنى الجفاء والغلظة .

(١١) قال الشيخ (ملا صالح المازندراني) تعليقته على أصول الكافي عن هذا الحديث « الحلوان — بضم الحاء المهملة وسكون اللام — ما تأخذه الحكام والقضاة والكاهن من الاجر والرشوة على اعمالهم ، يقال : حلوته أحلوه حلوانا ، فهو مصدر كالغفران ، ونونه زائدة ، وصله من الحلاوة ، وفي بعض النسخ (بحلوائهم) — بالهمزة بعد الالف — والحلوا . — بالمد والقصر — مايتخذ من الحلاوة » .

ـ صلى الله عليه وآله وسلم : « العلماء رجلان : رجل عالم آخذ بعلمه فهذا ناج ، وعالم تارك لعلمه فهذا هالك ، وأن أهل النار ليتأذون من ريح العالم التارك لعلمه ، وان أشد أهل النار ندامة وحسرة رجل دعا عبدا الى الله فأستجاب له وقبل منه ، فأطاع الله فأدخله الجنة ، وأدخل الداعي النار بترك عمله [١٢] واتباعه الهوى وطول الامل ، اما اتباع الهوى فيصد عن الحق وطول الامل ينسى الآخرة » .

(ومنها) أن يحافظ شرائط الخضوع والادب للمعلم ، ولا يرد عليه شيئا بالمواجهة ، ويكون محبا له بقلبه ، ولا ينسى حقوقه ، لانه والده المعنوي الروحاني ، وهو أعظم الآباء الثلاثة . قال الصادق (ع) : « أطلبوا العلم وتزينوا معه بالحلم والوقار ، وتواضعوا لمن تعلمونه العلم ، وتواضعوا لمن طلبتم منه العلم ، ولاتكونوا علماء جبارين فيذهب باطلكم بحقكم » .

هذا وقد أشرنا سابقا الى أن اللازم لكل متعلم ان يطهر نفسه أولا من رذائل الاخلاق وذمائم الاوصاف بأسرها ، اذ مالم يجرد لوح نفسه عن النقوش الردية لم تشرق عليه لمعات أنوار العلم والحكمة من ألواح العقول الفعالة القدسية .

..

(فمنها) ان يخلص المعلم تعليمه لله سبحانه ولم يكن له فيه باعث دنيوى من طمع مالي أوجاه ورئاسة أو شهرة بين الناس ، بل يكون الباعث مجرد التقرب الى الله تعالى والوصول الى المثوبات الابدية ، فان من علم غيره علما كان شريكا في ثواب تعليم هذا الغير لآخر ، وفي ثواب تعليم هذا الآخر لغيره ... وهكذا الى غير النهاية ، فيصل بتعليم واحد الى مثوبات التعاليم الغير المتناهية ، وكفى بهذا له فضلا وشرفا .

(ومنها) ان يكون مشفقا على المتعلم ناصحا له ، مقتصرا في الافادة على قدر فهمه ، متكلماً معه باللين والهشاشة لا بالغلظة والفظاظة .

(ومنها) أن لايضن العلم من أهله ويمنعه عن غير أهله ، لأن بذل

---

(١٢) صححناه على بعض نسخ اصول الكافى المصححة وفى نسخ جامع السعادات هكذا : (بتركه علمه) .

الحكمة للجهال ظلم عليها ،ومنعها عن أهلها ظلم عليهم ، كما ورد في الخبر[١٣] .

(ومنها) أن يقول ما يعلم ويسكت عما لايعلم حتى يرجع اليه ويعلمه، ولا يخبر المتعلمين ببيان خلاف الواقع . وهذا الشرط لايختص بالمعلمين ، بل يعم كل من تصدر عنه المسائل العلمية كالمفتى والقاضي وأمثالهما . وقال الباقر (ع) : « حق الله على العباد أن يقولوا ما يعلمون ويقفوا عنه مالا يعلمون »[١٤] وقال الصادق (ع) : « ان الله تعالى خص عباده بآيتين من كتابه : ألا يقولوا حتى يعلموا ولا يردوا مالم يعلموا ، فقال :

« الم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ان لايقولوا على الله الا الحق » (١٥) .
وقال : « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله » (١٦) .

وعنه (ع) : « اذا سئل الرجل منكم عما لايعلم ، فليقل : لاأدري، ولا يقل : الله أعلم ، فيوقع في قلب صاحبه شكا . واذا قال المسؤل : لا أدري ، فلا يتهمه السائل » وعنه (ع) : « اياك وخصلتين ففيهما هلك من هلك . اياك أن تفتى الناس برأيك ، او تدين بما لاتعلم » . وعن الباقر(ع): « من أفتى الناس بغير علم ولا هدى لعنته ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، ولحقه وزر من عمل بفتياه » .

وربما كان لكل من المتعلم والمعلم آداب أخر تظهر لمن وقف على فن الاخلاق . ثم العارف بأهل زماننا يعلم ان آداب التعلم والتعليم كسائر الآداب والفضائل فيهم مهجورة ، والامر في مثل الزمان كما قال في وصفه بعض أهل العرفان : « قد فسد الزمان وأهله ، وتصدى للتدريس من قل علمه وكثر جهله ، فانحطت مرتبة العلم وأصحابه ، واندرست مراسمه بين طلابه » .

---

(١٣) روي فى أصول الكافى فى باب بذل العلم عن الصادق ــ عليه السلام ــ: « قام عيسى بن مريم خطيبا فى بني اسرائيل فقال : يابني اسرائل ! لاتحدثوا الجهال بالحكمة فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم » .

(١٤) الحديث المروي فى أصول الكافى هكذا : « عن زرارة بن اعين قال : سألت أبا جعفر ــ عليه السلام ــ ما حق الله على العباد ؟ قال : ان يقولوا ما يعلمون . . . » الى آخر الحديث .

(١٥) الاعراف ، الآية : ١٦٩ .

(١٦) يونس ، الآية : ٣٩ .

تتميم

العلم الالهي وعلم الاخلاق والفقه أشرف العلوم

العلم كله وان كان كمالا للنفس وسعادة ، الا ان فنونه متفاوتة في الشرافة والجمال ووجوب التحصيل وعدمه ، فان بعضها كالطب والهندسة والعروض والموسيقى وأمثالها ، مما ترجع جل فائدته الى الدنيا ولا يحصل بها مزيد بهجة وسعادة في العقبى ، ولذا عدت من علوم الدنيا دون الآخرة ، ولا يجب تحصيلها ، وربما وجب تحصيل بعضها كفاية .

وما هو علم الآخرة الواجب تحصيله ، وأشرف العلوم وأحسنها هو العلم الالهي المعرف لاصول الدين ، وعلم الاخلاق المعرف لمنجيات النفس ومهلكاتها ، وعلم الفقه المعرف لكيفية العبادات والمعاملات ، والعلوم التي مقدمات لهذه الثلاثة كالعربية والمنطق وغيرهما يتصف بالحسن ووجوب التحصيل من باب المقدمة . وهذه العلوم الثلاثة وان وجب أخذها اجمالا الا أنها في كيفية الاخذ مختلفة : فعلم الاخلاق يجب أخذه عينا على كل أحد على ما بينته الشريعة وأوضحه علماء الاخلاق ، وعلم الفقه يجب أخذ بعضه عينا اما بالدليل او التقليد من مجتهد حي ، والتارك للطريقين غير معذور ، ولذا ورد الحث الاكيد على التفقه في الدين قال الصادق (ع) : « عليكم بالتفقه في دين الله ولا تكونوا أعرابا ، فانه من لم يتفقه في دين الله لم ينظر اليه يوم القيامة ولم يزك له عملا » ، وقال : « ليت السياط على رؤس اصحابي حتى يتفقهوا في الحلال والحرام » ، وقال (ع) : « ان آية الكذاب ان يخبرك خبر السماء والارض والمشرق والمغرب ، فاذا سألته عن حرام الله وحلاله لم يكن عنده شيء » .

وأما أصول العقائد فيجب أخذها عينا من الشرع والعقل ، وهما متلازمان لايتخلف مقتضى أحدهما عن مقتضى الآخر ، اذ العقل هو حجة الله الواجب أمتثاله والحاكم العدل الذي تطابق احكامه الواقع ونفس الامر ، فلا يرد حكمه ، ولولاه لما عرف الشرع ، ولذا ورد : « انه ما أدى العبد فرائض الله حتى عقل عنه ، ولا بلغ جميع العابدين في فضل عبادتهم ما بلغ العاقل »[١٧] .

(١٧) هذا الحديث رواه في أصول الكافي عن النبي — صلى الله عليه

فهما متعاضدان ومتظاهران ، وما يحكم به أحدهما يحكم به الآخر أيضا ، وكيف يكون مقتضى الشرع مخالفا لمقتضى ما هو حجة قاطعة وأحكامه للواقع مطابقة ، فالعقل هو الشرع الباطن والنور الداخل ، والشرع هو العقل الظاهر والنور الخارج . وما يتراءى في بعض المواضع من التخالف بينهما انما هو لقصور العقل أو لعدم ثبوت ما ينسب الى الشرع منه ، فان كل عقل ليس تاما ، وكلما ينسب الى الشرع ليس ثابتا منه ، فالمناط هو العقل الصحيح وما ثبت قطعا من الشريعة ، وأصح العقول وأقواها وامتنها واصفاها هو عقل صاحب الوحي ، ولذا يدرك بنوريته ما لا سبيل لامثال عقولنا الى دركه ، كتفاصيل احوال نشأة الآخرة ، فاللازم في مثله ان نأخذه منه اذعانا وان لم نعرف مأخذه العقلي .

أصول العقائد المجمع عليها

ثم ما أجمعت الامة المختارة عليه من أصول العقائد هو : ان الواجب سبحانه موجود ، وانه واحد في الالوهية ، وبسيط عن شوائب التركيب ، ومنزه عن الجسمية وعوارضها ، وان وجوده وصفاته عين ذاته ، وانه متقدم على الزمان والمكان ومتعال عنهما ، وانه حي قديم أزلي قادر مريد عالم بجميع الاشياء ، وعلمه بها بعد ايجادها كعلمه بها قبله ، ولا يزداد بأحداثها علما ، وان قدرته عامة بالنسبة الى جميع الممكنات ، وانه يخلق ما يشاء ويفعل ما يريد ، ولا يكون شيء الا بمشيئته ، وانه عدل في حكمه صادق في وعده . وبالجملة مستجمع لجميع الصفات الكمالية ، وليس كمثله شيء ، ولا يتصور عقل ولا وهم مثله ، بل هو تام فوق التمام .

وان القرآن كلامه ، ومحمد — صلى الله عليه وآله وسلم — رسوله ، ما اتى به من امور النشأة الآخرة من الجنة والنار والحساب والثواب والعقاب والصراط والميزان والشفاعة وغير ذلك مما ثبت في شريعته المقدسة حق ثابت ، فيجب على كل مؤمن أن يأخذ بجميع ذلك ويتشبث به ويجرد باطنه له ، بحيث لو أورد عليه ما ينقضه لم يقبله ولم يعرضه شك وريب .

وآله — فى كتاب العقل والجهل فصححناه عليه ، وفى نسخ جامع السعادات اختلاف عما هنا .

ثم ان المكلفين مختلفون في كيفية التصديق والاذعان بالعقائد المذكورة، فبعضهم فيها على يقين مثل ضوء الشمس ، بحيث لو كشف عنهم الغطاء ما ازدادوا يقينا[١٨] ، وبعضهم على يقين دون ذلك ، واقل هؤلاء رتبة ان تصل مرتبة يقينهم الى طمأنينة لا اضطراب فيها ، وبعضهم على مجرد تصديق ظني يتزلزل من الشبهات والقاء النقيض ، والى هذا الاختلاف أشار الامام محمد بن علي الباقر — عليهما السلام — بقوله : « ان المؤمنين على منازل : منهم على واحدة ، ومنهم على اثنتين، ومنهم على ثلاث ، ومنهم على اربع ،ومنهم على خمس ، ومنهم على ست ، ومنهم على سبع ، فلو ذهبت تحمل على صاحب الواحدة ثنتين لم يقو ، وعلى صاحب الثنتين ثلاثا لم يقو .. الى آخره »[١٩] . والامام ابو عبدالله الصادق عليه السلام بقوله : « ان للايمان حالات ودرجات وطبقات ومنازل ، فمنه التام المنتهي تمامه ، ومنه الناقص البيّن نقصانه ، ومنه الراجح الزائد رجحانه » .

ولا ريب في ان تحصيل ما يطمئن به القلب في العقائد الواجبة اخذها مما لا بد منه لكل مكلف ، ومجرد التصديق من غير اطمئنان القلب غير كاف للنجاة في الاخرى والوصول الى مراتب المؤمنين .ومع حصول الاطمئنان تحصل النجاة والفوز بالفلاح ، وان لم يكن حصوله من تفاصيل البراهين الحكمية والدلائل الكلامية ، بل كان حاصلا من دليل اجمالي برهاني أو اقناعي ، اذ الشرع الشريف لم يكلف بأكثر من التصديق والجزم بظاهر العقائد المذكورة ، ولم يكلف البحث والتفتيش عن كيفياتها وحقائقها وعن تكلف ترتيب الادلة في نظمها ، فلو حصل لاحد طمأنينة في اتصاف الواجب بجميع الصفات الكمالية وبراءته عن الصفات السلبية ، بمجرد ان عدم الاتصاف بالاولى والاتصاف بالثانية نقص لا يليق بذاته الاقدس ، كان كافيا في النجاة والدخول في زمرة المؤمنين . وكذا اذا حصل له ذلك بمجرد ان هذا مما

---

(١٨) كما قال امير المؤمنين — عليه الصلاة والسلام — : « لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقينا » .

(١٩) الحديث مروي في اصول الكافي في باب درجات الايمان وبقيته : « وعلى صاحب الثلاث اربعا لم يقو ، وعلى صاحب الاربع خمسا لم يقو ، وعلى صاحب الخمس ستا لم يقو ، وعلى صاحب الست سبعا لم يقو ... وعلى هذه الدرجات » .

اتفق عليه فرق الانبياء وأساطين الحكماء والعلماء ، وقوة عقولهم ودقة افهامهم تأبى عن اتفاقهم على محض الخطأ . وقس على ذلك غيره مما يفيد الاطمئنان كائنا ما كان .

قال العلامة (الطوسي) — ره — في بعض تصانيفه : « أقل ما يجب اعتقاده على المكلف هو ما ترجمة قول لا اله الا الله محمد رسول الله ، ثم اذا صدق الرسول ينبغي ان يصدقه في صفات الله واليوم الآخر وتعيين الامام المعصوم ، كل ذلك مما يشتمل عليه القرآن من غير مزيد برهان : أما في صفات الله فبأنه حي عالم قادر مريد متكلم ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، وأما في الآخرة فبالايمان بالجنة والنار والصراط والميزان والحساب والشفاعة وغيرها ولا يجب عليه ان يبحث عن حقيقة الصفات ، وان الكلام والعلم وغيرهما حادث أو قديم ، بل لو لم تخطر هذه بباله ومات مات مؤمنا ، فان غلب على قلبه شك أو اشكال ، فان امكن ازالته بكلام قريب من الافهام وان لم يكن قويا عند المتكلمين ولا مرضيا فذلك كاف ، ولا حاجة الى تحقيق الدليل ، فان الدليل لا يتم الا بذكر الشبهة والجواب ، ومهما ذكرت الشبهة لا يؤمن أن تتشبث بالخاطر والقلب فيظنها حقة لقصوره عن ادراك جوابها ، اذ الشبهة قد تكون جلية والجواب دقيقا لايحتمله عقله ، ولذا ورد الزجر عن البحث والتفتيش في الكلام ، وانما زجر ضعفاء العوام ، وأما أئمة الدين فلهم الخوض في غمرة الاشكالات . ومنع العوام عن الكلام يجري مجرى منع الصبيان عن شاطيء دجلة خوفا من الغرق ، ورخصة الاقوياء فيه ايضا هي رخصة الماهر في صنعة السباحة ، الا ان ههنا موضع غرور ومزلة قدم ، وهو ان كل ضعيف في عقله يظن انه يقدر على ادراك الحقائق كلها ، وانه من جملة الاقوياء فربما يخوضون ويغرقون في بحر الجهالات من حيث لا يشعرون ، فالصواب منع الخلق كلهم — الا الشاذ النادر الذي لا تسمح الاعصار الا بواحد منهم او اثنين — من تجاوز سلوك أهل العلم في الايمان المرسل والتصديق المجمل بكل ما انزل الله واخبر به رسول الله (ص) فمن اشتغل بالخوض فيه فقد اوقع نفسه في شغل شاغل ، اذ قال رسول الله (ص) حين رأى اصحابه يخوضون ، بعد ان غضب حتى احمرت وجنتاه : أفبهذا أمرتم ؟ تضربون

كتاب الله بعضه ببعض ! انظروا فيما امركم الله فافعلوا وما نهاكم عنه فانتهوا»
فهذا تنبيه على منهج الحق .

ثم لا ريب في ان نورانية اليقين ووضوحه ، بل واطمئنان القلب وسكونه لا يحصل من مجرد صنعة الجدل والكلام ، كما لا يحصل من محض التلقين وتقليد العوام . بل (الاول) — اعني الاستضاءة بنور اليقين — يتوقف على ملازمة الورع والتقوى ، وفطام النفس عن الهوى ، وازالة كدرتها وصدأها :

« وقد افلح من زكاها » (٢٠) .

وتطهيرها عن ذمائم الصفات والاشتغال بمشاق الرياضة والمجاهدات، حتى يقذف في قلبه نورا آلهي تنكشف به الحجب والاستار عن حقائق هذه العقائد ، وهو غاية مقصد الطالبين وقرة عيون الصديقين والمقربين ، وله درجات ومراتب ، والناس فيه مختلفون بحسب اختلافهم في القوة والاستعداد والسعي والاجتهاد ، كما هم مختلفون في ادراك أنواع العلوم والصنائع « وكل ميسّر لما خلق له »[٢١] .

وأما (الثاني) — اعني مجرد الاعتقاد الجازم الراسخ بظواهر تلك العقائد — فيمكن ان يحصل بما دون ذلك ، بأن يشتغل — بعد تلقين هذه العقائد والتصديق بها — بوظائف الطاعات ، ويصرف برهة من وقته في شرائف العبادات ، ويواظب على تفسير القرآن وتلاوته ، ودرس الحديث ودرايته، ويحترز عن مخالطة اولى المذاهب الفاسدة وذوي الآراء الباطلة ، بل يجتنب كل الاجتناب عن مرافقة أرباب الهوى واصحاب الشر والشقاء ، ويختار مصاحبة أهل الورع واليقين ، ومجالسة الاتقياء والصالحين ، ويلاحظ سيماهم وسيرتهم وهيئاتهم في الخضوع لله والاستكانة ، فيكون التلقين كالقاء البذر في الصدر ، وهذه الامور كالسقي والتربية له، فينمو ذلك البذر بها ويتقوى ويزداد رسوخا ، حتى يرتفع شجرة طيبة راسخة أصلها ثابت وفرعها في السماء.
ثم من وصل الى مقام العقيدة الجازمة ان أشتغل بالشواغل الدنيوية ولم يشتغل بالرياضة والمجاهدة لم ينكشف له غيره ولكنه اذا مات مات مؤمنا على الحق

---

(٢٠) الشمس ، الآية : ٩ .

(٢١) حديث نبوي مشهور ، تقدم ذكره صفحة « ٢٦ » .

وسلم في الآخرة ، وان اشتغل بتصقيل النفس وارتياضها انشرح صدره وانفتح له باب الافاضة ، ووصل الى المرتبة الاولى .

أنواع الرذائل المتعلقة بالعاقلة

أما الانواع المتعلقة بالعاقلة فمنها :

الجهل المركب :

وهو خلو النفس عن العلم واذعانها بما هو خلاف الواقع ، مع اعتقاد كونها عالمة بما هو الحق ، فصاحبه لايعلم، ولايعلم انه لا يعلم ، ولذا سمي مركبا . وهو أشد الرذائل وأصعبها ، وازالته في غاية الصعوبة ، كما هو ظاهر من حال بعض الطلبة . وقد اعترف اطباء النفوس بالعجز عن معالجته كما اعترف اطباء الابدان بالعجز عن معالجة بعض الامراض المزمنة ، ولذا قال عيسى عليه السلام : « اني لا اعجز عن معالجة الاكمه والابرص واعجز عن معالجة الاحمق ». والسر فيه : أنه مع قصور النفس بهذا الاعتقاد الفاسد لا يتنبه على نقصانها ، فلا يتحرك للطلب ، فيبقى في الضلالة والردى ما دام باقيا في دار الدنيا . ثم المنشأ له ان كان اعوجاج السليقة فأنفع العلاج له تحريض صاحبه على تعلم العلوم الرياضية من الهندسة والحساب، فانها موجبة لاستقامة الذهن لالفه لاجلها باليقينيات فيتنبه على خلل اعتقادها ، فيصير جهلها بسيطا ، فينتهض للطلب . وان كان خطأ في الاستدلال ، فليوازن استدلاله لاستدلالات أهل التحقيق والمشهورين باستقامة القريحة، ويعرض أدلة المطلوب على القواعد الميزانية باحتياط تام واستقصاء بليغ ،حتى يظهر خطأه. وان كان وجود مانع من عصبية أو تقليد أو غير ذلك فليجتهد في ازالته .

ومنها الشك والحيرة :

وهو من باب رداءة الكيفية وهو عجز النفس عن تحقيق الحق وابطال الباطل في المثالب الخفية ، والغالب حصوله من تعارض الادلة ، ولا ريب انه مما يهلك النفس ويفسدها ، اذ الشك ينافي اليقين الذي لا يتحقق الايمان بدونه . قال امير المؤمنين عليه السلام في بعض خطبه : «لاترتابوا فتشكوا ولا تشكوا فتكفروا » وكأن الارتياب في كلامه عليه السلام مبدأ الشك.

وقال الباقر عليه السلام : « لاينفع مع الشك والجحود عمـل » . وقال الصادق عليه السلام : « ان الشك والمعصية في النار ليس منا ولا الينا » . وسئل عليه السلام عن قول الله تعالى :

« الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم » (٢٢) .

قال : «بشك» . وقال — عليه السلام —: « من شك في الله تعالى بعد مولده على الفطرة لم يفيء الى خير ابدا » . وقال — عليه السلام — : « من شك أو ظن فأقام على أحدهما احبط الله عمله ، ان حجة الله هي الحجة الواضحة » . وقال عليه السلام : « من شك في الله تعالى وفي رسوله (ص) فهو كافر » . وبمضمونه وردت أخبار أخر . وغير خفي ان المراد بالشك ما يضعف الاعتقاد ويزيل اليقين لا مجرد الوسوسة وحديث النفس ، لما يأتي انه لا ينافي الايمان ، بل الظاهر من بعض الاخبار أن ايجاب الشك للكفر اذا انجر الى الجحود ، كما روى أن أبا بصير سأل الصادق عليه السلام ما تقول فيمن شك في الله تعالى ؟ قال : «كافر» ، قال : فشك في رسول الله (ص) ؟ قال : «كافر» ، ثم التفت الى زرارة فقال : «انما يكفر اذا جحد» .

ثم علاجه ان يتذكر اولا قضية بديهية ، هي : ان النقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان ،ومنه يعلم اجمالا ان أحد الشقوق العقلية المتصورة في المطلوب ثابت في الواقع ونفس الامر والبواقي باطلة ، ثم يتصفح المقدمات المناسبة للمطلوب ويعرضها على الاقيسة المنطقية باستقصاء بليغ واحتياط تام في كل طرف ، حتى يقف على موضع الخطأ ويجزم بحقية احد الشقوق وبطلان الآخر . والغرض من وضع المنطق (لا) سيما مباحث القياسات السوفسطائية المشتملة على المغالطات ازالة هذا المرض . ولو كان ممن لا يقتدر على ذلك فالعلاج في حقه ان يواظب على العبادة وقراءة القرآن ، ويشتغل بمطالعة الاحاديث وسماعها من أهلها ، ويجالس الصلحاء والمتقين وأصحاب الورع وأهل اليقين ، لتكتسب نفسه بذلك نورانية يدفع بها ظلمة شكه .

---

(٢٢) الانعام ، الآية : ٨٢ .

وصـــل

اليقــين :

قد عرفت : ان ضد الجهل المركب والحيرة والشك هو (اليقين) واول مراتبه اعتقاد ثابت جازم مطابق للواقع غير زائل بشبهة وان قويت، فالاعتقاد الذي لا يطابق الواقع ليس يقينيا ، وان جزم به صاحبه واعتقد مطابقتــه للواقع ، بل هو ـ كما اشير اليه ـ جهل مركب ينشأ عن اعوجاج القريحة، أو خطأ في الاستدلال ، أو حصول مانع من افاضة الحق كتقليد أو عصبية أو غير ذلك • فاليقين من حيث اعتبار المطابقة للواقع فيه يكون ضدا للجهل المركب • ثم العلم ان لم يعتبر فيه المطابقة للواقع ففرقه عن اليقين ظاهر ، والا فيتساويان ويتشاركان في المراتب المثبتة لليقين •

هذا ومتعلق اليقين اما اجزاء الايمان ولوازمه ، من وجود الــواجب وصفاته الكمالية وسائر المباحث الالهية من النبوة واحوال النشأة الآخرة، أو غيرها من حقائق الاشياء التي لا يتم الايمان بدونها • ولا ريب في ان مطلق اليقين أقوى أسباب السعادة ، الاخروية ، لتوقف الايمان عليه ، بل هو أصله وركنه ، وغيره من المراتب فرعه وغصنه ، والنجاة في الآخرة لا تحصل الا به ، والفاقد له خارج عن زمرة المؤمنين داخل في حزب الكافرين •

وبالجملة : اليقين أشرف الفضائل الخلقية وأهمها ، وأفضل الكمالات النفسية وأعظمها ، وهو الكبريت الاحمر الذي لا يظفر به الا أوحدى من أعاظم العرفاء أو ألمعي من أكابر الحكماء • ومن وصل اليه فاز بالرتبة القصوى والسعادة العظمى • قال سيد الرسل (ص) : « أقل ما اوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ، ومن اوتي حظه منهما لم يبال ما فاته من صيام النهار وقيام الليل»، وقال (ص) : « اليقين الايمان كله »، وقال (ص) : «ما آدمي الا وله ذنوب، ولكن من كانت غريزته العقل وسجيته اليقين لم تضره الذنوب ،لانه كلما اذنب ذنبا تاب واستغفر وندم فتكفر ذنوبه ويبقى له فضل يدخل به الجنة » • وقال الصادق عليه السلام : « ان العمل الدائم القليل على اليقين افضل عند الله تعالى من العمل الكثير على غير يقين » ، وعنه عليه السلام : « ان الله

تعالى بعدله وقسطه جعل الروح والراحة في اليقين والرضا ، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط» . وفي وصية لقمان لابنه : « يا بني ، لا يستطاع العمل الا باليقين، ولا يعمل المرء الا بقدر يقينه، ولا يقصر عامل حتى ينقص يقينه»

علامات صاحب اليقين :

ثم لصاحب اليقين علامات :

(منها) الا يلتفت في أموره الى غير الله سبحانه ، ولا يكون اتكاله في مقاصده الا عليه ، ولا ثقته في مطالبه الا به ، فيتبرى عن كل حول وقوة سوى حول الله وقوته ، ولا يرى لنفسه ولا لابناء جنسه قدرة على شيء ولا منشأية لأثر ، ويعلم ان ما يرد عليه منه تعالى وما قدر له وعليه من الخير والشر سيساق اليه ، فتستوي عنده حالة الوجود والعدم ، والزيادة والنقصان ، والمدح والذم، والفقر والغنى ، والصحة والمرض ، والعز والذل، ولم يكن له خوف ورجاء الا منه تعالى . والسر فيه : انه يرى الاشياء كلها من عين واحدة هو مسبب الاسباب ، ولا يلتفت الى الوسائط ، بل يراها مسخرة تحت حكمه . قال الامام ابو عبدالله (ع) : « من ضعف يقينه تعلق بالاسباب ، ورخص لنفسه بذلك ، واتبع العادات واقاويل الناس بغير حقيقة والسعي في أمور الدنيا وجمعها وامساكها ، مقرا باللسان انه لا مانع ولا معطي الا الله ، وان العبد لا يصيب الا ما رزق وقسم له ، والجهد لا يزيد في الرزق ، وينكر ذلك بفعله وقلبه ، قال الله سبحانه :

« **يقولون بافواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون** » (٢٣) .

وقال — عليه السلام — : « ليس شيء الا وله حد » قيل : فما حد التوكل ؟ قال : « اليقين » ، قيل : فما حد اليقين ؟ قال : « ألا تخاف مع الله شيئا » . وعنه — عليه السلام — : « من صحة يقين المرء المسلم ألا يرضى

---

(٢٣) الآية من سورة آل عمران : ١٦١ . وهذا الحديث منقول عن (مصباح الشريعة ومفتاح الحقيقة) المنسوب الى الصادق — عليه السلام —. وهذا الكتاب قال فيه المجلسي — قدس سره — في مقدمة البحار : « فيه ما يريب اللبيب الماهر ، واسلوبه لايشبه سائر كلمات الائمة وآثارهم » ، ثم قال : «وان سنده ينتهي الى الصوفية ،ولذا اشتمل على كثير من اصطلاحاتهم وعلى الرواية عن مشايخهم » .

الناس بسخط الله ولا يلومهم على مالم يؤته الله ، فان الرزق لايسوقه حرص حريص ولا ترده كراهية كاره ، ولو ان أحدكم فر من رزقه كما يفر من الموت لادركه رزقه كما يدركه الموت » •

(ومنها) ان يكون في جميع الاحوال خاضعا لله سبحانه ، خاشعا منه، قائما بوظائف خدمته في السر والعلن ، مواظبا على أمتثال ما أعطته الشريعة من الفرائض والسنن ، متوجها بشراشره اليه ، متخضعا متذللا بين يديه ، معرضا عن جميع ما عداه ، مفرغا قلبه عما سواه ، منصرفا بفكره الى جناب قدسه ، مستغرقا في لجة حبه وانسه • والسر أن صاحب اليقين عارف بالله وعظمته وقدرته ، وبأن الله تعالى مشاهد لاعماله وافعاله ، مطلع على خفايا ضميره وهواجس خاطره ، وأن :

« من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » (٢٤) •

فيكون دائما في مقام الشهود لديه والحضور بين يديه ، فلا ينفك لحظة عن الحياء والخجل والاشتغال بوظائف الادب والخدمة ، ويكون سعيه في تخلية باطنه عن الرذائل وتحليته بالفضائل لعين الله الكالئة أشد من تزيين ظاهره لأبناء نوعه •

وبالجملة : من يقينه بمشاهدته تعالى لاعماله الباطنة والظاهرة وبالجزاء والحساب ، يكون أبدا في مقام أمتثال أوامره واجتناب نواهيه •

ومن يقينه بما فعل الله في حقه من أعطاء ضروب النعم والاحسان ، يكون دائما في مقام الانفعال والخجل والشكر لمنعمه الحقيقي •

ومن يقينه بما يعطيه المؤمنين في الدار الآخرة من البهجة والسرور ، وما أعده لخلص عبيده مما لاعين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب أحد ، يكون دائما في مقام الطمع والرجاء •

ومن يقينه بأستناد جميع الامور اليه سبحانه ، وبأن صدور مايصدر في العالم أنما يكون بالحكمة والمصلحة والعناية الازلية الراجعة الى نظام الخير ، يكون أبدا في مقام الصبر والتسليم والرضا بالقضاء من دون عروض تغير وتفاوت في حاله •

---

(٢٤) الزلزال ، الآية : ٨ — ٩ .

ومن يقينه يكون الموت داهية من الدواهي العظمى وما بعده أشد وأدهى ، يكون أبدا محزونا مهموما .

ومن يقينه بخساسة الدنيا وفنائها ، لايركن اليها . قال الصادق (ع) في الكنز الذي قال الله تعالى :

« وكان تحته كنز لهما » (٢٥) .

« بسم الله الرحمن الرحيم : عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح ، وعجبت لمن أيقن بالقدر كيف يحزن ، وعجبت لمن أيقن بالدنيا وتقلبها بأهلها كيف يركن اليها » .

ومن يقينه بعظمة الله الباهرة وقوته القاهرة ، يكون دائما في مقام الهيبة والدهشة . وقد ورد ان سيد الرسل ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كان من شدة خضوعه وخشوعه لله تعالى وخشيته منه تعالى بحيث اذا كان يمشي يظن أنه يسقط على الارض .

ومن يقينه بكمالاته الغير المتناهية وكونه فوق التمام ، يكون دائما في مقام الشوق والوله والحب . وحكايات أصحاب اليقين من الانبياء والمرسلين والاولياء والكاملين في الخوف والشوق وما يعتريهم من الاضطراب والتغير والتلون وأمثال ذلك في الصلاة وغيرها مشهورة ، وفي كتب التواريخ والسير مسطورة ، وكذا ما يأخذهم من الوله والاستغراق والابتهاج والانبساط بالله سبحانه . وحكاية حصول تكرر الغشيات لمولانا أمير المؤمنين ـ عليه السلام في أوقات الخلوات والمناجاة وغفلته عن نصه في الصلوات مما تواتر عند الخاصة والعامة ، وكيف يتصور لصاحب اليقين الواقعي بالله وبعظمته وجلاله وباطلاعه تعالى على دقائق أحواله ، أن يعصيه في حضوره ولا يحصل له الانفعال والخشية والدهشة وحضور القلب والتوجه التام اليه عند القيام لديه والمثول بين يديه ، مع أنا نرى ان الحاضر عند من له أدنى شوكة مجازية من الملوك والامراء مع رذالته وخساسته أولا وآخرا يحصل له من الانفعال والدهشة والتوجه اليه بحيث يغفل عن ذاته .

---

(٢٥) الكهف الآية : ٨٢ .

(ومنهـا) أن يكون مستجاب الدعوات ، بل له الكرامات وخرق العادات . والسر فيه أن النفس كلما ازدادت يقينا ازدادت تجردا ، فتحصل لها ملكة التصرف في موارد الكائنات . قال الامام أبو عبدالله الصادق — عليه السلام — : « اليقين يوصل العبد الى كل حال سنى ومقام عجيب ، كذلك أخبر رسول الله — صلى الله عليه وآله — من عظم شأن اليقين حين ذكر عنده أن عيسى بن مريم — عليه السلام — كان يمشي على الماء ، فقال : لو زاد يقينه لمشي في الهوى » . فهذا الخبر دل على أن الكرامات تزداد بازدياد اليقين ، وأن الانبياء مع جلالة محلهم من الله متفاوتون في قوة اليقين وضعفه .

مراتب اليقين :

وقد ظهر مما ذكر : ان اليقين جامع جميع الفضائل ولا ينفك عن شيء منها ، ثم له مراتب : (أولها) علم اليقين ، وهو أعتقاد ثابت جازم مطابق للواقع — كما مر — وهو يحصل من الاستدلال باللوازم والملزومات ، ومثاله اليقين بوجود النار من مشاهدة الدخان . و (ثانيها) عين اليقين ، وهو مشاهدة المطلوب ورؤيته بعين البصيرة والباطن ، وهو أقوى في الوضوح والجلاء من المشاهدة بالبصر ، والى هذه المرتبة أشار امير المؤمنين (ع) بقوله : « لم أعبد ربا لم أره » بعد سؤال ذعلب اليماني عنه — عليه السلام — : أرأيت ربك ؟ وبقوله — عليه السلام — : « رأى قلبي ربي » . وهو انما يحصل من الرياضة والتصفية وحصول التجرد التام للنفس ، ومثاله اليقين بوجود النار عند رؤيتها عيانا . و (ثالثها) حق اليقين ، وهو أن تحصل وحدة معنوية وربط حقيقي بين العاقل والمعقول ، بحيث يرى العاقل ذاته رشحة من المعقول ومرتبطا به غير منفك عنه ، ويشاهد دائما ببصيرته الباطنة فيضان الانوار والآثار منه اليه ، ومثاله اليقين بوجود النار بالدخول فيها من غير احتراق . وهذا انما يكون لكمل العارفين بالله المستغرقين في لجة حبه وانسه ، المشاهدين ذواتهم بل سائر الموجودات من رشحات فيضه الاقدس ، وهم الصديقون الذين قصروا أبصارهم الباطنة على ملاحظة جماله ومشاهدة أنوار جلاله . وحصول هذه المرتبة يتوقف على مجاهدات شاقة

ورياضات قوية ،وترك رسوم العادات وقطع أصول الشهوات ، وقلع الخواطر النفسانية وقمع الهواجس الشيطانية ، والطهارة عن أدناس جيفة الطبيعة ، والتنزه عن زخارف الدنيا الدنية ، وبدون ذلك لايحصل هذا النوع من اليقين والمشاهدة :

وكيف ترى ليلي بعين ترى بها   سواهـا وما طهرتها بالمدامـع

ثم فوق ذلك مرتبة يثبتها بعض أهل السلوك ويعبرون عنه (بحقيقة حق اليقين) والفناء في الله ، وهو أن يرى العارف ذاته مضمحلا في أنوار الله محترقا من سبحات وجهه ، بحيث لايرى استقلالا ولا تحصيلا أصلا ، ومثاله اليقين بوجود النار بدخوله فيها واحتراقه منها •

ثم لاريب في أن اليقين الحقيقي النوراني المبري عن ظلمات الاوهام والشكوك ولو كان من المرتبة الاولى لايحصل من مجرد الفكر والاستدلال ، بل يتوقف حصوله على الرياضة والمجاهدة وتصقيل النفس وتصفيتها عن كدورات ذمائم الاخلاق وصدأها ، ليحصل لها التجرد التام فتحاذى شطر العقل الفعال ، فتتضح فيها جلية الحق الاتضاح • والسر ان النفس بمنزلة المرآة تنعكس اليها صور الموجودات من العقل الفعال ، ولا ريب في أن انعكاس الصور منذوات الصور الى المرآة يتوقف على تمامية شكلها وصقالة جوهرها وحصول المقابلة وارتفاع الحائل بينهما والظفر بالجهة التي فيهـا الصور المطلوبة ، فيجب في انعكاس حقائق الاشياء من العقل الى النفس : ١ ـ عدم نقصان جوهرها ، فلا يكون كنفس الصبي التي لاتنجلي لهـا المعلومات لنقصانها ٢ ـ وصفاؤها عن كدورات ظلمة الطبيعة واخبـاث المعاصي ، ونقاؤها عن رسوم العادات وخبائث الشهوات ، وهو بمنزلة الصقالة عن الخبث والصدأ ٣ ـ وتوجهها التام وانصراف فكرها الى المطلوب، فلا يكون مستوعب ألهم بالامور الدنيوية وأسباب المعيشة وغيرهمـا من الخواطر المشوشة لها • وهو بمنزلة المحاذاة ٤ ـ وتخليتهـا عن التعصب والتقليد • وهو بمثابة ارتفاع الحجب ٥ ـ واستحصال المطلوب من تأليف مقدمات مناسبة للمطلوب على الترتيب المخصوص والشرائط المقررة ، وهو بمنزلة العثور على الجهة التي فيها الصورة •

ولولا هذه الاسباب المانعة للنفوس عن أفاضة الحقائق اليقينية اليها ، لكانت عالمة بجميع الاشياء المرتسمة في العقول الفعالة ، اذ كل نفس لكونها أمرا ربانيا وجوهرا ملكوتيا فهي بحسب الفطرة صالحة لمعرفة الحقائق ، ولذا أمتازت عن سائر المخلوقات من السماوات والارض والجبال ، وصارت قابلة لحمل امانة الله [٢٦] التي هي المعرفة والتوحيد ، فحرمان النفس عن معرفة اعيان الموجودات انما هو لأحد هذه الموانع ، وقد أشار سيد الرسل — صلى الله عليه وآله وسلم — الى مانع التعصب والتقليد بقوله — صلى الله عليه وآله وسلم — : « كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه يهودانه ويمجسانه [٢٧] وينصرانه » ، والى مانع كدورات المعاصي وصداها بقوله — صلى الله عليه وآله وسلم — : « لولا أن الشياطين يحرمون على قلوب بني آدم لنظروا الى ملكوت السماوات والارض » . فلو أرتفعت عن النفس حجب السيئات والتعصب وحاذت شطر الحق الاول تجلت لها صورة عالم الملك والشهادة بأسره ، اذ هو متناه يمكن لها الاحاطـة به ، وصورة عالمي الملكوت والجبروت بقدر ما يتمكن منه بحسب مرتبته «لأنهما الاسرار الغائبة عن مشاهدة الابصار المختصة بادراك البصائر ، وهي غير متناهية ، وما يلوح منها للنفس متناه ، وان كانت في نفسها وبالاضافة الى علـم الله سبحانه غير متناهية ، ومجموع تلك العوالم يسمى بـ (العـالم الربوبي) ، اذ كل ما في الوجود من البداية الى النهاية منسوب الى الله سبحانه ، وليس في الوجود سوى الله سبحانه وأفعاله وآثاره ، فالعالـم الربوبي والحضرة الربوبية هو العالم المحيط بكل الموجودات ، فعدم تناهيه

---

(٢٦) اشارة الى قوله تعالى : « انا عرضنا الامانة على السماوات والارض فابين ان يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا » الاحزاب، الآية : ٧٢ .

(٢٧) روى السيد المرتضى علم الهدى هذا الحديث فى الجزء الثالث من اماليه بدون كلمة (يمجسانه) ، وكذا فى غوالي اللئالي ، الا ان المعروف فى روايته اضافة كلمة (يمجسانه) ولكنها بعد كلمة (ينصرانه) ، كما ارسلها فى مجمع البيان : ج ٨ ص ٣٠٢ طبع صيدا ، وكذا فى مجمع البحرين فى مادة (فطر) ، وكذا فى صحيح البخاري : ج ١ ص ٢٠٦ ، وصحيح مسلم : ج٢ ص ٤١٣ ، ومعالم التنزيل فى هامش تفسير الخازن : ج ٥ ص ١٧٢ ، وغير هؤلاء .

ظاهر بين ، فلا يمكن للنفس ان تحيط بكله ، بل يظهر لها منه بقدر قوتها واستعدادها ، ثم بقدر ما يحصل للنفس من التصفية والتزكية وما يتجلى لها من الحقائق والاسرار ، ومن معرفة عظمة الله ومعرفة صفات جلاله ونعوت جماله ، تحصل لها السعادة والبهجة واللذة والنعمة في نعيم الجنة ، وتكون سعة مملكته فيها بحسب سعة معرفته بالله وبعظمته وبصفاته وافعاله ، وكل منها لانهاية له . ولذا لاتستقر النفس فيمقام من المعرفة . والبهجة والكمال والتفوق والغلبة تكون غاية طلبتها ، ولا تكون طالبة لما فوقها .

وما أعتقده جماعةمن انما يحصل للنفس من المعارف الإلهية والفضائل الخلقية هي الجنة بعينها فهو عندنا باطل ، بل هي موجبة لاستحقاق الجنة التي هي دار السرور والبهجة .

ومنها :

الشرك

وهو ان يرى في الوجود مؤثرا غير اللهسبحانه، فان عبد هذا الغير ـ سواء كانصنما أو كوكبا أو انسانا أو شيطانا ـ كان شرك عبادة ، وان لميعبده ولكن لاعتقاده كونه منشأ أثر اطاعه فيما لا يرضى الله فهو شرك طاعة، والاول يسمى بالشرك الجلي ، والثاني يسمى بالشرك الخفي ،واليه الاشارةبقوله تعالى:

« وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون » (٢٨) .

وكون الشرك أعظم الكبائر الموبقة وموجبا لخلود النار مما لا ريب فيه وقد أنعقد عليه اجماع الامة ، والآيات والاخبار الواردة به خارجة عن حد الاحصاء .

ثم للشرك مراتب تظهر في بحث ضده الذي هو التوحيد ، والشرك وان كان شعبة من الجهل ، كما ان التوحيد الذي هو ضده من أفراد اليقين والعلم ، فذكرهما على حدة لم يكن لازما هنا ، الا انه لما كان المتعارف ذكر التوحيد في كتب الاخلاق. فنحن ايضا ذكرنا له عنوانا على حدة تأسيا بها، وأشرنا الى لمعة يسيرة منه، اذ الاستقصاء فيه والخوض في غمراته مما ليس

---

(٢٨) يوسف ، الآية : ١٠٦ .

في وسعنا ولا يليق هنا، فان التوحيد هو البحر الخضم الذي لا ساحل له .

وصــل

التوحيد في الفعل

ضد الشرك (التوحيد) ، وهو اما توحيد في أصل الذات بمعنى عدم تركيب خارجي وعقلي في ذاته تعالى وعينية وجوده وصفاته لذاته ، ويلزمـه كونه تعالى صرف الوجود وبحته، او توحيد في وجوب وجوده بمعنى نفي الشرك في وجوب الوجود عنه (و لابحث لنا هنا عن اثبات هذين القسمين لثبوتهما في الحكمة المتعالية) ، أو توحيد في الفعل والتأثير والايجاد ، بمعنى ان لا فاعل ولا مؤثر الا هو ، وهو الذي نذكر هنا مراتبه وما يتعلق به ، فنقول:

هذا التوحيد ــ على ما قيل ــ له اربع مراتب : قشر ، وقشر القشر ، ولب ، ولب اللب كالجوز الذي له قشرتان وله لب ، واللب دهن وهو لب اللب . (فالمرتبة الاولى) أن يقول الانسان باللسان : لا اله الا الله ، وقلبه منكر وغافل عنه ، كتوحيد المنافقين ، وهذا توحيد بمجرد اللسان ولا فائدة فيه الا حفظ صاحبه في الدنيا من السيف والسنان . (الثانية) ان يصدق بمعنى اللفظ قلبه ، كما هو شأن عموم المسلمين، وهو اعتقاد العوام وصاحبه موحد، بمعنى انه معتقد بقلبه خال عن التكذيب بما انعقد عليه قلبه . وهو عقد على القلب لا يوجب انشراحا وانفتاحا وصفاء له . ولكنه يحفظ صاحبه عن العذاب في الآخرة ان مات عليه ولم يضعف بالمعاصي . (الثالثة) ان يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق ، وذلك بأن يرى اشياء كثيرة ولكن يراها بكثرتها صادرة عن الواحد الحق ، وهو مقام المقربين ، وصاحبه موحد ، بمعنى انه لا يشاهد الا فاعلا ومؤثرا واحدا ، لأنه انكشف له الحق كما هو عليه . (الرابعة) ألا يرى في الوجود الا واحدا ، ويسميه أهل المعرفة الفناء في التوحيد ، لانه من حيث لا يرى الا واحدا . فلا يرى نفسه ايضا، واذا لم ير نفسه لكونه مستغرقا بالواحد كان فانيا عن نفسه في توحيده، بمعنى انه فنى عن رؤية نفسه ، وهو مشاهدة الصديقين ، وصاحبه موحد بمعنى انه لم يحضر في شهوده غير الواحد ، فلا يرى الكل من حيث انه كثير بل من حيث انه واحد . وهذه هي الغاية القصوى في التوحيد .

فالمرتبة الاولى : كالقشرة العليا من الجوز، وكما ان هذه القشرة لا خير فيها أصلا ، بل ان أكلتها فهي مر المذاق ، وان نظرت الى باطنها فهو كريه المنظر ، وان اتخذتها حطبا أطفأت النار واكثرت الدخان ، وان تركتها في البيت ضيقت المكان ، فلا تصلح الا ان تترك مدة على الجوز لحفظ القشرة السفلى ، ثم ترمى ، فكذلك التوحيد بمجرد اللسان عديم الجدوى كثير الضرر مذموم الظاهر والباطن ، لكن ينفع مدة في حفظ المرتبة الثانية الى وقت الموت . والمرتبة الثانية: كالقشرة السفلى ، فكما ان هذه القشرة ظاهرة النفع بالاضافة الى القشرة العليا ، فانها تصون اللب عن الفساد عند الادخار ، واذا فصلت امكن ان ينتفع بها حطبا ، ولكنها نازلة القدر بالاضافة الى اللب ، فكذلك مجرد الاعتقاد من غير كشف كثير النفع بالنسبة الى مجرد نطق اللسان ، اذ تحصل به النجاةفي الآخرة ، لكنه ناقص القدر بالاضافة الى الكشف والعيان الذي يحصل بانشراح الصدر وانفتاحه باشراق نور الحق فيه . والمرتبة الثالثة : كاللب ، وكما ان اللب نفيس في نفسه بالاضافة الى القشر وكأنه المقصود لكنه لا يخلو عن شرب عصارة بالاضافة الى الدهن منه ، فكذلك توحيد الفعل على طريق الكشف مقصد عال للسالكين ، الا انه لا يخلو عن شوب ملاحظة الغير والالتفات الى الكثرةبالاضافةالى من لا يشاهد سوى الواحد الحق .والمرتبة الرابعة: كالدهن المستخرج من اللب ، وكما ان اللب هو المطلوب بذاته والمرغوب في نفسه ، فكذلك قصر النظر على مشاهدة الحق الاول هو المقصود لذاته والمحبوب في نفسه .

« تنبيه » ان قيل : كيف يمكن تحقيق المرتبة الرابعة من التوحيد لتوقفها على عدم مشاهدةغير الواحد،مع انكل أحد يشاهد الارض والسماء وسائر الاجسام المحسوسة وهي كثيرة ، فكيف يكون الكثيرواحدا ؟ (قلنا): من تيقن ان الممكنات بأسرها اعدام صرفة في نفسها ، وان ما به تحققها من الله سبحانه ، ثم احاط على قلبه نور عظمته وجلاله بحيث بهره وغلب على قلبه الحب والانس حتى عن غيره اغفله ، فأي استبعاد في ان يوجب شدة استغراقه في لجة العظمة والجلال والكمال والجمال وغلبة الحب والانس عليه مع عدمية الكثرة ووحدة ما به التحقق عنده ورسوخ ذلك ، وارتكازه في

قلبه ان لا يرى في نظر شهوده الا هو ، ويغيب عنه غيره ، لقصر نظر بصيرته الباطنة على ما هو الحقيقة والواقع . ومما يكسر سورة استبعادك : ان المشغول بالسلطان والمستغرق في ملاحظة سطوته ربما غفل عن مشاهدة غيره وان العاشق قد يستغرق في مشاهدة جمال معشوقه ويبهره حبه بحيث لا يرى غيره ، مع تحقق الكثرة عنده ، وان الكواكب موجودة في النهار مع انها لا ترى لمغلوبية أنوارها واضمحلالها في جنب نور الشمس ، فاذا جاز ان يغلب نور الشمس على نور الكواكب ويقهرها بحيث يضمحل ويغيب عن بصر الظاهر ، فأي استبعاد في ان يغلب نور الوجود الحقيقي القاهر على الموجودات الضعيفة الامكانية ويقهرها ، بحيث يغيب عن نظر العقل والبصيرة ، ثم هذه المشاهدات التي لا يظهر فيها الا الله الواحد الحق لا تدوم ، بل هي كالبرق الخاطف والدوام فيها عزيز نادر .

فصل

ابتناء التوكل على حصر المؤثر في الله تعالى

اعلم : انه لا يمكن التوكل على الله تعالى في الامور حق التوكل الا بالبلوغ الى المرتبة الثالثة من التوحيد ، وهي التي يرتبط بها التوكل دون غيرها من المراتب ، اذ المرتبة الرابعة لا يتوقف ولا يبتني عليها التوكل ، والاولى مجرد نفاق لا يفيد شيئا ، والثانية — اعني مجرد التوحيد بالاعتقاد — لا يورث حال توكل كما ينبغي ، فانه موجود في عموم المسلمين مع عدم وجود التوكل كما ينبغي فيهم .

فالمناط في التوكل هو ثالث المراتب في التوحيد ، وهو ان ينكشف للعبد بنور الحق ان لا فاعل الا الله ، وان كل موجود : من خلق ورزق ، وعطاء ومنع ، وغنى وفقر ، وصحة ومرض ، وعز وذل ، وحياة وموت .. الى غير ذلك مما يطلق عليه اسم ، فالمتفرد بابداعه واختراعه هو الله تعالى لا شريك له فيه ، واذا انكشف له هذا لم ينظر الى غيره ، بل كان منه خوفه واليه رجاؤه ، وبه ثقته وعليه اتكاله ، فانه الفاعل بالانفراد دون غيره ، وما سواه مسخرون لا استقلال لهم بتحريك ذرة في ملكوت السماوات والارض واذا انفتح له ابواب المعارف اتضح له هذا اتضاحا أتم من المشاهدة بالبصر ، وانما يصده الشيطان عن هذا التوحيد ، ويوقع في قلبه شائبة الشرك بالالتفات

الى بعض الوسائط التي يتراءى في بادى النظر منشئيتها لبعض الامور ، كالاعتماد على الغيم في نزول المطر ، وعلى المطر في خروج الزرع ونباته ونمائه وعلى الريح في استواء السفينة وسيرها ، وعلى بعض نظرات الكواكب واتصالاتها في حدوث بعض الحوادث في الارض ، وكالالتفات الى اختيار بعض الحيوانات وقدرتها على بعض الافعال ، فيوسوس الشيطان في قلبه ويقول له : كيف ترى الكل من الله تعالى ، وهذا الانسان يعطيك رزقك باختياره فان شاء أعطاك وان شاء منع ، وهذا الشخص قادر على جز رقبتك بسيفه فان شاء جز رقبتك وان شاء عفى عنك ، فكيف لا تخافه ولا ترجوه وأمرك بيده ، وأنت تشاهد ذلك ولا تشك فيه ؟

و لاريب في ان امثال هذه الالتفاتات جهل بحقائق الامور ، ومن مكن الشيطان وسلطه على نفسه حتى يوقع هذه الوساوس في قلبه فهو من الجاهلين بأبواب المعارف ، اذ من انكشف له أمر العالم كما هو عليه ، علم ان السماء والكواكب والريح والغيم والمطر والانسان والحيوان .. وغير ذلك من المخلوقات كلهم مقهورون مسخرون للواحد الحق الذي لا شريك له ، فيعلم ان الريح مثلا هواء ، والهواء لا يتحرك بنفسه ما لم يحركه محرك ، وهذا المحرك لا يحرك الهواء ما لم يحركه على التحريك محرك آخر .. وهكذا الى ان ينتهي الى المحرك الاول الذي لا محرك له ولا هو متحرك في نفسه. وكذا الحال في توسط غيره من الافلاك ونجومها ،وكائنات الجو ، والموجودات على الارض من الجماد والنبات والحيوان .

فالتفات العبد في نجاته الى بعض الاشياء من الرياح والامطار أو الانسان أو الحيوان يضاهي التفات من أخذ لتجز رقبته ، فأمر الملك كاتبه بأن يكتب توقيعا بالعفو عنه وتخليته ، فأخذ العبد يشتغل بمدح الحبر او الكاغد او القلم أو الكاتب ، ويقول : لولا الحبر أو القلم أو الكاغد أو الكاتب ما تخلصت، فيرى نجاته من الحبر والكاغد دون القلم أو من القلم دون محركه — اعني الكاتب — أو من الكاتب دون الملك الذي هو محرك الكاتب ومسخره . ومن علم ان القلم لاحكم له في نفسه وانما هو مسخر في يد الكاتب وان الكاتب لا حكم له وانما هو مسخر تحت يد الملك ،

لم يلتفت الى القلم والكاتب ولم يشكر الا الملك ، بل ربما يدهشه فرح النجاة وشكر الملك عن ان يخطر بباله الكاغد والحبر والقلم والكاتب . ولا ريب في ان جميع المخلوقات من الشمس والقمر والنجوم والغيم والمطر والارض وكل حيوان او جماد مسخرات في قبضة القدرة ، كتسخير القلم في يد الكاتب وتسخير الكاتب في يد السلطان ، بل هذا تمثيل في حق العبد لاعتقاده ان الملك الموقع هو الكاتب حقيقة ، وليس الامر كذلك ، اذ الحق ان الكاتب هو الله سبحانه كما قال تعالى :

« وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى » (٢٩) .

فمن انكشف له ان جميع ما في السماوات والارض مسخرات للواجب الحق ، لم ير في الوجود مؤثرا الا هو ، وانصرف عنه الشيطان خائبا ، وأيس عن مزج توحيده بهذا الشرك .

وأما من لم ينشرح بنور الله صدره ، قصرت بصيرته عن ملاحظة جبار السماوات والارض ومشاهدة كونه وراء الكل ، فوقف في الطريق على بعض المسخرات ، وهو جهل محض . وغلطه في ذلك كغلط النملة مثلا لو كانت تدب على الكاغد فترى رأس القلم يسود الكاغد ، ولم يمتد بصرها الى الاصابع واليد ، فضلا عن صاحب اليد ، وظنت ان القلم هو المسود للبياض وذلك لقصور بصرها عن مجاوزة رأس القلم لضيق حدقتها .

فصل

مناجاة السر لارباب القلوب

قال بعض العارفين [٣٠]: أرباب القلوب والمشاهدات قد انطق الله في حقهم كل ذرة في الارض والسماوات بقدرته التي انطق بها كل شيء ، حتى سمعوا تقديسها وتسبيحها وشهادتها على نفسها بالعجز ، بلسان الواقع الذي هو ليس بعربي ولا أعجمي ، وليس فيه حرف وصوت ، ولا يسمعه أحد الا

---

(٢٩) الانفال ، الآية : ١٧ .

(٣٠) المقصود به (ابو حامد الغزالي) في احياء العلوم ، راجع الجزء الرابع ص ١١٤ المطبوع بالمطبعة العثمانية بمصر سنة ١٣٥٢ ، وسترى ان هذه الفصول مقتبسة منه بتغيير في العبارة وتقديم وتأخير . وكذلك هذا الفصل المنقول عنه فيه تغيير واختصار كثير ، وصاحب الكتاب اعترف ـ فيما سيأتي ـ باقتباس هذه الفصول من الغزالي .

بالسمع العقلي الملكوتي دون السمع الظاهر الحسي الناسوتي ، وهذا النطق الذي لكل ذرة من الارض والسماوات مع ارباب القلوب انما هو (مناجاة السر) ، وذلك مما لا ينحصر ولا يتناهى ، فانها كلمات تستمد[٣١] من بحر كلام الله الذي لا نهاية له :

« قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا » (٣٢) .

ثم انها لما كانت مناجية بأسرار الملك والملكوت ،وليس كل أحد موضعا للسر ، بل صدور الاحرار قبور الاسرار ، فاختصت مناجاتها بالاحرار من أرباب القلوب . وهم ايضا لا يحكون هذه الاسرار لغيرهم ، اذ افشاء السر لؤم ، وهل رأيت قط أمينا على أسرار الملك قد نوجي بخفاياه فينادي بها على الملأ من الخلق ، ولو جاز افشاء كل سر لما نهى النبي (ص) عن افشاء سر القدر ، ولما خص امير المؤمنين عليه السلام ببعض الاسرار ، ولما قال صلى الله عليه وآله وسلم : «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا»، بل كان يذكر لهم ذلك حتى يبكون ولا يضحكون .

فاذن عن حكايات مناجاة ذرات الملك والملكوت لقلوب أرباب المشاهدة مانعان: (احدهما) المنع عن افشاء السر ، (وثانيهما) خروج كلماتها عن الحصر والنهاية . ونحن نحكي في فعل الكتابة قدرا يسيرا من مناجاة بعض ما يرى اسبابا ووسائط ، واقرارها بالعجز على انفسها ، ليقاس عليه جميع الافعال الصادرة عن جميع الاسباب والوسائط المسخرة تحت قدرة الله ، ويفهم به على الاجمال كيفية ابتناء التوكل عليه ، ونرد لضرورة التفهم كلماتها الملكوتية الى الحروف والاصوات ، وان لم تكن اصواتا وحروفا ، فنقول :

قال بعض الناظرين عن مشكاة نور الله للكاغد ، وقد رأى وجهه اسود بالحبر : « لم سودت وجهك وقد كان أبيض مشرقا ؟ » .

فقال : «ما سودت وجهي ، وانما سوده الحبر ، فاسأله لم فعل كذا؟» فسأل الحبر عن ذلك ، فقال : « هذا السؤال على القلم الذي

---

(٣١) وفى نسختنا الخطية : (لانها كلام يستمد) ، ولكن الموجود فى المطبوعة وفى نسخة احياء العلوم كما اثبتناه فى المتن .
(٣٢) الكهف ، الآية : ١٠٩ .

أخرجني من مستقري ظلما » .

فسأل القلم ، فأحاله الى اليد والاصابع ، وهي الى القدرة والقوة ، وهي الى الارادة ، معترفا كل واحد منهم بعجز نفسه ، وبكونه مقهورا مسخرا تحت قهر المحال عليه من دون استطاعة لمخالفته .

ولما سأل الارادة ، قالت : « ما انتهضت بنفسي ، بل بُعثت على أشخاص القدرة وانهاضها ، وبحكم رسول قاهر ورد عليَّ من حضرة القلب بلسان العقل ، وهذا الرسول هو العلم ، فالسؤال عن انتهاضي يتوجه على العقل والقلب والعلم » .

ولما سألها قال (العقل) : « أما أنا فسراج ما اشتعلت بنفسي ولكنى أشعلت » .

وقال (القلب) :« أما انا فلوح ما انبسطت بنفسي ولكنى بسطت» .

وقال (العلم) : « أما انا فنقش نقشت في لوح القلب لما أشرق سراج العقل ، وما انتقشت بنفسي بل نقشني غيري ، فسل القلم الذي نقشني ورسمني على لوح القلب بعد أشتعال سراج العقل » .

وعند هذا تحير السائل وقال : « ما هذا القلم وهذا اللوح وهذا الخط وهذا السراج ؟ فاني لا أعلم قلما الا من القصب ، ولا لوحا الا من الحديد أو الخشب ، ولا خطا الا بالحبر ، ولا سراجا الا من النار . واني لأسمع في هذا المنزل حديث اللوح والقلم والخط والسراج ، ولا أشاهد من ذلك شيئا » .

فقال له (العلم) : « فاذن بضاعتك مزجاة ، وزادك قليل ، ومركبك ضعيف ، والمهالك في الطريق الذي توجهت اليه كثيرة ، فان كنت راغبا في استتمام الطريق الى المقصد ، فأعلم ان العوالم في طريقك ثلاثة : (أولها) عالم الملك والشهادة ، ولقد كان الكاغد والحبر والقلم واليد والاصابع من هذا العلم ، وقد جاوزت تلك المنازل على سهولة ، (وثانيها) عالم الملكوت الاسفل ، وهو يشبه السفينة التي بين الارض والماء ، فلا هي حد أضطراب الماء ، ولا هي في حد الارض وثباتها ، والقدرة والارادة والعلم من منازل هذا العالم . (وثالثها) عالم الملكوت الاعلى ، وهو من ورائي ، فاذا

جاوزتني انتهيت الى منازله . وأول منازله القلم الذي يكتب به العلم على لوح القلب . وفي هذا العالم المهامه الفسيحة والجبال الشاهقة والبحار المغرقة » .

فقال له السائل السالك : « قد تحيرت في أمري ولست أدري اني أقدر على قطع هذا الطريق المخوف أم لا ، فهل لذلك علامة أعرف بهـا تمكني على قطع هذا الطريق ؟ » .

فقال :« نعم! افتح بصرك ، واجمع ضوء عينك وحدقه نحوي ، فان ظهر لك القلم الذي به يكتب في لوح القلب ، فيشبه ان تكون أهلا لهذا الطريق ، فان كل من جاوز الملكوت الاسفل وقرع اول باب من الملكوت الاعلى كوشف بالقلم . أما ترى النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — كوشف به وأنزل عليه قوله تعالى :

« اقرأ باسم ربك الذي خلق ... الى قوله : اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم » (٣٣) .

وهذا القلم قلم إلهي ليس بقصب ولا خشب . أوما سمعت ان متاع البيت يشبه رب البيت ؟ وقد علمت ان الله تعالى لاتشبه ذاته سائرالذوات، فليس في ذاته بجسم ولا هو في مكان ، فكذلك لاتشبه يده سائر الايدي، ولا قلمه سائر الاقلام ، ولا كلامه سائر الكلام ، ولا خطه سائر الخطوط. بل هذه أمور إلهية من عالم الملكوت الاعلى ، فليست يده من لحم وعظم ودم ، ولا قلمه من قصب ، ولا لوحه من خشب ، ولا كلامه من صوت وحرف ، ولاخطه من نقش ورسم ورقم ، ولا حبره من زاج وعفص . فان كنت لاتشاهد هذا هكذا فأنت من أهل التشبيه والتجسم وماعرفت ربك ، اذ لو نزهت ذاته تعالى وصفاته عن ذات الاجسام وصفاتها ونزهت كلامه عن الحروف والاصوات ، فما بالك تتوقف في يده وقلمه ولوحه وخطه ، ولا تنزهها عن الجسمية والتشبيه بغيرها ؟ » .

فلما سمع السائل السالك من العلم ذلك ، استشعر قصور نفسه وفتح بصر بصيرته ، بعد الابتهال الى ربه ، فانكشف له القلم الإلهي ، فاذا هو

---

(٣٣) العلق ، الآية : ١ ، ٢ — ٥ .

كما وصفه العلم ، ماهو من خشب ولا قصب ، ولا له رأس ولا ذنب ، وهو يكتب على الدوام في قلوب البشر أصناف العلم ، فشكر العلم وودعه ، وسافر الى حضرة القلم الإلهي ، وقال له :

« أيها القلم ! مالك تخط على الدوام في القلوب من العلوم ماتبعث به الارادات الى انهاض القدرة واشخاصها وصرفها الى المقدورات ؟ » .

فقال له (القلم الإلهي) : « أفنسيت ما رأيت في عالم الملك وسمعته من جواب القلم الآدمي حيث أحالك الى اليد ؟ فجوابي مثل جوابه ، فاني مسخر تحت يد الله تعالى الملقبة بـ (يمين الملك) ، فاسأله عن شأني فاني في قبضته وهو الذي يرددني ، وأنا مقهور مسخر ، فلا فرق بين القلم الإلهي والقلم الآدمي في معنى التسخير ، وانما الفرق في ظاهر الصورة » .

فقال السائل : « من يمين الملك ؟ » .

قال القلم : « أما سمعت قوله تعالى » :

والسموات مطويات بيمينه ؟ (٣٤) » .

قال : « نعم ! سمعته » .

قال : « والاقلام أيضا في قبضته وهو الذي يرددها » .

فسافر السائل من عند القلم الى اليمين ، حتى شاهده ، ورأى من عجائبه مايزيد على عجائب القلم، ورأى انه يمين لا كالايمان ، ويد لا كالايدي، واصبع لا كالاصابع، فرأى القلم متحركا في قبضته، فسأله عن سبب تحريكه القلم.

فقال : « جوابي ما سمعته من اليمين التي رأيتها في عالم الشهادة ، وهو الحوالة على القدرة ، اذ اليد لاحكم لها في نفسها ، وانما محركها القدرة » .

فسافر الى عالم القدرة ورأى فيها من العجائب ما أستحقر لأجلها ماقبلها، فسألها عن سبب تحريكها اليمين .

فقالت : « انما أنا صفة فاسأل القادر ، اذ العهدة على الموصوف دون الصفة » .

وعند هذا كاد أن يزيغ قلب السائل ، وينطلق بالجرأة لسان السؤال،

---

(٣٤) الزمر ، الآية : ٦٧ .

فثبت بالقول الثابت ونودي من وراء سرادقات الحضرة :
« لايسأل عما يفعل وهم يسألون » (٣٥) .

فغشيته دهشة الحضرة ، فخر صعقا في غشيته مدة ، فلما أفاق قال : « سبحانك ! ما أعظم شأنك وأعز سلطانك ، تبت اليك وتوكلت عليك ، وآمنت بأنك الملك الجبار الواحد القهار ، فلا أخاف غيرك ولا أرجو سواك، ولا أعوذ الا بعفوك من عقابك ، وبرضاك من سخطك ، ومالي الا أن أسألك وأتضرع اليك ، وأقول :

(اشرح لي صدري) لاعرفك ، (واحلل عقدة من لساني) (٣٦) لاثني عليك .

فنودي من وراء الحجاب : « اياك أن تطمع في الثناء ، فان سيدالانبياء — صلى الله عليه وآله وسلم — مازاد في هـذه الحضرة على أن قال : (سبحانك لا أثنى ثناء عليك كما أنت أثنيت على نفسك) . واياك انتطمع في المعرفة ، فان سيد الاوصياء قال : (العجز عن درك الادراك ادراك ، والفحص عن سر ذات السر اشراك) . فيكفيك نصيبا من حضرتنا أنك عاجز عن ملاحظة جلالنا وجمالنا ، وقاصر عن ادراك دقائق حكمنا وأفعالنا » .

فعند هذا رجع السائل السالك ، واعتذر عن أسئلته ومعاتبته ، وقال للقدرة واليمين والقلم والعلم والارادة والقدرة وما بعدها : « أقبلوا عذري فاني كنت غريبا جديد العهد بالدخول في هذه البلاد . والآن قد صح عندي عذركم وانكشف لي أن المتفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت هوالواحد القهار ، وما أنتم الا مسخرون تحت قهره وقدرته ، مرددون في قبضته ، وهو الاول بالاضافة الى الوجود ، اذ صدر منه الكل على ترتيبه واحدا بعد واحد ، وهو الآخر بالاضافة الى سير المسافرين اليه ، فانهم لايزالون مترقين من منزل الى منزل الى أن يقع الانتهاء الى حضرته ، فهو أول في الوجود وآخر في المشاهدة ، وهو الظاهر بالاضافة الى من يطلبه بالسراج الذي اشتعل في قلبه بالبصيرة الباطنة النافذة في عالم الملكوت ، وهو الباطن

---

(٣٥) الانبياء ، الآية : ٢٣ .

(٣٦) طه ، الآية : ٢٥ ، ٢٧ .

بالاضافة الى العاكفين في عالم الشهادة الطالبين لادراكه بالحواس » •

وهذا هو التوحيد في الفعل للسالكين ، الذين انكشف لهم وحدة الفاعل بالمشاهدة واستماع كلام ذرات الملك والملكوت ، وهو موقوف على الايمان بعالم الملكوت والتمكن من المسافرة اليه واستماع الكلام من أهله • ومن كان أجنبيا من هذا العالم ولم يكن له أستعداد الوصول اليه ولم يمكنه ان يسلك السبيل الذي ذكرناه ، فينبغي ان يرد مثله الى التوحيد الاعتقادي الذي يوجد في عالم الشهادة ، وهو ان يعلم ببعض الادلة وحدة الفاعل ، مثل ان يقال له : ان كل أحد يعلم ان المنزل يفسد بصاحبين والبلد يفسد بأميرين ،فآله العالم ومدبره واحد ، اذ :

« لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا » (٢٧) •

فيكون ذلك على ذوق مارآه في عالم الشهادة ، فينغرس أعتقاد التوحيد في قلبه بهذا الطريق بقدر عقله وأستعداده ، وقد كلفوا الانبياء ان يكلموا الناس على قدر عقولهم •

ثم الحق أن هذا التوحيد الاعتقادي اذا قوى يصلح ان يكون عمادا للتوكل وأصلا فيه ، اذ الاعتقاد اذا قوى عمل‌عمل الكشف في اثارةالاحوال، الا أنه في الغالب يضعف ويتسارع اليه الاضطراب ، فيحتاج الى من يحرسه بكلامه ، وأما الذي شاهد الطريق وسلكه بنفسه ، فلا يخاف عليه شيء من ذلك ، بل لو كشف له الغطاء لما أزداد يقينا وان كان يزداد وضوحا •

(تنبيه) اعلم ان ما يبتني عليه التوحيد المذكور ، أعنى كون جميع الاشياءمن الاسباب والوسائط مقهورات مسخرات تحت القدرة الازليـة ظاهر • وسائر ما أوردنا في هذا المقام مما ذكره ابو حامد الغزالي وتبعه بعض أصحابنا « ولا أشكال فيه الا في أفعال الانسان وحركاته » (٣٨) • فان البديهة تشهد بثبوت نوع أختيار له ، لانه يتحرك ان شاء ويسكن ان شاء ، مع انه لو كان مسخرا مقهورا في جميع أفعاله وحركاته ، لزم الجبر ولم يصح التكليف والثواب والعقاب • ولتحقيق هذه المسألة موضع آخر ،

(٣٧) الانبياء ، الآية : ٢٢ •

(٣٨) هكذا فى المطبوعة وفى نسختنا الخطية والنسخة الاخرى : «ولا ريب فى لزوم الاشكال فى افعال الانسان وحركاته » •

ولا يليق ذكرها هنا . والحق أن كل ما قيل فيها لايخلو عن قصور ونقصان، والاولى فيها السكوت والتأدب بآداب الشرع [٣٩] .

ومنها :

الخواطر النفسانية والوساوس الشيطانية

اعلم أن الخاطر مايعرض في القلب من الافكار فان كان مذموما داعيا الى الشر سمي (وسوسة) ، وان كان محمودا داعيا الى الخير سمي (الهاما) .

وتوضيح ذلك : ان مثل القلب بالنسبة الى مايرد عليه من الخواطرمثل هدف تتوارد عليه السهام من الجوانب ، أو حوض تنصب اليه مياه مختلفةمن الجداول ، أو قبة ذات أبواب يدخل منها أشخاص متخالفة ، أو مرآةمنصوبة تجتاز اليها صور متباينة . فكما أن هذه الامور لاتنفك عن تلك السوانح ، فكذا القلب لاينفك عن واردات الخواطر.فلاتزال هذه اللطيفة الآلهيةمضمار لتطاردها ومعركة لجولانها وتزاحمها ، الى ان يقطع ربطها عن البدن ولذاته، ويتخلص عن لدغ عقارب الطبع وحيّاته .

ثم لما كان الخاطر امرا حادثا فلا بد له من سبب ، فان كان سببه شيطانا فهو الوسوسة ، وان كان ملكا فهو الالهام . وما يستعد به القلب لقبول الوسوسة يسمى اغواء وخذلانا ،وما يتهيأ به لقبول الالهام يسمى لطفا وتوفيقا. والى ذلك اشار سيد الرسل (ص) بقوله : « في القلب لمتان[٤٠] : لمة من الملك

---

(٣٩) هذا اعتراف بالعجز وهروب من حل هذه المعضلة التاريخية فى سر الخلق ، والحل الذي لم يسبق اليه البشر حتى عند فلاسفتهم الاقدمين والمتاخرين ما قاله امامنا الصادق (ع) : « لاجبر ولا تفويض ، ولكن امر بين امرين ». فان الفاعل الذي منه الوجود هو الله تعالى وحده لاشريك له فى خلقه ، والفاعل الذي به الوجود هو العبد المختار فى فعله .

(٤٠) روى الحديث فى احياء العلوم ج٢ ص ٢٣ هكذا : « فى القلب لمتان : لمة من الملك ايعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم انه من الله . سبحانه وليحمد الله . ولمة من العدو ايعاد بالشر وتكذيب بالحق ونهي عن الخير ، فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم » ، ثم تلا قوله تعالى : « الشيطان يعدكم الفقر ... » الآية .
تلا قوله تعالى : « الشيطان يعدكم الفقر ... » الآية . وهذا الحديث لم نعثر عليه من طرقنا ، وكذا الحديث الآتي :

فى نهاية ابن الاثير « فى حديث ابن مسعود : لابن آدم لمتان : لمة من الملك ولمة من الشيطان . اللمة الهمة والخطرة تقع فى القلب ، اراد المام الملك او الشيطان به والقرب منه » .

ايعاد بالخير وتصديق بالحق ،ولمة من الشيطان ايعاد بالشر وتكذيب بالحق» .
وبقوله (ص) : « قلب المؤمن بين اصبعين من أصابع الرحمن » .

فصل

أقسام الخواطر ومنها الالهام

الخاطر ينقسم الى ما يختلج بالبال من دون ان يكون مبدأ للفعل : وهي الاماني الكاذبة والافكار الفاسدة ، والى محرك الارادة والعزم على الفعل، اذ كل فعل مسبوق بالخاطر اولا ، فمبدأ الافعال الخواطر ، وهي تحرك الرغبة ، والرغبة العزم ، والعزم النية ، والنية تبعث الاعضاء على الفعل ، (والثاني) كما عرفت ان كان مبدأ للخير يكون الهاما ومحمودا، وان كان مبدأ للشر يكون وسواسا ومذموما . (والاول) له انواع كثيرة :

(منها) ما يرجع الى التمني ، سواء كان حصول ما يتمناه ممكنا او محالا ، وسواء كان المتمني حسنا محمودا أو قبيحا مذموما ، وسواء كان عدمه مستندا الى قضاء الله وقدره او الى تقصيره وسوء تدبيره فيخطر بباله انه يا ليت لم يفعل كذا او فعل كذا .

(ومنها) ما يرجع الى تذكر الاحوال الغالبة ، اما بدون اختياره أو مع اختيار ما، بأن يتصور ما له من النفائس الفانية فيستر به ، او يتخيل فقده فيحزن لاجله ، أو يتفكر في ما اعتراه من العلل والاسقام واختلال أمر المعاش وسوء الانتظام ، أو يذهب وهمه الى حساب المعاملين أو جواب المعاندين وتصوير اهلاك الاعداء بالانواع المختلفة من دون تأثير وفائدة .

(ومنها) ما يرجع الى التطير ، وربما بلغ حدا يتخيل كثيرا من الامور الاتفاقية الدالة على وقوع مكروه بنفسه أو بما يتعلق به ، ويضطرب بذلك، وان لم تكن مشهورة بذلك عند الناس ، وربما حدثت في القوة الوهمية خباثة وشيطنة تذهب غالبا الى ما يؤذيه ويكرهه ولا يذهب الى ما يريده ويسره ،فيتخيل ذهاب أمواله واولاده وابتلاءه بالامراض والاسقام ووصول المكروه من الغير ومغلوبيته من عدوه ، وربما حصل لنفسه نوع اذعان لهذه التخيلات لمغلوبية العاقلة للواهمة، فيعتريه نوع اضطراب وانكسار ، وقلما يذهب مثل هذه القوة الوهمية فيما يشاء ويريده من تخيل الغلبة وحصول

التوسعةفي الاموال والاولاد ، بحيث يحصل لنفسه نوع اذعانلها ، فتنبسط وتهتز . وهذا شر الوساوس وأردؤها ، وربما كان المنشأ لبعضها نوع اختلال في الدماغ . وجميع الانواع المذكورة بأقسامها مفسدة للنفس يحدث فيها نوع ذبول وانكسار ويصدها عما خلقت لاجله .

(ومنها) ما يرجع الى التفاؤل ، وهذا ليس مذموما . وقد ورد من رسول الله (ص) : انه يحب التفاؤل ، وكثيرا ما يتفاءل ببعض الامور .

(ومنها) الوسواس في العقائد ، بحيث لا يؤدي الى الشك المزيل لليقين ، فانه قادح في الايمان كما تقدم .ومرادنا بالوسوسة وحديث النفس في العقائد هنا ما لا يضر بالايمان ولا يؤاخذ به — كما يأتي — .

«تذنيب» قد ظهر مما ذكر : ان أكثر جولان الخاطر انما يكون في فائت لا تدارك له ، أو في مستقبل لا بد وان يحصل منه ما هو مقدر ، وكيف كان هو تضييع لوقته ، اذ آلة العبد قلبه وبضاعته عمره ، فاذا غفل القلب فيتفس واحد عن ذكر يستفيد به أنسا بالله أو عن فكر يستفيد معرفة الله ليستفيد بالمعرفة حبا لله ، فهو مغبون ، وهذا ان كان فكره ووسواسه في المباحات ، مع ان الغالب ليس كذلك ، بل يتفكر في وجوه الحيل لقضاء الشهوات ، اذ لا يزال ينازع في الباطن كل من فعل فعلا مخالفا لغرضه ، أو من يتوهم انه ينازعه ويخالفه في رأيه ، بل يقدر المخالفة من اخلص الناس في حبهحتى فيأهله وولده ثم يتفكر فيكيفية زجرهم وقهرهم وجوابهم عما يتعللون في مخالفتهم ، فلا يزال في شغل دائم مضيع لدينه ودنياه .

فصل

المطاردة بين جندي الملائكة والشياطين فيمعركة النفس

قد عرفت أنالوسواس أثر الشيطان الخناس ، والالهام عمل الملائكة الكرام . ولا ريب في أن كل نفس في بدو فطرتها قابلة لأثر كل منهما على التساوي ، وانما يترجح أحدهما بمتابعة الهوى وملازمة الورع والتقوى ، فاذا مالت النفس الى مقتضى شهوة أو غضب وجد الشيطان مجالا فيدخل بالوسوسة ، واذا انصرفت الى ذكر الله ضاق مجاله وارتحل فيدخل الملك بالالهام . فلا يزال التطارد بين جندي الملائكة والشياطين فيمعركة النفس.

لهيولانية وجودها وقابليتها للامرين بتوسط قوتيها العقلية والوهمية ، الى ان يغلب أحد الجندين ويسخر مملكة النفس ويستوطن فيها ، وحينئذ يكون اجتياز الثاني على سبيل الاختلاس ، وحصول الغلبة انما هو بغلبة الهوى أو التقوى ، فان غلب عليها الهوى وخاضت فيه صارت مرعى الشيطان ومرتعه وكانت من حزبه ، وان غلب عليها الورع والتقوى صارت مستقر الملك ومهبطه ودخلت في جنده ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « خلق الله الإنس ثلاثة أصناف : صنف كالبهائم ، قال الله تعالى :

« لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها » (٤١) .

وصنف أجسادهم أجساد بني آدم وأرواحهم أرواح الشياطين ، وصنف كالملائكة في ظل الله يوم لا ظل الا ظله » .

ولا ريب في أن أكثر القلوب قد فتحها جنود الشياطين وملكوها ، ويتصرفون فيها بضروب الوساوس الداعية الى ايثار العاجلة واطراح الآجلة ، والسر فيه: أن سلطنة الشيطان سارية في لحم الانسان ودمه ومحيطة بمجامع قلبه وبدنه ، كما أن الشهوات ممتزجة بجميع ذلك ، ومن هنا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ان الشيطان ليجري من بني آدم مجرى الدم » ، وقال الله سبحانه ــ حكاية عن لسان اللعين ــ :

« لاقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم » (٤٢) .

فالخلاص من ايدي الشياطين يحتاج الى مجاهدة عظيمة ورياضة شاقة فمن لم يقم في مقام المجاهدة كانت نفسه هدفا لسهام وساوسهم وداخلة في أحزابهم .

فصل

تسويلات الشيطان ووساوسه

لما كانت طرق الباطل كثيرة وطريق الحق واحدة ، فالابواب المفتوحة للشيطان الى القلب كثيرة ،وباب الملائكة واحدة ، ولذا روي ان النبي صلى

---

(٤١) الاعراف ، الآية : ١٧٩ .
(٤٢) الاعراف الآية : ١٦ ، ١٧ .

الله عليه وآله وسلم خط يوما لاصحابه خطا وقال : « هذا سبيل الله » ، ثم خط خطوطا عن يمينه وشماله فقال : « هذه سُبل على كل سبيل منها شيطان يدعو اليه » ، ثم تلا قوله سبحانه :

« وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » (٤٣) .

ثم لسهولة ميل النفس الى الباطل وعسر انقيادها للحق تكون الطرق المؤدية الى الباطل التي هي أبواب الشيطان جلية ظاهرة ، فكانت أبواب الشيطان مفتوحة ابدا ، والطرق المؤدية الى الحـق التي هي باب الملائكة خفية ، فكان باب الملائكة مسدودا دائما ، فما أصعب بالمسكين ابن آدم ان يسد هذه الابواب الكثيرة الظاهرة المفتوحة ويفتح بابا واحدا خفيا مسدودا. على ان اللعين ربما يلبس بين طريقي الحق والباطل ويعرض الشر في موضع الخير ، بحيث يظن انه لمة الملك والهامه ، لا وسوسة الشيطان واغواؤه ، فيهلك ويضل من حيث لا يعلم ، كما يلقى في قلب العالم ان الناس لكثرة غفلتهم أشرفوا على الهلاك ، وهم من الجهل موتى ، ومن الغفلة هلكى ، أما لك رحمة على عباد الله ؟ أما تريد الثواب والسعادة في العقبى ؟ فما بك لا تنبههم عن رقدة الغفلات بوعظك ، ولا تنقذهم من الهلاك الابدي بنصحك؟ وقد من الله عليك بقلب بصير وعلم كثير ولسان ذلق ولهجة مقبولة ! فكيف تخفى نعم الله تعالى ولا تظهرها ؟! فلا يزال يوسوسه بأمثال ذلك ويثبتهـا في لوح نفسه ، الى أن يسخره بلطائف الحيل ويشتغل بالوعظ ، فيدعـوه الى التزين والتصنع والتحسن بتحسين اللفظ ، والسرور بتملق الجماعة ، والفرح بمدحهم اياه ، والانبساط بتواضعهم لديه وانكسارهم بين يديه ، ولا يزال في اثناء الوعظ يقرر في قلبه شوائب الرياء وقبول العامة ، ولذة الجاه وحب الرياسة ، والتعزز بالعلم والفصاحة ، والنظر الى الخلق بعين الحقارة ، فيهدي الناس ويضل نفسه ، ويعمر يومه ويخرب أمسه ، ويخالف الله ويظن انه في طاعته ويعصيه ويحسب انه في عبادته ، فيدخل في جملة من قال الله فيهم :

---

(٤٣) الانعام ، الآية : ١٥٣ .

« قل هل ننبئكم بالاخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحيوة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا » (٤٤) .

ويكون ممن قال رسول الله (ص) فيهم : « ان الله ليؤيد هذا الدين بأقوام لاخلاق لهم » ، و « ان الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » . فلا نجاة من مصائد الشيطان ومكائده الا ببصيرة باطنة نورانية وقوة قدسية ربانية ، كما لا نجاة للمسافر الحيران في بادية كثيرة الطرق غامضة المسلك في ليلة مظلمة الا بعين بصيرة صحيحة وطلوع شمس مشرقة نيرة .

فصل

العلائم الفارقة بين الالهام والوسوسة

من تمكن من معرفة الخير والشر سهل عليه التفرقة بين الالهام والوسوسة وقد قيل ان إلهام الملك ووسوسة الشيطان يقع في النفوس على وجوه وعلامات :(أحدها) كالعلم واليقين الحاصلين من جانب يمين النفس .وتقابله الشهوة والهوى الحاصلان من جانب شمالها . (وثانيها) كالنظر الى آيات الآفاق والانفس على سبيل النظام والاحكام المزيل للشكوك والاوهام ، والمحصل للمعرفة والحكمة في القوة العاقلة هي جانب الايمن من النفس ويقابله النظر اليها على سبيل الاشتباه والغفلة والاعراض عنها ، الناشئة منها الشبه والوساوس في الواهمة والمتخيلة التي على الجانب الايسر منها ، فان الآيات المحكمات بمنزلة الملائكة المقدسة من العقول والنفوس الكلية ، لانها مباديء العلوم اليقينية ، والمتشابهات الوهميات بمنزلة الشياطين والنفوس الوهمانية ، لأنها مباديء المقدمات السفسطية . (وثالثها) كطاعة الرسول المختار والأئمة الاطهار في مقابلة أهل الجحود والانكار وأرباب التعطيل والتشبيه من الكفار . فكل من سلك سبيل الهداية فهو بمنزلة الملائكة المقدسين الملهمين للخير ، ومن سلك سبيل الضلال فهو بمنزلة الشياطين المغوين بالشرور. (ورابعها) كتحصيل العلوم والادراكات التي هي في الموضوعات العالية والاعيان الشريفة ، كالعلم بالله وملائكته ورسله ، واليوم الآخر ، والبعث ، وقيام

---

(٤٤) الكهف الآية ١٠٣ — ١٠٤ .

الساعة ، ومثول الخلائق بين يدي الله تعالى ، وحضور الملائكة والنبيين والشهداء والصالحين ، في مقابلة تحصيل العلوم والادراكات التي هي من باب الحيل والخديعة والسفسطة ، والتأمل في أمور الدنيا الغير الخارجة عن دار المحسوسات ، فان الاول يشبه الملائكة الروحانية وجنود الرحمن الذين هم سكان عالم الملكوت السماوي ، والثاني يشبه الابالسة المطرودة عن باب الله الممنوعة من ولوج السماوات ، المحبوسة في الظلمات ، المحرومة في الدنيا عن الارتقاء ، والمحجوبة في الآخرة عن دار النعيم •

فصـــل

عـلاج الوساوس

الوساوس ان كانت بواعث الشرور والمعاصي ، فالعلاج في دفعها أن يتذكر سوء عاقبة العصيان ووخامة خاتمته في الدنيا والآخرة ، ويتذكر عظيم حق الله وجسيم ثوابه وعقابه ، ويتذكر أن الصبر عما تدعو اليه هــذه الوساوس أسهل من الصبر على نار لو تذفت شرارة منها الى الارض أحرقت نبتها وجمادها ، فاذا تذكر هذه الامور وعرف حقيقتها بنور المعرفة والايمان، جبس عنه الشيطان وقطع عنه وسواسه ، اذ لايمكن ان ينكر عليه هــذه الامور الحقة ، اذ يقينه الحاصل من قواطع البرهان يمنعه عن ذلك ويخيبه، بحيث يرجع هاربا خائبا • فان التهاب نيران [٤٥] البراهين بمنزلة رجوم الشياطين ، فاذا قوبلت بها وساوسهم فرت فرار الحمر من الاسد •

وان كانت مختلجة بالبال بلا ارادة واختيار ، من دون ان تكون مبادىء الافعال ، فقطعها بالكلية في غاية الصعوبة والاشكال ، وقد أعترف اطباء النفوس بأنها الداء العضال ويتعسر دفعه بالمرة ، وربما قيل بتعذره ولكن الحق امكانه ، لقول النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — : « من صلى ركعتين لم تتحدث نفسه فيهما بشيء غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر » ، ولولا امكانه لم يتصور ذلك •

والسر في صعوبة قطعها بالكلية أن للشيطان جندين : جندا يطير وجندا يسير ، والواهمة جنده الطيار ، والشهوة جنده السيار ، لأن غالب ما خلقتا

---

(٤٥) وفى نسختنا الخطية هكذا : « فان نيرات البراهين » .

منه هي النار التي خلق منها الشيطان ، فالمناسبة أقتضت تسلطه عليهما وتبعيتهما له .

ثم لما كانت النار بذاتها مقتضية للحركة ، اذ لاتتصور نار مشتعلة لاتتحرك ، بل لاتزال تتحرك بطبعها ، فشأن كل من الشيطان والقوتين أن يتحرك ولا يسكن ، الا أن الشيطان لما خلق من النار الصرفة من دون أمتزاج شيء آخر بها فهو دائم الحركة والتحريك للقوتين بالوسوسة والهيجان ، والقوتان لما أمتزج بغالب مادتهما — أعني النار — شيء من الطين لم تكونا بمثابة ماخلق من صرف النار في الحركة ، الا انهما أستعدتا لقبول الحركة منه ، فلا يزال الشيطان ينفخ فيهما ويحركهما بالوسوسة والهيجان ويطير ويجول فيهما . ثم الشهوة لكون النارية فيها أقل فسكونها ممكن ، فيحتمل ان يكف تسلط الشيطان عن الانسان فيها ، فيسكن بالكلية عن الهيجان . وأما الواهمة فلا يمكن ان يقطع تسلطه عنها ، فيمتنع قطع وسواسه عن الانسان ، اذ لو أمكن قطعه أيضا بالمرة ، لصار اللعين منقادا للانسان مسخرا له ، وانقياده له هو سجوده له ، اذ روح السجود وحقيقته هو الانقياد والاطاعة ، ووضع الجبهة حالته وعلامته ، وكيف يتصور أن يسجد الملعون لأولاد آدم (ع) مع عدم سجوده لابيهم واستكباره من أن يطمئن عن حركته ساجدا له معللا بقوله :

« خلقتني من نار وخلقته من طين » (٤٦) .

فلا يمكن ان يتواضع لهم بالكف عن الوسوسة ، بل هو من المنظرين لاغوائهم الى يوم الدين ، فلا يتخلص منه أحد الا من أصبح وهمومه هم واحد ، فيكون قلبه مشتغلا بالله وحده ، فلا يجد الملعون مجالا فيه ، ومثله من المخلصين الداخلين في الاستثناء (٤٧) عن سلطنة هذا اللعين ، فلا تظنن أنه يخلو عنه قلب فارغ ، بل هو سيال يجرى من ابن آدم مجرى الدم ، وسيلانه مثل الهواء في القدح ، فانك ان أردت ان تخلى القدح عن الهواء من غير ان تشغله بمثل الماء فقد طمعت في غير مطمع ، بل بقدر ما يدخل فيه

(٤٦) الاعراف ، الآية : ١٢ .

(٤٧) اشارة الى قوله تعالى : « قال رب بما اغويتني لازينن لهم فى الارض ولا غوينهم اجمعين الا عبادك منهم المخلصين » الحجر ، الآية : ٤٠ .

الماء يخلو عن الهواء ، فكذلك القلب اذا كان مشغولا بفكر مهم في الدين يمكن ان يخلو من جولان هذا اللعين ، وأما لو غفل عن الله ولو في لحظة، فليس له في تلك اللحظة قرين الا الشيطان ، كما قال سبحانه :

« ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين » (٤٨) .

وقال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ : « ان الله يبغض الشاب الفارغ » لأن الشاب اذا تعطل عن عمل مباح يشغل باطنه لابد أن يدخل في قلبه الشيطان ويعيش فيه ويبيض ويفرخ ، وهكذا يتوالد نسل الشيطان توالدا أسرع من توالد الحيوانات ، لأن الشيطان طبعه من النار ، والشهوة في نفس الشاب كالحلفاء (٤٩) اليابسة ، فاذا وجدها كثر تولده وتولدت النار من النار ولم تنقطع أصلا .

فظهر أن وسواس الخناس لايزال يجاذب قلب كل انسان من جانب الى جانب ، ولا علاج له الا قطع العلائق كلها ظاهرا وباطنا ، والفرار عن الاهل والمال والولد والجاه والرفقاء ، ثم الاعتزال الى زاوية ، وجعل الهموم هماً واحدا هو الله . وهذا أيضا غير كاف مالم يكن له مجال في الفكر وسير في الباطن في ملكوت السماوات والارض وعجائب صنع الله ، فان استيلاء ذلك على القلب واشتغاله به يدفع مجاذبة الشيطان ووسواسه ، وان لم يكن له سير بالباطن فلاينجيه الا الاوراد المتواصلة المترتبة في كل لحظة من الصلوات والاذكار والادعية والقراءة . ويحتاج مع ذلك الى تكليف القلب الحضور ، اذ الاوراد الظاهرة لاتستغرق القلب ، بل التفكير بالباطن هو الذي يستغرقه ، واذا فعل كل ذلك لم يسلم له من الاوقات الا بعضها، اذ لايخلو في بعضها عن حوادث تتجدد وتشغله عن الفكر والذكر ، كمرض أو خوف أو ايذاء وطغيان ، ولو من مخالطة بعض لايستغنى عنه في الاستعانة في بعض اسباب المعيشة .

---

(٤٨) الزخرف ، الآية ٣٥ .

(٤٩) الحلفاء : نبت أطرافه محددة كأنها سعف النخل والخوص ،ينبت فى مغايض المياه . الواحدة (حلفة وحلفاء) .

فصـــل

مايتم به علاج الوسواس

لو أمكن العلاج في القطع الكلي للوساوس فانما يتم بأمور ثلاثة :

(الاول) سد الابواب العظيمة للشيطان في القلب ، وهي الشهوة ، والغضب ، والحرص ، والحسد ، والعداوة ، والعجب ، والحقد ، والكبر ، والطمع ، والبخل ، والخفة ، والجبن ، وحب الحطام الدنيوي الدائم ، والشوق الى التزين بالثياب الفاخرة ، والعجلة في الامر ، وخوف الفاقة والفقر ، والتعصب لغير الحق ، وسوء الظن بالخالق ... وغير ذلك من رؤس ذمائم الصفات ورذائل الملكات ، فانها ابواب عظيمة للشيطان ، فاذا وجد بعضها مفتوحا يدخل منه في القلب بالوساوس المتعلقة به ، واذا سدت لم يكن له اليه سبيل الا على طريق الاختلاس والاجتياز .

(الثاني) عمارة القلب بأضدادها من فضائل الاخـلاق وشرائف الاوصاف ، والملازمة للورع والتقوى ، والمواظبة على عبادة ربه الاعلى .

(الثالث) كثرة الذكر بالقلب واللسان . فاذا قلعت عن القلب أصول ذمائم الصفات المذكورة التي هي بمنزلة الابواب العظيمة للشيطان ، زالت عنه وجوه سلطنته وتصرفاته ، سوى خطراته واجتيازاته ، والذكر يمنعها ويقطع تسلطه وتصرفه بالكلية ، ولو لم يسد أبوابه أولا لم ينفع مجرد الذكر اللساني في ازالتها ، اذ حقيقة الذكر لايتمكن في القلب الا بعد تخليته عن الرذائل وتحليته بالفضائل ، ولولاهما لم يظهر على القلب سلطانه ، بل كان بمجرد قولك : إخسأ ، وان كان عندك شيء منها لم يندفع عنك بمجرد مثل كلب جائع ، ومثل هذه الصفات المذمومة مثل لحم أو خبز او غيرهما من مشتهيات الكلب ، ومثل الذكر مثل قولك له : إخسأ . ولا ريب في أن الكلب اذا قرب اليك ولم يكن عندك شيء من مشتهياته فهو ينزجر عنك بمجرد قولك : أخسا ، وان كان عندك شيء منها لم يندفع عنك بمجرد هذا القول مالم يصل الى مطلوبه . فالقلب الخالي عن قوت الشيطان يندفع عنه بمجرد الذكر ، وأما القلب المملو منه فيدفع الذكر الى حواشيه ، ولا يستقر في سويدائه ، لاستقرار الشيطان فيه . وأيضا الذكر بمنزلة الغذاء

المقوى فكما لاتنفع الاغذية المقوية ،مالم ينق البدن عن الاخلاط الفاسدة ومواد الامراض الحادثة، كذلك لاينفع الذكر مالم يطهر القلب عن الاخلاق الذميمة التي هي مورد مرض الوساوس ، فالذكر انما ينفع للقلب اذا كان مطهرا عن شوائب الهوى ومنورا بأنوار الورع والتقوى ، كما قال سبحانه :

« ان الذين أتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون » (٥٠) .

وقال سبحانه :

« ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب » (٥١) .

ولو كان مجرد الذكر مطردا للشيطان لكان كل أحد حاضر القلب في الصلاة ، ولم يخطر بباله فيها الوساوس الباطلة والهواجس الفاسدة ، اذ منتهى كل ذكر وعبادة انما هو في الصلاة . مع أن من راقب قلبه يجد ان خطور الخواطر في صلاته أكثر من سائر الاوقات ، وربما لايتذكر ما نسيه من فضول الدنيا الا في صلاته ، بل يزدحم عندها جنود الشياطين على قلبه ويصير مضمارا لجولاتهم ، ويقلبونه شمالا ويمينا بحيث لايجد فيه ايمانا ولا يقينا ، ويجاذبونه الى الاسواق وحساب المعاملين وجواب المعاندين ، ويمرون به في أودية الدنيا ومهالكها . ومع ذلك كله لاتظنن ان الذكر لاينفع في القلوب الغافلة أصلا ، فان الامر ليس كذلك ، اذ للذكر عند أهله أربع مراتب كلها تنفع الذاكرين ، الا أن لبه وروحه والغرض الاصلي من ذلك المرتبة الاخيرة :

(الاولى) اللساني فقط .

(الثانية) اللساني والقلبي ، مع عدم تمكنه من القلب ، بحيث أحتاج القلب الى مراقبته حتى يحضر مع الذكر ، ولو خلى وطبعه أسترسل في أودية الخواطر .

(الثالثة) القلبي الذي تمكن من القلب وأستولى عليه ، بحيث لم يمكن صرفه عنه بسهولة ، بل احتاج ذلك الى سعى وتكلف ، كما أحتيج في الثانية

(٥٠) الاعراف ، الآية : ٢٠١ .
(٥١) ق ، الآية : ٣٦ .

اليهما في قراره معه ودوامه عليه .

(الرابعة) القلبي الذي يتمكن المذكور من القلب بحيث انمحى عند الذكر ، فلا يلتفت القلب الى نفسه ولا الذكر ، بل يستغرق بشراشره في المذكور ، وأهل هذه المرتبة يجعلون الالتفات الى الذكر حجابا شاغلا . وهذه المرتبة هي المطلوبة بالذات . والبواقي مع اختلاف مراتبها مطلوبة بالعرض ، لكونها طرقا الى ما هو المطلوب بالذات .

فصل

ما يتوقف عليه قطع الوساوس

السر في توقف قطع الوساوس بالكلية على التصفية والتخلية أولا ، ثم المواظبة على ذكر الله : انبعد حصول هذه الامور للنفس تحصل لقوتها العاقلة ملكة الاستيلاء والاستعلاء على القوى الشهوية والغضبية والوهمية ، فلا تتأثر عنها وتؤثر فيها على وفق المصلحة ، فتتمكن من ضبط الواهمة والمتخيلة بحيث لو أرادت صرفهما عن الوساوس لامكنها ذلك ، ولم تتمكن القوتان من الذهاب فيأودية الخواطر بدون رأيها ، واذا حصلت للنفس هذه الملكة وتوجهت الى ضبطهما كلما أرادتا الخروج عن الانقياد والذهاب في أودية الوساوس وتكرر منها هذا الضبط ، حصل لهما ثبات الانقياد بحيث لم يحدث فيهما خاطر سوء مطلقا ، بل لم يخطر فيهما الا خواطر الخير من خزائن الغيب وحينئذ تستقر النفس على مقام الاطمئنان ، وتنسد عنها أبواب الشيطان وتنفتح فيها أبوابالملائكة ، ويصير مستقرها ومستودعها ، فتستضاء بشروق الانوار القدسية من مشكاة الربوبية ، ويشملها خطاب :

« يايتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية » (٥٢) .

ومثل هذه النفس أحسن النفوس وأشرفها ، وتقابلها النفس المنكوسة المملؤة من الخبائث الملوثة بأنواع الذمائم والرذائل ، وهي التي انفتحتفيها أبواب الشيطان وانسدت منها أبواب الملائكة ، ويتصاعد منها دخان مظلم اليها ، فتملأ جوانبها ويطفيء نور اليقين ويضعف سلطان الايمان ، حتى

---

(٥٢) الفجر ، الآية : ٢٧ — ٢٨ .

تخمد أنواره بالكلية ، ولا يخطر فيها خاطر خير أبدا ، وتكون دائما محل الوساوس الشيطانية ، ومثلها لايرجع الى الخير أبدا ، وعلامتها عدم تأثرها من النصائح والمواعظ ، ولو اسمعت الحق عميت عن الفهـم وصمت عن السمع ، والى مثلها أشير بقوله سبحانه :

« أرأيت من اتخذ الهه هواه افأنت تكون عليه وكيلا » (٥٣) .

وبقوله تعالى :

« ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة » (٥٤) .

وبقوله سبحانه :

« ان هم الا كالانعام بل هم اضل سبيلا » (٥٥) .

وبقوله تعالى :

« وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون » (٥٦) .

وبقوله عز وجل :

« لقد حق القول على أكثرهم فهم لايؤمنون » (٥٧) .

وبين هاتين النفسين نفس متوسطة في السعادة والشقاوة ، ولها مراتب مختلفة في اتصافها بالفضائل والرذائل بحسب الكم والكيف والزمان،فيختلف فيهافتح أبواب الملائكة والشياطين بالجهات المذكـورة ، فتارة يبتديء فيها خاطر الهوى فيدعوها الى الشر ، وتارة يبتدىء فيها خاطر الايمان فيبعثها على الخير ، ومثلها معركة تطارد جنـدي الشياطين والملائكة وتجاذبهما ، فتارة يصول الملك على الشيطان فيطرده ، وتارة يحمل الشيطان على الملك فيغلبه، ولاتزال متجاذبة بين الحزبين مترددة بين الجندين ، الى أن تصل الى ماخلقت لأجله لسابق القضاء والقدر . ثم النفس الاولى في غاية الندرة ، وهي نفوس الكمل من المؤمنين الموحدين ، والثانية في نهاية الكثرة وهي نفوس الكفار بأسرهم ، والثالثة نفوس أكثر المسلمين ، ولها مراتب شتى ودرجات لاتحصى ولهاعرض عريض ، فيتصل أحد طرفيه بالنفس الاولى ، وآخرهما بالثانية .

---

(٥٣) الفرقان ، الآية : ٤٣ .
(٥٤) البقرة ، الآية : ٧ .
(٥٥) الفرقان ، الآية : ٤٤ .
(٥٦) يس ، الآية : ١٠ .
(٥٧) يس ، الآية : ٧ .

فصـــل

حديث النفس لا مؤاخذة عليه

قد عرفت أن الوساوس باقسامها مشتركة في احـداث ظلمة وكـدرة في النفس ، الا أن مجرد الخواطر ـ أي (حديث النفس) ومايتولد عنه بلااختيار كالميل وهيجان الرغبة ـ لامؤاخذة عليهما ، ولا يكتب بهما معصية ،لعدم دخولهما تحت الاختيار ، فالمؤاخـذة عليهما ظلم ، والنهي عنهما تكليف بما لايطاق ، والاعتقاد وحكم القلب بأنه ينبغي أن يفعل هذا فيؤاخذ به ، لكونه اختياريا . وكذا الهم بالفعل والعزم عليه ، الا أنه ان يفعل مع الهم خوفا من الله وندم عنه كتبت له حسنة ، وان لم يفعل لمانع منعه لا لخوف الله سبحانه كتبت عليه سـيئة .

والدليل على هذا التفصيل: أما على عدم المؤاخذة على مجرد الخاطر فما روى في الكافي : « انه جاء رجل الى النبي (ص) فقال : يا رسول الله هلكت ، فقال له هل أتاك الخبيث فقال لك من خلقك ؟ فقلتَ : الله تعالى، فقال لك : الله من خلقه ؟ فقال له : أي والذي بعثك بالحق لكان كذا . فقال رسول الله (ص) : ذاك والله محض الايمان » . ومثله ما روى : ان رجلا أتى رسول الله (ص) فقال يا رسول الله ! نافقت ، فقال : « والله ما نافقت ! ولو نافقت ما اتيتني تعلمني ،ما الذي رابك ؟ أظن ان العدو الحاضر أتاك ، فقال : مَن خلقك؟ فقلتَ : الله تعالى خلقني ، فقال لك : من خلق الله ؟ فقال : أي والذي بعثك بالحق لكان كذا ، فقال: ان الشيطان أتاكم من قبل الاعمال فلم يقو عليكم ، فأتاكم من هذا الوجه لكي يستزلكم ، فاذا كان كذلك فليذكر أحدكم الله وحده ». وقريب منه ما روى : ان رجلا كتب الى ابي جعفر (ع) يشكو اليه لما يخطر على باله ، فأجابه في بعض كلامه : « ان الله ان شاء ثبتك فلا يجعل لابليس عليك طريقا . قد شكى قوم النبي (ص) لما يعرض لهم لان تهوى بهم الريح أو يقطّعوا أحب اليهم من ان يتكلموا به ، فقال رسول الله : أتجدون ذلك ؟ قالوا : نعم ! قال: والذي نفسي بيده ان ذلك لصريح الايمان ، فاذا وجدتموه فقولوا : آمنا بالله ورسوله ولا حول ولا قوة الا بالله » وسئل الصادق(ع) عن الوسوسة

وان كثرت ، فقال : « لا شيء فيها ، تقول لا اله الا الله » • وعن جميل بن دراج قال : قلت للصادق (ع) : انه يقع في قلبي أمر عظيم ، فقال : « قل لا اله الا الله » ، قال جميل : فكلما وقع في قلبي قلت : لا اله الا الله ، فيذهب عني •

ومما يدل على عدم المؤاخذة عليه وعلى الميل وهيجان الرغبة اذا لم يكونا داخلين تحت الاختيار ما روى : انه لما نزل قوله تعالى :

« وان تبدوا ما فى انفسكم او تخفوه يحاسبكم به الله » (٥٨) •

جاء ناس من الصحابة الى رسول الله (ص) وقالوا : كلفنا ما لا نطيق ، ان أحدنا ليحدث نفسه بما لا يحب ان يثبت في قلبه ، ثم يحاسب بذلك؟ فقال رسول الله (ص) : « لعلكم تقولون كما قال بنو اسرائيل : سمعنا وعصينا ، قولوا : سمعنا وأطعنا ، فقالوا : سمعنا وأطعنا ، فأنزل الله الفرج بعد سنة بقوله تعالى :

« لا يكلف الله نفسا الا وسعها » (٥٩) •

وما روى عن امير المؤمنين عليه السلام في قوله سبحانه :

« وان تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » : « ان هذه الآية عرضت على الانبياء والامم السابقة فأبوا أن يقبلوها من ثقلها ، وقبلها رسول الله (ص) وعرضها على أمته فقبلوها • فلما رأى الله عز وجل منهم القبول على أنهم لا يطيقونها ، قال : أما اذا قبلت الآية بتشديدها وعظم ما فيها وقد عرضتها على الامم السابقة فأبوا أن يقبلوها وقبلتها امتك ، فحق على أن أرفعها عن أمتك ، وقال عز من قائل : لا يكلفه الله نفسا الا وسعها • وما روى عن النبي (ص) انه قال : « وضع على امتي تسع خصال : الخطأ ، والنسيان ، وما لا يعلمونه ، وما لا يطيقونه ، وما اضطروا عليه ، وما استكرهوا عليه ، والطيرة ، والوسوسة في التفكر في الخلق ، والحسد ما لم يظهر بلسان أو يد » • وما روى أنه سئل الصادق (ع) عن رجل يجيء منه الشيء على حد الغضب يؤاخذه الله تعالى ؟ فقال (ع): «ان الله تعالى أكرم من ان يستغلق

---

(٥٨) البقرة ، الآية : ٢٨٤ .
(٥٩) البقرة ، الآية : ٢٨٦ .

على عبده » ، والمراد من الغضب فيه : الغضب الذي سلب الاختيار .

وبالجملة : القطع حاصل بعدم المؤاخذة والمعصية على ما لا يدخل تحت الاختيار من الخواطر والميل وهيجان الرغبة ، اذ النهي عنها مع عدم كونها اختيارية تكليف بما لا تطاق ، وان لم ينفك عن احداث خباثة في النفس.

وأما[٦٠] على انه يكتب سيئة على الاعتقاد والهمّ بالفعل والتصميم عليه مع تركه لمانع لا لخوف من الله ، فهو ان كلا من الاعتقاد والهم بالمعصية فعل من الافعال الاختيارية للقلب ، وقد ثبت في الشريعة ترتب الثواب والعقاب على فعل القلب اذا كان اختياريا ، قال الله سبحانه :

« ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » (٦١) .

وقال سبحانه :

« لايؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم »(٦٢).

وقال رسول الله (ص) : « انما يحشر الناس على نياتهم ». وقال (ص): « اذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار » ، قيل : يا رسول الله ! هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : « لانه اراد قتل صاحبه » . وقال (ص) : « لكل امرىء ما نوى » . والآثار الواردة في ترتب العقاب على الهم بالمعصية كثيرة ، واطلاقها محمول على غير صورة الترك خوفا من الله لما يأتي من انه في هذه الصورة تكتب بها حسنة ، وكيف لا يؤاخذ على اعمال القلوب مع ان المؤاخذة على الملكات الردية من الكبر والعجب والرياء والنفاق والحسد وغيرها قطعي الثبوت من الشرع ، مع كونها افعالا قلبية، وقد ثبت في الشريعة ان من وطأ امرأة ظانا انها اجنبية كان عاصيا وان كانت زوجته .

وأما على انه يكتب حسنة على الترك بعد الهم خوفا من الله ، فما روى عن النبي (ص) انه قال : « قالت الملائكة : رب ذاك عبدك يريد ان يعمل سيئة وهو أبصر ، فقال : راقبوه فان عملها فاكتبوها عليه بمثلها ، وان تركها فاكتبوها له حسنة انما تركها لاجلي » . وما روى عن الامام محمد

(٦٠) اي واما الدليل على انه يكتب سيئة .
(٦١) بني اسرائيل ، الآية : ٣٨ .
(٦٢) البقرة ، الآية : ٢٢٥ .

ابن علي الباقر (ع) : « ان الله تعالى جعل لآدم في ذريته من همّ بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة ، ومن هم بحسنة وعملها كتبت له عشرا ، ومن هم بسيئة ولم يعملها لم تكتب عليه سيئة ، ومن هم بها وعملها كتبت عليه سيئة » ، وقوله : «لم يكتب عليه» محمول على صورة عدم العمل خوفا من الله ، لما تقدم من انه ان لم يعملها لمانع غير خوف الله كتبت عليه سيئة. وما روى عن الصادق (ع) انه قال : « ما من مؤمن الا وله ذنب يهجره زمانا ثم يلمّ به وذلك قوله تعالى :

« الا اللمم » (٦٣) .

وقال : « واللمم : الرجل يلم بالذنب فيستغفر الله منه » ، وقد وردت بهذا المضمون اخبار آخر .

وصل

الخاطر المحمود والتفكر

قد عرفت ان ضد الوسوسة الخاطر المحمود المستحسن شرعا وعقلا، لأن القلب اذا كان مشغولا بشيء لا يمكن أن يشغله شيء آخر ، فاذا كان مشغولا بشيء من الخواطر المحمودة لا سبيل للخواطر المذمومة اليه ، وربما كان للغفلة التي هي ضد النية تقابل لكل من الوسوسة والخاطر المحمود ، اذ عند الغفلة لا يتحقق شيء منهما ، الا ان خلو القلب عن كل نية وخاطر بحيث يكون ساذجا في غاية الندرة ، على ان الظاهر ان مرادهم من الغفلة خلو الذهن من القصد الباعث وان كان مشغولا بالوساوس الباطلة ، كما يأتي تحقيقه.

ثم الخاطر المحمود ان كان قصدا ونية لفعل جميل معين كان متعلقا بالقوة التي يتعلق هذا الفعل بها ، والا كان راجعا اما الى الذكر القلبي أو الى التدبر في العلوم والمعارف والتفكر في عجائب صنع الله وغرائب عظمته، أو الى التدبر الاجمالي الكلي فيما يقرب العبد الى الله سبحانه او ما يبعده عنه تعالى ، وليس وراء ذلك خاطر محمود متعلق بالدين أو غير ذلك من الخواطر المذمومة المتعلقة بالدنيا .

واذا عرفت ذلك فاعلم : انه من معالجات مرض الوسواس معرفة شرافة

---

(٦٣) النجم ، الآية : ٣٢ .

ضده الذي هو الخاطر المحمود ، ليبعثه على المواظبة عليه الموجبة لدفع الوساوس. وفضيلة الخواطر المحمودة الباعثة على الافعال الجميلة يأتي ذكرها في باب النية ، وربما يعلم من بيان فضيلة نفس هذه الافعال ايضا كما يأتي ذكرها في باب النية ، وفضيلة الذكر القلبي يعلم في باب مطلق الذكر .

أما بيان شرافة التفكر وبعض مجاريه من أفعال الله تعالى والاشارة الى كيفية التفكر فيها وفيما يقرب العبد الى الله تعالى وفيما يبعده عنه ، فلنشر الى مجمل منه هنا لتعلقه بالقوة النظرية ، فنقول :

التفكر : هو سير الباطن من المباديء الى المقاصد ، والمباديء : هي آيات الآفاق والأنفس ، والمقصد : هو الوصول الى معرفة موجدها ومبدعها والعلم بقدرته القاهرة وعظمته الباهرة ، ولا يمكن لاحد أن يترقى من حضيض النقصان الى أوج الكمال الا بهذا السير ، وهو مفتاح الاسرار ومشكاة الانوار ، ومنشأة الاعتبار ومبدأ الاستبصار ، وشبكة المعارف الحقيقية ومصيدة الحقائق اليقينية ، وهو أجنحة النفس للطيران الى وكرها القدسي ، ومطية الروح للمسافرة الى وطنها الاصلي ، وبه تنكشف ظلمة الجهل واستاره وتنجلي أنوار العلم وأسراره ، ولذا ورد عليه الحث والمدح في الآيات والأخبار كقوله سبحانه :

أولم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السموات والارض وما بينهما الا بالحق (٦٤) .

وقوله تعالى :

« أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شيء »(٦٥).

وقوله تعالى :

« فاعتبروا يا أولى الابصار » (٦٦) .

وقوله تعالى :

« قل سيروا فى الارض فانظروا كيف بدأ الخلق » (٦٧) .

(٦٤) الروم ، الآية : ٨ .
(٦٥) الاعراف ، الآية : ١٨٥ .
(٦٦) الحشر ، الآية : ٢ .
(٦٧) العنكبوت ، الآية : ٢٥ .

وقولـــه تعالى :

« ان فى خلق السموات والارض لآيات لاولى الالباب » (٦٨) .

وقولـــه تعالى :

« وفى الارض آيات للموقنين . وفى انفسكم افلا تبصرون » (٦٩) .

وقولـــه تعالى :

« الذين يذكرون الله قيــاما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والارض » (٧٠) .

وقول رسول الله (ص) : « التفكر حياة قلب البصير » ، وقوله (ص) « فكرة ساعة خير من عبادة سنة » ، ولا ينال منزلة التفكر الا من خصه الله عز وجل بنور التوحيد والمعرفة ، وقوله (ص) : « أفضل العبادة ادمان التفكر في الله وفي قدرته »[٧١] ، ومراده من التفكر في الله التفكر في قدرته وصنعه وفي عجائب افعاله ومخلوقاته وغرائب آثاره ومبدعاته ، لا التفكر في ذاته ، لكونه ممنوعا عنه في الاخبار ، ومعللا بأنه يورث الحيرة والدهشة واضطراب العقل ، وقد ورد : « اياكم والتفكر في الله ، ولكن اذا أردتم ان تنظروا الى عظمته فانظروا الى عظيم خلقه » . واشتهر عن النبي (ص) انه قال: تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله ، فانكم لن تقدّروا قدره » وقول أمير المؤمنين (ع) : « التفكر يدعو الى البر والعمل به » ، وقوله عليه السلام : «نبه بالتفكر قلبك ، وجاف عن الليل جنبك، واتق الله ربك»، وقول الباقر (ع): « بإجالة الفكر يُستدر الرأي المعشب »، وقول الصادق عليه السلام : « الفكر مرآة الحسنات وكفارة السيئات ، وضياء للقلوب وفسحة للخلق ، واصابة في صلاح المعاد ، واطلاع على العواقب، واستزادة في العلم ، وهي خصلة لا يعبد الله بمثلها » ، وقول الرضا (ع) : « ليس العبادة كثرة في الصلاة والصوم، انما العبادة التفكر في أمر الله عز وجل».

---

(٦٨) آل عمران ، الآية : ١٩٠ .
(٦٩) الذاريات ، الآية : ٢٠ — ٢١ .
(٧٠) آل عمران ، الآية ١٩١ .
(٧١) روى هذه الاحاديث فى الكافى فى (باب التفكر) عن أبي عبدالله — عليه السلام — كما هنا .

تكمـلة

مجاري التفكر في المخلوقات

الموجودات بأسرهامجاري التفكر ومطارح النظر ، اذ كل ما في الوجود سوىواجب الوجود فهو من رشحات وُجوده وآثار فيضه وجوده ، وكل موجود ومخلوق من جوهر أو عرض مُجرد أو مادي ، فلكي أو عنصري، بسيط أو مركب ، فعل الله وصنعه ، وما من ذرة من ذرات العالم الا وفيها ضروب من عجائب حكمته وغرائب عظمته ، بحيث لو تشمر عقلاء الاقطار وحكماء الامصار مدى الاعصار لاستنباطها ، انقضت اعمارهم دون الوقوف على عشر عشيرها وقليل من كثيرها .

ثم ان الموجودات المخلوقة منقسمة الى ما لا يعرف أصله فلا يمكننا التفكر فيه ، والى ما يعرف أصله ومجمله من دون معرفة تفاصيله فيمكننا التفكر في تفصيله لتزداد لنا معرفة وبصيرة بخالقه . وهو الى ما لا يدرك بحس البصر ويسمى بـ (الملكوت) ، كالملائكة والجن والشياطين وعوالم العقول والنفوس المجردة ، ولها أجناس وطبقات لا يحيط بها الا موجدها ، والى ما يدرك به ، وله أجناس ثلاثة : عالم السماوات المشاهدة بكواكبها ونجومها ودورانها في طلوعها وغروبها ، وعالم الارض المحسوسة ببحارهـا وجبالها ووهادها وتلالها ومعادنها وانهارها ونباتهـا واشجارها وحيوانهـا وجمادها ، وعالم الجو المدرك بسحبهوغيومه وأمطارهوثلوجه وشهبه وبروقه ورياحه ورعوده، وكل منهذه الاجناس الثلاثة ينقسم الى انواع، ويتشعب كل نوع الى أقسام وأصناف غير متناهية ، مختلفة في الصفات والهيئات ، واللوازم والآثار والخواص ، والمعاني الظاهرة والباطنة ، وليس شيء منها الا وموجده هو الله سبحانه ، وفي وجوده وحركته وسكونه حكم ومصالح لا تحصـى .

وكل ذلك مجارى التفكر والتدبر لتحصيل المعرفة والبصيرة بخالقهـا الحكيم وموجدها القيوم العليم ، اذ كلها شواهد عدل وبينات صدق على وحدانيته وحكمته وكمال كبريائهوعظمته ، فمن قدم قدم حقيقته ، ودار عالم الوجود وفتح عين بصيرته ، وشاهد مملكة ربه الودود ، لظهر له في

كل ذرة من ذرات الخلق عجائب حكمة وغرائب قدرة ، بهر منها عقله ووهمه، وحسر دونها لبه وفهمه .

ثم لا ريب في ان طبقات العوالم المنتظمة المرتبة على النحو الاصلح والنهج الاحسن بأمر موجدها الحكيم ومدبرها العليم ، مبتدأة في الصدور من الاشرف فالاشرف ، حتى ينتهي الى أسفل العوالم وأخسها ، وهو عالم الارض بما فيه ، وكل عالم أسفل لا قدر له بالنسبة الى ما فوقه ، فلا قدر للارض بالنظر الى عالم الجو ، ولا للجو بالقياس الى عالم السماوات ، ولا للسماوات بالنسبة الى عالم المثال ، ولا للمثال بالنظر الى عالم الملكوت ، ولا للملكوت بالقياس الى الجبروت ، ولا للجميع بالنسبة الى ما لا سبيل لنا الى دركه تفصيلا واجمالا من عوالم الالوهية ، كما ظهر لعلماء الطبيعة وأهل الرصد والهندسة ، ووضح لارباب المكاشفة والعرفان واصحاب المشاهدة والعيان .

ثم أخس العوالم الذي عرفت حاله ــ أعني الارض ــ لا قدر لما على ظهرها من الحيوان والنبات والجماد ، بالنظر الى نفسها ، ولذا يفسد من أدنى تغير لها جل ما عليها ، ولكل جنس مما عليها أنواع وأقسام واصناف غير متناهية . وأضعف انواع الحيوان البعوضة والنحل ، وأشرف انواعه الانسان . فنحن نشير الى نبذة يسيرة من الحكم والعجائب المودعة فيها ، وكيفية التفكر فيها ، ليقاس عليها البواقي اجمالا . فان بيان مجاري التفكر بأسرها في حيز المحال ، وما يمكن منه خارج عن حيطة الضبط والتدوين ، ولذا ترى ان البارعين من الحكماء والفائقين من أجله العرفاء بذلوا وسعهم في بيان مجاري التفكر ومطارحه وشرح مجال النظر ومسارحه ، فسطروا فيه الاساطير وملأوا منه الطوامير ، وخاضوا في غمرات بحار الافكار وغاصوا في تيار لجج الانظار، ومع ذلك لم يعودوا بالنظر الى ما هو الواقع الا صفر اليدين ورجعوا آخر الامر (بخفي حنين) . ونحن لو تعرضنا لشرح ما يمكن لنا دركه من الحكم والغرائب المودعة في عضو واحد من اعضائها على التفصيل ، لخرجنا عن وضع الكتاب ، وارتكبنا ما يمل الناظرين من الاطناب ، فنشير اجمالا الى بعض ما فيها من الحكم والعجائب ، تنبيها للطالبين على كيفية التفكر في الصنائع الالهية ، فنقول :

أما (البعوض) فانظر كيف خلقه الله على صغر قدره على شكل الفيل الذي هو أعظم الحيوانات ، اذ خلق له خرطوما كخرطومه ، وخلق له مع صغره جميع الاعضاء التي خلقها للفيل بزيادة جناحين ، فقسَّم اعضاءه الظاهرة فأنبت جناحيه وأخرج يديه ورجليه ، وشق سمعه وبصره ، ودبر في باطنه اعضاء الغذاء ، وركب فيها من القوى الغاذية والجاذبة والدافعة والماسكة والهاضمة ما ركب في الحيوانات العظيمة — كما يأتي في الانسان — ثم هداه الى غذائه الذي هو دم الانسان وغيره من الحيوانات ، فأنبت له آلة الطيران الى الانسان ، وخلق له الخرطوم الطويل وهو محدد الرأس ، وهداه الى الامتصاص من مسام بشرة الانسان حتى يضع خرطومه في واحد من مسامه ، ويغرز فيه ويمص الدم ويتجرعه ، وخلق خرطومه — مع دقته — مجوفا حتى يجري فيه الدم الصافي الرقيق وينتهي الى باطنه وينتشر في معدته وفي سائر اعضائه ، وعرَّفه ان الانسان يقصده بيده فعلمه حيلة الهرب ، وخلق له السمع الذي يسمع به خفيف حركة اليد مع كونها بعيدة منه ، فيترك المص ويهرب ، واذا سكنت اليد عاد ، وخلق له حدقتين حتى يبصر مواضع غذائه فيقصده مع صغر حجم وجهه . ولما كانت حدقة كل حيوان صغيرة بحيث لا يحتمل الاجفان لصغره ، وكانت الاجفان مصقلة لمرآة الحدقة عن القذى والغبار ، خلق للبعوض والذباب وغيرهما من الحيوانات الصغيرة يدين ليمسح بهما حدقتيه ويطهرهما عن الغبار والقذى ، او لا ترى الذباب انه على الدوام يمسح حدقتيه بيديه ؟ . وأما الانسان وغيره من الحيوانات العظيمة خلق لحدقتيه الاجفان حتى ينطبق أحدهما على الاخر وأطرافهما حادة ، فيجمع الغبار الذي يلحق الحدقة ويرميها الى اطراف الاهداب . فهذه لمعة يسيرة من عجائب صنع الله فيه ، وفيها من العجائب الظاهرة والباطنة ما لو اجتمع الاولون والآخرون على الاحاطة بكنهها عجزوا عن حقيقتها .

أما «النحل» — فانظر كيف أوحى الله تعالى اليها حتى اتخذت :

« من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون » (٧٢) .

واستخرج من لعابها الشمع والعسل ، وجعل أحدهما ضياء والآخر

---

(٧٢) النحل ، الآية : ٦٨ .

شفاء . وانظر في عجائب أمرها في تناولها الازهار والانهار واجتنابها عن النجاسات والاقذار ، وفي طاعتها وانقيادها لواحد من جملتهم ، وأكبرهم شخصا،وهو أميرهم.وانظر كيف علّم الله أميرهمان يحكم بالعدل والانصاف بينهم ، حتى انه ليقتل على باب النفذ كل ما وقع منها على نجاسة . ثم انظر الى بناء بيوتها من الشمع واختيارها من جملة الاشكال المسدس ، فلا يبنى مستديرا ولا مربعا ولا مخمسا ، بل اختار المسدس لخاصية يقصر عن دركها أفهام المهندسين ، وهو ان أوسع الاشكال وأجودها المستدير ، ثم ما يقرب منه ، فان المربع تخرج منه زوايا ضايعة ، وشكل النحل مستدير مستطيل، فترك المربع حتى لا تضيع الزوايا فتبقى فارغة ، ولو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضايعة ، لان الاشكال المستديرة اذا اجتمعت لم تجتمع متراصة ، ولا شكل في الاشكال ذوات الزوايا يقرب في الوسعة والاحتواء من المستدير ثم تتراص الجملة منه بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فرجة الا المسدس ، فهذه خاصية هذا الشكل . فانظر كيف علّم الله النحل مع صغر جرمها لطفا بها وعناية بوجودها ليهنأ عيشها ، فسبحانه ما أعظم شأنه . وما ذكرناه قدر يسير من عجائب الحكمة المودعة فيها ، وما فيها من العجائب الظاهرة والباطنة مما لا يمكن الاحاطة به .

وأما « الانسان » ـ فنقول : لا ريب في أن أول كل انسان قطرة من ماء قذرة ، لو خليت بنفسها لاتنها الهواء وأفسدها ، وكانت متفرقة في جميع اجزاء بدن الذكر ، فالقى الله بلطائف حكمته محبة بينه وبين الانثى وقادهما بسلاسل الشهوة الى الاجتماع، واستخرج هذه النطفة المنتنة بحركة الوقاع ، واعطى لآلة الرجل قوة دافعة ، ولرحم الانثى قوة جاذبة ، حتى جذبتها من فم الاحليل الى نفسها ، وامتزجت بمني الانثى بحيث صارتا واحدة ، واستقرت في الرحم ، وجعل مبدأ عقد الصورة في مني الذكر ، ومبدأ انعقادها في مني الانثى ، فهما بالنظر الى الجنين كالانفحة واللبن بالقياس الى الجبن ، والحق ان لكل من المنيين القوة العاقدة والمنعقدة ، الا ان الاولى في الذكوري والثانية في الانوثي أقوى ، والا لم يتحدا شيئا واحدا ، ولم ينعقد الذكوري حتى يصير جزأ من الولد . فلو كان مزاج

الانثى ذكوريا كما في النساء الشريفة النفوس القوية القوى ، وكان مزاج كبدها حارا ، كان المني المنفصل عن كليتها اليمنى أحر شيرا من المنفصل عن كليتها اليسرى ، فاذا اجتمعا في الرحم ،وكان مزاج الرحم قويا في الامساك والجذب، قام المنفصل عن الكلية اليمنى مقام مني الذكر في شدة قوة العقد، والمنفصل من اليسرى مقام مني الانثى في قوة الانعقاد ، فيختلق الولد ، وبهذا تصحح ولادة مريم البتول عليها السلام حيث تمثل لها روح القدس بَشَرا سَوِيا حسن الصورة ، فمع تحقق ما ذكر لها تأيدت به — أي بروح القدس —وسرى اثر اتصالها به الى الطبيعة والبدن،وتغير مزاجها ومد جميع القوى في أفعالها بالمدد الروحاني، فصارت أقدر على أفعالها بما لا ينضبط بالقياس

ثم ابتدأ خلق الجنين في استقرار الماءين في الرحم ، وشبه بالعجين اذا ألصق بالتنور ، فغيره الله تعالى سبحانه عن حاله قليلا ، كالبذر اذا نبت من الارض، فصارت نطفة ، فاستجلب دم الحيض من أعماق العروق اليها ، حتى ظهرت فيها نقط دموية منه وصارت علقة . ثم أظهر فيها حمرة ظاهرة حتى صار شبيها بالدم الجامد، وهيج فيها ريحا حارة فصارت مضغة . ثم أظهر فيها رسوم الاعضاء وشكلها وصورها ، فأحسن تصويرها ، فقسم أجزاءها المتشابهة الى اجزاء مختلفة من العظام والاعصاب والعروق والاوتار واللحم والشحم

ثم ركب الاعضاء الظاهرة والباطنة من اللحم والعروق والاعصاب ، فدور الرأس ، وشق البصر والسمع والفم والانف وسائر المنافذ ، ومد اليد والرجل ، وقسم رؤوسها بالاصابع وقسم الاصابع بالانامل ، وخلق كل واحد من القلب والدماغ والكبد والطحال والمعدة والرئة والرحم والمثانة والامعاء وغيرها من الاعضاء على شكل مخصوص ، وجعل لكل واحد منها عملا معينا وفعلا مخصوصا ،وجميع ذلك يحصل للجنين وهو في ظلمة الاحشاء محبوس وفي دم الحيض مغموس ، منضم في صرة ، كفاه على خديه ، ومرفقاه على حقويه ، جمعت ركبتاه على صدره وذقنه على رأس ركبتيه ، وهو كشبه نائم ، سرته متصلة بسرة أمه يمتص منها الغذاء ، ووجهه الى وجهها ان كان انثى والى ظهرها ان كان ذكرا .فتتوارد عليه تلك النقوش العجيبة والتصويرات الغريبة من غير خبر منها له وللرحم ، ولا للاب والام ، ولا يرى داخل

النطفة أو الرحم ولا خارجهما نقاش يصل اليه أثر نقشه، فكأن الجنين بلسان حاله ينادي قلوب العارفين بنغمات تهيجها وترقصها : تصوروني في ظلمة الاحشاء مغموسا بدم الحيض ، كيف يظهر التخطيط والتصوير على وجهي فينقش النقاش اجفاني وحدقتي ، ويصور المصور خدي وشفتي ، ولا يزال يظهر عليّ نقش بعد نقش وصورة بعد صورة ، ولا أرى نقاشا ولا مصورا، او لا تتعجبون من هذا النقاش الذي لا يحتاج الى تماس ومزاولة ولا يفتقر الى آلة ومباشرة ، أو لا تنتقلون من عجيب صنعه الى عظيم قدرته وجسيم عظمته ، أو ليس لكم أعين بها تبصرون أو قلوب بها تفقهون ، فكيف تنظرون الى تكون اعضائي وعجائبها ولا تعتبرون ؟!

فانظر الآن — يا حبيبي — في نبذ من العجائب والحكم المودعة في بعض من هذه الاعضاء ، فتأمل في (العظام) التي هي أجسام قوية صلبة كيف خلقها من نطفة سخيفة رقيقة ، وأحكمها وصلبها في الرحم بين المياه ، مع ان صلابة المائع في الماء محال عادة ، وجعلها قواما ودعامة للبدن، ولذا صلبها وأحكمها لئلا تنكسر عند الحركات العنيفة ، وقدرها مقادير مختلفة وشكلها على أشكال متفاوتة، ففيها صغير وكبير وطويل وقصير ومستقيم ومستدير ودقيق وعريض ومجوف ومصمت ، على ما اقتضته الحكمة والمصلحة ، ولما كان الانسان محتاجا الى الحركة ، تارة بجملة بدنه، وتارة ببعض أعضائه ، لم يخلقه من عظم واحدا ، بل جعل له عظاما كثيرة بينها مفاصل ، حتى تتيسر له الحركة بجملة بدنه وببعض أعضائه ، وقدر شكل كل واحد منها على وفق الحركة المطلوبة بها ، وما لم تكن فيه فائدة سوى كونه عمادا للبدن خلقه مصمتا ، وان جعل فيه المسام والخلل التي لا بد منها ، وما يحتاج اليه للحركة ايضا ، زاد في تجويفه ليكون أخف ، وجعل تجويفه في الوسط واحدا لئلا يحتاج في وصول الغذاء اليه الى التجاويف والخلل المتفرقة ، فيصير رخوا ، بل صلبه مع تجويفه ، لئلا ينكسر عند الحركات العنيفة ، وما كانت الحاجة فيه الى الوثاقة أشد جعل تجويفه أقل ، وما كان الاحتياج فيه الى الخفة أكثر جعل تجويفه أزيد ، وجمع غذاءه وهو المخ في حشوه ليغذوه ويرطبه دائما ، لئلا يتفتت بتجفيف الحركة .

ثم وصل مفاصلها وربط بعضها بالبعض بأوتار أنبتها من أحد العظمين

وألصقها بالآخر ، كالرباط ، وخلق في أحدهما زوائد خارجة منه وفي الآخر حفرا غائصة فيه موافقة لشكل الزوائد ، ليدخل فيها وينطبق عليها ، ولذلك لو أراد الانسان أن يحرك جزأ من بدنه دون سائر اعضائه لم يتعسر عليه، ولولا المفاصل لتعذر عليه ذلك .

ثم وسط بين العظام الصلبة واللحوم الرخوة (الغضاريف) وهي من العظم الين ومن اللحم أصلب ، ليحسن اتصال الصلب باللين ، فلا يتأذى منه ، وخصوصا عند الضربة والضغطة ، وليحسن به مجاورة المفاصل المتحاكة ، فلا تتراض لصلابتها .

ثم انظر — يا أخي — في (العروق) وما فيها من العجائب والحكم ، فانها خلقت على نوعين : (احدهما) الشرايين : وهي العروق الضوارب المتحرك، ومنبتها القلب.ولما كان القلب ينبوع الحياة ومنبع الروح والحرارة الغريزية خلقت هذه العروق مبتدأة منه منتشرة في سائر الاعضاء لايصال الروح والحياة منه اليها ،ولها حركتان ، انقباضية يقبض بها الابخرة الدخانية عن القلب، وانبساطية يجذب بها صافي النسيم اليه ، ليستريح ، ولولا هذا القبض والجذب لاختنق القلب بالبخار الدخاني ، وخلقت ذات صفاقين لئلا تنشق بقوة حركتها ولئلا يتحلل ما فيها من الروح ، وجعل الصفاق الداخل أصلب لانه الملاقي لقوة الحرارة الغريزية ومصادمة حركة الروح ،فاوجبت الحكمة الالهية زيادة احكامها حفظا لها عن الانشقاق ، لقوة حركة الروح، وتقوية لمحل الحرارة الغريزية ، لئلا يتحلل شيء منها بتحلل محلها . وواحد من هذه الشرايين ، ويسمى الشريان الوريدي ، لما كان حاملا لغذاء الرية لان غذاءها من القلب ، فيغوص فيها ويصير شعبا ،فخلق لذلك ذا صفاق واحد لئلا يزاحم بصلابته الرية لرخاوتها ولينها ، مع عدم مصادمة لحمها له عند الحركة لكثرة لينه ورخاوته . فلم تكن حاجة الى زيادة استحكامه ، على أن الرية تحتاج الى الغذاء على سبيل الترشح بسرعة وسهولة ، وكثرة الصلابة منافية لذلك .(وثانيهما) العروق الساكنة: وتسمى الاوردة ، وشأنها جذب الغذاء من المعدة الى الكبد ومنه الى سائر الاعضاء ، وهي ذات صفاق واحد لانها ساكنة ، فلا يخشى انشقاقها . وجعل واحد منها ويسمى الوريد

الشرياني ذا صفاقين لنفوذه في التجويف الايمن من القلب ، فكان اللازم زيادة وثاقته ، لئلا يعتريه انشقاق بقوة حركة القلب وصلابته ، وهو الذي يأتي بغذاء الرية الى القلب ، واذا خلص عن القلب وجاوزه يأخذ الشريان الوريدي منه ويذهب به الى الرية .

فانظر — يا اخي — الى عجيب حكمة ربك ، فان حامل غذاء الرية ما دام نافذا في القلب ومصادما لحركته خلق صلبا ذا صفاقين ، واذا خلص عنه الى الرية التي لا تتحمل الصلب جعل رخوا ذا صفاق واحد ، فسبحانه ما أجل شأنه وأعظم برهانه .

ثم تفكر أيها المتفكر في (الرأس) وعجيب خلقه ، حيث ركبّه من عظام مختلفة الاشكال والصور ، والف بعضها الى بعض حتى استوت كرة كما تراه ، وجعله مجمع الحواس ، ولذا جعله مستديرا ، لان المستدير أبعد من الآفات بالقياس الى ذي الزاوية ، وأعظم مساحة منه مع تساوي احاطتهما ، وجعل استدارته الى طول ، لان منابت الاعصاب الدماغية موضوعة في الطول ، فلو لم يتسع منبتها لازدحمت وانضغطت ، وألف قحفه[٧٣] من ستة أعظم : اثنان بمنزلة السقف واربعة بمثابة الجدران ، ووصل بعضها ببعض بالدروز والشؤون ، وجعل الجدران أصلب من اليافوخ الذي هو السقف ، لان الصدمات عليها أكثر ، وتخلخل اليافوخ مما لا بد منه لخروج الابخرة المتحللة (وعدم ثقله على الدماغ)[٧٤] وفائدة الدروز أن تخرج منها الابخرة المتحللة في الدماغ لئلا يؤدي مكثها الى الصداع وغيره من الامراض الدماغية ، وجعل أصلب الجدران مؤخرها لانه غائب عن البصر فلا يحرسه فاحتاج الى زيادة وثاقه .

وخلق فيها الدماغ لينا دسما ، لتنطبع فيه المحسوسات بسهولة ، ولتكون الاعصاب النابتة منه لزجة لئلا تنكسر ، وجعل مزاجه رطبا باردا لتنفعل القوى المودعة فيه عن مدركاتها ، ولئلا يشتعل بالحرارة الحاصلة عن الحركات

(٧٣) القحف : العظم فوق الدماغ وما انفلق من الجمجمة فبان قال فى القاموس : « ولا يدعى قحفا حتى يبين أو ينكسر منه شيء »

(٧٤) هذه الجملة مطابقة لنسختنا الخطية والمطبوعة ، لكنها غير موجودة فى النسخة الخطية الاخرى .

الفكرية ، وجعل مقدمه الذي هو منبت الاعصاب الحسية ألين من مؤخره الذي هو منبتأعصاب الحركة ، لان الحركة لا تحصل الا بالقوة ، والقوة انما تحصل بالصلابة. ثم جلل الدماغ بغشاءين : (احدهما) رقيق لين ملاصق لجوهره ، و (ثانيهما) غليظ صلب ملاصق للقحف ، وهو مثقب بثقب كثيرة لاندفاع الفضول منه ، وانشعبت منه شعب دقاق تصعد من دروز القحف الى ظاهره ، ليتشبث بها هذا الغشاء بالقحف ولا ينفصل عنه ، وجعل بين جزئي الدماغ المقدم والمؤخر حجابا لطيفا ليحجب عن مماسة الالين بالاصلب فيتأذى منه ، وخلق تحت الدماغ بين الغشاء الغليظ والعظم نسيجه[٧٥] شبيهة بالشباك ، وقد تكونت من الشرايين الصاعدة من القلب والكبد الى الدماغ ، وقد فرشت هذه الشبكة تحت الدماغ ، ليبرد فيها الدم الشرياني والروح ، ويتشبه بالمزاج الدماغي بعد النضج ، ثم يتخلص الى الدماغ على التدريج ، ولولاه لم يصلح الدم الكبدي والروح القلبي لكثرة حرارتهما لتغذية الدماغ ، ولم يناسبا جوهره ، وجعل الفرج التي بين فروع هذه الشريانات محشوة بلحم غددي لئلا تبقى خالية ، ولتعتمد عليه تلك الفروع وتبقى على اوضاعها .

ثم لما كان الدماغ مبدأ الحس والحركة . ولم يكن لسائر الاعضاء حس وحركة بذاتها ، وكان اللازم ايصالهما منه اليهما ، ولم يكن ذلك ممكنا بدون واسطة في الايصال ، فخلق (الاعصاب) من جوهره ، ووصلها منه الى سائر الاعضاء من العظام وغيرها ، ليفيدها الدماغ بتوسطها حسا وحركة ، وليشد ويتقوى بها اللحم والبدن ، وايضا لم يجعلها متصلة بالعظم مفردة، بل بعد اختلاطها باللحم والرباط ، لئلا يتأذى من صلابته .

ثم لما كان نزول جميع الاعصاب التي يحتاج اليها من الدماغ موجبا لثقل الرأس وعظمه ، خلق الله من جوهر الدماغ أشبه شيء به وهو (النخاع) وجعل في أسفل القحف ثقبا وأخرجه منها ، وخصه بالعنق والصلب، واخرج منه كثيرا من الاعصاب المحتاج اليها الى الاعضاء . فالدماغ بمنزلة العين والينبوع للحس والحركة ، والنخاع بمثابة النهر العظيم الجاري منه

(٧٥) الموجود في نسختنا الخطية : « فسحة » بدل (نسيجة) .

والاعصاب كالجداول . والمنبع ألين من النهر والنهر الين من الجداول .

ثم انظر —يا حبيبي— كيف خلق (العين) وفتحها وأحسن شكلها ولونها وهيئتها ، ورتب لها سبع طبقات وثلاث رطوبات كل منها على شكل خاص ولون مخصوص ، لو تغير شيء منها عما عليه لاختل أمر الابصار ، وتأمل كيف أظهر في حدقتها التي بمقدار العدسة صورة السماء مع اتساع اكنافها وتباعد اقطارها ، وحماها بالاجفان ليسترها ويحفظها ويصقلها ، وجعلها وقاية لها يدفع بها الاقذاء عنها، ويمنعها عن وصول الغبار والدخان والشعاع اليها عند انطباقها ،وجعل الجفن الاسفل أصغر من الاعلى ، لان الاعلى يستر الحدقة تارة ويكشفها أخرى لتحركه ، وأما الاسفل فغير متحرك ، فلو زيد على هذا القدر يستر شيئا من الحدقة دائما ،ويجتمع فيه الفضول ولا تسيل.

ثم زين الاجفان بـ (الاهداب) ليمنع من الحدقة بعض الاشياء التي لا يمنعها الاجفان مع انفتاح العين — كما ترى عند هبوب الرياح التي يأتي بالاقذاء — فيفتح العين أدنى فتح ، وتتصل الاهداب الفوقانية بالسفلانية ، فيحصل شبه شباك ينظر من ورائه ، فتحصل الرؤية مع دفع القذى .

ثم انظر كيف شق (الاذن) وأودعها ما يحفظ سمعها ويدفع الهوام عنها، وجعل ثقبها محاطة بصدفة مرتفعة لئلا تتأذى من البرد والحر وغيرهما مما يؤذى ، وليجتمع فيها الهواء المتحرك من الاصوات فينفذ فيها ويحرك الهواء الذي في داخلها ويموّجه — كما ترى من دوائر الماء اذا وقع فيه شيء — حتى يصل الى العصبة المفروشة على الصماخ التي فيها قوة السمع ، فيدرك الصوت . وجعل في منفذها تجويفات واعوجاجات كثيرة لتكثر حركة ما يدب فيها ويطول طريقها ، فيتنبه صاحبها اذا قصدته دابة مؤذية فيدفع شرها وخلق فيها جرما نتنا عفنا لتنفر عنه الدواب المؤذية ولا تدخلها .

ثم تأمل كيف زين الوجه بـ (الحاجبين) وحسنهما بدقة الشعر وأستقواس الشكل .

وزين وجه الرجل بـ (اللحية) ووجه المرأة بعدمها ، والمتأمل يعرف ان اللحية زين للرجل وشين للمرأة ، وهذا من عجائب الحكمة .

وزين الوجه برفع (الانف) من وسطه ، وحسن شكله وفتح منخريه، وأودع فيهما حاسة الشم ليستدل باستنشاق الروائح على مطاعمه وأغذيته ،

وليستنشق الهواء الطيب الصافي ، ويدفع الهواء الحار الدخاني ، ترويحا لقلبه ، وجعل له منخرين لتميل الفضلات النازلة من الدماغ غالبا الى أحدهما ، ويبقى الآخر مفتوحا ، فلا تسد طرق الاستنشاق بأسرها •

ثم أنظر الى (الفم) وعجائبه والى اللسان وغرائبه ، فانه سبحانه لعظيم قدرته وحكمته فتح الفم ، وأودعه اللسان وجعله ناطقا معربا عما في القلب ، ومكنه من التكلم باللغات المتخالفة وتقطيع الاصوات وأخراج الحروف المتباينة ، وجعل له قدرة على الحركة في مخارج مختلفة تختلف بها الحروف ليتسع طريق النطق بكثرتها • وخلق (الفكين) وركب فيهما الاسنان لتكون آلة للطحن والقطع والكسر ، فأحكم أصولها ، وحسن لونها ، ورتب صفوفها متساوية الرؤوس متناسقة الترتيب ، كالدرر المنظومة ، مختلفة الاشكال أختلاف الاغراض والمقاصد ، متفاوتة الاوضاع بتفاوت الغايات والفوائد ولما كان الطعام يحتاج تارة الى الكسر وتارة الى القطع وأخرى الى الطحن ، فقسم الاضراس الى عريضة طواحن كالاضراس ، والى حادة قواطع كالرباعيات ، والى مايصلح للكسر كالانياب • والاضراس التي في الفك الاعلى لما كانت معلقة جعل أصولها ثلاثة أو اربعة ، والتي في الفك الاسفل اكتفى في أصولها باثنين او ثلاثة لعدم الاحتياج ، وجعل لسائر الاسنان أصلا واحدا لعدم ثقل فيها • ثم جعل مفصل (الفكين) متخلخلا بحيث يتقدم الفك الاسفل ويتأخر حتى يدور على الفك الاعلى دوران الرحى ، وهو ثابت لايتحرك ، فيتم الطحن بذلك • فانظر في عجيب صنع الله في هذه الرحى حيث يدور الاسفل منها على الاعلى على خلاف سائر الارحية ، لدوران الاعلى منها على الاسفل • والحكمة في تحرك الاسفل دون الاعلى : ان الاعلى مجمع الدماغ والحواس ، فتحركه كان موجبا لاذيتهما وأضطرابهما ، وأيضا هو مفصل الرأس والعنق ، فلو تحرك لم يستحكم ، مع ان الوثاقة فيه لازمة • ثم لما كان مضغ الطعام محتاجا الى تحركه فيما تحت الاسنان ، فأعطى الله سبحانه قدرة اللسان على أن يطوف في جوانب الفم ويرد الطعام من الوسط الى الاسنان بحسب الحاجة • ولما كان الطعام يابسا فلم يمكن ابتلاعه الا بنوع رطوبة ، فخلق تحت اللسان عينا جارية يفيض منها اللعاب وينصب

بقدر الحاجة ، حتى يعجن به الطعام ويقدر على أبتلاعه .

ثم تفكر كيف خلق (الحناجر) وهيأها لخروج الاصوات ، وجعلها مختلفة الاشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة والطول والقصر وصلابة الجوهر ورخاوته ، حتى أختلفت بها الاصوات ، فلا يتشابه صوتان ، بل يظهر به بين كل صوتين فرق حتى يميز السامع أصوات آحاد الناس بمجرد سماعها في الظلمة والغيبة .

ثم مد (العنق) وجعله مركبا للرأس ، وركبه من سبع خرزات مجوفات مستديرات فيها تجويفات وزيادات ونقصان ، لينطبق البعض على البعض ، ولما كان أكثر منافعه في الحركة جعل مفاصله سلسلة ، ولم يجعل زوائدها المفصلية كبيرة كزوائد فقرات الصلب ، لتكون حركاته أسرع ، وتدارك تلك السلاسة بأعصاب وعضلات كثيرة محيطة به .

ثم انظر الى عجائب (المعدة) وآلاتها التي يتم بها الاكل ، فجعل سطح الفم متصلا بفم المعدة بحيث كأنهما سطح واحد ، حتى يحصل اولا نوع انهضام بالمضغ ، ثم هيأ (المرى) [٧٦] والحنجرة ، وجعل على رأسها طبقات تنفتح لاخذ الطعام ثم تنطبق وتنضغط حتى يهوى الطعام من دهليز المرى الى المعدة ، واذا ورد عليها لايصلح لان يصير عظما ولحما ودما على هذه الهيئة ، بل لابد أن ينطبخ انطباخا تاما تتشابه أجزاؤه ، فخلق الله المعدة على هيئة قدر يقع فيه الطعام وتنغلق عليه الابواب ، وخلق فيها حرارة صالحة للطبخ ، ومع ذلك جعلها محاطة من جوانبها الاربعة بالحرارة المنبجسة من الكبد والطحال والثرب ولحم الصلب ، فمن هذه الحرارات ينطبخ الطعام في المعدة وينهضم ، حتى يصير كيلوسا [٧٧] أي جوهرا سيالا ليشبه ماء الكشك [٨٧] الثخين .

ثم خلق الله بعظيم حكمته ورأفته لإيصال صفو ما طبخ في المعدة الى الكبد قسمين من العروق : (أحدهما) العروق المخلوقة في تحت المعدة المتصلة

---

(٧٦) هو الخرطوم المتصل بالاوداج الاربعة الى الحنجرة .

(٧٧) كلمة يونانية ، المراد منه هو الطعام المطبوخ فى المعدة طبخا ناقصا.

(٧٨) ماء الكشك : هو ماء الشعير .

بالمعاء المسماة بـ (ماساريقا) [٧٩] ، وجـعل لها فوهات كثيرة لينصب لطيف المطبوخ فيها ، و(ثانيهما) العرق المسمى بباب الكبد النافذ فيه بعد تفرقه بعروق شعرية ليفية منتشرة في اجزائه ، وجعل الماساريقا متصلة بباب الكبد فاذا انصب خالص الكيلوس في الماساريقا يوصله الى باب الكبد ، وينصب منه الى العروق الليفية المتفرقة في جوهر الكبد ، فتستولي قوة الكبد على هذا الكيلوس ، بحيث يلاقي كله كله ، ولذا يصير فعله فيه أشد وأسرع ، فيمتصه ويجذبه الى نفسه فيطبخه ويفيده الحرارة والحمرة ،حتى ينصبغ بلون الدم ،ومن هذا الطبخ يحصل شيء كالرغوة وهي (الصفراء) ، وشيء كالدودى وهو (السوداء) ، وشيء كبياض البيض وهو (البلغم) ، وهو كما يتكون من هذا الطبخ يتكون من الطبخ الاول ايضا ، وقد يصير شيء من هذا البلغم الى الكبد مع عصارة الطعام ، ويبقى المتصفي من هذه الجملة دما ناضجا ذا رطوبة مائية منتشرة في العروق الشعرية ، فلو بقيت الصفراء والسوداء والبلغم والمائية مختلطة بالدم ولم تنفصل عنه لفسد مزاج البدن ، فخلـق الله بحكمته الكليتين والمرارة والطحال ، وجعل لكل منهما عنقا ممدودا في الكبد ، وجعل عنقي الآخرين داخلا في تجويف الكبد ، ولم يجعل عنقى الكليتين داخلا في تجويفه ، بل جعلهما متصلين بالعروق الطالعة من حدبـة الكبد حتى يجذبا مائيته بعد الطلوع من العروق الدقيقة التي في الكبد ، اذ لو اجتذبت قبل ذلك لغلظت ولم تخرج بسهولة عن العروق الدقيقة الشعرية.

ثم اذا انجذبت المائية من جانب محدب الكبد من طريق العروق الطالعة منه الى الكليتين ، حملت مع نفسها من الدم ما يكون صالحا كما وكيفـا لغذائهما فتتغذوان الدسومة والدموية من تلك المائية ، ويندفع باقيها الى المثانة ومنها الى الاحليل . وأما (المرارة) فتأخذ الرغوة الصفراوية من محدب الكبد بعنقها الذي اتصل بالكبد ، وتقذفها من منفذ آخر لها الى الامعاء ، ليلذعها بحدتها فتحركها على دفع الاثقال التي بقيت من الكيلوس بعد ذهاب صفوه الى الكبد ، فينضغط حتى تندفع منها الاثقال ، وبخروجها تخرج تلك الرغوة الصفراوية،وصفرتها لذلك . واما (الطحال) فيأخذ بعنقه المتصل

---

(٧٩) اي العروق تحت المعدة المتصلة بالمعاء . والكلمة يونانية .

بمحدب الكبد منه الرسوب السوداوي ويحيله حتى يكتسب قبضا وحموضة ثم يرسل منه في كل يوم شيئا الى فم المعدة لتتنبه بالجوع، فيحرك الشهوة بحموضته وقبضه ، ثم يخرج بخروج الثفل ايضا • وأما (الدم) فيتوجه الى الاعضاء ويتوزع عليها في شعب العرق الاجوف العظيم النابت من محـــدب الكبد ، فيسلك في الاوردة المتشعبة منه في جداول ، ثم في سواقي الجداول، ثم في رواضع السواقي ، ثم في العروق الشعرية الليفية ، ثم يترشـــح من فوهاتها في الاعضاء بتقدير خالق الارض والسماء •

ومما ذكر ظهر انه لو حدث بواحد من المرارة والطحال والكليتين آفة، فسد الدم وحصلت امراض الخلط الذي يجذبه من الكبد ، فلو عرضت آفة بالمرارة حدثت الامراض الصفراوية ، ولو حلت آفة بالطحال حصلت امراض سوداوية ، ولو لم تندفع المائية الى الكلى بعروض آفة لها حصل مرض الاستسقاء •

واما (البلغم) فما يتكون في الكبد أو يصير اليه مع عصارة الطعام انهضم فيه وصار دما ، وما بقى منه في الامعاء ولم ينحدر الى الكبد انغسل بمرة الصفراء التي شأنها تنقية الامعاء من الفضول بحرافتها وحدتها وسيلانها ، ومن البلغم ما يبقى في البدن لاحتياجه اليه في حركة المفاصل وترطيب الامعاء ومنه ما يخرج من الفم بالقيء والبصاق او ينحدر من الرأس الى الفم ويخرج منه بالتنخع•

ثم انظر — ياخي — في (القلب) وعجائبه ، حيث خلقه جسما صنوبريا وجعله منبعا لروح الحياة ، ولذا خلقه صلبا ليكون محفوظا من الواردات، وجعل هذا الروح جرما حارا لطيفا نورانيا شفافا ، وجعله مطيـــة للنفس وقواها، واناط به حياة الانسان وبقاءه ، فيبقى ببقائه ويفنى بفنائه ، فكل عضو يفيض عليه من سلطان نوره يكون حيا ، والا كان ميتا ، ولذا لـــو حصل بعضو سدة مانعة من نفوذه فيه بطل حسه وحركته • ويتوزع هذا الروح من القلب الذي هو منبعه الى سائر الاعضاء العالية والسافلة ، بوساطة سفراء الشرايين والاوردة •فما يصعد منه الى الدماغ بأيدي خوادم الشرايين ويعتدل بكسب البرودة من جوهر الدماغ ، ثم يفيض على الاعضاء المدركة

والمتحركة منبثا في جميع البدن ،يسمى (روحا نفسانيا) . وما ينزل بصحابة أمناء الاوردة الى الكبد الذي هو مبدأ القوى النباتية ، ومنه يتفرق الى سائر الاعضاء ، يسمى (روحا طبيعيا) . وقد خلق الله سبحانه هذا الروح من لطائف الامشاج الاربعة، كما خلق الاعضاء من كثائفها . وهذا الروح مثاله جرم نار السراج ، والقلب الذي محله كالمسرجة له ، والدم الاسود الذي في باطن القلب ويتكون هذا البخار اللطيف منه بمنزلة الفتيلة لـه ، والغذاء له كالزيت ، والحياة الظاهرةفي جميع أجزاء البدن بسببه كالضوء للسراج في جملة البيت ، وكما ان السراج اذا انقطع زيته انطفأ ، فسراج الروح أيضا ينطفيء مهما انقطع غذاؤه ، وكما ان الفتيلة قد تحترق وتصير رمادا بحيث لا تقبل الزيت ، فكذلك الدم الاسود الذي في باطن القلب قد يحترق بحيث لا يقبل الغذاء الذي تبقى الروح به ، كما لا يقبل الرمـاد الزيت قبولا تتشبث النار به ، وكما ان السراج ينطفيء تارة بسبب من داخل — كما ذكرنا — وتارة بسبب من خارج ، كهبوب ريح أو اطفاء انسان ، فكذلك انطفاء الروح تارة يكون بسبب من داخل وتارة بسبب من خارج، كالقتل، وكما ان انطفاء السراج هو منتهى وقت وجوده كذلك انطفاء الروح هو منتهى وقت وجود الانسان ، وهو أجله الذي أجّل له في أم الكتاب . وكما ان السراج اذا انطفأ أظلم البيت كله كذلك الروح اذا انطفأ أظـلم البدن كله ، وفارقته أنواره التي كان يسـتفيدها من الروح ، وهي انوار الاحساسات والقدرة والارادات وسائر ما يجمعها معنى الحياة .

ثم انظر — يا حبيبي — ان كنت من أهل اليقظة في (اليدين) وحكمتهما، حيث طولهما لتمتدا الى المقاصد ، وعرض الكف ووضع عليها الاصابـع الخمس ، وقسم كل اصبع بثلاث أنامل ، وجعل الابهام في جانب ، والبواقي في جانب ، ليدور عليها ، ولو اجتمع الاولون والآخرون على أن يستنبطوا بدقيق الفكر وجها آخر في وضع الاصابع سوى ما وضعت عليه من بعد الابهام من الاربع وترتبها في صف واحد وتفاوتها في الطول والقصر ، على ان يكون هذا الوجه أزين وأصلح منه أو مثله وشبهه في الزينة والمصلحة لم يقدروا عليه ، اذ بهذا الترتيب صلحت للقبض والاعطاء ،فان بسطتها كانت

لك طبقا تضع عليها ما تريد ، وان جمعتهـا كانت لك آلة للضرب ، وان نشرتها ثم ضممتها كانت آلة للقبض ، وان ضممتها ضما غير تام كانت لك مغرفة ، وان وضعت الابهام على السبابة كانت لك مخرقة ، وان بسطت الكف مع اتصال الاصابع كانت لك مجرفة . وان بسطت الكف وجمعت عليهـا الاصابع كانت لك محرزة ، الى غير ذلك من المنافع .

ثم خلق (الاظفار) على رؤوسها ، زينة للانامل وعمادا لها من ورائها ، حتى لا تنفت ، وليلتقط بها الاشياء الدقيقة التي لا تتناولها الانامل ، وليحك بها بدنه عند الحاجة ، فالظفر الذي هو أخس الاعضاء لو عدمه الانسان وحدثت به حكة لكان أضعف الخلق واعجزهم ، ثم هدى (اليد) الى موضع الحك حتى تستد اليه ولو في حالة النوم والغفلة ، من غير حاجة الى فحص وطلب ، ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحك .

ثم خلق (الرجلين) مركبتين من الفخذ والساق والقدم ، كل منها على شكل خاص وتركيب خاص ، ليتحرك بهما الانسان الى أي موضع أراد ، ولو تغير شيء من الشكل او الوضع او التركيب في جزء من أجزائهما لاختل أمر الحركة ، ووضع عليهما جملة البدن وجعلهما دعامة وأساسا له وحاملين لثقله ، مع خفتهما وصغر جثتهما بالنسبة اليه ، اذ حسن التركيب وسهولة الحمل والحركة في مثل هذا الخلق لا يتصور بدون ذلك . فانظر في عجيب حكمة ربك حيث جعل الاخف والادق والاصغر أساسا وحاملا للاثقل والاغلظ والاكبر ، مع ان كل بناء يكون أساسه أكبر واغلظ مما يبنى عليه ، وكل حامل يكون أعظم جثة من المحمول ، فسبحانه من خالق لا نهايـة لعجائب حكمته وغرائب قدرته .

ثم خلق جميع ذلك في النطفة في جوف الرحم في ظلمات ثلاث ، ولو كشف عنها الغطاء وامتد اليها البصر ، لكان يرى التخطيط والتصوير يظهر عليها شيئا فشيئا ، ولا يرى المصور ولا آلته ، فسبحانه من مصور فاعل يتصرف في مصنوعه من دون احتياج الى مباشرة آلة ولا افتقار الى مكادحة عمل .

تذنيب

ثم تأمل — ايها المتأمل — في عجائب حكم ربك : انه لما كبر الصبي

وضاق عنه الرحم كيف هداه السبيل الى الخروج حتى تنكس وتحرك ، وخرج من ذلك المضيق كأنه عاقل بصير ، ولما خرج وكان محتاجا الى الغذاء ولم يحتمل بدنه الاغذية الكثيفة للينه ورخاوته خلق لـه اللبن اللطيف ، واستخرجه من بين الفرث والدم، خالصا سائغا ، وخلق الثديين وجمع فيهما هذا اللبن، وأنبت منهما الحلمة على قدر ما ينطبق فم الصبي ، وهداه الى التقامها ، وفتح فيها ثقبا ضيقة جدا ، حتى لا يخرج اللبن الا بعد المص تدريجا ، لان الطفل لا يطيق منه الا القليل ، ثم هداه الى الامتصاص حتى يستخرج من مثل هذا المضيق اللبن الكثير عند شدة الجوع ، وأخر خلق الاسنان الى تمام الحولين ، لانه لايحتاج فيهما اليها لتغذيه باللبن ، وما دام مغتذيا به لما كان في دماغه رطوبة كثيرة سلط عليه البكاء ، لتسيل به تلك الرطوبة ، فلا تنزل الى بصره أو الى غيره من اعضائه فتفسده ، ثم لما كبر ولم يوافقه اللبن السخيف وافتقر الى الاغذية الغليظة المحتاجة الى المضغ والطحن أنبت له الاسنان عند الحاجة من دون تقديم وتأخير ،وحنن عليه قلوب الوالدين بالقيام على تربيته وتكفل حاله ما دام عاجزا عن تدبير نفسه.

ثم رزقه الادراك والفهم والقدرة والعقل على التدريج حتى بلغ ما بلغ، وأودع في نفسه المجردة وقواها الباطنة أسرارا عجيبة تحير طوامح العقول وتدهش منها ثواقب الانظار والفهوم . فانظر الى قوة الخيال بعرضيتها الغير المنقسمة كيف تطوى السماء والارض وتتحرك من المغرب الى المشرق في آن واحد ، والى قوة الوهم كيف تستنبط كثرة المعاني الجزئية في لحظة واحدة ، وتأخذها من حواق الاشياء ، والى المتخيلة كيف تركب بعضها بالبعض وتأخذ منها ما فيه الصلاح والرشاد في أمر المعاش والمعاد .

ثم انظر في عجائب النفس وعالمها : من احاطتها بالبدن كله وتدبيرها له، مع تنزهها عن صقع المكان واتصافها بالعلم والقدرة وسائر الصفات الكمالية، وتمكنها من الاحاطة على حقائق الاشياء بأسرها ،وتصرفها في الملك والملكوت بقوتها العقلية والعملية ، ومع ذلك عاجزة عن معرفة ذاتها وحقيقتها ، ومن تطوراتها في الاطوار المختلفة، وتقلبها في النشآت المتباينة ، وترقياتها بحسب درجاتها ومقاماتها ، من لدن تعلقها بالنطفة القذرة الى صيرورتها عالما ربانيا

محيطا بحقائق الاشياء متصلا بالملكوت الاعلى ، ومن اجتماع عوالم السباع والبهائم والملائكة والشياطين فيه[٨٠] ، واطاعة جميع الموجودات له ، حتى السباع تخضع لديه والطيور تخفض أجنحة الذل بين يديه ، ويستخدم الجن ويسخر الكواكب وروحانيتها ، ومن عجائب عالمه الطبع الموزون والصوت الحسن، وعلمه بصناعة الموسيقى ، واستنباطه انواع صنائع الارض ، وقد يتعدى الى عالم العجيبة والحرف الغريبة •

ومنها أمر الرؤياواخباره بالمغيبات لاتصاله بالجواهر الروحانية، وتأثيره في مواد الاكوان بنزع صورة والباس اخرى ، فيؤثر بانقطاعه الى الله في استحالة الهواء الى الغيم ونزول الامطار، وازالة انواع الامراض، واهلاك قوم وانجائهم ، وتسكنه من فعل أو تحريك يخرج عن وسع مثله ، وامساكه عن القوت مدة غير معتادة ، واقتداره على اظهار بدنه المثالي في مواضع مختلفةفي وقت واحد ،واحضاره ما يريده من المطاعم والملابس ، ومصاحبته مع الملائكة واخذ العلوم • فانظر — يا أخي — ان كنت من أهل اليقظة الى قدرة ربك العظيم حيث اودع جميعذلك فيما عرفت حالهمن النطفة السخيفة القذرة ، وهذه النطفة هي التي قد تصير ملكا شديد الهمة والبطش مسخرا للربع المسكون ، بحيث ينوط به انتظام النوع واختلاله ، وقد يصير بحيث تظهر منه خوارق العادات وغرائب المعجزات في عالم الارض ، وقد يتعدى الى عالم الافلاك ، فينشق القمر ويرد الشمس •

وليت شعري ان الناس كيف يتعجبون من صيرورة الميت حيا ، مع انه جثته كانت موجودة وانما أفيض عليه مجرد حس وحركة ، ولا يتعجبون من بلوغ قطرة ماء قذرة الى المراتب التي عرفتها ، وليس المنشأ لذلك الاكثرة مشاهدتهم وتكرر ملاحظتهم له ، مع ان هذا لا يدفع العجب والغرابة لو نظروا بعين العبرة والبصيرة ، اذ منشأهما اما عظمالصنع وحسن الابداع، فهما في بلوغ النطفة الى المراتب المذكورة أقوى وأشد من احياء ميت ، أو دلالة هذا الصنع والفعل على صانع حكيم وفاعل عليم ، فلا ريب ايضا في

(٨٠) تذكير الضمير هنا وفيما يأتيباعتبار الانسان ، وتقدم مثله ص (١١).

ان دلالة الاول على ذلك أشد من دلالة الثاني عليه ، اذ كل من رزق ادنى حظ من البصيرة يعلم ان بلوغ قطرة ماء قذرة الى المراتب المذكورة ليس الا من قدرة قادر حكيم وصنع صانع عليم ، أو من حدوث الفعل من دون مشاهدة سبب مباشر ، فهذا في أمر النطفة أظهر ،وعلى أي تقدير كان يكون التعجب والغرابة في بلوغ النطفة السخيفة القذرة الى المراتب المذكورة أشد واحرى من التعجب في احياء ميت أو ابراء أكمه أو ابرص أو تكلم حيوان أو نبات أو جماد أو غير ذلك من خوارق العادات وغرائب المعجزات ، فالنظر الذي لا يقتضى منه العجب انما هو نظرة حمقاء لم ينشأ عن حقيقة الروية والاتقان ولم يصدر عن ذي قلب يقظان •وبالجملة : الحكم والعجائب المودعة في النشأة الانسانية اكثر من أن تحصى ، وانما اشرنا الى نبذة قليلة منها تبصرة لمن استبصر ، وتنبيها على كيفية التفكر في سائر مجاري الفكر والنظر قال الامام ابو عبدالله الصادق (ع) : « ان الصورة الانسانية أكبر حجة لله على خلقه ، وهي الكتاب الذي كتبه بيده، وهي الهيكل الذي بناه بحكمته، وهي مجموع صور العالمين ، وهي المختصر من العلوم في اللوح المحفوظ، وهي الشاهد على كل غائب ، وهي الحجة على كل جاحد ، وهي الطريق المستقيم الى كل خير ، وهي الصراط الممدود بين الجنة والنار » •

***

واذ عرفت نبذا من عجائب نفسك وبدنك ، فقس عليه عجائب الارض التي هي مقرك : بوهادها وتلالها وسهلها وجبالها واشجارها وانهارها وبحارها وازهارها وبرارها وعمارها ومدنها وامصارها ومعادنها وجمادها وحيوانها ونباتها ، فان كل ما نظرت اليه منها لو تأملته لوجدته مشتملا على غرائب حكم لا تعد وعجائب مصالح لا تحد ، ولرأيته آية باهرة على عظمة مبدعه وحجة قاطعة على جلالة موجده •

فانظر — اولا — الى (رواسي الجبال) وشوامخ الصم الصلاب ، كيف أحكم بها جوانب الارض واودع المياه تحتها ، فانفجرت من هذه الاحجار اليابسة والتربة الكدرة مياه عذبة صافية، واودع فيها الجواهر النفيسة العالية وهدى الناس ا‌لى استخراجها واستعمالها فيما ينبغي ، وخلق في الارض معادن

يحتاج اليها نوع الانسان ، ولو فقد واحدا منها لم يتم انتظامه ، ولم يترك معمورة لم يكن في قربها هذه المعادن ، وجعل ما يكون الاحتياج اليه اشد وأكثر أعم وجودا وأقرب مسافة ، كالملح ومثله •

ثم انظر الى (انواع النبات) بكثرتها واختلافها في الاشكال والالوان والطعوم والروائح والخواص والمنافع ، فهذا يغذي ، وهذا يقوي ، وهذا يقتل ، وهذا يحيي ، وهذا يسخن، وهذا يبرد ، وهذا يجفف ، وهذا يرطب وهذا يسهر ، وهذا ينوم ، وهذا يحزن ، وهذا يفرح •• الى غير ذلك من المنافع المختلفة والفوائد المتباينة ، مع اشتراكها في السقي من ماء واحد ، والخروج من أرض واحدة • (فان قلت) : اختلافها لاختلاف بذورها ، (قلنا) : متى كانت في النواة نخلة مطوقة بعناقيد الرطب ؟ ومتى كانت في حبة واحدة سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ؟ وانظر الى كل شجره ونبت اذا أنزل عليها الماء كيف يهتز ويربو ويخضر وينمو بجميع اجزائهمن الاصول والأغصان والأوراق والاثمار على نسبة واحدة ، من غير زيادة لجزء على آخر، لوصول الماء اليها على نسبة واحدة وقسمته عليها بالسوية ، فمن هذا القاسم العدل في فعلماليس له شعور ولا ادراك ؟ فتبا لأقوام يسندون هذه الحكم المتقنة الظاهرة والمصالح المحكمة الباهرة الى مالا خبر لهبوجوده وذاته ولا بافعاله وصفاته !

ثم انظر الى (أنواع الحيوانات) وأصنافها وكثرتها واختلافها : من الطيور والوحوش والسباع والبهائم ، كيف هدى الله كل واحد منها الى ترتيب المنزل وتحصيل القوت ، وجعل مالا يتم معاش الانسان بدونه من الانعام والبهائم مأنوسا به غير متوحش عنه ، وغيره وحشيا عنه غير ألف به ، وجعل في كل منها من عجائب الحكم وغرائب المصالح ما تتحير منه العقول ، فمن ذا الذي يقدر أن يحيط بعجائب خلق العنكبوت والنحلـة ــ بل البقة والنملة ــ وغرائب أفعـالها مع كونها من صغار الحيوانات ، من وضع منازلها وجمع أقواتها وادخارها لنفسها وهدايتها الى حوائجها ؟ فأي مهندس يقدر على رسم بيوت النحل والعنكبوت على هــذا التناسب الهندسي ؟ وانظر كيفجعل العنكبوت بيته شبكة ليصيد بها البقوالذباب•

وبالجملة :كل شخص من الحيوان أودع فيه من العجائب مالا يمكن وصفه، وكل أحد انما يدرك قدر ما يصل اليه فهمه .

ثم اتنقل من عالم الارض الى (عالم البحر) وعجائبه من الحيوانات والجواهر والنفائس ، فان العجائب المودعة فيه أضعاف عجائب الارض ، كما أن سعته أضعاف سعته ، وكل حيوان يوجد في الارض يوجد فيه ، وفيه حيوانات اخر ليس لها نظير في البر اصلا ، وقد يوجد فيه من الحيوانات ما عظمه بقدر جزيرة عظيمة ، وكثيرا ما ينزل الركبان عليه فيتحرك .ومن عجائبه خلق اللؤلؤ في صدفة تحت الماء ، وانبات المرجان من صم الصخور تحته ، مع كونه على هيئة شجرة ثابتة نامية ... وقس عليه الغير وسائر النفائس التي يقذفها البحر وتستخرج منه .وبالجملة : عجائب البحر أضعاف عجائب البر ، وقد صنف جماعة فيها مجلدات من الكتب ، ومع ذلك لم يأتوا الا باليسير ، ولم يذكروا الا قليلا من كثير .

ثم انتقل الى (عالم الجو) وعجائبه من السحب والغيوم والامطار والثلوج والشهب والبروق والصواعق والرعود ،فانظر الى السحاب الخفيف مع رخاوته كيف يحمل الماء الثقيل ويسكن في جو صاف لا يتحرك الا أن يأذن الله سبحانه في ارساله الماء ، وتقطيع القطرات كل قطرة بالقدر الذي شاء وأراد ، فينزل قطرات متفاصلة لا تدرك قطرة منها أخرى ، ولا يتقدم المتأخر ولا يتأخر المتقدم ، حتى يصيب الارض قطرة قطرة ، وعين كل قطرة لجزء من الارض أو قوتا لحيوان معين ، ولو كنت — يا حبيبي — ذا قلب لشاهدت في كل قطرة خطا إلهيا مكتوبا بقلم إلهي : انه يصيب الجزء الفلاني من الارض ، او رزق للحيوان الفلاني في الموضع الفلاني .

***

ثم ارفع رأسك الى هذا (السقف الاخضر) قائلا : سبحانك ! ما خلقت هذا باطلا . وانظر الى هـذه الاجرام النورية وعجائبها ، واصرف برهة من وقتك في الفحص عن حقائق غرائبها : من الشمس واضاءتها عالم الاكوان ، والقمر واختلاف تشكلاته في الزيادة والنقصان ، وسائر الانجم الدائرة ،والكواكب الثابتة والسائرة،واختلاف صورها وأشكالها ومقاديرها

وأوضاعها، وتفاوت مشارقها ومغاربها ،وتباين منازلها ومواضعها،واجتماعها واتصالها ، وتفرقها وانفصالها ، وطلوعها وافولها ، وكسوفها وخسوفها ، وانتظام حركاتها واتساق دورانها ، وحسن وضعها وترتيبها وعجيب نضدها وترصيعها ، بحيث حصل من كيفية نضدها ووضعها صور جميع الحيوانات: من العقرب والحمل والثور والجدي والانسان والحوت والسرطان ،بل صور غير الحيوان : من السنبلة والميزان والقوس والدلو وغير ذلك ، حتى ما من صورة في الارض الا ولها تمثال في السماء ، أيظن عاقل أن وضع هـذه الكواكب على هذه الصورة واختلاف بعضها في اللون : ككمودة زحل ، وحمرة المريخ ،وقلب العقرب ، وصفرة عطارد ، ورصاصية الزهرة والمشتري بمجرد الاتفاق ، وليس لخالقها في ذلك حكمة ومصلحة ؟ فما أشد جهلا وحمقا من توهم ذلك !

ثم انظر الى حركة (الشمس) يسير فلكها واتمامها الدور بهذا السير في سنة ، وبه تقرب من وسط السماء وتبعد عنه، وبسير آخر تطلع وتغرب في كل يوم ، وتتم الدور بيوم وليلة ، فلولا سيرها الاول الموجب لغاية قربها الى وسط السماء مدة ، وغاية بعـدها عنه تارة ، وتوسطها بين الغايتين مرتين،ولم تحصل الفصول الاربعة الموجبة لنشو النباتات والثمار ونضجها وبلوغها الى غاياتها المطلوبة ،ولولا سيرها الثاني لم يختلف الليل والنهار ، فلم يتميز وقت المعاش عن وقت الاستراحة ،ولم تعرف المواقيت من الشهور والاعوام والساعات والايام • وتأمل في أنه لو لم تكن السماوات مستديرة وحركاتها دورية ، لم يتم شيء من الفوائد والحكم المطلوبة من الحركة والزمان وما ارتبط بها من امور العالم السفلي •

ثم انظر الى عظم اقدار هذه الاجرام السماوية ، حتى لا قدر لجميع العوالم السفلية من الارض والبحار وعالم الجو بالنسبة اليها ، فلا يمكن ان يقال جميع ذلك بالنسبة اليها، بل بالنسبة الى فلك الشمس فقط ـ مثلا ـ كنسبة قطرة الى البحر المحيط ، وقد قال المهندسون : ان جرم كوكب الشمس فقط مائة ونيف وستون ضعف الارض بجميعها ، بل قال بعضهم أكثر من ذلك، ومع ذلك بينوا ان ثخن فلك المريخ ثلاثة أمثـال غلظ فلك

الشمس ، مع ما فيه من أفلاك الزهرة وعطارد والقمر والعناصر الاربعة ، ثم أصغر كوكب تراه في السماء هو مثل جميع الارض ثماني مرات ، وأكبرها ينتهي الى قريب من مائة وعشرين مثلا للارض .

ثم انظر مع هذا العظم الى سرعة حركتها وخفتها ، فان شدة سرعة حركتها مما لايمكن دركها ، الا انك لاتشك في أن كل جزء من الفلك في لحظة يسيرة يسير مقدار عرض كوكب ، والزمان من طلوع أول جزء من كوكب الى تمامه في غاية القلة . وقد علمت أن هذا الكوكب اما مثل الارض مائة ونيف وستين مرة أو أكثر أو مائة وعشرين مرة أو مائة مرة ، والاقل قدرا أن يكون مثلها ثماني مرات ، فقد دار كل جزء من الفلك في هذه اللحظة مثل الارض مائة وسبعين مرة أو مائة وعشرين مرة . وقد عبر روح الأمين عليه السلام عن سرعة حركة الفلك ، اذ قال سيد الرسل — صلى الله عليه وآله وسلم — : « هـل زالت الشمس ؟ » قال : لا . نعم ! فقال له : « كيف تقول لا . نعم ! » فقال : من حيث قلت : لا ، الى ان قلت نعم ، سارت الشمس مسيرة خمسمائة عام .

فتيقظ — يا أخي — من نوم الطبيعة ، وتأمل من الذي حرك هـذه الاجسام الثقيلة العظيمة بهذه الحركة السريعة الخفيفة ، وأدخل صورتها مع اتساع أكنافها في حدقة العين بصغرها ، وتفكر من ذا الذي سخرها وأدار رحاها ، فقل : (بسم الله مجريها ومرسيها) ، ولو نظرت اليها بعين البصيرة لعلمت انها عباد طائعون خاضعون ، وعشاق إلهيون والهون ، وبأشارة من ربهم الى يوم القيامة رقاصون دائرون .

وبالجملة : لو نظرت بعين العبرة في ذرات الوجود لاتجد ذرة من ملكوت السماوات والارض الا وفيها غرائب حكمة يكل البيان عن وصفها ، ولو كان لك قلب وألقيت السمع وانت شهيد ، لعلمت أن جميع ذرات الكائنات شواهد ظاهرة وآيات متظافرة على عظمة ربك الاعلى ، وما من ذرة الا وهي بلسان حالها ناطقة وعن جلالة بارئها مفصحة ، قائلة لاصحاب الشهود بحركاتها وسكناتها ، ومنادية لارباب القلوب بنغماتها : أو ماتنظرون الى خلقي وتكويني وتصويري وتركيبي واختلاف صفاتي وحالاتي وتحولي

في اطواري وتقلباتي ؟ أو لا تشاهدون كثرة فوائدي ومنافعي وغرائب حكمي ومصالحي ؟ أتظنون أنى تكونت بنفسي أو خلقني أحد من جنسي ؟ أو تستحيون تنظرون في كلمة مرقومة من ثلاثة أحرف ، فتجزمون انها صنعة آدمي مريد عالم ومتكلم قادر ، ثم تنظرون الى عجائب الخطوط الإلهية المرقومة على صفحات وجهي والعجائب الربانية المودعة في باطني وظاهري ومع ذلك عن عظمة ربي غافلون وعن علمه وحكمته ذاهلون ؟!

تتميم

قد دريت اجمالا أن التفكر النافع محصور بين التفكر في صفات الله وعجائب افعاله ، والتفكر في ما يقرب العبد الى الله ليفعله وفيما يبعده عنه ليتركه . وغير ذلك من الافكار ليس نافعا ولا متعلقا بالدين . مثال ذلك: أن حال السائر الى الله الطالب للقائه، كحال العاشق المستهتر ، فكما أن تفكره لا يتجاوز عن التفكر في معشوقه وجماله وفي صفاته وافعاله وفي افعال نفسه التي تقربه منه وتحببه اليه ليتصف بها ، أو التي تبعده عنه وتسقطه عن عينه ليتنزه عنها ، ولو تفكر في غير ذلك كان ناقص العشق ، كذلك المحب الخالص لله ينبغي ان يحصر فكره في الله وفي صفاته وافعاله وفيما يقربه منه ويحببه اليه أو يبعده عنه ، ولو تفكر في غير ذلك كان كاذبا فيما يدعيه من الشوق والحب .

ثم التفكر في ذات الله ، بل في بعض صفاته مما لا يجوز ، وقد منعته الشريعة الحقة الإلهية والحكمة المتعالية الحقيقية ، لأن ذاته أجل من أن تكون مرقى لأقدام الافهام ، أو مرمى لسهام الاوهام ، فطرح النظر اليه يورث اختلاط الذهن والحيرة، وجولان الفكر فيه يوجب اضطراب العقل والدهشة وبعض الصديقين المتجردين عن جلباب البدن لو اطاقوا اليه مد البصر فانما هو كالبرق الخاطف ، ولو تجاوزوا عن ذلك لاحترقوا من سبحات وجهه . وحال الصديقين في ذلك كحال الانسان في النظر الى الشمس ،فانه وان قدر على مد البصر اليها ، الا أن ادامته يورث الضعف والعمش ، بل لا مشابهة بين الحالين ، وانما هو مجرد تقريب وتفهيم ، فان المناسبة بين نور الشمس ونور البصر في الجملة ثابتة ، وأين مثل هذه المناسبة بين نور البصر ونور

الانوار القاهر على كل نور بالاحاطة والغلبة ، وما من نور الا وهو منبجس من نوره ومترشح عن ظهوره ، فكل نور في مرتبة نوره زائل ،وكل ظهور في جنب ظهوره وشروقه مضمحل باطل .

ولما كان التفكر في ذاته تعالى مذموما ، فانحصر التفكر الممدوح في التفكر في عجائب صنعه وبدائع خلقه ـ وقد تقدم ـ وفي ما يقرب العبد الى الله من الفضائل الخلقية والطاعات العضوية ، وما يبعده عنه من الملكات الباطنة والمعاصي الظاهرة . وهذه الملكات والافعال هي المعبرة عنها بالمنجيات والمهلكات والطاعات والسيئات التي تذكر في هذا الكتاب وفي غيره من كتب الاخلاق ، والمراد بالتفكر فيها ههنا أن يتفكر العبد في كل يوم وليلة في وقت واحد أو أوقات متعددة في أخلاقه الباطنة وأعماله الظاهرة ، ويتفحص عن حال قلبه وأعضائه ،فان وجد قلبه مستقيما على جادة العدالة متصفا بجميع الفضائل الخلقية ومجتنبا عن الرذائل الباطنة ، ووجد اعضاءه ملازمة للطاعات والعبادات المتعلقة بها تاركة للمعاصي المنسوبة اليها ،فليشكر الله على عظيم توفيقه ، وان وجد في قلبه شيئا من الرذائل أو رآه خاليا عن بعض الفضائل ، فليبادر الى العلاج بالقوانين المقررة ، بعد التفكر في سوء خاتمته وادائه الى مقت الله وهلاكه ، وكذلك ان عثر بالتفكر على صدور معصية أو ترك طاعة منه فليتداركه بالندم والتوبة وقضاء تلك الطاعة.

ولا ريب في أن هذا القسم من التفكر له مجال متسع والقدر الضروري منه يستغرق اليوم بليلته ، والاستقصاء فيه خارج عن حيطة شهر وسنة ، اذ اللازم منه أن يتفكر في كل يوم وليلة في كل واحد من الملكات المهلكة : من البخل ، والكبر ، والعجب ، والرياء ، والحقد ، والحسد ؛ والجبن ؛ وشدة الغضب والحرص والطمع وشره الطعام والوقاع ،وحب المال ، وحب الجاه ، والنفاق ، وسوء الظن ، والغفلة ، والغرور ...وغير ذلك .وينظر بنور الفكرة والبصيرة في زوايا قلبه ،ويتفقد منها هذه الصفات ، فان وجدها بظنه خالية عنها ، فليتفكر في كيفية امتحان القلب والاستشهاد بالعلامات الدالة على البراءة اليقينية ، فان النفس قد تُلبس الامر على صاحبها :فان ادعت البراءة من الكبر ، فينبغي أن يمتحن بحمل قربة ماء أو حزمة حطب

في السوق ، فان ادعت البراءة من الغضب فليجرب بايقاعها في معرض اهانة السفهاء ، وهكذا فليمتحن في غيرهما من الصفات بالامتحانات التي كان الأولون والسلف الصالحون يجربون بها انفسهم ، حتى يطمئن بانقطاع اصولها وفروعها من قلبه . ولو وجد بالامتحان أو تصريح المشاهدة والعيان شيئا منها في قلبه ، فليتفكر في كيفية الخلاص من المعالجة بالضد أو بالموعظة والنصيحة والتوبيخ والملامة ، أو ملازمة أولى الاخلاق الفاضلة ومجالسة اصحاب الورع والتقوى ، أو بالرياضة والمجاهدة وغير ذلك . فان نفع شيء منها في الازالة بالسهولة فليحمد الله على ذلك ، والا فليواظب على هذه المعالجات وتكررها حتى يوفقه الله للخلاص بمقتضى وعده .

ثم يتفكر في كل واحد من الفضائل المنجية : كاليقين ، والتوكل ، والصبر على البلاء ، والرضا بالقضاء ، والشكر على النعماء ، واعتدال الخوف والرجاء ، والشجاعة والسخاء والزهد والورع ، والاخلاص في العمل ، وستر العيوب ، والندم على الذنوب ، وحسن الخلق مع الخلق ، وحب الله والخشوع له ... وغير ذلك ، فان وجد قلبه متصفا بالجميع فليجزيه بالعاملات حتى يطمئن من تلبيس النفس — كما علمت طريقه — وان وجد قلبه خاليا من شيء منها فليفكر في طريق تحصيله — كما أشير اليه — . ثم يتوجه الى كل واحد من أعضائه ويتفكر في المعاصي المتعلقة به ، مثل ان ينظر في لسانه ، ويتفكر في أنه هل صدر منه شيء من الغيبة ، أو الكذب ، أو الفحش ، أو فضول الكلام ، او النميمة ، أو الثناء على النفس ، أو غير ذلك . ثم ينظر في بطنه هل عصى الله بأكل حرام او شبهة ، أو كثرة مانعة عن صفاء النفس وغير ذلك ... وهكذا يفعل في كل عضو عضو .

ثم يتفكر في الطاعات المتعلقة بكل واحد منها وفيما خلق هذا العضو لأجله من الفرائض والنوافل ، فان وجد — بعد التفكر — عدم صدور شيء من المعاصي عن شيء منها ، واتيانها بالطاعات المفروضة عليها باسرها وبالنوافل المرغبة اليها بقدر اليسر والاستطاعة ، فليحمد الله على ذلك ، وان عثر على صدور شيء من المعاصي أو ترك شيء من الفرائض ، فليتفكر أولا في الاسباب الباعثة على ذلك ، من الاشتغال بفضول الدنيا أو مصاحبة أقران

السوء أو غير ذلك ، فليبادر الى قطع السبب ، ثم التدارك بالتوبة والندم، لئلا يكون غده مثل يومه . وهذا القدرمن التفكر في كل يوم وليلة لازم لكل دين معتقد بالنشأة الآخرة ، وقد كان ذلك عادة وديدنا لسلفنا المتقين في صبيحة كل يوم او عشية كل ليلة ، بل كانت لهم جريدة يكتبون فيها رؤس المهلكات والمنجيات ويعرضون في كل يوم وليلة صفاتهم عليها ، ومهما اطمأنوا بقطع رذيلة او الاتصاف بفضيلة يخطون عليها في الجريدة ،ويدعون الفكر فيها ،ثم يقبلون على البواقي ، وهكذا يفعلون حتى يخطوا على الجميع ومن كان اقل مرتبة منهم من الصلحاء ربما يثبتون في جريدتهم بعض المعاصي الظاهرة ، من اكل الحرام ، والشبهة ، واطلاق اللسان ، والكذب ،والغيبة والمراء ، والنميمة ، والمداهنة مع الخلق بترك الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ... وغير ذلك ، ويفعلون بمثل ما مر .

وبالجملة : كان اخواننا السالفون وسلفنا الصالحون لا ينفكون عن هذا النوع من التفكر ، ويرونه من لوازم الايمان بالحساب ،فاف علينا حيث تركنا بهم التأسي والقدوة ،وخضعنا في غمرات الغفلة ، ولعمري انهم لو رأونا لحكموا بكفرنا وعدم ايماننا بيوم الحساب ، كيف واعمالنا لا تشابه أعمال من يؤمن بالجنة والنار . فان من خاف شيئا هرب منه ، ومن رجا شيئا طلبه، ونحن ندعي الخوف من النار ونعلم ان الهرب منها بترك المعاصي ومع ذلك منهمكون فيها ، وندعى الشوق الى الجنة ونعلم ان الوصول اليها بكثرة الطاعات ومع ذلك مقصرون في فعلها .

ثم هذا النوع من التفكر انما هو تفكر العلماء والصالحين ، وأما تفكر الصديقين فأجل من ذلك ، لانهم مستغرقون في لجة الحب والانس ،منقطعون بشراشرهم الى جناب القدس ، ففكرهم مقصور على جلال الله وجماله وقلبهم مستهتر به ،بحيث فنى عن نفسه ونسى صفاته وأحواله ، فحالهم ابدا كحال العشاق المستهترين عند لقاء المعشوق ، ولا تظنن أن هذا التفكر — بل ادنى مراتب التلذذ بالتفكر في عظمة الله وجلاله — ممكن الحصول بدون الانفكاك عن جميع الرذائل المهلكة والاتصاف بجميع الفضائل المنجية ، فان حال المتفكر في جلال الله وعظمته مع اتصافه بالاخلاق الرذيلة ، كحال العاشق الذي خلى

بحبوبه ، وكان تحت ثيابه حيات وعقارب تلدغه مرة بعد اخرى ، فتمنعه عن لذة المشاهدة والانس • ولا يتم ابتهاجه الا باخراجها عن ثيابه • ولا ريب ان الملكات الرذيلة كلها كالحيات والعقارب مؤذيات ومشوشات ، ومن كان له ادنى معرفة وتوجه الى مناجاة ربه وكان في نفسه شيء منها ، يجد انه كيف يشوشه ويصده عن الابتهاج ، ثم ان لدغ هذه الصفات لا يظهر ظهورا بينا للمنهمكين في علائق الطبيعة ، وبعد مفارقة النفس عن البدن يشتد ألم لدغها بحيث يزيد على ألم لدغ الحيات والعقارب بمراتب شتى •

نصيحة

تيقظ — يا حبيبي — من نوم الغفلة ، وتفكر اليوم لغدك ، قبل ان تنشب مخالب الموت في جسدك ، ولا تنفك قوتك العاقلة عن التفكر في صفاتك وأحوالك ، واعلم على سبيل القطع واليقين أن كل ما في نفسك من فضيلة أو رذيلة وكل ما يصدر عنك من طاعة أو معصية يكون بازائه جزاء عند رحلتك عن هذه الدار الفانية ، واسمع قول سيد الرسل (ص) ولو كنت ذا قلب لكفاك ايقاظا وتنبيها، حيث قال : « ان روح القدس نفث في روعي: أحب ما أحببت فانك مفارقه ، وعش ما شئت فانك ميت ، واعمل ما شئت فانك مجزى به » • ولعمري أنك ان كنت مؤمنا بالمبدأ والمعاد لكفاك هذا الكلام واعظا وحائلا بينك وبين الالتفات الى الدنيا وأهلها • وبالجملة : ينبغي للمؤمن ألا يخلو في كل يوم وليلة عن التفكر في صفاته وافعاله ، واذا صرف برهة من وقته في هذا التفكر وبرهة أخرى في التفكر في عجائب قدرة ربه ، وصار ذلك معتادا له ، حصل لنفسه كمال قوتيها العقلية والعملية ، وخلصت عن الوساوس الشيطانية والخواطر النفسانية ، وفقنا الله بعظيم فضله للوصول الى ما خلقنا لأجله •

(ومنها) — أي ومن رذائل القوة العاقلة — استنباط وجوده :

المكر والحيل

للوصول الى مقتضيات قوتي الغضب والشهوة • وأعلم أن المكر ، والحيلة ، والخدعة ، والنكر ، والدهاء : ألفاظ مترادفة، وهي في اللغة قد تطلق على شدة الفطانة ، وأرباب المعقول يطلقونها على استنباط بعض الامور

من المآخذ الخفية البعيدة على ما تجاوز عن مقتضى استقامة القريحة ، ولذا جعلوها ضدا للذكاء وسرعةالفهم ، والعرف خصصها باستنباط هذه الامور اذا كانت موجبة لاصابة مكروه الى الغير من حيث لا يعلم ، وربما فسّر بذلك في اللغة أيضا ، وهذا المعنى هو المراد هنا .

ولتركبه من اصابة المكروه الى الغير ومن التلبيس عليه ، يكون ضده استنباط الامور المؤدية الى الخيرية ، والنصيحة لكل مسلم ، واستواء العلانية للسريرية .

ثم فرق المكر ومرادفاته عن التلبيس والغش والغدر وامثالها ، اما باعتبار خفاء المقدمات وبعدها فيها دونها . أو بتخصيص الاولى بنفس استنباط الامور المذكورة والثانية بارتكابها ، ولذا عدت الاولى من رذائل القوة الوهمية أو العاقلة للعذر المذكور ،والثانية من رذائل الشهوية، وربما كان استعمالهما على الترادف ، واطلق كل منهما على ما تطلق عليه الاخرى .

هذا وللمكر مراتب شتى ودرجات لا تحصى من حيث الظهور والخفاء، فربما لم يكن فيه كثير دقة وخفاء فيشعر به من له ادنى شعور ، وربما كان في غاية الغموض والخفاء بحيث لم يتفطن به الاذكياء . ومن حيث الموارد والمواضع كالباعث لظهور المحبة والصداقة واطمئنان عاقل ، ثم التهجم عليه بالايذاء والمكروه ، والباعث لظهور الامانة والديانة وتسليم الناس اموالهم ونفائسهم اليه على سبيل الوديعة أو المشاركة او المعاملة ، ثم اخذها وسرقها على نحو آخر من وجوه المكر . وكالباعث لظهور ورعه وعدالته واتخاذ الناس اياه إماما أو اميرا فيفسد عليهم باطنا دينهم ودنياهم . وقس على ذلك غيره من الموارد والمواضع .

ثم المكر من المهلكات العظيمة ، لأنه اظهر صفات الشيطان ، والمتصف به أعظم جنوده ، ومعصيته أشد من معصية اصابة المكروه الى الغير في العلانية ، اذ المطلع بارادة الغير ايذاءه يحتاط ويحافظ نفسه عنه ، فربما دفع أذيته ، وأما الغافل فليس في مقام الاحتياط ، لظنه ان هذا المكار المحيل محب وناصح له ، فيصل اليه ضره وكيده في لباس الصداقة والمحبة. فمن أحضر طعاما مسموما عند الغير مريدا اهلاكه فهو أخبث نفسا وأشد

معصية ممن شهر سيفه علانية مريدا قتله ، اذ الثاني أظهر ما في بطنه واعلم هذا الغير بارادته ، فيجزم بأنه عدو محارب له فيتعرض لصرف شره ومنع ضره ، فربما تمكن من دفعه ، وأما الاول فظاهره في مقام الاحسان وباطنه في مقام الايذاء والعدوان ، والغافل المسكين لا خبر له عن خباثة باطنه ، فيقطع بأنه يحسن اليه ، فلا يكون معه في مقام الدفع والاحتياط ، بل في مقام المحبة والوداد ، فيقتله وهو يعلم انه يحسن اليه ، ويهلكه وهو في مقام الخجل منه •

وبالجملة : هذه الرذيلة اخبث الرذائل واشدها معصية ، ولذلك قال رسول الله (ص) : « ليس منا من ماكر مسلما » • وقال امير المؤمنين (ع): « لولا ان المكر والخديعة في النار لكنت أمكر الناس »، وكان عليه السلام كثيرا ما يتنفس الصعداء ويقول : « وا ويـلاه يمكرون بي ويعلمون اني بمكرهم عالم وأعرف منهم بوجوه المكر ، ولكني أعلم ان المكر والخديعة في النار فأصبر على مكرهم ولا ارتكب مثل ما ارتكبوا » •

وطريق علاجه ــ بعد اليقظة ــ ان يتأمل في سـوء خاتمته ووخامـة عاقبته ، وفي تأديته الى النار ومجاورة الشياطين والاشرار ، ويتذكر ان وبال كل مكر وحيلة يرجع في الدنيا الى صاحبه ، كما نطقت به الآيات والاخبار وشهدت به التجربة والاعتبار • ثم يتذكر فوائد ضد المكر ومحامـده ، اعني استنباط ما يوجب النصيحة والخيرية للمسلمين وموافقة ظاهره لباطنه في افعاله واقواله ــ كما يأتي في محله ــ وبعد ذلك لو كان عاقلا مشفقا على نفسه لاجتنب عنه كل الاجتناب ، وينبغي ان يقدم التروي في كل فعل يصدر عنه لئلا يكون له فيه مكر وحيلة ،واذا عثر على فعل يتضمنه فليتركه معاتبا لنفسه ، واذا تكرر منه ذلك تزول عن نفسه أصول المكر وفروعـه بالكلية بعون الله وتوفيقه •

المقـام الثاني

فيما يتعلق بالقوة الغضبية من الرذائل والفضائل وكيفية العلاج

التهور والجبن والشجاعة ــ الخوف ــ الخوف المذموم واقسامه ــ الخوف المحمود واقسامه ودرجاته ــ بم يتحقق الخوف ــ الخوف من الله افضل الفضائل ــ الخوف اذا جاوز حده كان مذموما ــ طرق تحصيل الخوف الممدوح ــ خوف سوء الخاتمة واسبابه ــ الفرق بين الاطمئنان والامن من مكر الله ــ التلازم بين الخوف والرجاء ــ ــ مواقع الخوف والرجاء وترجيح أحدهما على الآخر ــ العمل على الرجاء اعلى منه على الخوف ــ مداواة الناس بالخوف والرجاء على اختلاف امراضهم ــ صغر النفس وكبرها وصلابتها ــ الثبات ــ دناءة الهمة وعلوها ــ الغيرة والحمية وعدمهما ــ الغيرة على الدين والحريم والاولاد ــ العجلة ــ الاناة والتوقف والوقار والسكينة ــ سوء الظن ــ حسن الظن ــ الغضب ــ الافراط والتفريط والاعتدال في قوته ــ ذم الغضب ــ امكان ازالة الغضب وطرق علاجه ــ فضيلة الحلم وكظم الغيظ ــ الانتقام والعفو ــ العنف والرفق ــ فضيلة الرفق ــ المداراة ــ سوء الخلق بالمعنى الاخص ــ طرق اكتساب حسن الخلق ــ الحقد ــ العداوة الظاهرة ــ الضرب والفحش واللعن والطعن ــ العجب ــ ذمه ــ آفاته ــ علاجه اجمالا وتفصيلا ــ انكسار النفس ــ الكبر ــ ذمه ــ التكبر على الله والناس ــ درجات الكبر ــ علاجه علما وعملا ــ التواضع ــ الذلة ــ الافتخار ــ البغي ــ تزكية النفس ــ العصبية ــ كتمان الحق ــ الانصاف والاستقامة على الحق ــ القساوة .

فنقول : أما جنسا رذائلها[٨١] « فأحدهما » :

التهور

كما علم، وهو من طرف الافراط : أي الاقدام على ما لا ينبغي والخوض في ما يمنعه العقل والشرع من المهالك والمخاوف . ولا ريب في انه من المهلكات في الدنيا والآخرة . ويدل على ذمه كل ما ورد في وجوب محافظة النفس وفي

(٨١) أي القوة الغضبية .

المنع عن القائها في المهالك ، كقوله تعالى :

« ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » (٨٢) .

وغير ذلك من الآيات والاخبار . والحق ان من لا يحافظ نفسه عما يحكم العقل بلزوم المحافظة عنه فهو غير خال عن شائبة من الجنون ، وكيف يستحق اسم العقل من ألقى نفسه من الجبال الشاهقة ولم يبال بالسيوف الشاهرة ، أو وقع (٨٣) في الشطوط الغامرة الجارية ولم يحذر من السباع الضارية . كيف ومن القى نفسه فيما يظن به العطب ، فهلك ، كان قاتل نفسه بحكم الشريعة ، وهو يوجب الهلاكة الابدية والشقاوة السرمدية .

وعلاجه ــ بعد تذكر مفاسده في الدنيا والآخرة ــ أن يقدم التروي في كل فعل يريد الخوض فيه ، فان جوّزه العقل والشرع ولم يحكما بالحذر عنه ارتكبه ، والا تركه ولم يقدم عليه . وربما احتاج في معالجته ان يلزم نفسه الحذر والاجتناب عن بعض ما يحكم العقل بعدم الحذر عنه ، حتى يقع في طرف التفريط ، واذا علم من نفسه زوال التهور تركه واخذ بالوسط الذي هو الشجاعة .

« وثانيهما » :

الجبن

وهو سكون النفس عن الحركة الى الانتقام أو غيره ، مع كونها اولى . والغضب افراط في تلك الحركة ، فله ضدية للغضب باعتبار ، وللتهور باعتبار آخر . وعلى الاعتبارين هو في طرف التفريط من المهلكات العظيمة ، ويلزمه من الاعراض الذميمة : مهانة نفس ، والذلة ، وسوء العيش ، وطمع الناس فيما يملكه ، وقلة ثباته في الامور ، والكسل ، وحب الراحة ، وهو يوجب الحرمان عن السعادات بأسرها وتمكين الظالمين من الظلم عليه ، وتحمله للفضائح في نفسه وأهله ، واستماع القبائح من الشتم والقذف ، وعدم مبالاته بما يوجب الفضيحة والعار ، وتعطيل مقاصده ومهماته ، ولذلك ورد في ذمه من الشريعة ما ورد قال رسول الله (ص) : « لا ينبغي للمؤمن

(٨٢) البقرة ، الآية : ١٩٥ .

(٨٣) كذا في النسختين ، ولعل الصحيح (او اوقع نفسه) .

أن يكون بخيلا ولا جبانا » ، وقال (ص) : «اللهم اني أعوذ بك من البخل واعوذ بك من الجبن ، واعوذ بك ان ارد الى أرذل العمر » .

وعلاجه — بعد تنبيه نفسه عن نقصانها وهلاكها — ان يحرك الدواعي الغضبية فيما يحصل به الجبن ، فان القوة الغضبية موجودة في كل احد ، ولكنها تضعف وتنقص في بعض الناس فيحدث فيهم الجبن ، واذا حركت وهيجت على التواتر تقوى وتزيد ، كما ان النار الضعيفة تتوقد وتلتهب بالتحريك المتواتر . وقد نقل عن الحكماء انهم يلقون انفسهم في المخاطرات الشديدة والمخاوف العظيمة دفعا لهذه الرذيلة . ومما ينفع من المعالجات ان يكلف نفسه على المخاصمة مع من يأمن غوائله ، تحريكا لقوة الغضب، واذا وجد من نفسه حصول ملكة الشجاعة فليحافظ نفسه لئلا يتجاوز ويقع في طرف الافراط .

وصل

الشجاعة

قد عرفت ان ضد هذين الجنسين هو (الشجاعة) ، فتذكر مدحها وشرافتها، وكلف نفسك المواظبة على آثارها ولوازمها، حتى يصير ما تكلفته طبعا وملكة ، فترتفع عنك آثار الضدين بالكلية . وقد عرفت ان الشجاعة طاعة قوة الغضب للعاقلة في الاقدام على الامور الهائلة وعدم اضطرابها بالخوض في ما يقتضيه رأيها . ولا ريب في انها اشرف الملكات النفسية وأفضل الصفات الكمالية ، والفاقد لها بريء عن الفحلية والرجولية ، وهو بالحقيقة من النسوان دون الرجال ، وقد وصف الله خيار الصحابة بها في قوله:

« اشداء على الكفار » (٨٤) .

وأمر الله نبيه بها بقوله :

« واغلظ عليهم » (٨٥) .

اذ الشدة والغلظة من لوازمها وآثارها ، والاخبار مصرحة باتصاف المؤمن بها . قال امير المؤمنين عليه السلام في وصف المؤمن : « نفسه

(٨٤) الفتح ، الآية : ٢٩ .
(٨٥) التوبة ، الآية : ٧٣ .

أصلب من الصلد » . وقال الصادق عليه السلام : « المؤمن أصلب من الجبل اذ الجبل يستقل[٨٦] منه والمؤمن لا يستقل من دينه » .

* * *

وأما الانواع ولوازمها المتعلقة بالقوة الغضبية فمنها :

الخوف

وهو تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال مشكوك الوقوع ، فلو علم أو ظن حصوله سمي توقعه انتظار مكروه ، وكان تألمه أشد من الخوف ، وكلامنا في كليهما . وفرقه عن الجبن على ما قررناه من حديهما ظاهر ، فان الجبن هو سكون النفس عما يستحسن شرعا وعقلا من الحركة الى الانتقام أو شيء آخر ، وهذا السكون قد يتحقق من غير حدوث التألم الذي هو الخوف ، مثلا من لا يجترىء على الدخول في السفينة أو النوم في البيت وحده أو التعرض لدفع من يظلمه ويتعرض له يمكن اتصافه بالسكون المذكور مع عدم تألم له بالفعل ، فمثله جبان وليس بخائف . ومن كان له ملكة الحركة الى الانتقام وغيره من الافعال التي يجوزها الشرع والعقل ربما حصل له التألم المذكور من توقع حدوث بعض المكاره ، كما اذا أمر السلطان بقتله ، فمثله خائف وليس بجبان .

ثم الخوف على نوعين : (أحدهما) مذموم بجميع أقسامه ، وهو الذي لم يكن من الله ولا من صفاته المقتضية للهيبة والرعب ، ولا من معاصي العبد وجناياته ، بل يكون لغير ذلك من الامور التي يأتي تفصيلها . وهذا النوع من رذائل قوة الغضب من طرف التفريط ، ومن نتائج الجبن . و (ثانيهما) محمود وهو الذي يكون من الله ومن عظمته ومن خطأ العبد وجناياته ، وهو من فضائل القوة الغضبية ، اذ العاقلة تأمر به وتحسنه ، فهو حاصل من انقيادها لها . ولنفصل القول في أقسام النوعين ، وبيان العلاج في ازالة أقسام الاول وتحصيل الثاني :

---

(٨٦) استقل الشيء : أخذ منه أدنى جزء كعشره .

فصــل

الخوف المذموم واقسامه

للنوع الاول اقسام يقبحها العقل باسرها ولا يجوزها ،فلا ينبغي للعاقل ان يتطرقها الى نفسه . بيان ذلك: ان باعث هذا الخوف يتصور على أقسام:

(الاول) أن يكون امرا ضروريا لازم الوقوع ، ولم يكن دفعه في مقدرة البشر . ولا ريب في أن الخوف من مثله خطأ محض ، ولا يترتب عليه فائدة سوى تعجيل عقوبة بصده عن تدبير مصالحه الدنيوية والدينية . والعاقل لا يتطرق على نفسه مثل ذلك ، بل يسلي نفسه ويرضيها بما هو كائن ادراكا لراحة العاجل وسعادة الآجل .

(الثاني) أن يكون أمرا ممكنا لم يجزم بشيء من طرفيه ، ولم يكن لهذا الشخص مدخلية في وقوعه ولا وقوعه . ولا ريب في أن الجزم بوقوع مثله والتألم لأجله خلاف مقتضى العقل ، بل اللازم ابقاؤه على امكانه من دون جزم بحصوله ، فـ :

«لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا » (٨٧) .

وهذا القسم مع مشاركته للاول في استلزامه تعجيل العقوبة بلاسبب، لعدم مدخليته لاختياره فيه ، يمتاز عنه بعدم الجزم بوقوعه ، فهو بعدم الخوف أولى منه .

(الثالث) أن يكون أمرا ممكنا فاعله هذا الشخص ، وهو ناشيء عن سوء اختياره ، فعلاجه ألا يرتكبه ولا يقدم على فعل يخاف من سوء عاقبته، فانه اما فعل غير قبيح من شأنه التأدي الى ما يضره ، ولا ريب في ان ارتكاب مثله خلاف حكم العقل ، ولو ظهر التأدي بعد ايقاعه فيكون من الثاني،أو فعل قبيح لو ظهر اوجب الفضيحة والمؤاخذة ، وانما فعله ظنا منه أنه لايظهر ، ثم يخاف من الظهور والمؤاخذة ، ولا ريب في أن هذا الظن ناشيء عن الجهل ، اذ كل فعل يصدر عن كل فاعل ولو خفية يمكن أن يظهر ، واذا ظهر يمكن ايجابه للفضيحة والمؤاخذة . والعاقل العالم بطبيعة الممكن لا يرتكب مثله ، فباعث الخوف في الثاني هو الحكم على الممكن بالوجوب ، وفي هـذا الحكم عليه بالامتناع ، ولو حكم عليه بما يقتضي

(٨٧) الطلاق ، الآية : ١ .

ذاته أمن من الخوفين.

(الرابع)أن يكون مما تتوحش منه الطباع ، بلا داع عقلي ولاباعث نفس امرى ، كالميت والجن وأمثالهما ، (لا) سيما في الليـل مع وحدته. ولا ريب في أن هــذا ناشيء عن قصور العقل ومقهوريته عن الواهمة ، فليحرك القوة الغضبية ويهيجها لتغلب به العاقلة على الوهم . وربما ينفع الزام نفسه على الوحدة في الليالي المظلمة والصبر عليها ، حتى يزول عنه هذا الخوف على التدريج .

ثم لما كان خوف الموت اشد أقسام هــذا النوع وأعمها ، فلنشر الى علاجه بخصوصه ، فنقول : باعث خوف الموت يحتمل امورا :

(الاول) تصور فناء ذاته بالكلية وصيرورته عدما محضا بالموت . ولا ريب في كونه ناشئا عن محض الجهل ، اذ الموت ليس الا قطع علاقة النفس عن بدنه ، وهي باقية ابدا ،كما دلت عليه القواطع العقلية والشواهد الذوقية والظواهر السمعية ، ولعل ما تقدم يكفي لاثبات هــذا المطلوب . ومع قطع النظر عن ذلك نقول : كيف يجوز لمن له أدنى بصيرة ان يجتمع عظماء نوع الانسان بحذافيرهم ، كأهل الوحي والالهام وأساطين الحكمة والعرفان على محض الكذبوصرف الباطل ! فمن تأمل أدنى تأمل يتخلص من هذا الخوف .

(الثاني) تصور ايجابه ألما جسمانيا عظيما لا يتحمل مثله ولم يدركفي الحياة شبهه . وهذا ايضا من الخيالات الفاسدة ، فان الالم فرع الحياة ، والألم الجسماني ما دامت الحياة لا يكون أشد مما رآه كل انسان في حياته من الأوجاع وقطع الاتصال ، وبعد زوال الحياة لامعنى لوجوده ، اذ كل جسماني ادراكه بواسطة الحياة ، وبعد انقطاعها لا ادراك ، فلا ألم .

(الثالث) تصور عروض نقصان لاجله . وهو ايضا غفلة عن حقيقة الموت والانسان ، اذ من علم حقيقتهما يعلم أن الموت متمم الانسانيةوآثارها، والمائت جزء لحدّ الانسان . ولذا قال أوائل الحكماء : (الانسان حي ناطق مائت) ، وحد الشيء يوجب كماله لا نقصانه ، فبالموت تحصل التمامية

دون النقصان« نشنيده اي كه هر كه بمرد أوتمام شد » (٨٨)فالانسان الكامل يشتاق الى الموت ، لاقتضائه تماميته وكماله ، وخروجه عن ظلمة الطبيعة ومجاورة الاشرار الى عالم الانوار ومرافقة الاخيار من العقول القادسة والنفوس الطاهرة ، وأي عاقل لا يرجح الحياة العقلية والابتهاجات الحقيقيه على الحياة الموحشة الهيولانية ، المشوبة بأنواع الآلام والمصائب واصناف الاسقام والنوائب !

فياحبيبي ! تيقظ من نوم الغفلة وسكر الطبيعة ، واستمع النصيحةممن هو أحوج منك الى النصيحة : حرك الشوق الكامن في جوهر ذاتك الى عالمك الحقيقي ومقرك الاصلي ، وانسلخ عن القشورات الهيولانية ،وانفض عن روحك القدسي مالزقه من الكدورات الجسمانية ، وطهر نفسك الزكية عن ادناس دار الغرور وارجاس عالم الزور ،واكسر قفصك الترابي الظلماني وطر بجناح همتك الى وكرك القدسي النوراني ، وارتفع عن حضيض الجهل والنقصان الى أوج العزةوالعرفان ، وخلص نفسك عن مضيق سجن الناسوت وسيرها في فضاء قدس اللاهوت ، فما بالك نسيت عهود الحمى ورضيت بمصاحبة من لاثبات له ولا وفاء ؟! .

زد سحر طائر قدسم زسر سدره صفير كه در اين دامگه حادثة آرام مگير(٨٩)

(الرابع)صعوبة قطع علاقته من الاولاد والاموال والمناصب والاحباب.

ومعلوم أن هذا ليس خوفا من الموت في نفسه بل هو حزن على مفارقة بعض الزخارف الفانية . وعلاجه أن يتذكر أن الامور الفانية مما لا يليق

---

(٨٨) هذه الجملة من الكلمات الحكمية القصار ، ومعناها : (اما سمعت بأن كل من مات صار انسانا كاملا) .

(٨٩) هذا البيت للشاعر الفارسي الفيلسوف الشهير (حافظ الشيرازي) وهو من ابيات العرفان . واراد (بالسحر) على سبيل الرمز وقت استكمال النفس وتنبهها ، و (بالطائر القدسي) ما يرمز اليه العرفاء المسمى عندهم ايضا (البيضاني) ، وهو احد العقول المجردة الذي بصفيره يوقظ الراقدين في مراقد الظلمات ، وبصوته ينبه الغافلين عن تذكر الآيات ، و (بالسدرة) سدرة المنتهى المقصود منها منتهى قوس الصعود في سلسلة الممكنات .

وحاصل معنى البيت المطابقي : قد صفر الطائر القدسي المنسوب الى من على السدرة في السحر ، ويقول في صفيره : لاتستقر في المصيدة المخيفة (وهي الدنيا وعوالم السفليات) ، والمراد أن يذهب عنها الى عالم المجردات النوراني حرا طليقا .

بالعاقل ان يرتبط بها قلبه ، وكيف يحب العاقل خسائس عالم الطبيعة ويطمئن اليها ، مع علمه بأنه قريب يفارقها ، فاللازم أن يخرج حب الدنيا وأهلها عن قلبه ليتخلص من هذا الألم .

(الخامس) تصور سرور الاعداء وشماتتهم بموته . وهذا وسوسة شيطانية صادرة عن محض التوهم اذ مسرة الاعداء او شماتتهم لا توجب ضررا في ايمانه ودينه ، ولا ألما في روحه وجسمه ، على أن ذلك لايختص بالموت ، اذ العدو يشمت ويفرح بما يرد عليه في حال الحياة ايضا من البلايا والمحن ، فمن كره ذلك فليجتهد في قطع العداوة وازالتها بالمعالجات المقررة للحقد والحسد .

(السادس) تصور تضييع الأولاد والعيال ، وهلاك الاعوان والانصار . وهذا ايضا من الوساوس الباطلة الشيطانية والخواطر الفاسدة النفسانية ، اذ ذلك يوجب ظن منشئيته لاستكمال الغير وعزته ، ومدخليته في قوته وثروته ، وذلك ناشيء من جهله بالله وبقضائه وقدره ، اذ فيضه الاقدس اقتضى ايصال كل ذرة من ذرات العالم الى ما يليق بها وابلاغها الى ماخلقت لأجله ، وليس لاحد أن يغير ذلك أو يبدله . ولذا ترى أكثر الافاضل يجتهدون في تربية أولادهم ولا ينجح سعيهم أصلا ، وتشاهد غير واحد من الأغنياء يخلفون لأولادهم أموالا كثيرة وتخرج عن ايديهم في مدة قليلة ، وترى كثيرا من ايتام الأطفال لاتربية لهم ولا مال ، ومع ذلك يبلغون بالتربية الأزلية مدراج الكمال ، أو يحصلون مالا حصر له من الأموال . والغالب أن الأيتام الذين ذهب عنهم الآباء في حالة الصبى تكون ترقياتهم في الآخرة والدنيا أكثر من الاولاد الذين نشأوا في حجر الآباء . والتجربة شاهدة بأن من اطمأن من أولاده بمال يخلفه لهم أو ذي قوة يفوض اليه امورهم اعتراهم بعده الفقر والفاقة والذلة والمهانة ، وربما صار ذلك سببا لهلاكهم وانقراضهم . ومن فرض امورهم الى رب الارباب وخالق العباد أزداد لهم بعده عزا وقوة وكثرة وثروة . فاللائق بالعقلاء أن يفوضوا أمور الاولاد وغيرهم من الاقارب والانصار الى من خلقهم ورباهم ، ويوكلهم الى موجدهم ومولاهم ، وهو نعم المولى ونعم الوكيل . وقد ظهر أن

الخوف من الموت لأجل البواعث المذكورة لاوجه له .

ثم ينبغي للعاقل أن يتفكر في أن كل كائن فاسد ألبتة ، كما تقرر في الحكمة . وهو من الكائنات . والفساد ضروري له فمن أراد وجود بدنه أراد فساده اللازم له ، فتمنى دوام الحياة من الخيالات الممتنعة ، والعاقل لا يحوم حولها ولا يتمنى مثلها . بل يعلم يقينا أن ما يوجد فيالنظام الكلي هو الاصلح الاكمل وتغييره ينافي الحكمة والخيرية ، فيرضى بما هو واقع على نفسه وغيره من غير ألم وكدورة . ثم من يتمنى طول عمره فمقصوده منه ان كان حب اللـذات الجسمية وامتداد زمانها ، فليعلم أن الشيب اذا أدركه ضعفت الأعضاء واختلت القوى وزالت عنه الصحة التي هي عمدة لذاته فضلا عن غيرها ، فلا يلتذ بالأكل والجماع وسائر اللذات الحسية ، ولايخلو لحظة عن مرض وألم ، وتتراجع جميع أحواله ، فتتبدل قوتـه بالضعف وعزه بالذل ، وكذا سائر أحواله ، كما اشير اليه في الكتاب الإلهي بقوله تعالى :

« **ومن نعمره ننكسه في الخلق** » (٩٠) .

ومع ذلك لا يخلو كل يوم من مفارقة حبيب أو شفيق ، ومهاجرة قريب أو رفيق . وربما ابتلى بأنواع المصيبات ، ويهجم عليه الفقر والفاقة والنكبات، وطالب العمر في الحقيقة طالب هذه الزحمات . وان كان مقصوده منه اكتساب الفضائل العلمية والعملية ، فلا ريب في أن تحصيل الكمالات بعد أوان الشيخوخة في غاية الصعوبة ، فمن لم يحصل الفضائل الخلقيةالى ان أدركه الشيب ، واستحكمت فيه الملكات المهلكة من الجهل وغيره، فاني يمكنه بعد ذلك ازالتها وتبديلها بمقابلاتها ، اذ رفع ما رسخ في النفس مع الشيخوخـة التي لايقتدر معها على الرياضات والمجاهـدات غير ممكن . ولذا ورد في الآثار : « أن الرجل اذا بلغ أربعين سنة ولم يرجع الى الخير، جاء الشيطان ومسح على وجهه وقال : بأبي وجه من لا يفلح أبدا » . على أن الطالب للسعادة ينبغي أن يكون مقصور الهم في كل حال على تحصيلها، ومن جملتها دفع طول الامل والرضا بما قدر له من طول العمر وقصره ،

(٩٠) يس ، الآية : ٦٨ .

ويكون سعيه ابدا في تحصيل الكمالات بقدر الامكان والتخلص عن مزاحمة الزمان والمكان ، وقطع علاقته من الدنيا وزخارفها الفانية والميل الى الحياة واللذات الباقية ، والاهتمام في كسب الابتهاجات العقلية والاتصال التام بالحضرة الإلهية ، حتى يتخلص عن سجن الطبيعة ويرتقي الى اوج عالم الحقيقة ، فيتفق له الموت الارادي الموجب للحياة الطبيعية ، كما قال (معلم الاشراق) : « مت بالارادة تحيى بالطبيعة »، فينقل الى مقعد صدق هو مستقر الصديقين، ويصل الى جوار رب العالمين ، وحينئذ يشتاق للموت ولا يبالي بتقديمه وتأخيره ، ولا يركن الى ظلمات البرزخ الذي هو منزل الاشقياء والفجار ومسكن الشياطين والاشرار ، ولا يتمنى الحياة الفانية أصلا ، ينطق بلسان الحال :

خرم آن روز كزين منزل ويران بروم
راحت جان طلبم وزپي جانان بروم
بهواي لب أو ذره صفت رقص كنان
تالب چشمهٔ خورشيد در خشتان بروم[٩١]

(السابع) تصور العذاب الجسماني والروحاني المترتب على ذمائم الاعمال وقبائح الافعال . ولا ريب في أن الخوف من ذلك ممدوح ، وهو معدود من اقسام النوع الثاني ، الا أن البقاء عليه وعدم السعي فيمايدفعه من ترك الخطيئات وكسب الطاعات جهل وبطالة ، اذ هذا الخوف ناشيء من سوء الاختيار ، وقد بعث الله الرسل وأوصياءهم لاستخلاص الناس عنه . فعلاجه ترك المعاصي وتحصيل معالي الاخلاق . ومعلوم أن المنهمك في المعاصي مع خوفه من العذاب كالملقي نفسه في البحر أو النار مع خوفه من الغرق والحرق ، ولا ريب في أن ازالة هذا الخوف باختياره ، فليترك

---

(٩١) البيتان للشاعر الفيلسوف (حافظ الشيرازي) . ومعنى الاول: « ان سروري يكون في يوم الرحيل من هذه الدار الخربة طلبا لراحة نفسي ولقاء الحبيب ». ويقصد بحبيبه : الحق الاول ، وبراحة نفسه : النعيم الابدي ، وبالرحيل عن الدار الخربة : انتقال نفسه من بدنه بالموت .

ومعنى البيت الثاني :« اني لشوقي الى لقاء الحبيب اهتز اهتزاز الذرة في ضوء الشمس لكي اصل الى لقاء عين الشمس المتوهجة » . ويقصد بعين الشمس : خالق الكائنات .

المعاصي ويجتهد في كسب وظائف الطاعات ليتخلص عنه ، واهتمام أكابر الدين من الانبياء والمرسلين والحكماء والصديقين في وظائف الطاعات وصبرهم على مشاق العبادات ومجاهدتهم مع جنود الشياطين انما هو لدفع هـذا الخوف عن نفوسهم ، فهو في الحقيقة ناشيء منك ومن سوء اختيـارك ، فبادر الى تقليله بالمواظبة على صوالح الاعمال وفضائل الافعال • وقـد يأتي ان هذا الخوف هو سوط الله الباعث على العمل ، ومعه لو كان مفرطا فليعالج بأسباب الرجاء ، وبدونه فلا بـد ان يكون حتى يبعثه عليه ، على أنه مع عظم جرمه وقصور باعه عن تداركه فلا ينبغي أن ييأس من روح الله ، فلعل واسـع الرحمة السابقة على الغضب يدركـه بسـابقة مـن القضاء والقدر •

فصــل

الخوف المحمود واقسامه ودرجاته

وللنوع الثاني من الخوف أقسام : (الاول) أن يكون من الله سبحانه ومن عظمته وكبريائه ، وهذا هو المسمى بالخشية والرهبة في عرف أرباب القلوب • (الثاني) من جناية العبد باقترافه المعاصي •(الثالث)أن يكون منهما جميعا • وكلما أزدادت المعرفة بجلال الله وعظمته وتعاليـه وبعيوب نفسه وجناياته ، ازداد الخوف ، اذ ادراك القدرة القاهرة والعظمة الباهرة والقوة القوية والعزة الشديدة ، يوجب الاضطراب والدهشة • ولا ريب في أن عظمة الله وقدرته وسائر صفاته الجلالية والجمالية غير متناهية شدة وقوة ويظهر منها على كل نفس ما يطيقه ويستعد له • وأنى لأحـد من أولي المدارك أن يحيط بصفاته على ماهي عليه، فان المدارك عن ادراك غير المتناهي قاصرة • نعم ، لبعض المدارك العالية أن يدركه على الاجمال • مع أن مايظهر للعقلاء من صفاته ليس هو من حقيقة صفاته ، بل هو غاية ما تتأدى اليه عقولهم ويتصور كمالا • ولو ظهر قدر ذرة من حقيقة بعض صفاته لأقوى العقول واعلى المدارك ، لاحترق من سبحات وجهه ، وتفرقت أجزاؤه من نور ربه• ولو انكشف من بعضها الغطاء لزهقت النفوس وتقطعت القلوب، فغاية ما للمدارك العالية من العقول والنفوس القادسة ، أن يتصور عـدم

تناهيها في الشدة والقوة ، وكونها في الكمال والبهاء غاية ما يمكن ويتصور ويحتمله ظرف الواقع ونفس الامر ، كما هو الشأن في ذاته سبحانه .وادراك هذه الغاية أيضا يختلف باختلاف علو المدارك ، فمن كان في الدرك أقوى واقدم كان بربه أعرف، ومن كان به أعرف كان منه أخوف ، ولذاقال تعالى:

« انما يخشى الله من عباده العلماء » (٩٢) .

وقال سيد الرسل : « أنا اخوفكم من الله» .وقد قرع سمعك حكايات خوف زمرة المرسلين ومن بعدهم من فِرَق الأولياء والعارفين ، وعروض الغشيات المتواترة في كل ليلة لمولانا أمير المؤمنين عليه السلام .

وهذا مقتضى كمال المعرفة الموجب لشدة الخوف ، اذ كمال المعرفة يوجب احتراق القلب ، فيفيض أثر الحرقة من القلب الى البدن بالنحول والصفار والغشية والبكاء ، والى الجوارح بكفها عن المعاصي وتقييدها بالطاعات تلافيا لما فرط في جنب الله ومن لم يجتهد في ترك المعاصي وكسب الطاعات فليس على شيء من الخوف ، ولذا قيل : ليس الخائف من يبكي ويمسح عينيه ، بل من يترك ما يخاف ان يعاقب عليه . وقال بعض الحكماء « من خاف شيئا هرب منه ، ومن خاف الله هرب اليه » ، وقال بعض العرفاء : « لا يكون العبد خائفا حتى ينزل نفسه منزلة السقيم الذي يحتمي مخافة طول السقام » . والى الصفات بقمع الشهوات وتكدر اللذات ، فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة ،كما يصير العسل مكروها عند من يشتهيه اذا عرف كونه مسموما ، فتحترق الشهوات بالخوف ، وتتأدب الجوارح ، ويحصل في القلب الذبول والذلة والخشوع والاستكانة ، وتفارقه ذمائم الصفات ، ويصير مستوعب الهم بخوفه والنظر في خطر عاقبته، فلا يتفرغ لغيره،ولا يكون له شغل الا المجاهدة والمحاسبة والمراقبة والضنة بالانفاس واللحظات،ومؤاخذة النفس في الخطرات والكلمات ، ويشتغل ظاهره وباطنه بما هو خائف منه لا متسع فيه لغيره ، كما ان من وقع في مخالب ضاري السبع يكون مشغول الهم به ولا شغل له بغيره . وهذا حال من غلبه الخوف واستولى عليه ، كما جرى عليه جماعة من الصحابة والتابعين

---

(٩٢) الفاطر ، الآية : ٢٨ .

ومن يحذوهم من السلف الصالحين .

فقوة المجاهدة والمحاسبة بحسب شدة الخوف الذي هو حرقة القلب وتألمه ، وهو بحسب قوة المعرفة بجلال الله وعظمته وسائر صفاته وأفعاله، وبعيوب النفس وما بين يديها من الاخطار والاهوال .

وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره في الاعمال ان يكف عن المحظورات، ويسمى الكف منها (ورعا) ، فان زادت قوته كف عن الشبهات ، ويسمى ذلك (تقوى) ، اذ التقوى ان يترك ما يريبه الى ما لا يريبه ، وقد يحمله على ترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس ، وهو الصدق في التقوى ، فاذا انضم اليه التجرد للخدمة ،وصار ممن لا يبني ما لا يسكنه ، ولا يجمع مالا يأكله ولا يلتفت الى دنيا يعلم انه يفارقها،ولا يصرف الى غير الله نفسا عن انفاسه فهو (الصدق) ، ويسمى صاحبه (صديقا) ، فيدخل في الصدق التقوى ، وفي التقوى الورع ، وفي الورع العفة ، لانها عبارة عن الامتناع من مقتضى الشهوات .

فاذن يؤثر الخوف في الجوارح بالكف والاقدام .

فصل

بم يتحقق الخوف

إعلم ان الخوف لا يتحقق الا بانتظار مكروه ، والمكروه اما ان يكون مكروها في ذاته كالنار ، او مكروها لافضائه الى المكروه في ذاته كالمعاصي المفضية الى المكروه لذاته في الآخرة ، ولا بد لكل خائف ان يتمثل في نفسه مكروه من احد القسمين ، ويقوى انتظاره في قلبه حتى يتألم قلبه بسبب استشعاره ذلك المكروه ، ويختلف مقام الخائفين فيما يغلب على قلوبهم من المكروهات المحظورة :

فالذين يغلب على قلوبهم خوف المكروه لذاته ، فاما ان يكون خوفهم من سكرات الموت وشدته وسؤال النكيرين وغلظته ، أو عذاب القبر ووحدته وهول المطلع ووحشته ، أو من الموقف بين يدي الله وهيبته والحياء من كشف سريرته ، أو من الحساب ودقته والصراط وحدته ، أو من النار وأهوالها والجحيم واغلالها ، أو الحرمان من دار النعيم وعدم وصوله الى الملك المقيم

أو من نقصان درجاته في العليين وعدم مجاورته المقربين أو من الله سبحانه بأن يخاف جلاله وعظمته والبعد والحجاب منه ويرجو القرب منه ، وهذا أعلاها رتبة ، وهو خوف أرباب القلوب العارفين من صفاته ما يقتضي الهيبة والخوف،والعالمين بلذةالوصال وألم البعد والفراق ،والمطلعين على سر قوله:

« ويحذركم الله نفسه » (٩٣) ، وقوله : « اتقوا الله حق تقاته » (٩٤) .

وقيل : ذلك خوف العابدين والزاهدين وكافة العاملين .

وأما الذين غلب على قلوبهم خوف المكروه لغيره ، فاما يكون خوفهم من الموت قبل التوبة ، أو نقضها قبل انقضاء المدة ، أو من ضعف القوةعن الوفاء بتمام حقوق الله، أو تخليته مع حسناته التي اتكل عليها وتعزز بها في عباد الله ، أو من الميل عن الاستقامة ، او الى اتباع الشهوات المألوفةاستيلاء للعادة ، أو تبديل رقة القلب الى القساوة ، أو تبعات الناس عنده من الغش والعداوة ، او من الاشتغال عن الله بغيره ، أو حدوثما يحدث في بقيةعمره أو [illegible] البطر والاستدراج بتواتر النعم، أو انكشاف غوائل طاعته حتى يبدو له من [illegible] ما لم يعلم ، أو من الاغترار بالدنيا وزخارفها الفانية ، أو تعجيل العقوبة بالدنيا وافتضاحه بالعلانية ،او من اطلاع الله على سريرته وهو عنه غافل ، وتوجهه الى غيره وهو اليه ناظر ، او من الختم له عند الموت بسوء الخاتمة، او مما سبق له في الازل من السابقة. وهذه كلها مخاوف العارفين.

ولكل واحد منها خصوص فائدة ، هو الحذر عما يفضي الى الخوف، فالخائف من تبعات الناس يجتهد في براءة ذمته عنها ، ومن استيلاء العادة يواظب على فطام نفسه عنها ، ومن اطلاع الله على سريرته يشتغل بتطهير قلبه عن الوساوس . وهكذا في بقية الاقسام .

وأغلب هذه المخاوف على المتقين خوف سوء الخاتمة، وهو الذي قطع قلوب العارفين ، اذ الامر فيه مخطر — كما يأتي — وأعلى الاقسام وادلها على كمال المعرفة خوف السابقة ، لان الخاتمة فرع السابقة ، ويترتب عليها بعد تخلل أسباب كثيرة ، ولذا قال العارف الانصاري : « الناس يخافون

---

(٩٣) آل عمران ، الآية : ٢٨ .
(٩٤) آل عمران ، الآية : ١٥٢ .

من اليوم الآخر وأنا أخاف من اليوم الاول » • فالخاتمة تظهر ما سبق به القضاء في أم الكتاب ، واليه اشار النبي (ص) في المنبر ، حيث رفع يده اليمنى قابضا على كفه ، ثم قال : «أتدرون أيها الناس ما في كفي ؟ » ، قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال: « اسماء أهل الجنة واسماء آبائهم وقبائلهم الى يوم القيامة » • ثم رفع يده اليسرى وقال : « ايها الناس ! اتدرون مافي كفي ؟» قالوا : الله ورسوله أعلم ، فقال : « أسماء أهل النار واسماء آبائهم وقبائلهم الى يوم القيامة » • ثم قال : حَكَمَ الله وعَدَل، حكم الله:

« فريق فى الجنة وفريق فى السعير » (٩٥) •

وقال (ص) : « يسلك بالسعيد في طريق الاشقياء حتى يقول الناس : ما اشبهه بهم بل هو منهم ، ثم تتداركه السعادة • وقد يسلك بالشقي طريق السعداء حتى يقول الناس : ما اشبهه بهم ، بل هو منهم ، ثم يتداركه الشقاء • ان من كتبه الله سعيدا وان لم يبق من الدنيا الا فواق ناقة ختم له بالسعادة»[٩٦] •

فصل

الخوف من الله أفضل الفضائل

الخوف منزلة من منازل الدين ومقام من مقامات الموقنين ، وهو أفضل الفضائل النفسانية ، اذ فضيلة الشيء بقدر اعانته على السعادة ، ولا سعادة كسعادة لقاء الله والقرب منه ، ولا وصول اليها الا بتحصيل محبته والانس به • ولا يحصل ذلك الا بالمعرفة ، ولا تحصل المعرفة الا بدوام الفكر ، ولا يحصل الانس الا بالمحبة ودوام الذكر ، ولا تتيسر المواظبة على الفكر والذكر الا بانقلاع حب الدنيا من القلب ، ولا ينقلع ذلك الا بقمع لذاتها وشهواتها ، وأقوى ما تنقمع به الشهوة هو نار الخوف ، فالخوف هو النار المحرقة للشهوات ، فاذن فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوات ويكف من المعاصي ويحث على الطاعات ، ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف — كما مرّ — •

---

(٩٥) الشورى ، الآية : ٧ .

(٩٦) هذا الحديث مروي فى اصول الكافى فى باب السعادة والشقاوة عن ابي عبد الله الصادق — عليه السلام — .

وقيل : من أنس بالله ، وملك الحق قلبه ، وبلغ مقام الرضا ، وصار مشاهدا لجمال الحق : لم يبق له الخوف ، بل يتبدل خوفه بالامن ، كما يدل عليه قوله سبحانه :

« اولئك لهم الامن وهم مهتدون » (٩٧) .

اذ لا يبقى له التفات الى المستقبل ، ولا كراهية من مكروه، ولا رغبة الى محبوب ، فلا يبقى له خوف ولا رجاء ، بل صار حاله أعلى منهما . نعم، لا يخلو عن الخشية — أي الرهبة من الله ومن عظمته وهيبته — واذا صار متجليا بنظر الوحدة لم يبق فيه أثر من الخشية ايضا . لانه من لوازم التكثر وقد زال . ولذا قيل : «الخوف حجاب بين الله وبين العبد». وقيل أيضا: « اذا ظهر الحق على السرائر لا يبقى فيها محل لخوف ولا رجاء » . وقيل ايضا : « المحب اذا شغل قلبه في مشاهدة المحبوب بخوف الفراق كان ذلك نقصا في دوام الشهود الذي هو غاية المقامات » .

وانت خبير بأن هذه الاقوال مما لا التفات لنا اليها ، فلنرجع الى ما كنا بصدده من بيان فضيلة الخوف . فنقول : الآيات والاخبار الدالة عليه اكثر من ان تحصى، وقد جمع الله للخائفين العلم والهدى والرحمة والرضوان، وهي مجامع مقامات أهل الجنان ، فقال :

« انما يخشى الله من عباده العلماء » (٩٨) . وقال : « هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون » (٩٩) . وقال : « رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه » (١٠٠) .

وكثير من الآيات مصرحة بكون الخوف من لوازم الايمان ، كقوله تعالى:

« انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم » (١٠١) .

وقوله : « وخافون ان كنتم مؤمنين » (١٠٢) .

ومدح الخائفين بالتذكر في قوله :

---

(٩٧) الانعام ، الآية : ٨٢ .
(٩٨) الفاطر ، الآية : ٢٨ .
(٩٩) الاعراف ، الاية : ١٥٤ .
(١٠٠) البينة ، الآية ٨ .
(١٠١) الانفال ، الاية : ٢ .
(١٠٢) آل عمران ، الآية : ١٧٥ .

« سيذكر من يخشى » (١٠٣) .

ووعدهم الجنة وجنتين ، بقوله :

« وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى » (١٠٤) . وقوله : « ولمن خاف مقام ربه جنتان » (١٠٥) .

وفي الخبر القدسي : « وعزتي لا اجمع على عبدي خوفين ولا اجمع له امنين ، فاذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة ، واذا خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة ».وقال رسول الله (ص) : « رأس الحكمة مخافة الله » وقال (ص) : « من خاف الله أخاف الله منه كل شيء ، ومن لم يخف الله اخافه الله من كل شيء »[١٠٦] ، وقال لابن مسعود : « ان اردت ان تلقاني فأكثر من الخوف بعدي » وقال (ص) : «اتمكم عقلا اشدكم لله خوفا ».

وعن ليث بن أبي سليم قال : « سمعت رجلا من الانصار يقول : بينما رسول الله مستظل بظل شجرة في يوم شديد الحر ، اذ جاء رجل فنزع ثيابه، ثم جعل يتمرغ في الرمضاء، يكوي ظهره مرة ، وبطنه مرة ، وجبهته مرة، ويقول : يا نفس ذوقي ، فما عند الله أعظم مما صنعت بك . ورسول الله ينظر اليه ما يصنع . ثم ان الرجل لبس ثيابه ، ثم أقبل ، فأومى اليه النبي (ص) بيده ودعاه ، فقال له : يا عبدالله ! رأيتك صنعت شيئا ما رأيت أحدا من الناس صنعه ، فما حملك على ما صنعت ؟ فقال الرجل : حملني على ذلك مخافة الله ، فقلت لنفسي : يا نفس ذوقي فما عند الله أعظم مما صنعت بك . فقال النبي (ص) : لقد خفت ربك حق مخافته ، وان ربك ليباهي بك أهل السماء ، ثم قال لأصحابه : يا معشر من حضر! ادنوا من صاحبكم حتى يدعو لكم. فدنوا منه ، فدعا لهم ، وقال : اللهم اجمع أمرنا على الهدى ، واجعل التقوى زادنا ، والجنة مآبنا » .

وقال (ص) : « ما من مؤمن يخرج من عينيه دمعة ، وان كانت مثل

---

(١٠٣) الاعلى ، الاية : ١٠ .

(١٠٤) النازعات ، الآية : ٤٠ — ٤١ .

(١٠٥) الرحمن ، الاية : ٤٦ .

(١٠٦) روي الحديث في أصول الكافي في باب الخوف والرجاء عن الصادق — عليه السلام — .

رأس الذباب ، من خشية الله ، ثم يصيب شيئا من حرّ وجهه ، الا حرمه الله على النار » ، وقال : « اذا اقشعر قلب المؤمن من خشية الله تحاتت عنه خطاياه كما يتحات من الشجر ورقها » ، وقال : « لا يلج النار احد بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع » . وقال سيد الساجدين (ع) في بعض ادعيته : « سبحانك ! عجبا لمن عرفك كيف لا يخافك» . وقال الباقر عليه السلام : « صلى امير المؤمنين عليه السلام بالناس الصبح بالعراق ، فلما انصرف وعظهم ، فبكى وابكاهم من خوف الله ، ثم قال : أما والله لقد عهدت أقواما على عهد خليلي رسول الله (ص) : وانهم ليصبحون ويمسون شعثا غبرا خمصا بين اعينهم كركب البعير يبيتون لربهم سجدا وقياما ، يراوحون بين اقدامهم وجباههم ، يناجون ربهم في فكاك رقابهم من النار ، والله لقد رأيتهم مع هذا وهم خائفون مشفقون » ، وفي رواية اخرى : « وكأن زفير النار في آذانهم ، اذا ذكر الله عندهم مادوا كما تميد الشجر كأنما القوم باتوا غافلين » ، ثم قال (ع) : « فما رئي عليه السلام بعد ذلك ضاحكا حتى قبض » . وقال الصادق عليه السلام : « من عرف الله خاف الله ، ومن خاف الله سخت نفسه عن الدنيا » ، وقال عليه السلام : « ان من العبادة شدة الخوف من الله تعالى يقول : «انما يخشى الله من عباده العلماء» . وقال :

« فلا تخشوا الناس واخشون » (١٠٧) . وقال : « ومن يتق الله يجعل له مخرجا » (١٠٨) .

وقال : «ان حب الشرف والذكر لا يكونان في قلب الخائف الراهب»، وقال (ع) : « المؤمن بين مخافتين : ذنب قد مضى ما يدري ما صنع الله فيه، وعمر قد بقي لا يدري ما يكتسب فيه من المهالك ، فهو لا يصبح الا خائفا ولا يصلحه الا الخوف » وقال عليه السلام : « خف الله كأنك تراه وان كنت لا تراه فانه يراك ، وان كنت ترى انه لا يراك ، فقد كفرت ، وان كنت تعلم انه يراك ثم برزت له بالمعصية فقد جعلته من أهون الناظرين اليك » ، وقال عليه السلام : « لا يكون المؤمن مؤمنا حتى يكون خائفا

---

(١٠٧) المائدة ، الآية : ٤٤ .
(١٠٨) الطلاق ، الاية : ٢ .

راجيا ، ولا يكون خائفا راجيا حتى يكون عاملا لما يخاف ويرجو » ، وقال عليه السلام : « مما حفظ من خطب النبي (ص) انه قال : ايها الناس ! ان لكم معالم فانتهوا الى معالمكم ، وان لكم نهاية فانتهوا الى نهايتكم ، ألا ان المؤمن يعمل بين مخافتين : بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه، وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه ، فليأخذ العبد المؤمن من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر ، وفي الحياة قبل الممات فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الدنيا من مستعتب وما بعدها من دار الا الجنة او النار » .

ثم الاخبار الواردة في فضل العلم والتقوى والورع والبكاء والرجاء تدل على فضل الخوف ، لأن جملة ذلك متعلقة به تعلق السبب او تعلق المسبب ، اذ العلم سبب الخوف ، والتقوى والورع يحصلان منه ويترتبان عليه — كما ظهر مما سبق — والبكاء ثمرته ولازمه ، والرجاء يلازمه ويصاحبه ، اذ كل من رجا محبوبا فلا بد ان يخاف فوته ، اذ لو لم يخف فوته لم يحبه فلا ينفك أحدهما عن الآخر ، وان جاز غلبة أحدهما على الآخر ، اذ من شرطهما تعلقهما بالمشكوك ، لان المعلوم لا يرجى ولا يخاف فالمحبوب المشكوك فيه تقدير وجوده يروح القلب وهو الرجاء ، وتقدير عدمه يؤلمه وهو الخوف ، والتقديران يتقابلان . نعم ، أحد طرفي الشك قد يترجح بحضور بعض الاسباب ، ويسمى ذلك ظنا ، ومقابله وهما ،فاذا ظن وجود المحبوب قوى الرجاء وضعف الخوف بالاضافة اليه ، وكذا بالعكس ، وعلى كل حال فهما متلازمان ، ولذلك قال الله سبحانه :

« ويدعوننا رغبا ورهبا » (١٠٩) . وقال : « يدعون ربهم خوفا وطمعا » (١١٠) .

وقد ظهر ان ما يدل على فضل الخمسة يدل على فضيلته ، وكذا ما ورد في ذم الامن من مكر الله يدل على فضيلته ، لانه ضده ، وذم الشيء مدح لضده الذي ينفيه . ومما يدل على فضيلته ما ثبت بالتواتر من كثرة

(١٠٩) الانبياء ، الآية : ٩٠ .

(١١٠) السجدة ، الآية : ١٦ .

خوف الملائكة والانبياء وأئمة الهدى — عليهم السلام — كخوف جبرائيل، وميكائيل ، واسرافيل ، وحملة العرش ، وغيرهم من الملائكة المهيمين والمسلتين . وكخوف نبينا ، وابراهيم ، وموسى ، وعيسى ، وداود ويحيى ... وغيرهم. وخوف امير المؤمنين وسيد الساجدين وسائر الائمة الطاهرين عليهم السلام وحكاية خوف كل منهم في كتب المحدثين مذكورة وفي زبرهم مسطورة ، فليرجع اليها من اراد ، ومن الله العصمة والسداد .

فصل

الخوف اذا جاوز حده كان مذموما

أعلم ان الخوف ممدوح الى حد ، فان جاوزه كان مذموما . وبيان ذلك : ان الخوف سوط الله الذي يسوق به العباد الى المواظبة على العلم والعمل ، لينالوا بهما رتبة القرب اليه تعالى ولذة المحبة والانس به ، وكما ان السوط الذي تساق به البهيمة ويأدب به الصبي ، له حد من الاعتدال، لو قصر عنه لم يكن نافعا في السوق والتأديب ، ولو تجاوز عنه في المقدار او الكيفية او المبالغة في الضرب كان مذموما لأدائه الى اهلاك الدابة والصبي، فكذلك الخوف الذي هو سوط الله لسوق عباده له حد في الاعتدال والوسط وهو ما يوصل الى المطلوب ، فان كان قاصرا عنه كان قليل الجدوى ،وكان كقضيب ضعيف يضرب به دابة قوية ، فلا يسوقها الى المقصد . ومثل هذا الخوف يجري مجرى رقة النساء عند سماع شيء محزن يورث فيهن البكاء، وبمجرد انقطاعه يرجعن الى حالهن الاولى ، او مجرى خوف بعض الناس عند مشاهدة سبب هائل ، واذا غاب ذلك السبب عن الحس رجع القلب الى الغفلة . فهذا خوف قاصر قليل الجدوى . فالخوف الذي لا يؤثر في الجوارح بكفها عن المعاصي وتقييدها بالطاعات حديث نفس وحركة خاطر لا يستحق ان يسمى خوفا . ولو كان مفرطا ربما جاوز الى القنوط وهو ضلال :

« ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون » (١١١) .

أو الى اليأس وهو كفر :

---

(١١١) الحجر ، الآية : ٥٦ .

« لاييأس من روح الله الا القوم الكافرون » (١١٢) .

ولا ريب في ان الخوف المجاوز الى اليأس والقنوط يمنع من العمل، لرفعهما نشاط الخاطر الباعث على الفعل ، وايجابهما كسالة الاعضاء المانعة من العمل . ومثل هذا الخوف محض الفساد والنقصان وعين القصور والخسران ، ولا رجحان له في نظر العقل والشرع مطلقا ، اذ كل خوف بالحقيقة نقص لكونه منشأ العجز ، لأنه متعرض لمحذور لا يمكنه دفعه، وباعث الجهل لعدم اطلاعه على عاقبة أمره ، اذ لو علم ذلك لم يكن خائفا لما مر من ان الخوف هو ما كان مشكوكا فيه ، فبعض افراد الخوف انما يصير كمالا بالاضافة الى نقص أعظم منه ، وباعتبار رفعه المعاصي وافضائه الى ما يترتب عليه من الورع والتقوى والمجاهدة والذكر والعبادة وسائر الاسباب الموصلة الى قرب الله وأنسه ، ولو لم يؤد اليها كان في نفسه نقصا لا كمالا ، اذ الكمال في نفسه هو ما يجوز ان يوصف الله تعالى به، كالعلم والقدرة وأمثالهما ، وما لا يجوز وصفه به ليس كمالا في ذاته ، وربما صار محمودا بالاضافة الى غيره وبالنظر الى بعض فوائده ، فما لا يفضى الى فوائده المقصودة منه لافراطه فهو مذموم ، وربما اوجب الموت او المرض أو فساد العقل ، وهو كالضرب الذي يقتل الصبي او يهلك الدابة أو يمرضها أو يكسر عضوا من اعضائها . وانما مدح صاحب الشرع الرجاء وكلف الناس به ، ليعالج به صدمة الخوف المفرط المفضي الى اليأس أو الى أحد الامور المذكورة . فالخوف المحمود ما يفضى الى العمل مع بقاء الحياة وصحة البدن وسلامة العقل ، فان تجاوز الى ازالة شيء منها فهو مرض يجب علاجه ، وكان بعض مشايخ العرفاء يقول للمرتاضين من مريديه الملازمين للجوع أياما كثيرة : « احفظوا عقولكم ، فانه لم يكن لله تعالى ولي ناقص العقل » وما قيل : « ان من مات من خوف الله تعالى مات شهيدا » معناه ان موته بالخوف أفضل من موته في هذا الوقت بدونه ، فهو بالنسبة اليه فضيلة ، لا بالنظر الى تقدير بقائه وطول عمره في طاعة الله وتحصيل المعارف ، اذ للمترقي في درجات المعارف والطاعات له في كل

---

(١١٢) يوسف ، الاية : ٨٧ .

لحظة ثواب شهيد أو شهداء ، فأفضل السعادات طول العمر في تحصيل العلم والعمل ، فكلما يبطل العمر أو العقل والصحة فهو خسران ونقصان.

فصل

طرق تحصيل الخوف الممدوح

لتحصيل الخوف الممدوح وجلبه طرق :

(الاول) ان يجتهد في تحصيل اليقين : أي قوة الايمان بالله ، واليوم الآخر ، والجنة ، والنار ، والحساب ، والعقاب . ولا ريب في كونه مهيجا للخوف من النار والرجاء للجنة. ثم الخوف والرجاء يؤديان الى الصبر على المكاره والمشاق ، وهو الى المجاهدة والتجرد لذكر الله تعالى والفكر فيه على الدوام ، ويقوى دوام الذكر على الانس ، ودوام الفكر على كمال المعرفة ، ويؤدي الانس وكمال المعرفة الى المحبة ، ويتبعها الرضا والتوكل وسائر المقامات . وهذا هو الترتيب في سلوك منازل الدين ، فليس بعد أصل اليقين مقام سوى الخوف والرجاء ، ولا بعدهما مقام سوى الصبر ، ولا بعده سوى المجاهدة والتجرد لله ظاهرا وباطنا ، ولا بعده سوى الهداية والمعرفة ، ولا بعدهما سوى الانس والمحبة . ومن ضرورة المحبة الرضا بفعل المحبوب والثقة بعنايته ، وهو التوكل . فاليقين هو سبب الخوف ، فيجب تحصيل السبب ليؤدي الى المسبب .

(الثاني) ملازمة التفكر في أحوال القيامة ، وأصناف العذاب في الآخرة، واستماع المواعظ المنذرة ، والنظر الى الخائفين ومجالستهم ، ومشاهدة أحوالهم واستماع حكاياتهم . وهذا مما يستجلب الخوف من عذابه تعالى، وهو خوف عموم الخلق ، وهو يحصل بمجرد اصل الايمان بالجنة والنار ، وكونهما جزأين على الطاعة والمعصية ، وانما يضعف للغفلة او ضعف الايمان ، وتزول الغفلة والضعف بما ذكر ، وأما الخوف من الله بأن يخاف البعد والحجاب ويرجو القرب والوصال ، وهو خوف أرباب القلوب ، العارفين من صفاته ما يقتضى الخوف والهيبة ، المطلعين على سر قوله :

« ويحذركم الله نفسه » (١١٣). وقوله : **« أتقوا الله حق تقاته »**(١١٤).

---

(١١٣) آل عمران ، الاية : ٢٨ .

(١١٤) آل عمران ، الآية : ١٠٢ .

فالعلاج في تحصيله الارتقاء الى ذروة المعرفة ، اذ هذا الخوف ثمرة المعرفة بالله وبصفات جلاله وجماله ، ومن لم يسكنه ذلك فلا يترك سماع الاخبار والآثار وملاحظة أحوال الخائفين من هيبته وجلاله ، كالانبياء والاولياء وزمرة العرفاء ، فانه لا يخلو عن تأثير .

(الثالث) أن يتأمل في أن الوقوف على كنه صفات الله في حيز المحال ، وان الاحاطة بكنه الامور ليس في مقدرة البشر ، اذ هي مرتبطة بالمشية ارتباطا يخرج عن حد المعقول والمألوف . ومن عرف ذلك على التحقيق يعلم ان الحكم على أمر من الامور الآتية غير ممكن بالحدس والقياس ، فضلا عن القطع والتحقيق ، وحينئذ يعظم خوفه ويشتد ألمه، وان كانت الخيرات كلها له ميسرة ونفسها عن الدنيا بالمرة منقطعة ، والى الله بشراشرها ملتفتة، اذ خطر الخاتمة وعسر الثبات على الحق مما لا يمكن دفعه ، وكيف يحصل الاطمئنان من تغير الحال ، وقلب المؤمن بين اصبعين من اصابع الرحمن ، وانه أشد تقلبا من القدر في غليانها ، وقد قال مقلب القلوب :

« ان عذاب ربهم غير مأمون » (١١٥) .

فاني للناس ان يطمئنوا وهو يناديهم بالتحذر،ولذا قال بعض العرفاء: « لو حالت بيني وبين من عرفته بالتوحيد خمسين سنة اسطوانة فمات لم أقطع له بالتوحيد ، لاني لا ادري ما ظهر له من التقلب »[١١٦] .

فصل

خوف سوء الخاتمة وأسبابه

قد اشير الى ان اعظم المخاوف خوف سوء الخاتمة ، وله اسباب مختلفة ترجع الى ثلاثة :

(الاول) وهو الاعظم ، وهو ان يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله ، اما الجحود أو الشك فتقبض الروح في تلك الحالة ، وتصير عقدة الجحود أو الشك حجابا بينه وبين الله تعالى ، وذلك يقتضي البعد الدائم، والحرمان اللازم ، وخسران الابد ، والعذاب المخلد،

---

(١١٥) المعارج ، الاية : ٢٨ .

(١١٦) نقل هذه الكلمة في احياء العلوم (ج٤ ص ١٤٩) عن بعض العارفين ولم يذكر اسمه ايضا .

ثم هذا الجحود او الشك اما يتعلق ببعض العقائد الاصولية، كالتوحيد وعلمه تعالى أو غير ذلك من صفاته الكمالية ، أو بضروريات أمر الآخرة والنبوة . وكل واحد من ذلك كاف في الهلاك وزهوق النفس على الزندقة. أو يتعلق بجميعها اما اصالة أو سراية ، والمراد بالسراية أن الرجل ربما اعتقد في ذات الله وصفاته وافعاله خلاف ما هو الحق والواقع ، اما برأيه ومعقوبه، او بالتقليد ، فاذا قرب الموت وظهرت سكراته واضطرب القلب بما فيه ، ربما انكشف بطلان ما اعتقده جهلا ، اذ حال الموت حال كشف الغطاء ، ويكون ذلك سببا لبطلان بقية اعتقاداته أو الشك فيها ، وان كانت صحيحة مطابقة للواقع ، اذ لم يكن عنده اولا فرق بين هذا الاعتقاد الفاسد الذي انكشف فساده وبين سائر عقائده الصحيحة ، فاذا علم خطأه في البعض لم يبق له اليقين والاطمئنان في البواقي . كما نقل ان (الفخر الرازي) بكى يوما ، فسألوه عن سبب بكائه ، قال : « اعتقدت في مسألة منذ سبعين سنة على نحو انكشف اليوم لي بطلانه، فما أدراني أن لا تكون سائر عقائدي كذلك».

وبالجملة : ان اتفق زهوق روحه في هذه الخطرة قبل ان ينيب ويعود الى أصل الايمان ، فقد ختم له بالسوء وخرجت روحه على الشرك ، اعاذنا الله منه ، وثبتنا على الاعتقاد الحق لديه ، وهم المقصودون من قوله :

« وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون » (١١٧) . ومن قوله : «قل هل ننبئكم بالاخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا » (١١٨) .

والبله : اعني الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر ايمانا مجملا راسخا ، بمعزل عن هذا الخطر ، ولذلك ورد : ان اكثر أهل الجنة البله . وورد المنع من البحث والنظر والخوض في الكلام ، والاخذ بظواهر الشرع مع اعتقاد كونه تعالى منزها عن النقص متصفا بما هو الغاية والنهاية من صفات الكمال . والسر في ذلك : ان البله اذا أخذوا بما ورد من الشرع واعتقدوا به ، يثبتون عليه لقصور اذهانهم عن درك الشبهات وعدم اعتيادهم

---

(١١٧) الزمر ، الآية : ٤٧ .
(١١٨) الكهف ، الاية : ١٠٣ — ١٠٤ .

بالتشكيك ، فلا يختلج ببالهم شك وشبهة ولو عند الموت .

وأما الخائضون في غمرات البحث والنظر ، والآخذون عقائدهم من عقولهم المزجاة ، فليس لهم تثبت على عقائدهم ، اذ العقول عن درك صفات الله وسائر العقائد الاصولية على ما هي عليه قاصرة ، والادلة التي يستخرجها مضطربة متعارضة وابواب الشكوك والشبهات بالخوض والبحث تصير مفتوحة . فاذهانهم دائما محل تعارض العقائد والشكوك ، فربما ثبتت لهم عقيدة بملاحظة بعض دلائله ، فيحصل لهم فيها طمأنينة ، ثم يعرض لهم شك يرفعها أو يضعفها ، فهم دائما في غمرات الحيرة والاضطراب . فاذا كان حالهم هذا فأخذتهم سكرات الموت ، فأي استبعاد في ان يختلج لهم حينئذ شك في بعض عقائدهم . ومثله مثل من انكسرت سفينته وهو في ملتطم الامواج يرميه موج الى موج ، والغالب في مثله الهلاك ، وان اتفق نادرا أن يرميه موج الى الساحل . وقد نقل عن (نصير الدين الحلي) — وهو من أعاظم المتكلمين — انه قال: « اني تفكرت في العلوم العقلية سبعين سنة ، وصنفت فيها من الكتب ما لا يحصى ، ولم يظهر لي منها شيء سوى ان لهذا المصنوع صانعا ، ومع ذلك عجائز القوم في ذلك أشد يقينا مني » . فالصواب تلقى أصل الايمان والعقائد من صاحب الوحي ، مع تطهير الباطن عن خبائث الاخلاق ، والاشتغال بالطاعات وصوالح الاعمال ، وعدم التعرض لما هو خارج عن طاقتهم من التفكر في حقائق المعارف ، الا من أيده الله بالقوة القدسية والقريحة المستقيمة ، واشرق نور الحكمة في قلبه . وشمله خفى الالطاف من ربه ، فله الخوض في غمرات العلوم . وأما غيره فينبغي ان يأخذ منه أصول عقائده الواردة من الشرع ، ويشتغل بخدمته حتى تشمله بركات انفاسه ، فان العاجز عن المجاهدة في صف القتال ينبغي ان يسقى القوم ويتعهد دوابهم ، ليحشر يوم القيامة في زمرتهم وان كان فاقدا لدرجتهم .

(الثاني) ضعف الايمان في الاصل ، ومهما ضعف الايمان ضعف حب الله وقوى حب الدنيا في القلب ، واستولى عليه بحيث لا يبقى في القلب موضع لحب الله الا من حيث حديث النفس ، فلا يظهر له أثر في مخالفة

النفس والشيطان ، فيورث ذلك الانهماك في اتباع الشهوات ، حتى يظلم القلب ويسود ، وتتراكم ظلمة الذنوب عليه ، ولا يزال يطفيء ما فيه من نور الايمان حتى ينطفيء بالكلية ، فاذا جاءت سكرة الموت ازداد حب الله ضعفا ، وربما عدم بالمرة ، لما يستشعر من فراق محبوبه الغالب على قلبه ، وهو الدنيا ، فيتألم ويرى ذلك من الله ، فيختلج ضميره بانكار ما قدرهالله من الموت ، وربما يحدث في باطنه بغض الله بدل الحب ، لما يرى أنموته من الله ، كما ان من يحب ولده حبا ضعيفا ، اذا أخذ مالا لههو أحب اليه منه وأتلفه ، انقلب حبه بغضا . فان اتفق زهوق روحه في تلك اللحظةالتي خطر فيها هذه الخطرة فقد ختم له بالسوء . نعوذ بالله من ذلك .

وقد ظهر ان السبب المفضي الىذلك غلبة حب الدنيا مع ضعف الايمان الموجب لضعف حب الله ، فمن وجد في قلبه حب الله اغلب من حب الدنيا فهو أبعد من هذا الخطر ، وان احبالدنيا أيضا ، ومن وجد في قلبهعكس ذلك فهو قريب من هذا الخطر . والسبب في قلة حب الله قلة المعرفة به ، اذ لا يحب الله الا من عرفه ، والى هذا القسم من سوء الخاتمة اشير في الكتاب الالهي بقوله :

« قل ان كان آباؤكم وابناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى ياتي الله بامره » (١١٩) .

فمن فارقته روحه في حالة كراهة فعل الله وبغضه له في تفريقه بينه وبين أهله وماله وسائر محابه ، فيكون موته قدوما على ما أبغضه وفراقا لما أحبه فيقدم على اللهقدوم العبد المبغض الآبقاذا قدم به على مولاهقهرا ، ولا يخفى ما يستحق مثله من الخزي والنكال واما الذي يموت على حب الله والرضا بفعله كان قدومه قدوم العبد المحسن المشتاق الى مولاه ، ولا يخفى ما يلقاه من الفرح والسرور .

(والثالث) كثرة المعاصي وغلبة الشهوات ، وان قوى الايمان . وبيان ذلك : ان مقارفة المعاصي سببها غلبة الشهوات ورسوخها في القلب بكثرة

---

(١١٩) التوبة ، الاية : ٢٤ .

الالف والعادة ، وجميع ما ألفه الانسان في عمره يعود ذكره في قلبه عند موته ، فان كان اكثر ميله الى الطاعات كان اكثر ما يحضره عند الموت طاعة الله ، وان كان أكثر ميله الى المعاصي غلب ذكرها على قلبه عنده ، وان كان أكثر شغله السخرية والاستهزاء والمزاح وامثال ذلك كان الغالب عند الموت ذلك، وهكذا الحال في جميع الاشغال والاعمال الغالبة في عمره ، فانها تغلب على قلبه عند موته ، فربما يقبض روحه عند غلبة شهوة من شهوات الدنيا ومعصية من المعاصي ، فيعتقد بها قلبه ، ويصير محجوبا عن الله تعالى . وهو المراد بالختم على السوء . فالذي غلبت عليه المعاصي والشهوات، وكان قلبه أميل اليها منه الى الطاعة ، فهذا الخطر قريب في حقه ، ولا يميل اليها أصلا ، فهو بعيد منه جدا . ومن غلبت عليه الطاعات ولم يقارف المعاصي الا نادرا ، فلعل الراجح في حقه النجاة منه ، وان امكن حصوله . ومن لم يغلب شيء من طاعاته ومعاصيه على الاخر فأمره في هذا الخطر الى الله ، ولا يمكن لنا الحكم بشيء من القرب والبعد في حقه .

والسر في ذلك : ان الغشية المتقدمة على الموت شبيهة بالنوم ، فكما ان الانسان يرى في منامه جملة من الاحوال التي عهدها طول عمره وألفها، حتى انه لا يرى في منامه الا ما يماثل مشاهداته في اليقظة ، وحتى ان المراهق الذي يحتلم لا يرى صورة الوقاع ، فكذلك حاله عند سكرات الموت وما يتقدمه من الغشية ، لكونه شبيها بالنوم وان كان فوقه ، فيقتضى ذلك تذكر المألوفات وعودها الى القلب ، فربما يكون غلبة الالف سببا لان تتمثل صورة فاحشة في قلبه وتميل نفسه اليها وتقبض عليها روحه ، ويكون ذلك سبب سوء خاتمته ، وان كان أصل الايمان باقيا بحيث يرجى له الخلاص منها بعناية الله وفضله . وكما ان ما يخطر بالبال في اليقظة انما يخطر بسبب خاص لا يعلمه بحقيقته احد الا الله ، فكذلك ما يرى في آحاد المنامات وما يختلج في القلب عند سكرات الموت له اسباب عند الله لا نعرف بعضها ، وربما نتمكن من معرفة بعضه ، فانا نعلم ان الخاطر ينتقل من الشيء الى ما يناسبه ، اما بالمشابهة ، بأن ينظر الى جميل فيتذكر جميلا آخر ، واما بالمضادة ، بأن ينظر الى جميل فيتذكر قبيحا ، واما بالمقارنة ، بأن ينظر الى

فرس قد رآه من قبل مع انسان فيتذكر ذلك الانسان . وقد ينتقل الخاطر من شيء الى شيء ، ولا يدري وجه المناسبة له ، وربما ينتقل الى شيء لا يعرف سببه أصلا . وكذلك انتقالات الخواطر بالمنام وعند سكرات الموت لها أسباب لا نعرف بعضها ونعرف بعضها بالنحو المذكور . ومن اراد ان يكف خاطره عن الانتقال الى المعاصي والشهوات ، فلا طريق له الا المجاهدة طول عمره في فطام نفسه عنها ، وفي قمع الشهوات عن قلبه ، فهذا هو القدر الذي يدخل تحت الاختيار ، ويكون طول المجاهدة والمواظبة على العلم وتخلية السر عن الشواغل الدنيوية وتقييده بالتوجه الى الله وحبه وأنسه عدة وذخيرة لحالة سكرات الموت ، اذ المرء يموت على ما عاش عليه ، ويحشر على ما مات عليه ، كما ورد في الخبر[١٢٠] . وقد دلت المشاهدة على ان كل أحد يكون عند موته مشغول القلب بما هو الغالب عليه طول عمره ، حيث يظهر منه عنده ذلك ، وانما المخوف الموجب لسوء الخاتمة هو خاطر سوء يخطر ، ومنه عظم خوف العارفين ، اذ اختلاج الخواطر والاتفاقات المقتضية لكونها مذمومة أو ممدوحة لا يدخل تحت الاختيار دخولا كليا، وان كان لطول الالف والعادة تأثير ومدخلية ، ولذا اذا أراد الانسان الا يرى في المنام الا الانبياء والأئمة عليهم السلام واحوال الصالحين والعبادات لم يتيسر له ، وان كانت كثرة الحب والمواظبة على الصلاح والطاعة مؤثرة فيه. وبالجملة : اضطرابات الخيال لا تدخل بالكلية تحت الضبط ، وان كان الغالب مناسبة ما يظهر في النوم لما غلب في اليقظة . وبذلك يعلم ان اعمال العبد كلها ضائعة ان لم يسلم في النفس الاخير الذي عليه خروج الروح ، وان السلامة مع اضطراب أمواج الخواطر مشكلة ، ولذلك قال رسول الله (ص) : « ان الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة الا فواق ناقة ، فيختم له بما سبق به الكتاب» ومعلوم ان فواق الناقة لا يتسع لاعمال توجب الشقاوة، بل هي الخواطر التي تضطرب وتخطر

---

(١٢٠) لم نعثر على مصدر لهذا الخبر ، وجاء ذكر هذا الخبر مرسلا فى الحقائق)ـ ص ٨٨ طبع ايران ـ للشيخ (ملا محسن الفيض) ولم يذكر المصدر لـه .

خطور البرق الخاطف . ومن هنا قيل[١٢١] : « اني لا أعجب ممن هلك كيف هلك ، ولكني أعجب ممن نجا كيف نجا » ، وورد[١٢٢] : « ان الملائكة اذا صعدت بروح المؤمن ، وقد مات على الخير والاسلام ، تعجبت الملائكة منه ، وقالوا : كيف نجا من دنيا فسد فيها خيارنا » . ولذلك قيل[١٢٣] : من وقعت سفينته في لجة البحر ، وهجمت عليه الرياح العاصفة ، واضطربت الامواج ، كانت النجاة في حقه أبعد من الهلاك ، وقلب المؤمن أشد اضطرابا من السفينة ، وامواج الخواطر أعظم التطاما من أمواج البحر ، ومقلب القلوب هو الله . ومن هنا يظهر سر قوله : « الناس كلهم هلكى ألا العالمون ، والعالمون ، كلهم هلكى الا العاملون ، والعاملون كلهم هلكى الا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم »[١٢٤] .

ولأجل هذا الخطر العظيم كانت الشهادة مطلوبة وموت الفجأة مكروها ، اذ موت الفجأة ربما يتفق عند غلبة خاطر سوء واستيلائه على القلب .

واما الشهادة في سبيل الله فانها عبارة عن قبض الروح في حالة لم يبق في القلب غير حب الله ، وخرج حب الدنيا والمال والولد . فان من هجم على صف القتال بأمر الله وأمر رسوله يكون موطنا نفسه على الموت لرضا الله وحبه ، بائعا دنياه بآخرته ، راضيا بالبيع الذي بايعه الله به في قوله :

« ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم وأموالهم بان لهم الجنة » (١٢٥) .

وبذلك يظهر ان القتل لا بسبب الشهادة التي حقيقتها ما فسر ، لا يفيد الاطمئنان من هذا الخطر ، وان كان ظلما ، وان كان في الجهاد ، اذا لم تكن

---

(١٢١) القائل هو (مطرف بن عبد الله) كما في احياء العلوم : ج٤ ص١٥٥ .

(١٢٢) يظهر من كلمة (ورد) ان هذا حديث . وفي احياء العلوم — ج٤ ص ١٥٥ — كلام ينقله عن (حامد اللفاف) .

(١٢٣) القائل هو (الغزالي) في احياء العلوم ، في الصفحة المتقدمة .

(١٢٤) جاء نص هذا الكلام في اثناء كلام (الغزالي) في احياء العلوم — ج٤ ص ١٥٦ — وكانه من كلام نفسه . الا انه جاء نص هذه العبارة في (مجموعة الشيخ ورام) ص ٣٢٠ ، عن النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — مرسلا . وكذلك جاء في (مصباح الشريعة) المنسوب الى الصادق — عليه السلام — في الباب ٧٧ ما يقرب من هذا النص . فماذا تظن اراد المؤلف بقوله : (سر قوله) هل اراد الغزالي يا ترى ؟ .

(١٢٥) التوبة ، الآية : ١١١ .

هجرته فيه الى الله ورسوله ، بل الى دنيا يصيبها أو امرأة يأخذها .

وقد ظهر مما ذكر : ان سوء الخاتمة باختلاف أسبابه راجع الى احوال القلب ، وحالة القلب اما خاطر خير أو خاطر سوء أو خاطر مباح ، فمن زهق روحه على خاطر مباح لم يكن الحكم بانه ختم على خير أو سوء ، بل أمره الى الله ، وان كانت النجاة له اقرب بعد غلبة صالحات أعماله على فاسداتها ومن زهق روحه على خاطر سوء وهو أحد الخواطر المتقدمة :

« فقد ضل ضلالا بعيدا » ، و « خسر خسرانا مبينا » (١٢٦) .

ومن زهق روحه على خاطر خير وهو ان يكون قلبه في حالة الموت متوجها الى الله ممتليا من حبه وانسه « فقد فاز فوزا عظيما » . وهذا موقوف على المجاهدة في فطام النفس عن الشهوات الحيوانية ، واخراج حب الدنيا عنها رأسا ، والاحتراز عن فعل المعاصي ومشاهداتها والتفكر فيها ، وعن مجالسة أهلها واستماع حكاياتهم ، بل عن مباحات الدنيا بالكلية ، وتخلية السر عما سوى الله ، والانقطاع بشراشره اليه ، واخراج محبة كل شيء سوى محبته عن قلبه ، حتى يصير حبه سبحانه والانس به ملكة راسخة ، ليغلب على القلب عند سكرة الموت ، وبدون ذلك لا يمكن القطع بذلك ، كيف وقد علمت ان الغشية المتقدمة على الموت شبه النوم ، وانت في غالب الرؤيا الظاهرة عليك في المنام لا تجد في قلبك حبا لله وأنسا به وتوجها اليه ، بل لا يخطر ببالك أن لك ربا متصفا بالصفات الكمالية ، بل ترى ما كنت تألفه وتعتاده من الامور الباطلة والخيالات الفاسدة ، فان زهق روحك عند اشتغال خاطرك بشيء من الامور الدنيوية ، ولم يكن متوجها الى الله ومستحضرا معرفته ومبتهجا بحبه وأنسه ، لبقيت على تلك الحالة ابدا ، وهو الشقاوة العظمى والخيبة الكبرى .

فتيقظ — يا حبيبي — من سنة الغفلة ، وتنبه عن سكر الطبيعة ، واخرج حب الدنيا عن قلبك ، وتوجه بشراشرك الى جناب ربك ، واكتف من الدنيا بقدر ضرورتك ولا تطلب منها فوق حاجتك ، واقنع من الطعام ما يقيم صلبك ولا تكثر التناول منه ليزيل من ربك قربك ، وارض من اللباس بما

---

(١٢٦) النساء ، الآية ١١٦ ، ١١٩ .

يستر عورتك ولا يظهر للناس سوءتك، واكتف من المسكن بما يحول بينك وبين الابصار ويدفع عنك حر الشمس وبرد الامطار ، فان جاوزت عن ذلك تشعبت همومك وتكثرت غمومك، واحاط بك الشغل الدائم والعناء اللازم، وذهب عنك جل خيراتك وضاعت بركات أوقاتك . وبعد ذلك راقب قلبك في جميع الاوقات ، واياك أن تهمله لحظة من اللحظات ، واحفظه من ان يكون محلا لغير معرفة الله وحبه ، وليكن القرب الى الله والانس به غاية همك ، اذ العاقل انما يميل ويشتاق الى ما هو الاشرف والاكمل ، ويسر ويرتاح بما له احسن وانفع، ولا ريب في ان اشرف الموجودات واكملها هو سبحانه ، بل هو الموجود الحقيقي والكمال الواقعي، وغيره من الموجودات والكمالات من لوازم فيضه ورشحات وجوده وفضله ، ولهغاية ما يتصور من العلو والكمال والبهاء والجلال، وان معرفته وحبه احسن الاشياء وانفعها لكل احد ،لانه الباعث للسعادة الابدية والبهجة الدائمية ، فلا ينبغي للعاقل ان يترك ذلك اشتغالا بفضول الدنيا وخسائسها ، بل يلزم عليها ان يترك حبلها على غاربها ، ويخلص نفسه الشريفة عن مخالبها ، ويتوجه بكليته الى جناب ربه ، ولم يكن فرحه وابتهاجه الا بحبه وانسه .

فصل

الفرق بين الاطمئنان والامن من مكر الله

ضد الخوف المذموم هو اطمئنان القلب في الامور المذكورة ، ولاريب في كونه فضيلة وكمالا ، اذ قوة القلب وعدم اضطرابه مما يحكم العقل بعدم الحذر عنه صفة كمال ، ونقيضه نقص ورذيلة .

وأما الخوف الممدوح ، فضده الامن من مكر الله ، وهو من المهلكات وقد ورد به الذم في الآيات والاخبار ، قال الله سبحانه :

فلا يامن مكر الله الا القوم الخاسرون (١٢٧) .

وقد ثبت بالتواتر : أن الملائكة والأنبياء كانوا خائفين من مكره ،كما روي : « انه لما ظهر على ابليس ما ظهر ، طفق جبرئيل وميكائيل يبكيان ، فأوحى الله اليهما : مالكما تبكيان ؟ فقالا : يارب! لا نأمن مكرك . فقال

---

(١٢٧) الاعراف ، لآية : ٩٩ .

الله : هكذا كونا ، لا تأمنا مكري » • وروي : « أن النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — وجبرئيل بكيا من خوف الله تعالى ، فأوحى الله اليهما: لم تبكيان وقد أمنتكما ؟ فقالا: ومن يأمن مكرك ؟» وكأنهما لم يأمنا أن يكون قوله (قد أمنتكما) ابتلاء لهما وامتحانا ، حتى أن سكن خوفهما (١٢٨) ظهر أنهما قد أمنا المكر وما وفيا بقولهما ، كما أن ابراهيم (ع) لما وضع في المنجنيق قال : حسبي الله • وكان هذا القول منه من الدعاوى العظيمة ، فامتحن وعورض بجبرئيل (ع) في الهواء حتى قال : ألك حاجة ؟ قال : أما اليك فلا • وكان ذلك وفاء بمقتضى قوله ، فاخبر الله تعالى عنه وقال:

« وابراهيم الذي وفى » (١٢٩) •

وبالجملة ينبغي للمؤمن ألا يأمن من مكر ربه ، كما لم يأمن منه الملائكة والأنبياء ، واذا لم يأمن منه كان خائفا منه دائما •

تتميم

التلازم بين الخوف والرجاء

الرجاء ارتياح القلب لانتظار المحبوب ، وهو يلازم الخوف ، اذ الخوف — كما عرفت — عبارة عن التألم من توقع مكروه ممكن الحصول، وما يمكن حصوله يمكن عدم حصوله أيضا ، وما كان حصوله مكروها كان عدم حصوله محبوبا ، فكما انه يتألم بتوقع حصوله يرتاح ليتوقع عدم حصوله أيضا ، فالخوف عن الشيء وجودا يلزمه الرجاء عدما ، وعنه عدما يلزمه الرجاء وجودا • وقس عليه استلزام الرجاء للخوف ، فهما متلازمان ، وان أمكن غلبة أحدهما نظرا الى كثرة حصول اسبابه • وان تيقن الحصول أو عدمه لم يكن انتظارهما خوفا ورجاء ، بل سمي انتظار مكروه او انتظار محبوب •

ثم كما ان الخوف من متعلقات قوة الغضب ، وان الممدوح منه من فضائلها ، لكونه مقتضى العقل والشرع ، وباعثا للعمل من حيث الرهبة،

---

(١٢٨) هذه العبارة لبيان الابتلاء والامتحان ، يعني : انهما يخشيان اذا سكن خوفهما ان يظهرانهما قدامنا المكرولم يوفيا بقولهما فيكون ذلك امتحانا لهما.

(١٢٩) النجم ، الآية : ٣٧ •

فكذا الرجاء متعلق بها ومن فضائلها ، لكونه مقتضاهما وباعثا للعمل من حيث الرغبة. الا ان الخوف لترتبه على ضعف القلب يكون اقرب الى طرف التفريط ، والرجاء لترتبه على قوته يكون اقرب الى طرف الافراط وان كان كلاهما ممدوحين .ثم لابد أن يحصل اكثر أسباب حصول المحبوب حتى يصدق اسم الرجاء على انتظاره ، كتوقع الحصاد ممن ألقى بذرا جيدا في أرض طيبة يصلها الماء. وأما انتظار مالم يحصل شيء من اسبابه فيسمى غرورا وحماقة ، كتوقع من ألقى بذرا في أرض سبخه لا يصلها الماء .وانتظار ما كان أسبابه مشكوكة يسمى تمنيا ، كما اذا صلحت الارض ولاماء .

وتفصيل ذلك: ان الدنيا مزرعة الآخرة ، والقلب كالارض ، والايمان كالبذر ، والطاعات هي المـاء الذي تسقي به الارض ، وتطهير القلب من المعاصي والأخلاق الذميمة بمنزلة تنقية الارض من الشوك والاحجار والنباتات الخبيثة ، ويوم القيامة هو وقت الحصاد . فينبغي أن يقاس رجاء العبـد (المغفرة) برجاء صاحب الزرع (التنمية)، وكما أن من ألقى البذر في أرض طيبة ، وساق اليها الماء في وقته ، وتقاها الشوك والاحجار ، وبدل جهده في قلع النباتات الخبيثة المفسدة للزرع، ثم جلس ينتظر كرم الله ولطفه مؤملا أن يحصل له وقت الحصاد مائة قفيز مثلا ،سمي انتظاره رجاء ممدوحا فكذلك العبد اذا طهر أرض قلبه عن شوك الاخلاق الردية وبث فيه بذر الايمان بماء الطاعات ،ثم انتظر من فضل الله تثبيته الى الموت وحسن الخاتمة المفضية الى المغفرة ، كان انتظاره رجاء حقيقيا محمودا في نفسه . وكما أن من تغافل عن الزراعة واختار الراحة طول السنة ، أو ألقى البذر في ارض سبخة مرتفعة لاينصب اليها ماء ولم يشتغل بتعهد البذر واصلاح الارض من النباتات المفسدة للزرع ، ثم جلس منتظرا الى ان ينبت له زرع يحصده سمي انتظاره حمقا وغرورا . كذلك من لم يلق بذر الايمان في ارض قلبه أو ألقاه مع كونه مشحونا برذائل الاخلاق منهمكا في خسائس الشهوات واللذات ، ولم يسق اليها ماء الطاعات ،ثم انتظر المغفرة ، كان انتظاره حمقا وغرورا . وكما ان من بث البذر في ارض طيبة لاماء لها ، وجلس ينتظر مياه الامطار حيث لاتغلب الامطار ، وان لم يمتنع ايضا ، سـمي انتظاره

تمنيا . كذلك من ألقى بذر الايمان في أرض قلبه ، ولكنه لم يسق اليه ماء الطاعات ، وانتظر المغفرة بلطفه وفضله ، كان انتظاره تمنيا .

فاذن ، اسم (الرجاء) انما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ، ولم يبق الا ماليس يدخل تحت اختياره وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والمفسدات . فالاحاديث الواردة في الترغيب على الرجاء وفي سعة عفو الله وجزيل رحمته ووفور مغفرته ، انما هي مخصوصة بمن يرجو الرحمة والغفران بالعمل الخاص المعد لحصولهما وترك الانهماك في المعاصي المفوت لهذا الاستعداد . فاحذر ان يغرك الشيطان ويثبطك عن العمل ويقنعك بمحض الرجاء والامل . وانظر الى حال الانبياء والاولياء واجتهادهم في الطاعات وصرفهم العمر في العبادات ليلا ونهارا ، أما كانوا يرجون عفو الله ورحمته ؟ بلى والله ! انهم كانوا أعلم بسعة رحمة الله وأرجى لها منك ومن كل احد ، ولكن علموا ان رجاء الرحمة من دون العمل غرور محض وسفه بحت ، فصرفوا في العبادات اعمارهم وقصروا على الطاعات ليلهم ونهارهم .

ونحن نشير (اولا) الى بعض ما ورد في الرجاء من الآيات والاخبار ، ثم نورد نبذا مما يدل على انه لامعنى للرجاء بدون العمل ، ليعلم أن اطلاق الاول محمول على الثاني . فنقول : الظواهر الواردة في الرجاء اكثر من أن تحصى ، وهي على أقسام :

(الأول) ما ورد في النهي عن القنوط واليأس من رحمة الله كقوله تعالى: « **ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله** » (١٣٠) .

وقول علي عليه السلام لرجل أخرجه الخوف الى القنوط لكثرة ذنوبه: « أيا هذا ! يأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك » . وماروى :« أنه — صلى الله عليه وآله وسلم — لما قال : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولخرجتم الى الصعدات تلدمون صدوركم وتجأرون الى ربكم . فهبط جبرئيل عليه السلام فقال : ان ربك يقول : لم تقنط عبادي؟ فخرج عليهم ورجاهم وشوقهم » . وما ورد :« ان رجلا من بني اسرائيل

(١٣٠) الزمر ، الآية : ٥٣ .

كان يقنط الناس ويشدد عليهم ، فيقول الله له يوم القيامة : اليوم أويسك من رحمتي كما كنت تقنط عبادي منها » .

(الثاني) ما ورد في الترغيب على خصوص الرجاء وكونه سبب النجاة كما ورد في أخبار يعقوب من « انه تعالى أوحي اليه أتدري لم فرقت بينك وبين يوسف ؟ لقولك :

« وأخاف ان يأكله الذئب وانتم عنه غافلون » (١٣١) .

لم خفت الذئب ولم ترجني ؟ولم نظرت الى غفلة اخوته ولم تنظر الى حفظي ؟»وقول أمير المؤمنين —عليه السلام — لرجل قال عند النزع:أجدني أخاف ذنوبي وارجو رحمة ربي : « ما اجتمعا في قلب عبد في هذا الموطن الا أعطاه الله ما رجاه وأمنه مما يخاف » (١٣٢) . وقول النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — : « ان الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة : ما منعك اذ رأيت المنكر أن تنكره ؟ فان لقنه الله حجته ، قال : رب رجوتك وخفت الناس ، فيقول الله : قد غفرته لك » . وماروي عنه — صلى الله عليه وآله وسلم — : « ان رجلا يدخل النار فيمكث فيها ألف سنة ينادي يا حنان يا منان ، فيقول الله لجبرئيل : اذهب فأتني بعبدي ، فيجيء به ، فيوقفه على ربه ، فيقول الله له : كيف وجدت مكانك ؟ فيقول : شر مكان ، فيقول: رده الى مكانه . قال : فيمشي ويلتفت الى ورائه ، فيقول الله عز وجل : الى اي شيء تلتفت ؟ فيقول :لقد رجوت ألا تعيدني اليها بعد اذ اخرجتني منها ، فيقول الله تعالى : اذهبوا به الى الجنة » . وقوله — صلى الله عليه وآله وسلم — : « قال الله تعالى : لا يتكل العاملون على أعمالهم التي يعملونها لثوابي ، فانهم لو اجتهدوا وأتعبوا أنفسهم اعمارهم في عبادتي ، كانوا مقصرين غير بالغين في عبادتهم كنه عبادي ، فيما يطلبون عندي من كرامتي ، والنعيم في جناتي ، ورفيع الدرجات العلي في جواري ، ولكن برحمتي فليثقوا ، والى حسن الظن بي فليطمئنوا ، وفضلي فليرجوا (١٣٣) ،

(١٣١) يوسف ، الآية : ١٣ .

(١٣٢) روي (احياء العلوم : ج٤ ص ١٢٥)هذا الحديث عن النبي (ص) .

(١٣٣) فى الكافى فى (باب حسن الظن بالله عز وجل) تقديم وتأخير عما هنا ، فقد جاء فيه : « وفضلي فليرجوا والى حسن الظن بي فليطمئنوا » .

فان رحمتي عند ذلك تدركهم ، ومني يبلغهم رضواني ، ومغفرتي تلبسهم عفوي ، فاني أنا الله الرحمن الرحيم وبذلك تسميت » . وعن ابي جعفر عليه السلام قال : « وجدنا في كتاب علي (ع) ان رسول الله (ص) قال وهو على منبره : والذي لا اله الا هو ما اعطى مؤمن قط خير الدنيا والآخرة الا بحسن ظنه بالله ورجائه له وحُسن خُلقه والكف عن اغتياب المؤمنين ، والذي لا اله الا هو لا يعذب الله مؤمنا بعد التوبة والاستغفار الا بسوء ظنه بالله وتقصيره من رجائه وسوء خلقه واغتيابه للمؤمنين ، والذي لا اله الا هو لا يحسن ظن عبد مؤمن بالله الا كان الله عند ظن عبده المؤمن ، لان الله كريم بيده الخيرات يستحيي[١٣٤] ان يكون عبده المؤمن قد أحسن به الظن ثم يختلف ظنه ورجاءه ، فاحسنوا بالله الظن وارغبوا اليه » .

(الثالث) ما ورد في استغفار الملائكة والانبياء للمؤمنين كقوله تعالى:

« والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الارض » (١٣٥) .

وقوله (ص) : « حياتي خير لكم وموتي خير لكم ، اما حياتي فاسنّ لكم السنن واشرّع لكم الشرائع ، واما موتي فان اعمالكم تعرض عليّ ، فما رأيت منها حسنا حمدت الله عليه ، وما رأيت منها سيئا استغفرت الله لكم » .

(الرابع) ما ورد في تأجيل المذنب الى ان يستغفر ، كقول الباقر (ع): «ان العبد اذا أذنب أجل من غدوة الى الليل، فان استغفر لم يكتب عليه»[١٣٦] . وقول الصادق (ع) : « من عمل سيئة أجل فيها سبع ساعات من النهار ، فان قال : استغفر الله الذي لا اله الا هو الحي القيوم واتوب اليه ثلاث مرات ، لم تكتب عليه » .

(الخامس) ما ورد في شفاعة النبي (ص) كقوله تعالى :

« ولسوف يعطيك ربك فترضى » (١٣٧) .

وقد ورد في تفسيره انه لا يرضى محمد وواحـــد من أمته في النار ،

---

(١٣٤) فى الكافى فى (باب حسن الظن) : (يستحي).
(١٣٥) الشورى ، الآية : ٥ .
(١٣٦) روى الكافى فى (باب الاستغفار من الذنب) هذا الحديث عن الصادق — عليه السلام — .
(١٣٧) الضحى ، الآية : ٥ .

وقوله (ص) : « ادخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي » ، وكذا ما ورد في شفاعة الأئمة والمؤمنين .

(السادس) ما ورد من البشارات للشيعة ومن عدم خلودهم في النار ، ومن أن حب النبي (ص) والعترة الطاهرة ينجيهم من العذاب، وان فعلوا ما فعلوا.

(السابع) ما دل على أن النار انما أعدها الله لاعدائه من الكافرين ، وانما يخوف بها اولياءه ، كقوله تعالى :

« لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده » (١٢٨) ، وقوله « واتقوا النار التي أعدت للكافرين » (١٣٩) وقوله : « لايصلاها الا الاشقى . الذي كذب وتولى » (١٤٠) .

(الثامن) ما ورد في سعة عفو الله ومغفرته ووفور رأفته ورحمته، كقوله:

« وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم » (١٤١)

وما روى في تفسير قوله تعالى :

« يوم لايخزي الله النبي والذين آمنوا معه » (١٤٢) .

« ان الله أوحى الى نبيه : اني أجعل حساب امتك اليك ، فقال : لا يا رب! أنت خير لهم مني[١٤٣] ، فقال : اذن لا اخزيك فيهم » . وما روى: « انه (ص) قال يوما : يا كريم العفو ! فقال جبرئيل : اتدري ما تفسير يا كريم العفو ؟ هو : انه يعفو عن السيئات برحمته ثم يبدلها حسنات بكرمه»[١٤٤]. وما ورد : أن العبد اذا أذنب فاستغفر ، يقول الله لملائكته : انظروا الى عبدي أذنب ذنبا ، فعلم انه له ربا يغفر الذنوب ويأخذ بالذنب ، اشهدكم أني قد غفرت له . وما ورد في الخبر القدسي: « انما خلقت الخلق ليربحوا عليّ ، ولم أخلقهم لاربح عليهم » . وما ورد من « انه لو لم يذنبوا ، لخلق الله تعالى خلقا يذنبون ليغفر لهم » وقوله (ص) : « والذي نفسي بيده . الله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها » . وما ورد

---

(١٢٨) الزمر ، الآية : ١٦ .
(١٣٩) آل عمران ، الآية : ١٣١ .
(١٤٠) الليل ، الآية : ١٥ — ١٦ .
(١٤١) الرعد ، الآية : ٦ .
(١٤٢) التحريم ، الآية : ٨ .
(١٤٣) فى (احياء العلوم : ج٤ ص ١٢٨) هكذا : « انت أرحم بهم مني » وكذا بدل لا اخزيك : « لا نخزيك » .
(١٤٤) فى (أحياء العلوم : ص ١٢٩ من ج ٤) هكذا : « هو ان عفا عن السيئات برحمته بدلها حسنات بكرمه » .

من « انه سبحانه ليغفرن يوم القيامة مغفرة ما خطرت قط على قلب أحد ، حتى ان ابليس يتطاول لها رجاء أن تصيبه » . والآيات والاخبار الواردة في هذا المعنى متجاوزة عن حد التواتر .

(التاسع) ما دل على ان ابتلاء المؤمن في الدنيا بالبلايا والامراض كفارة لذنوبه، كقوله (ص) : «الحمى من فيح جهنم ، وهي حظ المؤمن من النار» .

(العاشر) ما ورد في ان الايمان لا يضر معه عمل ، كما ان الكفر لا ينفع معه عمل ، وفي أنه قد يغفر الله عبدا ويدخله الجنـة لاجل مثقال ذرة من الايمان أو عمل جزئي من الاعمال الصالحة .

(الحادي عشر) ما ورد في الترغيب على حسن الظن بالله ، كقوله (ص): « لا يموتن احدكم الا وهو يحسن الظن بالله » ، وقوله (ص) : « يقول الله تعالى : أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء » . وقول الرضا (ع): « أحسن الظن بالله ، فان الله عز وجل يقول : أنا عند ظن عبدي لي، ان خيرا فخير وان شرا فشر » . وقول الصادق (ع) : « حسن الظن بالله : الا ترجو الا الله ، ولا تخاف الا ذنبك » . وقد تقدم بعض أخبار أخر في هذا المعنى . ثم ايجاب حسن الظن للرجاء وجلبه له مما لا ريب فيه .

(الثاني عشر) ما دل على ان الكفار أو النصاب يكونون يوم القيامة فداء للمؤمنين أو الشيعة ، كما روى انه (ص) قال : « امتي أمة مرحومة لا عذاب عليها في الآخرة ، وعجل عقابها في الدنيا بالزلازل والفتن ، فاذا كان يوم القيامة دفع الى كل رجل من امتي رجل من أهل الكتاب ، فقيل هذا فداؤك من النار » . وعن أهل البيت عليهم السلام : « ان النصاب يجعلون فداء لشيعتنا بظلمهم اياهم ووقيعتهم فيهم » . وعن الصادق (ع): « سيؤتى بالواحد من مقصري شيعتنا في أعماله، بعد ان صان الولاية والتقية وحقوق اخوانه ، ويوقف بازائه ما بين مائة واكثر من ذلك الى مائة الف من النصاب ، فيقال له : هؤلاء فداؤك من النار ، فيدخل هؤلاء المؤمنون الى الجنة واولئك النصاب الى النار ، وذلك ما قال الله تعالى :

« **ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين** » (١٤٥) .

---

(١٤٥) الحجر ، الآية : ٢ .

في الدنيا منقادين للامامة ، ليجعل مخالفوهم من النار فداءهم » .

وأما (الثاني) — اعني ما يدل على ان رجاء المغفرة والعفو والرحمة انما هو بعد العمل — فأكثر من ان يحصىو، كقوله تعالى :

« ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله » (١٤٦) . وقولــه : « فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتــاب يأخذون عرض هذا الادنى ويقولون سيغفر لنا » (١٤٧) .

وقول النبي (ص) : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد المــوت ، والاحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الجنة » . ومـــا روى عن الصادق (ع) انه قيل له : «قوم يعملون بالمعاصي ويقولون : نرجوا ، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم الموت ، فقال : « هؤلاء قوم يترجحون في الاماني كذبوا ليسوا براجين ، «إن»[١٤٨] من رجا شيئا طلبه ، ومن خاف من شيء هرب منه » . وعن علي بن محمد ، قال : قلت له عليه السلام : ان قوما من مواليك يلمون بالمعاصي ويقولون نرجوا ، فقال : «كذبوا ، ليسوا لنا بموال ، اولئك قوم ترجحت بهم الاماني. من رجا شيئا عمل له ، ومن خاف شيئا هرب منه » . وعنه قال : « لا يكون المؤمن مؤمنا حتى يكون خائفا راجيا ، ولا يكون خائفا راجيا حتى يكون عاملا لما يخاف ويرجو » .

وصــل

(مواقع الخوف والرجاء وترجيح احدهما على الآخر)

قد عرفت ان الخوف والرجاء محمودان ، لكونهما باعثين على العمل ودواءين يداوى بهما أمراض القلوب ، ففضل كل منهما انما هو بحسب ما يترتب عليه من فائدة العمل ومعالجة المرض .

وهذا يختلف باختلاف الاشخاص : فمن كان تأثير الخوف في بعثه على العمل اكثر من تأثير الرجاء فيه ، فالخوف له أصلح من الرجاء ، ومن كان بالعكس فبالعكس . ومن غلب عليه مرض الامن من مكر الله والاغترار به فالخوف له أصلح . ومن غلب عليه اليأس والقنوط ، فالرجاء له أصلح.

---

(١٤٦) البقرة ، الآية : ٢١٨ .
(١٤٧) الاعراف ، الآية ١٦٩ .
(١٤٨) روي الحديث في الكافي (باب الرجاء) ، وليس فيه كلمة «ان».

ومن انهمك في المعاصي ، فالخوف له أصلح . ومن ترك ظاهر الاثم وباطنه وخفيه وجليه ، فالاصلح له ان يعتدل خوفه ورجاؤه .

والوجه في ذلك : ان كلما يراد به المقصود ، ففضله انما يظهر بالاضافة الى مقصوده لا الى نفسه ، فلو فرض تساويهما في البعث على العمل ولم يغلب شيء من المذكورات ، فالاصلح اعتدالهما ، كما قال امير المؤمنين عليه السلام لبعض ولده : « يا بني ! خف الله خوفا ترى انك ان اتيته بحسنات أهل الارض لم يتقبلها منك، وارج الله رجاء كأنك لو اتيته بسيئات أهل الارض غفرها لك» . وقال الباقر عليه السلام : « ليس من عبد مؤمن الا وفي قلبه نوران : نور خيفة ، ونور رجاء ، لو وزن هذا لم يزد على هذا ، وقد جمع الله سبحانه بينهما في وصف من اثنى عليهم ، فقال : يدعون ربهم خوفا وطمعا ، وقال : يدعوننا رغبا ورهبا ». وعن الحارث بن المغيرة قال : قلت للصادق (ع) : ما كان في وصية لقمان ؟ قال : « كان فيها الاعاجيب ، وكان اعجب ما كان فيها ان قال لابنه : خف الله عز وجل خيفة لو جئته ببر الثقلين لعذبك ،وارج الله رجاء لو جئته بذنوب الثقلين لرحمك»، ثم قال عليه السلام : « كان ابي عليه السلام يقول : انه ليس من عبد مؤمن الا وفي قلبه نوران : نور خيفة ، ونور رجاء ، لو وزن هذا لم يزد على هذا ، ولو وزن هذا لم يزد على هذا » .

وقال عليه السلام :« الخوف رقيب القلب ، والرجاء شفيع النفس ، ومن كان بالله عارفا كان من الله خائفا واليه راجيا ، وهما جناحا الايمان، يطير العبد المحقق بهما الى رضوان الله ، وعينا عقله ، يبصر بهما الى وعد الله ووعيده ، والخوف طالع عدل الله وناعي وعيده ، والرجاء داعي فضل الله ، وهو يحيي القلب ، والخوف يميت النفس .. ومن عبدالله على ميزان الخوف والرجاء لايضل ، ويصل الى مأموله ، وكيف لا يخاف العبد وهو غير عالم بما تختم صحيفته ، ولا له عمل يتوسل به استحقاقا ، ولا قدرة له على شيء ولا مفر ، وكيف لا يرجو وهو يعرف نفسه بالعجز ، وهو غريق في بحر آلاء الله ونعمائه ، من حيث لا تحصى ولا تعد ، والمحب يعبد ربه على الرجاء بمشاهدة أحواله بعين سهر [149] ، والزاهد يعبد على

(١٤٩) هكذا فى نسخ هذا الكتاب ونسخة البحار، ولم نعثر على استعمال

الخوف »[١٥٠] .

وقد ظهر مما ذكر : ان الرجاء أصلح وأفضل في موضعين : (احدهما) في حق من تفتر نفسه عن فضائل الاعمال ويقتصر على الفرائض ، وكان الرجاء باعثا له على التشمير والنشاط للطاعات ، ومثله ينبغي ان يرجى نفسه نعم الله تعالى وما وعد الله به الصالحين في العليين ، حتى ينبعث من رجائه نشاط العباده (وثانيهما) في حق العاصي المنهمك اذا خطر له خاطر التوبة ، فيقنطه الشيطان من رحمة الله ، ويقول له: كيف تقبل التوبة من مثلك ؟ فعند هذا يجب عليه ان يقمع قنوطه بالرجاء ويتذكر ما ورد فيه ، كقوله تعالى :

« لاتقنطوا من رحمة الله » (١٥١). وقوله :« واني لغفار لمن تاب»(١٥٢).

ويتوب ويتوقع المغفرة مع التوبة لا بدونها ، اذ لو توقع المغفرة مع الاصرار كان مغرورا . والرجاء الاول يقمع الفتور المانع من النشاط والتشمير ، والثاني يقطع القنوط المانع من التوبة .

فصل

(العمل على الرجاء اعلى منه على الخوف)

العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف، لأن أقرب العباد احبهم اليه، والحب يغلب بالرجاء . واعتبر ذلك بملكين يخدم أحدهما خوفا من عقابه والآخر رجاء لعطائه ، ولذلك عير الله أقواما يظنون السوء بالله ، قال :

« وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم »(١)

وقال : « وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا » (٢) .

وورد في الرجاء وحسن الظن ما ورد — كما تقدم — وفي الخبر : « ان الله تعالى اوحى الى داود : أحبني واحب من يحبني وحببني الى خلقي،

كلمة (سهر) للمبالغة فى معنى ساهرة .

(١٥٠) هذه الرواية نقلها فى البحار (الجزء الثاني من المجلد ١٥ فى باب الخوف والرجاء) عن مصباح الشريعة . وقد تقدم رأي صاحب البحار فى مصباح الشريعة ص ١٢١ فى تعليقتنا . وهذه الرواية ظاهرة انها ليست من اسلوب كلام الامام — عليه السلام — .

(١٥١) الزمر ، الآية ٥٣ .

(١٥٢) طه ، الآية : ٨٢ .

(١) فصلت ، الآية : ٢٣ .

(٢) الفتح ، الآية : ١٢ .

فقال : يا رب ! كيف احببك الى خلقك ؟ قال : اذكرني بالحسن الجميل ، واذكر آلائي واحساني ،وذكرهم ذلك ، فانهم لا يعرفون مني الا الجميل» .
ورأى بعض الاكابر في النوم — وكان يكثر ذكر أبواب الرجاء — فقال: « أوقفني الله بين يديه ، فقال : ما الذي حملك على ذلك ؟ فقلت : اردت أن أحببك الى خلقك . فقال : قد غفرت لك » .

هذا مع ان الرجاء أفضل من الخوف للعبد بالنظر الى مطلعهما ، اذ الرجاء مستقى من بحر الرحمة والخوف مستقى من بحر الغضب . ومن لاحظ من صفات الله ما يقتضي اللطف والرحمة كانت المحبة عليه أغلب ، وليس وراء المحبة مقام . واما الخوف فمستنده الالتفات الى الصفات التي تقتضي الغضب ، فلا تمازجه المحبة كممازجتها للرجاء . نعم ، لما كانت المعاصي والاغترار على الخلق أغلب ، (لا) سيما على الموجودين في هذا الزمان ، فالاصلح لهم غلبة الخوف ، بشرط ألا يخرجهم الى اليأس وقطع العمل، بل يحثهم على العمل،ويكدر شهواتهم ، ويزعج قلوبهم عن الركون الى دار الغرور، ويدعوهم الى التجافي عن عالم الزور ، اذ مع غلبة المعاصي على الطاعات لا ريب في أصلحية الخوف ، (لا) سيما أن الآفات الخفية : من الشرك الخفي ، والنفاق ، والرياء ، وغير ذلك من خفايا الاخلاق الخبيثة في أكثر الناس موجودة ، ومحبة الشهوات والحطام الدنيوي في بواطنهم كامنة، وأهوال سكرات الموت واضطراب الاعتقاد عنده ممكنة ، ومناقشات الحساب ورد أعمالهم الصالحة لأسباب خفية محتملة ، فمن عرف حقائق هذه الامور ، فان كان ضعيف القلب جبانا في نفسه غلب خوفه على رجائه ،وان كان قوي القلب ثابت الجأش تام المعرفة استوى خوفه ورجاؤه . وأما ان يغلب رجاؤه فلا ، بل غلبته انما هو من الاغترار وقلة التدبر ، كما في غالب الناس ، بل الاصلح لهم غلبة الخوف ، ولكن قبل الاشراف على الموت ، وأما عنده فالاصلح لهم غلبة الرجاء وحسن الظن، لان الخوف جار مجرى السوط الباعث على العمل ، وقد انقضى وقته ، وهو لا يطيق هنا أسباب الخوف ، لأنها تقطع نياط قلبه وتعين على تعجيل موته . وأما روح الرجاء فيقوى قلبه ويحبب اليه ربه الذي اليه رجاؤه .

وينبغي ان لا يفارق أحد الدنيا الا محبا لله، ليكون محبا للقائه ، ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن أحب الله ولقاءه وعلم انه تعالى ايضا يحب لقاءه، اشتاق اليه تعالى ، وكان فرحانا بالقدوم عليه ، اذ من قدم على محبوبه عظم سروره بقدر محبته ، ومن فارق محبوبه اشتد عذابه ومحنته، فمهما كان الغالب على القلب عند الموت حب الأهل والولد والمال كانت محابه كلها في الدنيا ، فكانت الدنيا جنته ، اذ الجنة هي البقعة الجامعة لجميع المحاب، فكان موته خروجا عن الجنة وحيلولة بينه وبين ما يشتهيه . وهذا أول ما يلقاه كل محب للدنيا ، فضلا عما أعد الله له من ضروب الخزي والنكال والسلاسل والاغلال . واما اذا لم يكن له محبوب سوى الله وسوى معرفته وحبه وانسه ، فالدنيا وعلائقها شاغلة له عن المحبوب ، فالدنيا أول سجنه، اذ السجن هي البقعة المانعة عن الوصول الى محابه ، فموته خلاص له من السجن وقدوم على المحبوب ، ولا يخفى حال من خلص من السجن وخلى بينه وبين محبوبه ، وهذا اول ابتهاج يلقاه من كان محبا لله غير محب للدنيا وما فيها ، فضلا عما أعده الله له مما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

فصل

(مداواة الناس بالخوف أو الرجاء على اختلاف امراضهم)

قد عرفت ان المحتاج الى تحصيل دواء الرجاء من غلب عليه اليأس فترك العبادة ، أو غلب عليه الخوف فأسرف فيها حتى أضر بنفسه وأهله . واما المنهمكون في طغيان الذنوب والمغرورون بما هم فيه من الفساد والخوف — كأكثر أبناء زماننا — فأدوية الرجاء بالنسبة اليهم سموم مهلكة ، اذ لا يزداد سماعهم لها الا تماديا في طغيانهم وفسادا في فسادهم وعصيانهم ، فواعظ الخلق ينبغي ان يعرف أمراضهم وينظر الى مواقع عللهم ، ويعالج كل علة بما يضادها لا بما يزيدها ، ففي مثل هذا الزمان ينبغي ألا يذكر لهم بواعث الرجاء ، بل يبالغ في ذكر أسباب الخوف ، لئلا يهلكهم ويرديهم بالكلية ، ولا يقصد بموعظته استمالة القلوب وتوقع الثناء من الناس ، فينتقل الى الترغيب على الرجاء لكونه أخف على القلوب وألذ عند النفوس

فيهلك ويهلكهم ويضل ويضلهم .

وبالجملة : الطريق الى تحصيل الرجاء لمن يحتاج اليه : أن يتذكر الآيات والاخبار المتواترةالواردة فيه وفي سعة رحمته ووفور عفوه ورأفته — كما تقدم شطر منها — ثم يتأمل في لطائف نعمائه وعجائب آلائه لعباده في دار الدنيا ، حتى أعد لهم كل ما هو ضروري لهم في دوام الوجود، بل لم يترك لهم شيئا جزئيا يحتاجون اليه نادرا يفوت بفقده ما هو الاصلح الاولى لهم من الزينة والجمال . فاذا لم تقصر العناية الالهية عن عباده في جميع ما يحب ويحسن لهم من اللطف والاحسان في دار الدنيا — وهي حقيقة دار البلية والمحنة لا دار النعمة والراحة — ولم يرض ان يفوته شيء من المزائد والمزايا في الحاجة والزينة ، فكيف يرضى فيدار الآخرة التي هي دار الفيض والجود بسياقهم الى الهلاك المؤبد والعذاب المخلد ، مع انه تعالى أخبر بأن رحمته سابقة على غضبه ؟! وأقوى ما يجلب به الرجاء ان يعلم ان الله تعالى خير محض لا شرية فيه اصلا ، وفياض على الاطلاق ، وانما أوجد الخلق لافاضة الجود والاحسان عليهم ، فلا بد ان يرحمهم ولا يبقيهم في الزجر الدائم .

از خير محض جز نكوئى نآيد خوش باش كه عاقبت نكو خواهدشد[1]

ومنها :

صغر النفس

وهو ملكة العجز عن تحمل الواردات ، وهو من نتائج الجبن ، ومن خبائث الصفات . وتلزمه الذلة والمهانة ، وعدم الاقتحام في معالي الامور، والمسامحة في النهي عن المنكر والامر بالمعروف ، والاضطراب بعروض ادنى شيء من البلايا والمخاوف . وقد ورد في الاخبار بأن المؤمن بريء عن ذلة النفس ، قال الصادق عليه السلام : « ان الله عز وجل فوض الى المؤمن أموره كلها ولم يفوض اليه أن يكون ذليلا : أما تسمع الله تعالى يقول :

« ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » ؟[2]

---

(١) وحاصل معنى هذا البيت : (ان الخير المحض لا يصدر عنهالا الجميل فكن مطمئنا ان عاقبتك ستكون الى الجميل) .

(٢) المنافقون ، الآية : ٨ .

فالمؤمن يكون عزيزا ولا يكون ذليلا ، ان المؤمن أعز من الجبل ، الجبل يستقل منه[٣] بالمعاول والمؤمن لا يستقل من دينه شيء » . وقال عليه السلام : « ان الله فوض الى المؤمن كل شيء الا اذلال نفسه » . وقد وردت بهذا المضمون أخبار أخر . وعلاجه ما تقدم في معالجة الجبن .

وصل

(كبر النفس وصلابتها)

وضده (كبر النفس وصلابتها) ، وقد عرفت انه ملكة التحمل لما يرد عليه كائنا ما كان . وقد دلت الاخبار على ان المؤمن ذو صلابة وعزة ومهابة، وكل ذلك فرع كبر النفس . قال الباقر عليه السلام : « المؤمن اصلب من الجبل » ، وقال عليه السلام : « ان الله تعالى أعطى المؤمن ثلاث خصال : العز في الدنيا والآخرة ، والفلح في الدنيا والآخرة ، والمهابة في صدور الظالمين » . وصاحب هذه الملكة لا يبالي بالكرامة والهوان، ويتساوى عنده الفقر واليسار والغنى والاعسار ، بل الصحة والمرض والمدح والذم ، ولا يتأثر بتقلب الامور والاحوال . وهي ملكة شريفة ليست شريعة لكل وارد، ولا يصل اليها الا واحد بعد واحد ، بل لا يحوم حولها الا اوحدى من أفاضل الحكماء ، أو المعي قوي القلب من أماثل العرفاء . وطريق تحصيلها — بعد تذكر شرافتها — أن يتكلف في المواظبة على آثارها والاجتناب عما ينافيها ، حتى تحصل بالتدريج .

تتميم

(الثبات اخص من كبر النفس)

قد عرفت ان الثبات أخص من كبر النفس ، وهو ملكة التحمل على الخوض في الاهوال ، وقوة المقاومة مع الشدائد والآلام ، بحيث لا يعتريه الانكسار ، وان زادت وكثرت . وضده الاضطراب في الأهوال والشدائد،

---

(٣) تقدم فى صفحة (٢٠٨) مضمون هذا الحديث ، ورجحنا فيه كلمة « يستفل » بدل « يستقل » وفسرناها ثم بعد التحقيق وجدنا ذلك الحديث المتقدم فى اصول الكافى فى باب صفات المؤمن بكلمة (يستقل) — بالقاف — وكذلك نسخ جامع السعادات هنا وهناك وجاءفى البحار (الجزء الاول المجلد ١٥ — باب علامات المؤمن وصفاته ص ٥٩٦) فى شرح هذا الحديث هكذا : «الجبل يستقل منه: من القلة ،اي ينقص ويؤخذ منه بعضه بالفاس والمعول ونحوهما» .

ومن جملة الثبات الثبات في الايمان ، وهو اطمئنان النفس في عقائدها ، بحيث لا يتزلزل فيها بالشبهات ، قال الله تعالى :

« يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحيوة الدنيا وفى الآخرة »(٤) .

وهذا الاطمئنان من شرائط كسب الكمال وفضائل الاعمال ، اذ ما لم تستقر النفس على معتقداتها في المبدأ والمعاد لم يحصل لها العزم البالغ على تحصيل ما يتوقف فائدته عليها ، فمن ليس له هذا الثبات لا تجده ثابتا ومواظبا على شيء من الاعمال الفاضلة ، بل هو :

« كالذي استهوته الشياطين فى الارض حيران »(٥)

والمتصف به مواظب لها دائما من غير فتور . وعدم هذا الثبات لعدم البصيرة الباطنة او لضعف في النفس . فوجوده يحصل من المعرفة وقوة النفس ، فهو من فضائل العاقلة وقوة الغضب ، وعدمه من رذائل احداهما او كليهما . ومنها :

دناءة الهمة

وهو قصور النفس عن طلب معالي الامور وقناعتها بادانيها ، وهو من نتائج ضعف النفس وصغرها . وضده (علو الهمة) ، وهو ملكة السعي في تحصيل السعادة والكمال وطلب معالي الامور ، من دون ملاحظة منافع الدنيا ومضارها ، حتى لا يعتريه السرور بالوجدان ولا الحزن بالفقدان ، بل لا يبالي في طريق الطلب بالموت والقتل وامثالهما . وصاحب هذه الملكة هو المؤمن الحقيقي الشائق للموت ، والموت تحفة له ، واعظم سرور يصل اليه ، كما ورد في الاخبار . وهو الذي يقول :

آن مرد نيم كز عـدمم بيم آيد — كان بيم مراخوشتر از اين بيم آيد
جاني است مرا بعاريت داده خدا — تسليم كنم چووقت تسليم آيد (٦)

---

(٤) ابراهيم ، الآية : ٢٧ .
(٥) الانعام ، الآية : ٧١ .
(٦) الابيات كلها لـ (حافظ الشيرازي) المتقدم ذكره . ومعنى البيتين: (لست بذلك الرجل الذي يخشى من فناء نفسه ، فان ما اخشى منه ـ وهو الموت ـ احسن عندي من نفس الخوف منه ، لان نفسي قد اعارنيها الله تعالى فعلى ان اسلمها عندما يطلب تسليم العارية) .

ويقول :

مرگ اگر مرداست گوزد من آي تا در آغوششں در آرم تنگ تنگ
من از آن عمری ستانم جاودان آن زمن دلقی ستاند رنگ رنگ[٧]

ويقول :

اين‌جان‌عاريت كه‌بحافظ‌سپرده‌دوست روزی‌رخش‌ببينم وتسليم وی‌كنم[٨]

وهذه الملكة من نتائج كبر النفس وشجاعتها ، وهي أعظم الفضائل النفسانية، اذ كل من وصل الى المراتب العظيمة والامور العالية فانما وصل اليها لأجلها ، اذ صاحبها لا يرضى بالمراتب الدنية ، ويشمر لتحصيل المراتب العالية والامور المتعالية ، وفي جوهر الانسان وجبلته ان يصل الى كل ما يجتهد في طلبه :

« والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » [٩] .

من طلب الشيء وجدّ وجد . ومن افراد علو الهمة الشهامة ، وهو الحرص على اقتناء عظائم الامور توقعا لجميل الذكر على مر الدهور .

ومنهـا :

عدم الغيرة والحمية

وهو الاهمال في محافظة ما يلزم محافظته : من الدين ، والعـرض ، والاولاد ، والاموال . وهو من‌نتائج‌صغر النفس وضعفها ، ومن المهلكات العظيمة ، وربما يؤدي الى الدياثة والقيادة . قال رسول الله (ص) :« اذا لم يغر الرجل فهو منكوس القلب » . وقال (ص) : « اذا غير الرجل في أهله أو بعض مناكحه من مملوكته فلم يغر ، بعث الله اليه طائرا يقال له (القندر) حتى يسقط على عارضة‌بابه ، ثم يمهله اربعين يوما ، ثم يهتف به: ان الله غيور يحب كل غيور ، فان هو غار وغير وانكر ذلك فأكبره ، والا

---

(٧) معنى البيتين : (لو ان الموت رجل ، فقل له : يأتيني حتى احتضنه شوقا اليه ، والزه لزا . وذلك لاني آخذ منه الحياة الخالدة ويأخذ مني هذه الزخارف الفانية للوراث) .

(٨) معنى البيت : (ان هذه النفس العارية التي امنها الحبيب عندحافظ ــ ويعني نفسه ــ لابد ان اسلمها في يوم من الايام عند ما أرى وجه الحبيب ــ يعني بالحبيب : الله تعالى ــ) .

(٩) العنكبوت ، الآية : ٦٩ .

طار حتى يسقط على رأسه فيخفق بجناحيه على عينيه ثم يطير عنه ، فينزع الله منه بعد ذلك روح الايمان ، وتسميه الملائكة : الديوث » . وقال (ص): «كان ابراهيم غيورا وأنا أغير منه ، وجدع الله انف من لا يغار على المؤمنين والمسلمين » . وقال امير المؤمنين عليه السلام : « يا أهل العراق ! نبئت أن نساءكم يدافعن الرجال في الطريق ، اما تستحيون ؟ » . وقال (ع) : «اما تستحيون ولا تغارون ، نساؤكم يخرجن الى الاسواق ويزاحمن العلوج؟» .

وصل

(الغيرة والحمية)

وضده (الغيرة والحمية) ، وهو السعي في محافظة ما يلزم محافظته ، وهو من نتائج الشجاعة وكبر النفس وقوتها ، وهي شرائف الملكات ، وبها تتحقق الرجولية والفحلية ، والفاقد لها غير معدود من الرجال . قال رسول الله (ص) : « ان سعدا لغيور ، وانا أغير من سعد ، والله أغير مني » . وقال (ص): « ان الله لغيور ، ولاجل غيرته حرم الفواحش » وقال : « ان الله يغار ، والمؤمن يغار ، وغيرة الله أن يأتي الرجل المؤمن ما حرم الله عليه» . وقال الصادق عليه السلام : « ان الله تعالى غيور ويحب الغيرة ، ولغيرته حرم الفواحش ظاهرها وباطنها » .

فصل

(الغيرة على الدين والحريم والاولاد)

مقتضى الغيرة والحمية في (الدين) أن يجتهد في حفظه عن بدع المبتدعين، وانتحال المبطلين ، وقصاص المرتدين ، واهانة من يستخف به من المخالفين، ورد شبه الجاحدين ، ويسعى في ترويجه ونشر أحكامه ، ويبالغ في تبيين حلاله وحرامه ، ولا يتسامح في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ومقتضى الغيرة على (الحريم) الا يتغافل عن مباديء الامور التي تخشى غوائلها ، فيحفظهن عن أجانب الرجال ، ويمنعهن عن الدخول في الاسواق قال رسول الله (ص) لفاطمة (ع) : « أي شيء خير للمرأة ؟ قالت : ان لا ترى رجلا ولا يراها رجل . فضمها اليه، وقال: ذرية بعضها من بعض » . وكان أصحاب النبي (ص) يسدون الثقب والكوى في الحيطان ، لئلا تطلع

النساء على الرجال • وقال (ص) : « من أطاع امرأته أكبه الله على وجهه في النار » • وما روى انه (ص) : أذن للنساء في حضور المساجد ، وقال « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله » ، فالظاهر انه كان مختصا بنساء عصره (ص) : لعلمه بعدم ترتب فساد على حضورهن فيها • والصواب اليوم ان يمنعن من حضور المساجد والذهاب الى المشاهد الا العجائز منهن ، للقطع بترتب الفساد والمعصية على خروج نساء هذا العصر الى أي موضع كان• وسئل الصادق (ع) عن خروج النساء في العيدين ، فقال : « لا ! الا العجوز عليها منقلاها» • يعني الخفين • وفي روايةاخرى انه (ع) : « سئل عن خروج النساء في العيدين والجماعة ، فقال : لا ! الا امرأة مسنة » •

وبالجملة : من اطلع على أحوال نساء أمثال عصرنا يعلم أن مقتضى الغيرة ان يبالغ في حفظهن عن جميع ما يحتمل ان يؤدي الى فتنة وفساد ، سواء كان في نفسه محرما ، كالنظر الى الرجال الاجانب واستماع كلامهم بلا ضرورة شرعية وارتكاب الملاهي المحرمة ، أولا ، كالخروج عن البيت بلا داع شرعي أو ضروري ، ولو الى المساجد والمشاهد المشرفة ومجامع تعزية مولانا ابي عبدالله الحسين عليه السلام ، اذ ذلك وان كان في نفسه راجحا الا ان الغالب عدم انفكاكه عما ينافي الغيرة والحمية على ما هو المشاهد فيعصرنا ، فان أقل ما في الباب انه لا ينفك عننظرهن الى الاجانب واستماع كلامهم ، بل عن نظرهم اليهن واستماع كلامهن ، وهذا خروج للطرفين الى الانحراف عن قانون العفة • مع إنا نعلم قطعا ان خروجاكثرهن لا يخلو عن غرض فاسد او مرجوح ، وما أقل فيهنان يكونخروجها الى أحد المواضعالمذكورة لمحض القربةوالثواب • فالصواب ان يمنعن في امثال هذا العصر عن مطلق الخروج ، الا الى سفر واجب ، كالحج ، او الىبيت عالم عادل لأخذ ما يجب عليهن من المسائل ، اذا لم يتمكن أزواجهن من أخذها وايصالها اليهن • نعم ، لو فرض خروجها الى أحد المشاهد أو الى مجمع تعزية من مجامع النساء بل الى مجمع العرس ، على نحو اطمأنالزوج منها وتيقن بعدم حدوث ما ينافي الغيرة وعدم ترتب فساد ومعصية وريبة عليه ، فالظاهر جواز الاذن بل رجحانه • وجميع ذلك انما هو في الشواب

من النساء، واما العجائز فلا بأس بخروجهن الى المواضع المذكورة ! ومقتضى الغيرة ان يمنعن من استماع الكلمات الملهية والحكايات المهيجة للشهوة ، وعن مجالسة العجائز اللاتي يحضرن مجامع الرجال وينقلن حكاياتهم وقصصهم لانهن ناقصات العقل والايمان ، ومع ذلك شهوتهن في غاية القوة والغلبة ، فاستماعهن لشيء من المذكورات يوجب ثوران الشهوة وهيجانها فيهن ، فلما لم يكن فيهن قاهر العقل ومانع الايمان فربما أدى ذلك الى فساد عظيم. ولذلك ورد في الاخبار منعهن عن تعلم سورة يوسف عليه السلام ، اذ استماعهن لامثال القصة المذكورة فيها ربما ادى الى انحرافهن عن طريق العفة . قال أمير المؤمنين (ع) : « لا تعلموا نساءكم سورة يوسف ولا تقرؤهن اياها فان فيها الفتن ، وعلموهن سورة النور فان فيها المواعظ ». وقال (ع) : « لا تحملوا الفروج على السروج فتهيجوهن للفجور » . وقال رسول الله (ص) : « لا تنزلوا النساء الغرف ولا تعلموهن الكتابة وعلموهن الغزل وسورة النور » .

وبالجملة : مقتضى العقل والنقل ان يمنعن عن جميع ما يمكن ان يؤدي الى فساد وريبة ، وعن مباديء الامور التي تخاف غوائلها ، وينبغي لصاحب الغيرة ان يجعل نفسه مهيبا في نظرها ، حتى تكون منه على خوف وحذر ، ولا تطمئن منه فتتبع هواها وما تقتضيه جبلتها ، وان يجعلها مشغولة في كل وقت بأمر من الامور ، كتدبير المنزل واصلاح امر المعيشة ، او بكسب من المكاسب ، حتى يكون لها دائما شغل شاغل ، ولا تكون فارغة عنه في وقت من الاوقات ، اذ لو خلت عن الاشغال وتعطلت عن المهمات اوقعها الشيطان في اودية الافكار الردية ، فتميل الى الزينة والخروج والتفرج ، والنظر الى اجانب الرجال ، والملاعبة والمضاحكة للنسوان ، فينجر امرها الى الفساد . وينبغي ايضا لصاحب الغيرة ان يعطي امرأته ما تحتاج اليه من القوت واللباس وسائر الضروريات ، حتى لا تضطر الى ارتكاب ما لا ينبغي من الحركات والافعال توصلا الى أخذ شيء من ذلك من غير زوجها .

ثم ينبغي الا توقعه الغيرة في طرف الافراط فيبالغ في اساءة الظن والتعنت وتجسس البواطن ، فقد نهى رسول الله (ص) : « ان يتبع عورات النساء

وان يتعنت بهن » • وفي الخبر المشهور : « ان المرأة كالضلع ، ان اردت أن تقيمه كسرته ، فدعه تستمتع به على عوج » • وقال (ص) : « من الغيرة غيرة يبغضها الله ورسوله ، وهي غيرة الرجل على أهله من غير ريبة » • وقال أمير المؤمنين (ع) : « لا تكثر الغيرة على أهلك فترمى بالســوء من اجلك » • وقال عليه السلام في رسالته الى الحسن (ع) : « اياك والتغاير في غير موضع الغيرة ، فان ذلك يدعوهن الى السقم ، ولكن احكم امرهن فان رأيت عيبا فعجل النكير على الصغير والكبير ، بأن تعاقب منهن البريئة فتعظم الذنب وتهون العيب » • وبالجملة : لا ينبغي المبالغــة في الفحص والتفتيش، اذ لا ينفك ذلك عن سوء الظن الذي نهينا عنه ، فان بعض الظن اثم •

وأما مقتضى الغيرة على (الاولاد): ان تراقبهم من اول امرهم ، فاستعمل في حضانة كل مولود له وارضاعه امرأة صالحة تأكل الحلال، اذ الصبي الذي تتكون اعضاؤه من اللبن الحاصل من غذاء حرام يميل طبعه الى الخبائث ، لان طينته انعجنت من الخبث •

واذا بدأت فيه مخائل التمييز فينبغي ان يؤدب بآداب الاخيار • ولما كان أول ما يغلب عليه من الصفات شره الطعام ، فينبغي أن يؤدب فيه بأن يؤمر بالا يأخذ الا بيمينه ، ويقول (باسم الله) عند أكله ، ويأكل مما يليه ، ولا يبادر الى الطعام قبل غيره ، ولا يحدق الى الطعام ولا الى من يأكل ، ولا يسرع في الاكل ، ويمضغ الطعام مضغا جيدا ، ولا يلطخ ثوبه ولا يده • ويقبح عنده كثرة الاكل بأن يذم كثير الاكل ويشبه بالبهائم ، ويمدح الصبي الذي يقنع بالقليل ، ويحبب اليه الايثار بالطعام وقلة المبالاة به ، والقناعة بــأي طعام اتفق • ثم يؤدب في امر اللباس ، حتى لا يخرج فيه عن زي الابرار وأهل الورع ، فيحبب اليه ثياب القطن والبيض ، دون الابريسم الملون ، ويقرر عنده بأن ذلك شأن النساء والمخنثين ، والرجال يستنكفون منه ، ويحفظ من الصبيان الذين تعودوا التنعم والترفه والزينة • ثم يؤدب في الاخلاق والافعال ويبالغ في ذلك ، لان الصبى اذا اهمل في أول نشوه خرج في الاكثر ردى الاخلاق والافعال ، فيكون كذابا ، حسودا ، لجوجا ، عنودا سارقا ، خائنا ، ذاضحك وفضول ، وربما صار مخنثا مائلا الى الفسوق

والفجور ، فينبغي أن يحفظ من قرناء السوء ، وهو الاصل في تأديبه • يسلم الى معلم دين صالح ، يعلمه القرآن واحاديث الاخبار وحكايات الابرار ، لينغرس في نفسه حب الصالحين • ويحفظ عن الاشعار التي فيها ذكر الفسوق وأهله ، اذ ذلك يغرس في قلبه بذر الفساد • وينبغي أن يعود الصبر والسكوت اذا ضربه المعلم ، حتى لا يكثر الصراخ والشغب ولا يستشفع بأحد حينئذ ، ويذكر له أن ذلك دأب الرجال والشجعان ، وأن كثرة الصراخ دأب المماليك والنسوان • وينبغي أن يؤذن له بعد الفراغ من المكتب باللعب المباح الجميل حتى يستريح من تعب الادب ، ولا يموت قلبه ، ولا ينقص ذكاه • ويعلم محاسن الاخلاق والافعال ، ويجنب عن خبائث الصفات ورذائل الاعمال فيخوف من الحسد ، والعداوة ، والجبن ، والبخل ، والكبر ، والعجب ويحذر من السرقة ، واكل الحرام ، والكذب ، والغيبة ، والخيانة ، والفحش واللعن ، والسب ، ولغو الكلام •• وغير ذلك • ويرغب في الصبر ، والشكر ، والتوكل ، والرضا ، والشجاعة ، والسخاء ، والصدق ، والنصيحة ••• وغير ذلك من محاسن الاخلاق وفضائلها • ويمدح عنده الاخيار ويذم الاشرار ، حتى يصير الخير عنده محبوبا ، ويصير الشر عنده مبغوضا •

واذا بلغ سن التميز ، يؤمر بالطهارة والصلاة ، وبالصوم في بعض الايام من شهر رمضان ، ويعلم أصول العقائد وكلما يحتاج اليه من حدود الشرع • ومهما ظهر منه خلق جميل أو فعل محمود ، فينبغي ان يكرم عليه ويجازى لاجله بما يفرح به ، ويمدح بين أظهر الناس • وان ظهر منه فعل قبيح مرة واحدة ينبغي ان يتغافل عنه ولا يهتك ستره ، ولا يظهر له انه يتصور أن يتجاسر أحد على مثله ، (لا) سيما اذا ستره الصبي واجتهد في اخفائه ، فان اظهار ذلك ربما يفيده جسارة حتى لا يبالي بالمكاشفة بعد ذلك ، فان عاد ثانيا الى مثله ، فينبغي ان يعاتب عليه سرا ويعظم الامر فيه ، ويقال له: اياك أن يطلع على فعلك هذا احد فتفتضح عند الناس • ولا يكثر العتاب عليه حتى يسقط وقع الكلام من قلبه • وليكن الاب حافظا هيبته في الكلام والحركات معه • وينبغي للام ان تخوفه بالاب • وينبغي ان يمنع من كل ما يفعله خفية ، فانه لا يخفيه الا وهو يعتقد انه قبيح ، فاذا ترك يعوّد

فعل القبيح • ويعوّد الوقار والطمأنينة في المشي وسائر الحركات والافعال وعدم كشف اطرافه ، والتواضع والاكرام لكل من عاشره ، والتلطف معه في الكلام ، ويعلم طاعة والديه ، ومعلمه ، ومؤدبه، وكل من هو اكبر سنا منه ، من قريب وبعيد ، ويعوّد النظر اليهم بعين التعظيم والجلالة وترك اللعب بين أيديهم • ويمنع من الفخر على اقرانه بشيء مما تملكه نفسه او والده• ويخوف من أخذ شيء من الصبيان او الرجال ، أو يذكر له انالرفعة في العطاء ، والاخذ لؤم وخسة ومهانة وذلة ، فانه دأب الكلب ، اذ هو يتبصبص في انتظار لقمة ، ويقبح عنده حب الذهب والفضة ، ويحذر منهما اكثر مما يحذر من الحيات والعقارب ، اذ آفة حبهما اكثر منآفة السموم وقد هلك لاجله كلمن هلك العالم • ويعود الا يبصق في مجلسه ، ولا يتمخط ، ولا يتمطط ، ولا يتثاءب بحضرة غيره ، ولا يستدبر غيره ، ولا يضع رجلا علىرجل ، ولا يضرب كفه تحت ذقنه ، لانه دليل الكسل• ويعلم كيفية الجلوس والحركة والسكون • ويمنع منالنوم فيالنهار ، ومن التنعم في المفرش والملبس والمطعم ، بل يعود الخشونة فيها حتى تتصلب اعضاؤه، ولا يستخف بدنه ، ويذكر له انها خلقت لدفع الضرر والالم لا لاجل اللذة وان الاطعمة ادوية يتقوى الانسان بها على عبادة الله ، وان الدنيا كلها لا أصللها ولا بقاء لها ، وان الموت يقطع نعيمها ، وانها دار ممر لا دار مقر• وان الآخرة هي دار القرار ومحل الراحة والملذات ، والكيّس العاقل من تزود من الدنيا للآخرة • وينبغي ان يمنع من كثرة الكلام ، ومن الكذب ، واليمين ولو كان صدقا ، ومن اللهو واللعب والسخرية وكثرة المزاح ، ومن أن يبتديء بالكلام ، ويعود ألا يتكلم الا جوابا وبقدر السؤال ، وأن يحسن الاستماع مهما تكلم غيره ممن هو اكبر سنا منه ، وان يقوم لمن هو اكبر منه ، ويوسع له المكان ويجلس بين يديه •

فاذا تأدب الصبي بهذه الآداب في صغره صارت له بعد بلوغه ملكات راسخة ،فيكون خيرا صالحا • وان نشأ على خلافذلك ، حتى ألف اللعب والفحش ، والوقاحة ، والخرق ، وشره الطعام•واللباس ، والتزين والتفاخر بلغ وهو خبيث النفس كثيف الجوهر ، وكان وبالا لوالديه ، وصدر منه

ما يوجب الفضيحة والعار . فيجب على كل والد ألا يتسامح في تأديب ولده في حالة الصبا ، لانه امانة الله عنده ، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة عن كل نقش وصورة ، وقابل للخير والشر ، وابواه يميلان به الى احدهما ، فان عود الخير نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة ، وشاركه في ثوابه ابواه وكل معلم ومؤدب، ون عود الشر وأهمل شقى وهلك ، وكان الوزر في رقبة ابيه أو من كان قيما ووليا له .

ثم الصبية تؤدب بمثل ما مر ، الا فيما يتفاوت به الصبي والصبية ، فيستعمل ما يليق بها ، ويجب السعي في جعلها ملازمة للبيت ، والحجاب، والوقار،والعفة ،والحياء ، وسائر الخصال التي ينبغي ان تتصف بها النساء.

ثم ينبغي ان يتفرس من حال الصبي انه مستعد لاي علم وصناعة ، فيجعل مشغولا باكتسابه ويمنع من اكتساب غيره ، لئلا يضيع عمره ولا تترتب عليه فائدة ، اذ كل أحد ليس مستعدا لكل صناعة ، والا لاشتغل الجميع باشرف الصناعات ، واختلاف الناس وتفاوتهم في هذا الاستعداد لتوقف قوام النوع وانتظام العالم عليه .

وأما الغيرة على (المال) ، فلا تظن انها ليست ممدوحة لسرعة فناء المال وعدم اعتناء الاخيار ،اذ كل انسان ما دام في دار الدنيا محتاج اليه، وتحصيل الآخرة ايضا يتوقف عليه . اذ كسب العلم والعمل موقوف على بقاء البدن وهو موقوف على بدل مما يتحلل عنه من الاغذية والاقوات . فلا بد لكل عاقل أن يعتني بالمال ويجتهد في حفظه وضبطه ، بعد تحصيله من المداخل الطيبة والمكاسب المحمودة ، ومقتضى السعي في حفظه المعبر عنه بالغيرة عليه ألا يصرفه في مصرف لا تترتب عيله فائدة لآخرته أو دنياه ، كانفاقه للرياء والمفاخرة والتضييف ، أو بذله على غير المستحقين بلا داع ديني او دنيوي أو عادي ، او تمكينه الظلمة والسارقين وأهل الخيانة من أخذه علانية أو سرا ، أو عدم مبالاته بتضييعه من غير أن يصل نفعه الى أحد ، او اسرافه في بذله ، أو غير ذلك من المصارف التي ليست راجحة بحسب العقل والشرع ولا يعود اليه عوض في الآخرة والدنيا . بل مقتضى الغيرة عليه ان يصرف

جميع امواله في حياته في المصارف التي تعود فائدتها الى نفسه ، ولا يترك شيئا منها لوراثه الا للاخيار من اولاده، اذ بقاؤهم بمنزلة بقائه ، ويترتب على وجودهم — مع حسن حالهم وعيشهم — جميل الذكر وجزيل الثواب له بعد موته . وكيف يرضى صاحب الغيرة ان يترك ماله الذي أتعب نفسه في اكتسابه وفنى عمره في تحصيله ويحاسب عليه في عرصات القيامة ، لزوج امرأته ، فيأكله ويجامعها ، وغاية رضى هذه المرأة الخبيثة التي ليست لها حمية ووفاء ولا لها مطلوب أهم من مقاربة الرجال ، ان يأكل هذا الرجل صفو ماله ليتقوى على مجامعتها ، وهذا محنة لا يتحمل مثلها أهل الديانة والقيادة ، فضلا عن صاحب الغيرة والحمية . وقس على ذلك تخليف الاموال لسائر الوراث الذين لا يعرفون الحقوق ، وليسوا من أهل الخير والصلاح والوفاء ، من أولاد السوء وأزواج البنات ، وسائر الاقارب من الاخوان والاخوات والاعمام والعمات والاخوال والخالات . وهؤلاء وان لم يكونوا بمثابة زوج امرأته ، الا ان ترك الاموال لهم اذا لم يكونوا من أهل الخير والصلاح لا تثمر له فائدة سوى الوزر والوبال وذكره بالسوء والشتم والفحش ، كما هو المشاهد في زماننا هذا .

ومنها :

العجلة

وهي المعنى الراتب في القلب ، الباعث على الاقدام على الامور بأول خاطر ، من دون توقف واستبطاء في اتباعها والعمل بها. وقد عرفت انه من لوازم ضعف النفس وصغرها ، وهو من الابواب العظيمة للشيطان ، قد أهلك به كثيرا من الناس . قال رسول الله (ص) : « العجلة من الشيطان، والتأني من الله » . وقد خاطب الله تعالى نبيه (ص) بقوله :

« ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه » (١٠).

وقد روي : « انه لما ولد عيسى عليه السلام أتت الشياطين ابليس ، فقالت: أصبحت الاصنام قد نكست رؤوسها . فقال : هذا حادث قد حدث،

(١٠) طه ، الآية : ١١٤ .

مكانكم . فطار حتى جاء خافقي الارض ، فلم يجد شيئا ، ثم وجد عيسى عليه السلام قد ولد ، واذا الملائكة قد حفت حوله ، فرجع اليهم ، فقال : ان نبيا قد ولد البارحه . ما حملت انثى قط ولا وضعت الا وانا بحضرتها، الا هذا ، فايأسوا ان تعبد الاصنام بعد هذه الليلة ، ولكن ائتوا بني آدم من قبل العجلة والخفة » .

والظواهر في ذم العجلة أكثر من ان تحصى ، ولذلك أفتى بعض علماء العامة بالمنع من التعجيل لمن خاف فوت صلاة الجمعة . والسر في شدة ذمها: ان الاعمال ينبغي أن تكون بعد المعرفة والبصيرة ، وهما موقوفان على التأمل والمهلة ، والعجلة تمنع من ذلك، فمن يستعجل في أمر يلقى الشيطان شره عليه من حيث لا يدري . والتجربة شاهدة بأن كل أمر يصدر على العجلة يوجب الندامة والخسران ، وكل ما يصدر على التأني والتثبت لا تعرض بعده ندامة ، بل يكون مرضيا ، وبأن كل خفيف عجول ساقط عن العيون ولا وقع له عند القلوب . والمتأمل في الامور يعلم ان العجلة هو السبب الاعظم لتبديل نعيم الآخرة وملك الابد بخسائس الدنيا ومزخرفاتها .

وبيان ذلك : انه لا ريب في ان أحب اللذات وألذها للنفس هو الغلبة والاستيلاء ، لانها من صفات الربوبية التي هي مطلوبة بالطبع للنفوس المجردة والسر فيه : ان كل معلول من سنخ علته ، ويناسبها في صفاتها وآثارها ، وغاية ابتهاجه ان يتصف بمثل كمالاتها ، ولذا قيل : « كل ما يصدر عن شيء لا يمكن ان يكون من جميع الجهات هو هو ، ولا ان يكون من جميع الجهات ليس هو ، بل من جهة هو هو ومن جهة ليس هو » . وهذا معنى كلام قدماء الحكمة : (الممكن زوج تركيبي) . ولا ريب في ان جميع الموجودات معلولة للواجب سبحانه ، صادرة عن محض وجوده ومترشحة عن فيضه وجوده ، فهو غاية الكل والكل طالبة نحو كمالاته ، الا ان ما هو في سلسلة الصدور اليه أقرب والواسطة بينهما أقل ، تكون مناسبة له اتم وشوقه الى الاتصاف بكماله أشد . ولا ريب في ان الذوات المجردة النورية التي هي من عالم الامر مقتبسة من مشكاة نوره ، فلها غاية القرب

اليهفي سلسلةالصدور ، فتكون شديدة الشوق الى الاتصاف بنحو كماله. والنفس الانسانية لكونها منها ومن عالم الامر — كما قال الله تعالى — :

« قل الروح من أمر ربي » (١١) .

تكون مثلها في القرب اليه تعالى أو في المناسبة له ، فلها غاية الشوق في الاتصاف بصفاته وكمالاته التي من جملتها الغلبة والاستعلاء ، وليس ذلك مذموما، اذ ينبغي لكل عبد انيطلب ملكا عظيما لا آخر له ، وسعادة دائمية لا نفاد لها ، وبقاء لا فناء فيه ، وعزا لا ذل معه ، وامنا لا خوف فيه ، وغنىلا فقر معه ، وكمالا لا نقصان فيه . وهذه كلها من أوصاف الربوبية وطالبها طالب للعلو والعز والكمال لا محالة .

فالمذمومن الرئاسةوالاستيلاء انما هو الغلط الذي وقع للنفسبسبب تغرير اللعين المبعد عن عالم الامر ، اذ حسدها على كونها من عالم الامر، فأضلها وأغواها من طريق العجلة ، فزين في نظره الملك الفاني المشوب بانواعالآلام ،لكونه عاجلا ، وصده عن الملك المخلد الدائمالذي لا يشوبه كدر ولا يقطعه قاطع ، لكونه آجلا . والمسكين المخذول ابن آدم لما خلق عجولا راغبا فيالعاجلة ،لما جاءه المطرود من عالم الامر ، وتوسل اليهبواسطة العجلة التي في طبعه ، واستغواه بالعاجلة ، وأمال قلبه الى عدم الاعتناء بالآجلة، وزين له الحاضرة ،ووعده بالغرور وبالتمنيعلى الله في باب الآخرة، فانخدع بغروره واشتغل بطلب ملك الدنيا ومزخرفاتها مع فنائها ، وترك سلطنة الآخرة مع بقائها ، ولم يتأمل المسكين في أن ملك الدنيا ورئاستها ليس كمالا ولا علوا واستيلاء في الحقيقة ، بل هو صفة نقص يصده عن الكمال الحقيقي والرئاسة المعنوية . مثال ذلك : انه لا ريب في ان الحب والعشق صفة كمال ، ولكن اذا وقع في موقعه ، وذلك اذا كان المحبوب شريفا كاملا في ذاته وصفاته ، فحب الله سبحانه أشرف الصفات الكمالية ، وحب الجمادات وخسائس الحيوانات أخس الرذائل النفسية ، فكل من كان جاهلا بحقائق الامور ينخدع بغروره ، ويختار الملك العاجل الفاني على

(١١) الاسراء ، الآية : ٨٥ .

السلطنة الآجلة الباقية، وأما العالم الموفق فلا يتدلى بحبل غروره ، اذ علم مداخل مكره ، فاعرض عن العاجلة واختار الآجلة .

ولما استطار مكر اللعين في كافة الخلق ، ارسل الله اليهم الانبياء ، واشتغلوا بدعوتهم من الملك المجازى الذي لا أصل له ولا دوام ان سلم الى الملك الحقيقي الذي لا زوال له أصلا ، فنادوا فيهم :

« يأيها الذين آمنوا ما لكم اذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم الى الارض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة الا قليل » (١٢).

وذموا من اختار العاجلة الفانية على الآخرة الباقية ، كما قال سبحانه:

« ان هؤلاءيحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا » (١٣) . وقال :

« كلا بل تحبون العاجلة . وتذرون الآخرة » (١٤) .

فالغرض من بعثةالرسل ليس الا دعوة الخلق الى الملك المخلد ، ليكونوا ملوكا في الآخرة بسبب القرب من الله تعالى ، ودرك بقاء لا فناء فيه ، وعز لا ذل معه ، وقرة عين أخفيت لا يعلمها أحد . والشيطان يدعوهم من طريق العجلةالى ملك الدنيا الفاني، لعلمه بأن ما سمى ملك الدنيا ، مع انه لا يسلم ولا يخلو عن المنازعات والمكدرات وطول الهموم في التدبيرات ، يفوت به ملك الآخرة ، اذ الدنيا والآخرة ضرتان . بل يفوت به الملك الحاضر الذي هو الزهد في الدنيا ، اذ معناه ان يملك العبد شهوته وغضبه ، فينقـادان لباعث الدين واشارة الايمان . وهذا ملك بالاستحقاق ، اذ بهيصير صاحبه حرا ، وباستيلاء الشهوة يصير عبدا لبطنه وفرجه وسائر اعضائه ، فيكون مسخرا مثل البهيمة ، مملوكا يسخره زمام الشهوة ، أخذ المخنقة الى حيث يريد ويهوى . فما أعظم اغترار الانسان ، اذ ظن انه ينال الملك بأن يصير مملوكا، وينال الربوبيةبأن يصير عبدا . ومثل هذا هل يكون الا معكوسا في الدنيا منكوسا في الآخرة ؟. فقد ظهر ان منشأ الخسران في الدنيـا

---

(١٢) التوبة ، الآية : ٣٨ .
(١٣) الدهر ، الآية : ٢٧ .
(١٤) القيامة ، الآية : ٢٠ — ٢١ .

والآخرة هو العجلة .

والطريق في علاجها : أن يتذكر فسادها ، وسوء عاقبتها ، وايجابها للخفة والمهانة عند الناس ، وتأديتها الى الندامة والخسران .ثم يتذكر شرافة الوقار الذي هو ضده ، وكونه صفة الانبياء والاخيار ، فيوطن نفسه على ألا يرتكب فعلا الا بعد التأمل والمهلة ، ولا يترك الطمأنينة والسكون باطنا وظاهرا في جميع أفعاله وسكناته، فاذا فعل ذلك مدة ، ولو بالتكلف والتعمل، يصير ذلك عادة له ، فتزول عنه هذه الصفة ،وتحدث صفة الوقار والسكينة.

وصـل

(الاناة والتوقف والوقار والسكينة)

ضد العجلة (الاناة)[1] ، وهو المعنى الراتب في القلب ، الباعث على الاحتياط في الامور والنظر فيها ، والتأني في اتباعها والعمل بها .

ثم (التوقف) قريب من التأني والاناة ، والفرق بينهما : ان التوقف هو السكون قبل الدخول في الامور حتى يستبين له رشدها ، والتأني سكون وطمأنينة بعد الدخول فيها ، حتى يؤدي لكل جزء منها حقه ، وضد التوقف والتعسف .

و (الوقار) يتناول الاناة والتوقف كليهما ، فهو طمأنينة النفس وسكونها في الاقوال والافعال والحركات قبل الدخول فيها وبعده . وهو من نتائج قوة النفس وكبرها . وما قل من الفضائل النفسانية ان يبلغ مرتبته في الشرافة، ولذا يمدح به الانبياء والاصفياء ، وورد في الاخبار : « ان المؤمن متصف به البتة » . فينبغي لكل مؤمن ان يتكلف آثاره في الحركات والافعال ، حتى يصير بالتدريج ملكة ، وتكلف الطمأنينة في الافعال والحركات قبل ان تصير ملكة يختص باسم الوقار ، واذا صارت ملكة سميت سكينة ، اذ هي طمأنينة الباطن ، والوقار اطمئنان الظاهر .

---

(١) فى النسخ (الاناءة) ، فصححناه كما هنا .

ومنها :

سوء الظن بالخالق والمخلوق

وهو من نتائج الجبن وضعف النفس ، اذ كل جبان ضعيف النفس تذعن نفسه لكل فكر فاسد يدخل في وهمه ويتبعه ، وقد يترتب عليه الخوف والغم ، وهو من المهلكات العظيمة ، وقد قال الله سبحانه :

« يايها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم » (٢) . وقال تعالى : « وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم (٣) . وقال : « وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا » (٤) .

وقال امير المؤمنين عليه السلام : « ضع أمر اخيك على أحسنه حتى يأتيك ما يغلبك منه ، ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك سوءا وانت تجد لها في الخير محملا » . ولا ريب في ان من حكم بظنه على غيره بالشر ، بعثه الشيطان على ان يغتابه او يتوانى في تعظيمه واكرامه ، او يقصر فيما يلزمه من القيام بحقوقه ، أو ينظر اليه بعين الاحتقار ويرى نفسه خيرا منه . وكل ذلك من المهلكات . على ان سوء الظن بالناس من لوازم خبث الباطن وقذارته ، كما ان حسن الظن من علائم سلامة القلب وطهارته ، فكل من يسيء الظن بالناس ويطلب عيوبهم وعثراتهم فهو خبيث النفس سقيم الفؤاد وكل من يحسن الظن بهم ويستر عيوبهم فهو سليم الصدر طيب الباطن ، فالمؤمن يظهر محاسن أخيه ، والمنافق يطلب مساويه ، وكل اناء يترشح بما فيه .

والسر في خباثة سوء الظن وتحريمه وصدوره عن خبث الضمير واغواء الشيطان : ان اسرار القلوب لا يعلمها الا علام الغيوب ، فليس لاحد ان يعتقد في حق غيره سوءا الا اذا انكشف له بعيان لا يقبل التأويل ، اذ حينئذ لا يمكنه ألا يعتقد ما شاهده وعلمه ، وأما ما لم يشاهده ولم يعلمه ولم يسمعه وانما وقع في قلبه ، فالشيطان ألقاه اليه ، فينبغي ان يكذبه ، لانه أفسق الفسقة . وقد قال الله :

---

(٢) الحجرات ، الآية : ١٢ .
(٣) فصلت ، الآية : ٢٣ .
(٤) الفتح ، الآية : ١٢ .

« ان جاءكم فاسق بنبا فتبينوا ان تصيبوا قــوما بجهالة »(٥) .

فلا يجوز تصديق اللعين في نبأه ، وان حف بقرائن الفساد ، ما احتمل التأويل والخلاف فلو رأيت عالما في بيت أمير ظالم لا تظن ان الباعث طلب الحطام المحرمة ، لاحتمال كون الباعث اغاثة مظلوم . ولو وجدت رائحـة الخمر في فم مسلم فلا تجزمن بشرب الخمر ووجوب الحد ، اذ يمكن انه تمضمض بالخمر ومجه وما شربه ، أو شربه اكراها وقهرا . فلا يـستباح سوء الظن الا بما يستباح به المال،وهو صريح المشاهدة، أو قيام بينة فاضلة.

ولو أخبرك عدل واحد بسوء من مسلم ، وجب عليك ان تتوقف في اخباره من غير تصديق ولا تكذيب ، اذ لو كذبته لكنت خائنا على هذا العدل اذ ظننت به الكذب، وذلك ايضا من سوء الظن ، وكذا ان ظننت به العداوة أو الحسد أو المقت لتتطرق لأجله التهمة ، فترد شهادته ،ولو صدقته لكنت خائنا على المسلم المخبر عنه ، اذ ظننت به السوء ، مع احتمال كون العدل المخبر ساهيا ، أو التباس الامر عليه بحيث لا يكون في اخباره بخلاف الواقع آثما وفاسقا . وبالجملة : لا ينبغي ان تحسن الظن بالواحد وتسيء بالآخر، فتذكر المذكور حاله على ما كان في الستر والحجاب ، اذ لم ينكشف لك حاله بأحد القواطع ، ولا بحجة شرعية يجب قبولها ، وتحمل خبر العدل على امكان تطرق شبهة مجوزة للاخبار ، وان لم يكن مطابقا للواقع .

ثم المراد بسوء الظن هو عقد القلب وميل النفس دون مجرد الخواطر وحديث النفس ،بل الشك ايضا ، اذ المنهى عنه في الآيات والاخبار انما هو ان يظن ، والظن هو الطرف الراجح الموجب لميل النفس اليه . والامارات التي بها يمتاز العقد عن مجرد الخواطر وحديث النفس ، هو ان يتغـير القلب منه عما كان من الالف والمحبة الى الكراهة والنفرة ، والجوارح عما كانت عليه من الافعال اللازمة في المعاشرات الى خلافها . والدليل على ان المراد هو ما ذكر ، قوله (ص): « ثلاث في المؤمن لا تستحسن وله منهن مخرج فمخرجه من سوء الظن الا يحققه » أي لا يحقق في نفسه بعقد ولا فعل ، لا في القلب ولا في الجوارح .

---

(٥) الحجرات ، الآية : ٦ .

ثم لكون سوء الظن من المهلكات ، منع الشرع من التعرض للتهمة ، صيانة لنفوس الناس عنه ، فقال (ص) « اتقوا مواقع التهم » . وقال امير المؤمنين عليه السلام : « من عرض نفسه للتهمة فلا يلومن من اساء به الظن » . وروى : « انه (ص) كان يكلم زوجته صفية بنت حي ابن اخطب ، فمر به رجل من الانصار ، فدعاه رسول الله ، وقال : يا فلان ! هذه زوجتي صفية . فقال : يا رسول الله ! أفنظن بك الا خيرا ؟ قال : ان الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، فخشيت ان يدخل عليك » . فانظر كيف اشفق رسول الله (ص) على دينه فحرسه ، وكيف علم الامة طريق الاحتراز عن التهمة ، حتى لا يظن العالم الورع المعروف بالتقوى والدين ان الناس لا يظنون به الا خيرا ، اعجابا منه بنفسه ، فان ما لا جزم بتحققه في حق سيد الرسل وأشرفهم ، فكيف يجزم بتحققه في حق غيره ، وان بلغ من العلم والورع ما بلغ . والسر في ذلك : ان أورع الناس وأفضلهم لا ينظر الناس كلهم اليه بعين واحدة ، بل ان نظر اليه بعضهم بعين الرضا ينظر اليه بعض آخر بعين السخط :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا

فكل عدو وحاسد لا ينظر الا بعين السخط ، فيكتم المحاسن ويطلب المساويء ، وكل شرير لا يظن بالناس كلهم الا شرا ، وكل معيوب مفتضح عند الناس يحب ان يفتضح غيره وتظهر عيوبه عندهم ، لان البلية اذا عمت هانت ، ولان يشتغل الناس به فلا تطول ألسنتهم فيه . فاللازم لكل مؤمن ألا يتعرض لموضع التهمة حتى يوقع الناس في المعصية بسوء الظن ، فيكون شريكا في معصيتهم ، اذ كل من كان سببا لمعصية غيره يكون شريكا له في هذه العصية . ولذا قال الله تعالى :

« ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم » (٦) .

وقال رسول الله (ص) : « كيف ترون من يسب ابويه ؟ فقالوا : هل من أحد يسب ابويه ؟ فقال : نعم ! يسب أبوي غيره فيسبون أبويه » .

ثم طريق المعالجة في ازالته — بعد تذكر ما تقدم من فساده وما يأتي من فضيلة ضده — : انه اذا خطر لك خاطر سوء على مسلم ، لا تتبعه ،

(٦) الانعام ، الآية : ١٠٨ .

ولا تحققه ، ولا تغير قلبك عما كان عليه بالنسبة اليه ، من المراعاة والتفقد والاكرام والاعتماد بسببه ، بل ينبغي أن تزيد في مراعاته واعظامه وتدعو له بالخير ، فان ذلك يقنط الشيطان ويدفعه عنك ، فلا يلقى اليك خاطر السوء خوفا من اشتغالك بالدعاء وزيادة الاكرام . ومهما عـرفت عثرة من مسلم فانصحه في السر ولا تبادر الى اغتيابه ، واذا وعظته فلا تعظه وانت مسرور باطلاعك على عيبه ، لتنظر اليه بعين الحقارة، مع انه ينظر اليك بعين التعظيم بل ينبغي ان يكون قصدك استخلاصه من الاثم ، وتكون محزونا كما تحزن على نفسك اذا دخل عليك نقصان ، وينبغي ان يكون تركه ذلك العيب من غير نصيحتك أحب اليك من تركه بنصيحتك ، واذا فعلت ذلك جمعت بين أجر نصيحته واجر الحزن بمصيبته واجر الاعانة على آخرته .

وصـــل

(حسن الظن)

قد عرفت أن ضد سوء الظن بالخالق والمخلوق هو (حسن الظن بهما). ولما كان الاول من لوازم ضعف النفس وصغرها ، فالثاني من نتائج قوتها وثباتها ، وفوائده أكثر من ان تحصى ، وقد تقدمت الظـواهر الواردة في مدحه ، فينبغي لكل مؤمن ألا ييأس من روح الله ، ولا يظن انه لا يرحمه ويعذبه ألبتة ولا يخلصه من العقاب ، وان ما يرد عليه في الدنيا من البلايا والمصائب هو شر له وعقوبة ، بل ينبغي ان يعلم انه أرحم وأرأف به من والديه ، وانما خلقه لأجل الفيض والجود ، فلا بد ان يرحمه في دار الآخرة، ويخلصه من عذاب الابد ويوصله الى نعيم السرمد ،وما يرد عليه من المصائب والبلايا في دار الدنيا خير له وصلاح ، وذخيرة له في يوم المعاد .

وكذا لا يظنن السوء والشر بالمسلمين ، ولا يحملن ماله وجه صحيح من أعمالهم وأقوالهم على وجه فاسد ، بل يجب ان يحمل كل ما يشاهده من أفعالهم وحركاتهم على احسن الوجوه وأصحها ،ما لم يجزم بفساده ، ويكذب وهمه وسائر حواسه ، فيما يذهب اليه من المحامل الفاسـدة والاحتمالات القبيحة المحرمة ، ويكلف نفسه على ذلك ، حتى يصير ذلك ملـكة له ، فترتفع عنه ملكة سوء الظن بالكلية . نعم ، الحمل على الوجه الصحيح على

تقدير عدم مطابقته للواقع ،لو كان باعثا لضرر مالي أو فساد ديني أو عرضي، لزم فيه الحزم والاحتياط ، وعدم تعليق أموره الدينية والدنيوية عليه لئلا يترتب عليه الخسران والاضرار ، وتلزمه الفضيحة والعار .

ومنهـا :

الغضب

وهو كيفية نفسانية موجبة لحركة الروح من الداخل الى الخارج للغلبة، ومبدؤه شهوة الانتقام ، وهو من جانب الافراط ، واذا اشتد يوجب حركة عنيفة ، يمتلىء لاجلها الدماغ والاعصاب من الدخان المظلم ، فيستر نور العقل ويضعف فعله ،ولذا لا يؤثر في صاحبه الوعظ والنصيحة ، بل تزيده الموعظة غلظة وشدة . قال بعض علماء الاخلاق : « الغضب شعلة نار اقتبست من نار الله الموقدة ، الا انها لا تطلع الا على الافئدة ، وانها لمستكنة في طي الفؤاد استكنان الجمر تحت الرماد، وتستخرجها حمية الدين من قلوب المؤمنين ، او حمية الجاهلية والكبر الدفين من قلوب الجبارين ، التي لها عرق الى الشيطان اللعين ، حيث قال :

« خلقتني من نار وخلقته من طين » (٧) .

فمن شأن الطين السكون والوقار ،ومن شأن النار التلظي والاستعار» .

ثم قوة الغضب تتوجه عند ثورانها اما الى دفع المؤذيات ان كان قبل وقوعها ، أو الى التشفي والانتقام ان كان بعد وقوعها ، فشهوتها الى أحد هذين الامرين ولذتها فيه ، ولا تسكن الا به . فان صدر الغضب على من يقدر ان ينتقم منه ، واستشعر باقتداره على الانتقام ، انبسط الدم من الباطن الى الظاهر ، واحمر اللون ، وهو الغضب الحقيقي . وان صدر على من لا يتمكن ان ينتقم منه لكونه فوقه ، واستشعر باليأس عن الانتقام ، انقبض الدم من الظاهر الى الباطن ، وصار حزنا . وان صدر على من يشك في الانتقام منه انبسط الدم تارة أو انقبض أخرى ، فيحمر ويصفر ويضطرب .

(٧) الاعراف ، الآية : ١٢ وص ، الآية : ٧٦ .

فصــل

(الافراط والتفريط والاعتدال فى قوة الغضب)

الناس في هذه القوة على افراط وتفريط واعتدال . فالافراط : ان تغلب هذه الصفة حتى يخرج عن طاعة العقل والشرع وسياستهما ، ولا تبقى له فكرة وبصيرة . والتفريط : ان يفقد هذه القوة او تضعف بحيث لا يغضب عما ينبغي الغضب عليه شرعا وعقلا . والاعتدال : أن يصدر غضبه فيما ينبغي ولا يصدر في ما لا ينبغي ، بحيث يخرج عن سياسة الشرع والعقل، بل يكون تابعا لهما في الغضب وعدمه ، فيكون غضبه وانتقامه بأمرهما . ولا ريب في ان الاعتدال ليس مذموما ، ولا معدودا من الغضب ، بل هو من الشجاعة . والتفريط مذموم معدود من الجبن والمهانة ،وربما كان أخبث من الغضب ، اذ الفاقد لهذه القوة لا حمية له ، وهو ناقص جدا . ومن آثاره عدم الغيرة على الحرم وصغر النفس ، والجور ، وتحمل الـذل من الاخساء ، والمداهنة في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والفحشاء . ولذا قيل : « من استغضب فلم يغضب فهو حمار »[٨] . وقد وصف الله خيار الصحابة بالحمية والشدة ، فقال :

« اشـداء على الكفار » (٩)

وخاطب نبيه (ص) بقوله :

« واغلظ عليهم » (١٠)

والشدة والغلظة من آثار قوة الغضب ، ففقد هذه القوة بالكلية ، او ضعفها مذموم. وقد ظهر ان الغضب المعدود من الرذائل هو حد الافراط الذي يخرجه عن مقتضى العقل والدين ، وحد التفريط وان كان رذيلة الا انه ليس غضبا ، بل هو ضد له معدود من الجبن ، وحد الاعتدال فضيلة وضد له ومعدود من الشجاعة ، فانحصر الغضب بالاول .

ثم الناس كما هم مختلفون في أصل قوة الغضب ، كذلك مختلفون في حدوثه وزواله سرعة وبطأ ، فيكونان في بعضهم سريعين،وفي بعضهم بطيئين

---

(٨) هذه الكلمة منسوبة للشافعي ــ على ما في احياء العلوم : ج ٢ص١٤٥ و ١٥٦ ــ .

(٩) الفتح ، الآية : ٢٩ .

(١٠) التوبة ، الآية : ٨٣.

وفي بعضهم يكون احدهما سريعا والآخر بطيئا ، وفي بعضهم يكون كلاهما أو احدهما متوسطا بين السرعة والبطء ، وما كان من ذلك باشارة العقل فهو ممدوح معدود من أوصاف الشجاعة ، وغير مذموم محسوب من آثار الغضب او الجبن .

فصـــل

(الغضب)

(الغضب) من المهلكات العظيمة ، وربما أدى الى الشقاوة الابدية ، من القتل والقطع ، ولذا قيل: (انه جنون دفعي) . قال امير المؤمنين (ع): « الحدة ضرب من الجنون ، لأن صاحبها يندم ، فان لم يندم فجنونـه مستحكم » . وربما أدى الى اختناق الحرارة ، ويورث الموت فجأة. وقال بعض الحكماء : « السفينة التي وقعت في اللجج الغامـرة ، واضطربت بالرياح العاصفة وغشيتها الامواج الهائلة ، أرجى الى الخلاص من الغضبان الملتهب » . وقد ورد به الذم الشديد في الاخبار ، قال رسول الله (ص) : « الغضب يفسد الايمان كما يفسد الخل العسل » . وقال الباقر (ع) : « ان هذا الغضب جمرة من الشيطان توقد في قلب ابن آدم ، وان احدكم اذا غضب احمرت عيناه وانتفخت أوداجه ودخل الشيطان فيه ، فاذا خاف أحدكم ذلك من نفسه فليلزم الارض ، فان رجز الشيطان ليذهب عنـه عند ذلك » . وقال الصادق عليه السلام : « وكان ابي عليه السلام يقول: أي شيء أشد من الغضب ؟ ان الرجل يغضب فيقتل النفس التي حرم الله، ويقذف المحصنة » . وقال عليه السلام [١١] : « ان الرجـل ليغضب فما يرضى ابدا حتى يدخل النار » . وقال الصادق عليه السلام : « الغضب مفتاح كل شر » . وقال عليه السلام : « الغضب ممحقة لقلب الحكيم » . وقال عليه السلام : « من لم يملك غضبه لم يملك عقله » .

ثم مما يلزم الغضب من الآثار المهلكة الذميمة ، والاغـراض المضرة القبيحة : انطلاق اللسان بالشتم والسب ، واظهار السوء والشماتة بالمساءة

---

(١١) اي : الباقر (ع) وقد روى هذه الاخبار المذكورة هنا الكافي في باب الغضب ، فروى هذا الخبر عنه (ع) لاعن الصادق (ع) .

وافشاء الاسرار وهتك الاستار والسخرية والاستهزاء ، وغير ذلك من قبيح الكلام الذي يستحيي منه العقلاء ، وتوثب الاعضاء بالضرب والجرح والتمزيق والقتل، وتألم القلب بالحقد والحسد والعداوة والبغض ومما تلزمه : الندامة بعد زواله ، وعداوة الاصدقاء ، واستهزاء الاراذل ، وشماتة الاعداء ، وتغير المزاج ، وتألم الروح وسقم البدن ، ومكافأة العاجل وعقوبة الآجل.

والعجب ممن توهم أن شدة الغضب من فرط الرجولية ، مع ان ما يصدر عن الغضبان من الحركات القبيحة انما هو أفعال الصبيان والمجانين دون الرجال والعاقلين ، كيف وقد تصدر عنه الحركات غير المنتظمة ، من الشتم والسب بالنسبة الى الشمس ، والقمر ، والسحاب ؛ والمطر ؛ والريح ؛ والشجر ، والحيوانات والجمادات ، وربما يضرب القصعة على الارض ، ويكسر المائدة ، ويخاطب البهيمة والجماد كما يخاطب العقلاء ، واذا عجز عن التشفي ، ربما مزق ثوبه ، ولطم وجهه ، وقد يعدو عدو المدهوش المتحير ، وربما اعتراه مثل الغشية،أو سقط على الارض لا يطيق النهوض والعدو . وكيف يكون مثل هذه الافعال القبيحة من فرط الرجولية وقد قال رسول الله (ص) : « الشجاع من يملك نفسه عند غضبه » .

فصل

(امكان ازالة الغضب وطرق علاجه)

قد اختلف علماء الاخلاق في امكان ازالة الغضب بالكلية وعدمه ،فقيل: قمع أصل الغضب من القلب غير ممكن ، لانه مقتضى الطبع ، انما الممكن كسر سورته وتضعيفه، حتى لا يشتد هيجانه . وانت خبير بأن الغضب الذي يلزم ازالته هو الغضب المذموم ، اذ غيره مما يكون باشارة العقل والشرع ليس غضبا فيه كلامنا ، بل هو من آثار الشجاعة ، والاتصاف به من اللوازم وان اطلق عليه اسم الغضب احيانا حقيقة أو مجازا ،كما روى عن امير المؤمنين عليه السلام انه قال : « كان النبي (ص) لا يغضب للدنيا ، واذا أغضبه الحق لم يصرفه أحد ، ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له » . ولا ريب ان الغضب الذي يحصل لرسول الله (ص) لم يكن غضبا مذموما ، بل كان غضبا ممدوحا يقتضيه منصب النبوة ، وتوجيه الشجاعة النبوية. ثم الغضب

المذموم مسكن الزوال ، ولولا امكانه لزم وجوده للانبياء والاوصيـــاء ، ولا ريب في بطلانه .

ثم علاجه يتوقف على امور ، وربما حصل ببعضها :

(الاول) ازالة اسبابه المهيجةله ، اذ علاج كل علة بحسم مادتها ، وهي: العجب ، والفخر ، والكبر ، والغدر ، واللجاج ، والمـــراء ، والمـــزاح ، والاستهزاء ، والتعيير ، والمخاصمة ، وشدة الحرص على فضول الجاه والاموال الفانية ، وهي باجمعها أخلاق ردية مهلكة ، ولا خـــلاص من الغضب مع بقائها ، فلا بد من ازالتها حتى تسهل ازالته .

(الثاني) ان يتذكر قبح الغضب وسوء عاقبته ، ومـــا ورد في الشريعة من الذم عليه ، كما تقدم .

(الثالث) ان يتذكر ما ورد من المدح والثواب على دفـــع الغضب في موارده ، ويتأمل فيما وردد من فوائد عدم الغضب ، كقول النبي (ص): « من كف غضبه عن الناس كف الله تبارك وتعالى عنه عذاب يوم القيامة» وقول الباقر عليه السلام : « مكتوب في التوراة : فيما ناجى الله به موسى: أمسك غضبك عمن ملكتك عليه اكف عنك غضبي » . وقول الصادق (ع): « اوحى الله تعالى الى بعض انبيائه : يا ابن آدم ! اذكرني في غضبك أذكرك في غضبي ، ولا أمحقك فيمن أمحق ، واذا ظلمت بمظلمة فارض بانتصاري لك ، فان انتصاري لك خير من انتصارك لنفسك » . وقوله (ع): «سمعت ابي يقول : اتى رسول الله (ص) رجل بدوي ، فقال : اني اسكن البادية، فعلمني جوامع الكلم . فقال : آمرك ألا تغضب . فأعاد الاعرابي عليه المسألة ثلاث مرات ، حتى رجع الرجل الى نفسه ، فقال : لا اسأل عن شيء بعد هذا ، ما امرني رسول الله (ص) الا بالخير » . وقوله عليه السلام : « ان رسول الله (ص) أتاه رجل ، فقال : يا رسول الله ! علمني عظة اتعظ بها ، فقال له : انطلق ولا تغضب ، ثم عاد عليه ، فقال له : انطلق ولا تغضب ... ثلاث مرات » وقوله عليه السلام : «من كف غضبه ستر الله عورته» ... الى غير ذلك من الاخبار .

(الرابع) أن يتذكر فوائد ضد الغضب ، أعني الحلم وكظم الغيظ ،

وما ورد من المدح عليهما في الاخبار ـ كما يأتي ـ ويواظب على مباشرته ولو بالتكلف ، فيتحلم وان كان في الباطن غضبانا ، واذا فعل ذلك مدة صار عادة مألوفة هنيئة على النفس ، فتنقطع عنها اصول الغضب .

(الخامس) ان يقدم الفكر والروية على كل فعل أو قول يصدر عنه ، ويحافظ نفسه من صدور غضب عنه .

(السادس) أن يحترز عن مصاحبة أرباب الغضب ، والذين يتبجحون بتشفي الغيظ وطاعة الغضب، ويسمون ذلك شجاعة ورجولية ، فيقولون: نحن لا نصبر على كذا وكذا ، ولا نحتمل من احد امرا . ويختار مجالسة أهل الحلم ، والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس .

(السابع) ان يعلم ان ما يقع انما هو بقضاء الله وقدره ، وان الاشياء كلها مسخرة في قبضة قدرته ، وان كل ما في الوجود من الله ، وان الامر كله لله ، وان الله لا يقدر له ما فيه الخيرة ، وربما كان صلاحه في جوعه أو مرضه ، أو فقره ، أو جرحه أو قتله ، أو غير ذلك . فاذا علم بذلك غلب عليه التوحيد ، ولا يغضب على احد ، ولا يغتاظ عما يرد عليه ، اذ يرى ـ حينئذ ـ أن كل شيء في قبضة قدرته أسير ، كالقلم في يد الكاتب. فكما ان من وقع عليه ملك بضرب عنقه لا يغضب على القلم ، فكذلك من عرف الله وعلم ان هذا النظام الجملي صادر منه على وفق الحكمة والمصلحة ولو تغيرت ذرة منه عما هي عليه خرجت عن الاصلحية ، لا يغضب على أحد ، الا أن غلبة التوحيد على هذا الوجه كالكبريت الاحمر وتوفيق الوصول اليه من الله الاكبر . ولو حصل لبعض المتجردين عن جلباب البدن يكون كالبرق الخاطف ، ويرجع القلب الى الالتفات الى الوسائط رجوعا طبيعيا ، ولو تصور دوام ذلك لاحد لتصور لفرق الانبياء ، مع ان التفاتهم في الجملة الى الوسائط مما لا يمكن انكاره .

(الثامن) ان يتذكر ان الغضب مرض قلب ونقصان عقل ، صادر عن ضعف النفس ونقصانها ، لا عن شجاعتها وقوتها ، ولذا يكون المجنون أسرع غضبا من العاقل ، والمريض أسرع غضبا من الصحيح . والشيخ الهرم أسرع غضبا من الشاب ، والمرأة أسرع غضبا من الرجل ، وصاحب الاخلاق

السيئة والرذائل القبيحة أسرع غضبا من صاحب الفضائل. فالرذيل يغضب لشهوته اذا فاتته اللقمة ، والبخيل يغتاظ لبخله اذا فقد الحبة ، حتى يغضب لفقد أدنى شيء على أعز أهله وولده . والنفس القوية المتصفة بالفضيلة أجل شأنا من ان تتغير وتضطرب لمثل هذه الامور ، بل هي كالطود الشاهق لا تحركه العواصف، ولذا قال سيد الرسل (ص) : « ليس الشديد بالصرعة انما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » . وان شككت في ذلك فافتح عينيك وانظر الى طبقات الناس الموجودين ، ثم ارجع الى كتب السير والتواريخ ، واستمع الى حكايات الماضين ، حتى تعلم : ان الحلم والعفو وكظم الغيظ شيمة الانبياء والحكماء واكابر الملوك والعقلاء ، والغضب خصلة الجهلة والاغبياء .

(التاسع) أن يتذكر أن قدرة الله عليه أقوى وأشد من قدرته على هذا الضعيف الذي يغضب عليه ، وهو أضعف في جنب قوته القاهرة بمراتب غير متناهية من هذا الضعيف في جنب قوته ، فليحذر ، ولم يأمن اذا أمضى غضبه عليه أن يمضي الله عليه غضبه في الدنيا والآخرة ، وقد روي :« أنه ماكان في بني اسرائيل ملك الا ومعه حكيم ، اذا غضب أعطاه صحيفة فيها : (ارحم المساكين ، واخش الموت ، واذكر الآخرة) ، فكان يقرأها حتى يسكن غضبه ». وفي بعض الكتب الالهية : « يا ابن آدم ! اذكرني حين تغضب اذكرك حين أغضب ، فلا أمحقك فيمن أمحق »[١٢] .

(العاشر) أن يتذكر ان من يمضي عليه غضبه ربما قوي وتشمر لمقابلته ، وجرد عليه لسانه باظهار معائبه والشماتة بمصائبه ، ويؤذيه في نفسه وأهله وماله وعرضه .

(الحادي عشر) أن يتفكر في السبب الذي يدعوه الى الغيظ والغضب فان كان الخوف الذلة والمهانة والاتصاف بالعجز وصغر النفس عند الناس، فليتنبه ان الحلم وكظم الغيظ ودفع الغضب عن النفس ليست ذلة ومهانة،ولم يصدر من ضعف النفس وصغرها ، بل هو من آثار قوة النفس وشجاعتها .

---

(١٢) روى الكافي في باب الغضب نفس هذا الحديث عن الصادق (ع) بهذه العبارة :« انف التوراة مكتوبا : يابن آدم ! اذكرني حين تغضب اذكرك عند غضبي ، فلا امحقك فيمن امحق ... » وقد تقدم مثله ص ٢٩١ . ج : ١

وأضدادها تصدر من نقصان النفس وخورها . فدفع الغضب عن نفسه لايخرجه من كبر النفس في الواقع ، ولو فرض خروجه بـه منه في أعين جهلة الناس فلا يبالي بذلك ، ويتذكر أن الاتصاف بالذلة والصغر عند بعض ارذال البشر أولى من خزي يوم المحشر والافتضاح عند الله الملك الاكبر . وان كان السبب خوف أن يفوت منه شيء مما يحبه ، فليعلم أن ما يحبه ويغضب لفقده اما ضروري لكل أحد ،كالقوت والمسكن واللباس وصحة البدن ، وهو الذي اشار اليه سيد الرسل — صلى الله عليه وآلهوسلم — بقوله : « من اصبح آمنا في سربه ، معافى في بدنه ، وله قوت يومه،فكأنما خيرت له الدنيا بحذافيرها » . أو غير ضروري لاحد ، كالجاه والمنصب وفضول الاموال . أو ضروري لبعض الناس دون بعض ، كالكتاب للعالم، وأدوات الصناعات لاربابها. ولاريب أن كل ماليس من هذه الاقسامضروريا فلا يليق ان يكون محبوبا عند اهل البصيرة وذوي المروات ، اذ مالايحتاج اليه الانسان في العاجل لابدله من تركه في الآجل ، فما بال العاقل أن يحبه ويغضب لفقده ، واذا علم ذلك لم يغضب على فقد هذا القسم ألبتة .وأما ما هو ضروري للكل أو البعض ، وان كان الغضب والحزن من فقده مقتضى الطبع لشدة الاحتياج اليه . الا أن العاقل اذا تأمل يجد أن ما فقد عنهمن الاشياء الضرورية ان امكن رده والوصول اليه يمكن ذلك بـدون الغيظ والغضب ايضا ، وان لم يمكن لم يمكن معهما أيضا . وعلى أي حال بعد التأمل يعلم أن الغضب لاثمرة له سوى تألم العاجل وعقوبة الآجل ، وحينئذ لا يغضب ، وان غضب يدفعه عن نفسه بسهولة .

(الثاني عشر)أن يعلم ان الله يحب منه ألا يغضب ، والحبيب يختار ألبتة ما يحب محبوبه ، فان كان محبا لله فليطفيء شدة حبه له غضبه .

(الثالث عشر) ان يتفكر في قبح صورته وحركاته عند غضبه ، بأن يتذكر صورة غيره وحركاته عند الغضب .

تتميم

اعلم ان بعض المعالجات المذكورة يقتضي قطع أسباب الغضب وحسم مواده ، حتى لايهيج ولا يصدر ، وبعضها يكسر سورته أو يدفعه اذا صدر

وهاج . ومن علاجه عند الهيجان الاستعاذة من الشيطان ، والجلوس ان كان قائما ، والاضطجاع ان كان جالسا ، والوضوء أو الغسل بالماء البارد، وان كان غضبه على ذي رحم فليدن منه وليمسه ، فان الرحم اذا مست سكنت، كما ورد في الاخبار [١٣] .

وصـــل
(فضيلة الحلم وكظم الغيظ)

قد عرفت أن الحلم هو طمأنينة النفس، بحيث لايحركها الغضب بسهولة ولا يزعجه المكروه بسرعة، فهو الضد الحقيقي للغضب ، لانه المانع من حدوثه وبعد هيجانه لما كان كظم الغيظ مما يضعفه ويدفعه ، فمن هذه الحيثية يكون كظم الغيظ أيضا ضدا له . فنحن نشير الى فضيلة الحلم وشرافته، ثم الى فوائـــد كظم الغيظ ومنافعه ، ليجتهد طالب ازالة الغضب في الاتصاف بالاول فلا يحدث فيه أصلا ، وبالثاني ، فيدفعه عند هيجانه . فنقول :

أما (الحلم) فهو اشرف الكمالات النفسية بعد العلم ، بل لاينفع العلم بدونه أصلا ، ولذا كلما يمدح العلم أو يسأل عنه يقارن به ، قال رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — : « اللهم أغنني بالعلم وزيني بالحلم ». وقال — صلى الله عليه وآله وسلم — : « خمس من سنن المرسلين » ... وعد منها الحلم . وقال — صلى الله عليه وآله وسلم — : « ابتغوا الرفعــة عند الله » . قالوا : وما هي يارسول الله !؟ قال : « تصل من قطعك وتعطي من حرمك ، وتحلم عمن جهل عليك » . وقال — صلى الله عليه وآلــه وسلم — :: « ان الرجل المسلم ليدرك بالحلم درجة الصائم القائم». وقال — صلى الله عليه وآله وسلم — : « ان الله يحب الحيي الحليم ، ويبغض الفاحش البذي » . وقال — صلى الله عليه وآله وسلم — : «ثلاث من لم تكن فيه واحدة منهن فلا تعتدوا بشيء من عمله : تقوى تحجزه عن معاصي الله ، وحلم يكف به السفيه ، وخلق يعيش به في الناس» . وقال(ص): « اذا جمع الخلائق يوم القيامة ، نادى مناد : اين أهل الفضل ؟ فيقوم ناس — وهم يسير — فينطلقون سراعا الى الجنة ، فتتلقاهم الملائكة فيقولون: انا نراكم سراعا الى الجنة ؟ فيقولون : نحن أهل الفضل . فيقولون : ما

(١٣) روى ذلك في الكافي في باب الغضب عن الباقر (ع) .

كان فضلكم ؟ فيقولون : كنا اذا ظلمنا صبرنا ، واذا اسيء الينا عفونا ،واذا جهل علينا حلمنا . فقال لهم ادخلوا الجنة فنعم أجر العالمين » وقال(ص): « ما اعز الله بجهل قط ، ولا أذل بحلم قط » . وقال أمير المؤمنين (ع) : « ليس الخير أن يكثر مالك وولدك ، ولكن الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك » . وقال علي بن الحسين (ع) : « انه ليعجبني الرجل أن يدركه حلمه عند غضبه » . وقال الصادق (ع) : « كفى بالحلم ناصرا ».وقال(ع): « واذا لم تكن حليما فتحلم » . وقال (ع) : « اذا وقع بين رجلين منازعة نزل ملكان ، فيقول للسفيه منهما : قلت وقلت وأنت اهل لما قلت،وستجزى بما قلت ، ويقولان للحليم منهما : صبرت وحلمت سيغفر لك ان اتمست ذلك. قال (ع) : فان رد الحليم عليه ارتفع الملكان ».وبعث(ع) غلاما له في حاجة فأبطأ ، فخرج على اثره فوجده نائما ، فجلس عند رأسه يروحه حتى انتبه ، فقال له : « يا فلان ! والله ما ذلك لك ! تنام الليل والنهار، لك الليل ولنا منك النهار » . وقال الرضا (ع) : « لايكون الرجل عابدا حتى يكون حليما » .

واما (كظم الغيظ) — فهو وان لم يبلغ مرتبة الحلم فضيلة وشرافة ، لأنه التحلم : أي تكلف الحلم ، الاانه اذا واظب عليه حتى صار متعاداتحدث بعد ذلك صفة الحلم الطبيعي ، بحيث لا يهيج الغيظ حتى يحتاج الى كظمه، ولذا قال رسول الله (ص) «انماالعلم بالتعلم والحلم بالتحلم » . فمن لم يكن حليما بالطبع لابد له من السعي في كظم الغيظ عند هيجانه ، حتىتحصل له صفة الحلم . وقد مدح الله سبحانه كاظمي الغيظ في محكم كتابه ، وتورات الأخبار على شرافته وعظم اجره . قال رسول الله (ص) —: « من كظم غيظا ولو شاء ان يمضيه أمضاه ، ملأ الله قلبه يوم القيامة رضا» [١٤] .وقال (ص) —: « ماجرع عبد جرعة أعظم اجرا من جرعة غيظ كظمها ابتغاءوجه الله تعالى ». وقال (ص) —: « ان لجهنم بابا لايدخله الا من شفىغيظه بمعصيةالله تعالى».وقال — (ص) «من كظم غيظا وهو يقدر على أن ينفذه

(١٤) روى الحديث الكافى فى باب كظم الغيظ عن ابي عبد الله (ع) .

دعاه الله يوم القيامة على رؤس الخلائق ، حتى يخبر من أي الحورشاء »[١٥] وقال — (ص) : « من أحب السبيل [١٦] الى الله تعالى جرعتان : جرعة غيظ يردها بحلم ، وجرعة مصيبة يردها بصبر » وقال سيد الساجدين (ع) وماتجرعت جرعة أحب الى من جرعة غيظ لاأكافى بها صاحبها » . وقال الباقر عليه السلام : « من كظم غيظا وهو يقدر على امضائه ، حشا الله تعالى قلبه أمنا وايمانا يوم القيامة » . وقال (ع) لبعض ولده [١٧] : « يابني مامن شيء اقر لعين أبيك من جرعة غيظ عاقبتها صبر ، ومايسرني أن لى بذل نفسي حمر النعم » . وقال الصادق (ع) : « نعم الجرعة الغيظ لمن صبر عليها ، فان عظيم الأجر البلاء ، وماأحب الله قوما الا ابتلاهم » . وقال (ع) : « مامن عبد كظم غيظا الازاده الله — عزوجل — عزاً في الدينا والاخرة » وقد قال الله — عز وجل — :

« والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين »[١٨] .

وأثابه الله مكان غيظه ذلك » . وقال أبو الحسن الاول (ع) : « اصبر على اعداء النعم ، فانك لن تكافي من عصى الله فيك بافضل من ان تطيع الله فيه »

ومنها :

الانتقام

بمثل مافعل به ، أو بالازيد منه — وان كان محرما ممنوعا من الشريعة وهو من نتائج الغضب ، اذ كل انتقام ليس جائزا ، فلايجوز مقابلة الغيبة بالغيبة ، والفحش بالفحش ، والبهتان بالبهتان ، والسعاية الى الظلمة بمثلها . وهكذا في سائر المحرمات . قال سيد الرسل (ص) — : « ان امرؤ عيّرك بمافيك فلا تعيره بمافيه » . وقال (ص) : « المستبان شيطانان يتهاتران » . وقد

---

(١٥) صححنا هذا الحديث على ما فى البحار (الجزء الثاني من المجلد ١٥ فى باب الحلم) رواه عن جامع الاخبار للشيخ الجليل الحسن بن فضل الطبرسي وفيه اختلاف كثير عما فى نسخ جامع السعادات .

(١٦) كذا وجدنا الحديث فى البحار والكافى ونسخ جامع السعادات . والظاهر ان الاصح (السبل) .

(١٧) فى الكافى فى باب كظم الغيظ روي هذا الحديث هكذا : « عن ابي جعفر (ع) قال : قال لي ابي: يا بني ! ما من شيء . . . » الى آخر الحديث، فالقائل هو سيد الساجدين لا الباقر — عليهما السلام — .

(١٨) آل عمران ، الآية : ١٣٤ .

ورد : أن رجـلا شتم ابابكر بحضرة النبي (ص) وهو ساكت ، فلما ابتدأ لينتصر منه ، قام رسـول الله (ص) وقال مخاطبا له : « ان الملك كان يجيب عنك ، فلما تكلمت ذهـب الملك وجاء الشيطان ، فلم اكن لأجلس في مجلس فيه الشيطان » .

فكل فعل أو قول يصدر من شخص بالنسبة الى غيره ظلما ، ان كان له في الشرع قصاص وغرامة ، فيجب الا يتعدى عنه ، وان كان العفو عن الجائر أيضا أفضل وأولى وأقرب الى الورع والتقوى ، وان لم يرد له بخصوصه من الشرع حكومة معينة ، وجب أن يقتصر في الانتقام ومايحصل بـه التشفى على ماليس فيه حرمـة ولاكذب ، مثل أن يقابل الفحش والذم وغيرهما من الاذايا التى لم يقدر لها في الشرع حكومة معينة ، بقوله : ياقليل الحياء . وياسيء الخلق . وياصفيق الوجه . . . وامثال ذلك ، اذا كان متصفا بها ومثل قوله : جزاك الله وانتقم منك . ومن أنت ؟ وهل أنت الا من بنى فلان ومثل قوله : ياجاهل . وياأحمق . وهذا ليس فيه كذب مطلقا ، اذ ما من أحد الا وفيه جهل وحمق ، (أما الأول) فظـاهر ، (واما الثانى) فلما ورد من أن الناس كلهم حمقى في ذات الله .

والدليل على جواز هذا القدر من الانتقام ، قول النبى (ص) «المستبان ماقالا فعلى البادىء منهما حتى يعتدى المظلـوم »[١٩] وقول الكاظم (ع) في رجلين يتسابان : « البادىء منهما أظلم ، ووزره ووزر صاحبه عليه مالم يتعد المظلوم »[٢٠] . وهما يدلان على جواز الانتصار لغير البادىء من دون وزر مالم يتعد ، ومعلوم ان المراد بالسبب فيهما امثال الكلمات المذكورة دون الفحش والكلمات الكاذبة ، ولاريب في ان الاقتصار على مجرد ماوردت به الرخصة بعد الشروع في الجواب مشكل ، ولعل السكوت عن اصـل الجواب وحوالة الانتقام الى رب الارباب أيسر وافضل ، مالم يؤد الى فتور الحمية والغيرة ، اذ أكثر الناس لايقدر على ضبط نفسه عند فور الغضب ، لاختلاف حالهم في حدوث

(١٩) صححنا الحديث على ما فى احياء العلوم (ج٣ ص ١٠٦) وعلى نسختنا الخطية . وفى المطبوعة : « حتى ايتعذر الى المظلوم » .

(٢٠) صححنا الحديث على ما فى اصول الكافى فى باب السفه . وفى نسختنا الخطية والمطبوعة : « مالم يعتذر الى المظلوم » .

الغضب وزواله.قال رسول الله (ص): «ألا ان بني آدم خلقوا على طبقات شتى منهم بطىء الغضب سريع الفيء ، ومنهم سريع الغضب سريع الفيء ، فتلك بتلك . ومنهم سريع الغضب بطيء الفيء ، ومنهم بطيء الغضب بطيء الفيء ألا وان خيرهم البطيء الغضب السريع الفيء ، وشرهم السريع الغضب البطيء الفيء ». وقد ورد في خبر آخر : « ان المؤمن سريع الغضب سريع الرضا، فهذه بتلك » .

ثم طريق العلاج في ترك الانتقام : أن يتنبه على سوء عاقبته في العاجل والآجل ، ويتذكر فوائد تركه ، ويعلم أن الحوالة الى المنتقم الحقيقي أحسن وأولى ، وان انتقامه أشد وأقوى ، ثم يتأمل في فوائد العفو وفضيلته، كما يأتي

وصــل

(العفـو)

ضد الانتقام (العفو) ، وهو اسقاط مايستحقه من قصاص أوغرامة ، ففرقه عن الحلم وكظم الغيظ ظاهر ، والآيات والاخبار في مدحه وحسنه اكثر من تحصى ، قال الله تعالى سبحانه :

« خذ العفو وأمر بالمعروف» (٢١) . وقال :« وليعفوا وليصفحوا»(٢٢). وقال : « وان تعفوا أقرب للتقوى » (٢٣) .

وقال رسول الله(ص) : « ثلاث والذى نفسى بيده ان كنت حالفا لحلفت عليهن : ما نقصت صدقة من مال فتصدقوا، ولا عفا رجل من مظلمة يبتغي بها وجه الله الا زاده الله بها عزا يوم القيامة، ولا فتح رجل على نفسه باب مسألة الا فتح الله عليـه باب فقر » . وقال (ص) : « العفو لايزيـد العبد الا عزاً ، فاعفوا يعزكم الله » . وقال(ص) لعقبة : « ألا أخبرك بافضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة : تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك » [٢٤] وقال (ص)« قال موسى : يارب أي عبادك أعز عليك ؟ قال : الذي اذا قدر عفى» وقال سيد الساجدين (ع)« اذا كان يوم القيامة ، جمع الله الأولين والآخرين في

---

(٢١) الاعراف ، الآية : ١٩٩ .
(٢٢) النور ، الآية : ٢٢ .
(٢٣) البقرة ، الآية : ٢٣٧ .
(٢٤) فى اصول الكافى فى باب العفو : « الا ادلكم على خير اخلاق الدنيا والآخرة : تصل من قطعك ...» الى آخر الحديث .

صعيد واحد ، ثم ينادى مناد : أين أهل الفضل ؟ قال فيقوم عنق من الناس فتلقاهم الملائكة ، فيقولون : وما فضلكم ؟ فيقولون : كنا نصل من قطعنا، ونعطي من حرمنا ،ونعفو عمن ظلمنا ، قال : فيقال لهم : صدقتم ، ادخلــوا الجنة » . وقال الباقر (ع) : « الندامة على العفو أفضل وأيسر من الندامة على العقوبة » . وقال الصادق (ع) « ثلاث من مكارم الدينا والآخرة : تعفو عمن ظلمك . . الى آخر الحديث وقال ابو الحسن (ع) « ماالتقت فئتان قط الانصر أعظمهما عفوا » . وكفى للعفو فضلا وشرافة أنه من اجمل الصفات الالهية، وقد يمدح الله تعالى به مقام الخضوع والتذلل ،قال سيد الساجدين عليه السلام : « أنت الذى سميت نفسك بالعفو ، فاعفه عني » .وقال(ع) « انت الذي عفوه أعلى من عقابه » .

ومنهـا :

العنف

وهو الغلظة والفظاظة في الاقوال او الحركات أيضا ، وهو من نتائج الغضب، وضده (الرفق) ، أي اللين فيهما ، وهو من نتائج الحلم . ولا ريب في ان الغلظة في القول والفعل ينفر الطباع ويؤدي الى اختلال امر المعاش والمعاد ، ولذلك نهى الله ــ سبحانه ــ نبيه عنه في مقام الارشاد ، وقال :

« ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » (٢٥).

وروي عن سلمان : « انه قال : اذا أراد الله تعالى هلاك عبد نزع منه الحياء ،فاذا نزع منه الحياء ، لم يلقه الا خائنا مخونا ،واذا كان خائنا مخونا نزعت منه الامانة ، فاذا نزعت منه الامانة لم يلقه الا فظا غليظا ، فاذا كان فظا غليظا نزعت منه ربقة الايمان ، فاذا نزعت منه ربقة الايمان لم يلقه الا شيطانا ملعونا » .

ويظهر من هذا الكلام ان من كان من أهل الغلظة والفظاظة فهو الشيطان حقيقة، فيجب على كل عاقل ان يجتنب عن ذلك كل الاجتناب ،ويقدم التروي على كل ما يصدر عنه من القول والفعل ، ليحافظ نفسه عن التعنف والغلظة فيه ، ويتذكر ما ورد في فضيلة الرفق ، ويرتكبه في حركاته ، ولو بالتكلف

---

(٢٥) آل عمران ، الآية : ١٥٩ .

الى ان يصير ملكة ، وتزول عن نفسه آثار العنف بالكلية .

وصـــل

(فضيلة الرفق)

الاخبار في فضيلة الرفق وفوائده أكثر من ان تحصى ،ونحن نشير الى شطر منها هنا ، قال رسول الله (ص) : « لو كان الرفق خلقا يرى ، ما كان فيما خلق الله شيء أحسن منه » . وقال (ص) : « ان الرفق لم يوضع على شيء الا زانه ، ولا ينزع من شيء الا شانه » . وقال (ص) : « لكل شيء قفل ، وقفل الايمان الرفق » . وقال (ص) : « ان الله رفيق يحب الرفيق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف »[٢٦] . وقال(ص): « ما اصطحب اثنان الا كان أعظمهما اجرا وأحبهما الى الله تعالى ، أرفقهما بصاحبه » . وقال (ص) : « الرفق يمن ، والخرق شؤم » . وقال (ص) : « من كان رفيقا في أمره نال ما يريده من الناس » . وقال (ص) « اذا أحب الله أهل بيت ادخل عليهم الرفق » . وقال (ص) : «« من أعطى حظه من الرفــق اعطى حظه من خير الدنيا والآخرة ، ومن حرم حظه من الرفق حرم حظه من الدنيا والآخرة » . وقال (ص) : « اذا أحب الله عبدا اعطاه الرفق ، ومن يحرم الرفق يحرم الخير كله » . وقال (ص) : « أتدرون من يحرم على النار ؟ كل هين لين سهل قريب» . وقال الكاظم (ع) : «الرفق نصف العيش» . وقال عليه السلام لمن جرى بينه وبين رجل من القوم كلام: « ارفق بهم، فان كفر احدكم في غضبه ، ولا خير فيمن كان كفره في غضبه » .

ثم التجربة شاهدة بان امضاء الامور وانجاح المقاصد موقوف على الرفق واللين مع الخلائق ، فكل ملك كان رفيقا بجنده ورعيته انتظم أمره ودام ملكه ، وان كان فظا غليظا اختل أمره وانفض الناس من حــوله ، وزال ملكه وسلطانه في أسرع زمان . وقس عليه غيره من طبقات الناس من العلماء والامراء وغيرهما ، من ذوي المناصب الجليلة ، وارباب المعاملة والمكاسبة، واصحاب الصنايع والحرف .

---

(٢٦) روى هذان الحديثان في اصول الكافي ، في باب الرفق ، عن ابي جعفر الباقر — عليهما السلام — .

تكملة

(المداراة)

(المداراة) : قريب من الرفق معنى ، لانها ملائمة الناس ، وحسن صحبتهم ، واحتمال أذاهم ، وربما فرق بينهما باعتبار تحمل الاذى في المداراة دون الرفق ، وقد ورد في مدحها وفوائدها الدنيوية والاخروية أخبار كثيرة كقول النبي (ص) : « المداراة نصف الايمان » ، وقوله (ص) : « ثلاث من لم يكن فيه لم يتم عمله : ورع يحجزه عن معاصي الله ، وخلق يداري به الناس ، وحلم يرد به جهل الجاهل » وقوله (ص) : « أمرني ربي بمداراة الناس كما امرني باداء الفرائض » . وقول الباقر عليه السلام : « في التوراة مكتوب : فيما ناجى الله — عز وجل — به موسى بن عمران عليه السلام : يا موسى ! اكتم مكتوم سري في سريرتك وأظهر في علانيتك المداراة عني لعدوي وعدوك من خلقي .. الى آخر الحديث »[٢٧] . وقول الصادق عليه السلام : « جاء جبرئيل الى النبي (ص) فقال : يا محمد ! ربك يقرئك السلام ، ويقول : دار خلقي » . وقوله عليه السلام : « ان قوما من الناس قلت مداراتهم للناس فنفوا[٢٨] من قريش ، وأيم الله ما كان بأحسابهم بأس ، وان قوما من غير قريش حسنت مداراتهم فالحقوا بالبيت الرفيع .. ثم قال « من كف يده عن الناس ، فانما يكف عنهم يدا واحدة ويكفون عنه ايدي كثيرة » .

ومنها :

سوء الخلق بالمعنى الاخص

وهو التضجر ، وانقباض الوجه ، وسوء الكلام ، وامثال ذلك . وهو

(٢٧) وتمام الحديث في اصول الكافي في باب المداراة : « ولا تستسب لي عندهم باظهار مكتوم سري ، فتشرك عدوي وعدوك في سبي » . قال في الوافي : « ولا تستسب لي : اي لا تطلب سبي ، فان من لم يفهم السر يسب من تكلم به ، فتشرك : اي تكون شريكا له ، لانك انت الباعث له عليه » .

(٢٨) هكذا في النسخة المطبوعة . وفي بعض نسخ الكافي المصححة « فانفوا » ، وفي بعضها « فالقوا » . قال في الوافي : « فانفوا ، كانه صيغة مجهول من الانفة ، بمعنى الاستنكاف ، اذ لم يأت الانفاء بمعنى النفي . وفي بعض النسخ : فالقوا من الالقاء ، ولعله الأصح » .

ايضا من نتائج الغضب ،كما انضده ــ اعني (حسن الخلق بالمعنى الاخص) وهو ان تلين جناحك : وتطيب كلامك ، وتلقى أخاك ببشر حسن ــ من نتائج الحلم ، وأكثر ما يطلق سوء الخلق وحسنه في الاخبار يراد به هذا المعنى ، ولا ريب في أن سوء الخلق مما يبعد صاحبه عن الخالق والخلق ، والتجربة شاهدة بأن الطباع متنفرة عن كل سيء الخلق ، ويكون دائما اضحوكة للناس ، ولا ينفك لحظة عن الحزن والالم ، ولذا قال الصادق عليه السلام : « من ساء خلقه عذب نفسه » ، وقد يعتريه لاجله الضرر العظيم . هذا كله مع سوء عاقبته في الآخرة واداثه الى العذاب الابدي ، ولذا ورد به الذم الشديد من الشريعة .قال رسول الله (ص) : « لما خلق الله الايمان قال : اللهم قوني ، فقواه بحسن الخلق والسخاء . ولما خلق الله الكفر قال : اللهم قوني ، فقواه بحسن الخلقوالسخاء . ولما خلق الله الكفر قال : اللهم قوني ، فقواه بالبخل وسوء الخلق » . وروي انه قيل له (ص) : « ان فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وهي سيئة الخلق تؤذي جيرانها بلسانها . قال : لا خير فيها ! هي من أهل النار » . وعنه (ص) : « سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل »[٢٩] . وعنه (ص) : « ان العبد ليبلغ من سوء خلقه أسفل درك جهنم » . وعنه (ص) : « ابى الله لصاحب الخلق السيء بالتوبة » قيل : فكيف ذلك يا رسول الله ؟! قال: « لانه اذا تاب من ذنب وقع في ذنب أعظم منه » . وقال (ص) : « سوء الخلق ذنب لا يغفر » . وقال الامام جعفر بن محمد عليهما السلام : « اذا خلق اللهالعبد فيأصل الخلق كافرا لم يمت حتى يحبب الله اليه الشر ، فيقرب منه ، فابتلاه بالكبر والجبروب ، فقسى قلبه ، وساء خلقه ، وغلظ وجهه وظهر فحشه ، وقل حياؤه ؛ وكشف الله تعالى سره ، وركب المحارم ولم ينزع عنها ، ثم ركب معاصي الله ، وابغض طاعته ؛ ووثب على الناس لا يشبع من الخصومات ، فاسألوا الله العافية واطلبوها منه » . وقال بعض الاكابر: «لئن يصحبني فاجر حسن الخلق أحب اليَّ من ان يصحبني عابد

---

(٢٩) روى هذا الحديث اصول الكافي في باب سوء الخلق عن الصادق(ع) ولكن جاء فيه « ليفسد العمل » بدل « يفسد العمل » .

سيء الخلق » .

وطرق العلاج في ازالته : أن يتذكر أولا أنه يفسد آخرته ودنياه ، ويجعله ممقوتا عند الخالق والخلق ، فيعد نفسه لإزالته ،ثم يقدم التروي والتفكر عند كل حركة وتكلم ،فيحفظ نفسه عنده ــولو بالتحمل والتكلف ــ من صدور سوء الخلق ، ويتذكر ما ورد فيمدح حسن الخلق الذي هوضده ــ كما يأتي ــ ويواظب حتى تزول على التدريج آثاره بالكلية .

وصــل

(طرق اكتساب حسن الخلق)

قد عرفت ان ضد هذه الرذيلة (حسن الخلق بالمعنى الاخص) ، فمن معالجاتها ان يواظبعليه حتى ترتفع آثارها بالكلية . وأقوى البواعث على اكتسابه والمواظبة عليه ان يتذكر ما يدل على شرافته ومدحه عقلا ونقلا : أما حكم العقل على مدحه فظاهر لا يحتاج الى بيان ، واما النقل فالاخبار التي وردت به أكثر من ان تحصى ، ونحن نورد شطرا منها تذكرة لمن أراد أن يتذكر ، قال رسول الله (ص) : « ما يوضع في ميزانامريء يوم القيامة أفضل من حسن الخلق » وقال : « يا بني عبدالمطلب ! انكم لن تسعوا الناس بأموالكم ، فالقوهم بطلاقة الوجه ، وحسن البشر » . وقال (ص) « ان اللهاستخلص هذا الدين لنفسه ، ولا يصلح لدينكم الا السخاء وحسن الخلق، ألا فزينوا دينكم بهما » . وقال (ص) : « حسن الخلق خلق الله الاعظم » . وقيل له (ص) : أي المؤمنين أفضلهم ايمانا ؟ قال : « احسنهم خلقا » . وقال(ص) : « ان احبكم اليّ وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحسنكم خلقا » . وقال (ص) : « ثلاث من لم يكن فيه واحدة منهن فلا يعتد بشيء من علمه : تقوى تحجزه عن محارم الله ، وحلم يكف به السيئة وخلقيعيش به في الناس » . وقال (ص) :« ان الخلقالحسن يميتالخطيئة، كما تميتالشمس الجليد »[٣٠] وقال (ص) : « ان العبد ليبلغ بحسن خلقه

---

(٣٠) روى هذا الحديث فى الكافى فى باب حسن الخلق عن ابي عبد الله الصادق (ع) ، وفى نهاية ابن الاثير : « فى الحديث : حسن الخلق يذيب الخطيئة كما تذيب الشمس الجليد » ، ويذيب بمعنى يميت .

عظيم درجات الآخرة وأشرف المنازل ، وانه يضعف العبادة » . وقال (ص) لأم حبيبة : « ان حسن الخلق ذهب بخير الدنيا والآخرة » وقال لها — بعدما سألته ان المرأة يكون لها زوجان في الدنيا فتموت ويموتان ويدخلان الجنة لأيهما هي ؟ — : « انها لاحسنهما خلقا » . وقال (ص) : « ان حسن الخلق يبلغ بصاحبه درجة الصائم القائم »[٣١] . وقال (ص) : « أكثر ما يلج به امتي الجنة تقوى الله وحسن الخلق » . وقال (ص) : « أفاضلكم أحسنكم اخلاقا ، الموطئون أكنافا[٣٢] الذين يألفون ويؤلفون » . وقال امير المؤمنين عليه السلام : « المؤمن مألوف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف » . ولا ريب في ان سيء الخلق تتنفر عنه الطباع ، فلا يكون مألوفا . وقال الامام ابو جعفر الباقر عليهما السلام : « ان اكمل المؤمنين ايمانا أحسنهم خلقا » ، وقال عليه السلام : « اتى رجل رسول الله ، فقال : يا رسول الله ! اوصني فكان فيما اوصاه ان قال : (الق اخاك بوجه منبسط) » . وقال الصادق عليه السلام : « ما يقدم المؤمن على الله — عز وجل — بعمل بعد الفرائض أحب الى الله تعالى من أن يسع الناس بخلقه » . وقال عليه السلام : « البر وحسن الخلق يعمران الديار ويزيدان في الاعمار » . وقال عليه السلام : « ان الله تبارك وتعالى ليعطي العبد من الثواب على حسن الخلق كما يعطي المجاهد في سبيل الله يغدو عليه ويروح » . وقال عليه السلام : « ثلاث من أتى الله بواحدة منهن أوجب الله له الجنة : الانفاق من اقتار ، والبشر لجميع العالم ، والانصاف من نفسه » . وقال عليه السلام : « صنايع المعروف وحسن البشر يكسبان المحبة ويدخلان الجنة ، والبخل وعبوس الوجه يبعدان من الله ويدخلان النار » .

ومن تأمل في هذه الاخبار ، ورجع الى الوجدان والتجربة ، وتذكر أحوال الموصوفين بسوء الخلق وحسنه ، يجد ان كل سيء الخلق بعيد من

---

(٣١) هذا الحديث مروي في الكافي في باب حسن الخلق عن ابي عبدالله — عليه السلام — .

(٣٢) قال المبرد في الكامل ص ٣ : « قوله (ص) : الموطؤن اكنافا، مثل وحقيقته : ان التوطئة هي التذليل والتمهيد ... فاراد القائل بقوله : موطأ الاكناف ، ان ناحيته يتمكن فيها صاحبها غير مؤذي ولا ناب به موضعه » .

الله ومن رحمته ، والناس يبغضونه ويشمئزون منه ، ولذا يحرم من برهم وصلتهم ، وكل حسن الخلق محبوب عند الله وعند الناس ، فلا يزال محلا لرحمةالله وفيوضاته ،ومرجعا للمؤمنين بايصال نفعه وخيره اليهم ، وانجاح مقاصده ومطالبه منهم ، ولذلك لم يبعث الله سبحانه نبيا الا واتم فيه هذه الفضيلة ، بل هي أفضل صفات المرسلين واشرف اعمال الصديقين ، ولذا قال الله تعالى لحبيبه مثنيا عليه ومظهرا نعمته لديه :

(وانك لعلى خلق عظيم) [٣٣] .

ولعظم شرافته بلغ رسول الله (ص) فيه ما بلغ من غايته ، وتمكن على ذروته ونهايته ، حتى ورد : « بينا رسول الله (ص) ذات يوم جالس في المسجد ، اذ جاءت جارية لبعض الانصار وهو قائم[٣٤] فأخذت بطرف ثوبه فقام لها النبي (ص) فلم تقل شيئا ولم يقل لها النبي(ص) شيئا ، حتى فعلت ذلك ثلاث مرات ، فقام لها النبي (ص) في الرابعة ، وهي خلفه ، فاخذت هدبة من ثوبه ثم رجعت،فقال لها الناس : فعل الله بك وفعل ![٣٥] حبست رسول الله ثلاث مرات لا تقولين له شيئا ولا هو يقول لك شيئا ! ما كانت حاجتك اليه ؟ قالت : ان لنا مريضا فارسلني أهلي لآخذ هدبة من ثوبه يستشفى[٣٦] بها ، فلما أردت أخذها رآني فقام ، استحييت ان آخذها وهو يراني ، وأكره أن أستأمره في أخذها ، فأخذتها »[٣٧] .

---

(٣٣) القلم ، الآية : ٤ .

(٣٤) قال فى البحار — ج ١٥ فى باب حسن الخلق ص ٢٠٧ — : «حال عن بعض الانصار » اي أن القائم هذا البعض صاحب الجارية لا النبي(ص) .

(٣٥) قال فى البحار — فى الموضع المتقدم — : « كناية عن كثرة الدعاء عليها بايذائها النبي (ص) وهذا شائع فى عرف العرب والعجم » .

(٣٦) قال فى البحار— فى الموضع المذكور ص ٢٠٨— : « فى بعض النسخ— بل اكثرها — : ليستشفي » .

(٣٧) صححنا الحديث على اصول الكافى فى باب حسن الخلق . وفىنسخ جامع السعادات اختلاف كثير عما اثبتناه ، وقد جاء فى اصول الكافى فى صدر الحديث: « قال ابو عبد الله (ع): يابحر حسن الخلق يسر ... ثم قال : الا اخبرك بحديث ما هو فى يدى احد من اهل المدينة ؟ قلت : بلى ! قال : بينا رسول الله ... الى آخر الحديث » .

ومنهـا :

الحقـد

وقد عرفت انه اضمار العداوة في القلب، وهو من ثمرة الغضب ، لأن الغضب اذا لزم كظمه لعجز عن التشفي في الحال ، رجع الى الباطن واحتقن فيه فصار حقدا ، وهو من المهلكات العظيمة • وقد قال رسول الله (ص) : « المؤمن ليس بحقود » • والغالب ان الحقد يلزمه من الآفات : الحسد ، والهجرة ، والانقطاع عن المحقود ، وايذاؤه بالضرب ، والتكلم فيه بما لا يحل : من الكذب ، والغيبة ، والبهتان ؛ وافشاء السر ، وهتك الستر ؛ واظهار العيوب ، والشماتة بما يصيبه من البلاء والسرور به ، والانبساط بظهور عثراته وهفواته ، والمحاكاة عنه بالاستهزاء والسخرية ؛ والاعراض عنه استصغارا له ، ومنع حقوقه من دين أو رد مظلمة أو صلة رحم • وكل ذلك حرام يؤدي الى فساد الدين والدنيا • وأضعف مراتبه أن يحترز عن الآفات المذكورة ، ولا يرتكب لأجله ما يعصى الله به ، ولكن يستثقله بالباطن ولا ينتهي قلبه عن بغضه •

وهو ايضا من الامراض المؤلمة للنفس ، المانعة لها عن القرب الى الله والوصول الى الملأ الأعلى• ويمنع صاحبه عما ينبغي ان يصدر عنه بالنسبة الى أهل الايمان : من الهشاشة والرفق والتواضع والقيام بحوائجهم والمجالسة معهم والرغبة الى اعانتهم ومواساتهم •• وغير ذلك • وهذا كله مما ينقص درجته في الدين ، ويحول بينه وبين مرافقة المقربين •

ولما كانت حقيقته عبارة عن العداوة الباطنة ، فجميع الاخبار الواردة في ذم المعاداة تدل على ذمه ، كقول النبي (ص) : « ما كان جبرئيل يأتيني الا قال : يا محمد ! اتق شحناء الرجال وعداوتهم » • وقوله (ص) : « ما عهد اليّ جبرئيل قط في شيء ما عهد اليّ في معاداة الرجـال » • وقول الصادق (ع) : « من زرع العداوة حصد ما بذر » •• وقس عليها غيرها •

وطريق العلاج في ازالته : ان يتذكر ان هذه العداوة الباطنة تؤلمه في العاجل،اذ الحقود المسكين لا يخلو من التألم والهم لحظة، ويعذبه في الآجل، ومع ذلك لا يضر المحقود أصلا ؛ والعاقل لا يدوم على حالة تكون مضرة

لنفسه ونافعة لعدوه. وبعد هذا التذكر ، فليجتهد في ان يعامله معاملة احبائه: من مصاحبته بالانبساط والرفق ، والقيام بحوائجه ، وغير ذلك ؛ بل يخصه بزيادة البر والاحسان ، مجاهدة للنفس وارغاما للشيطان ، ولا يزال يكرر ذلك حتى ترتفع عن نفسه آثار هذه الرذيلة بالكلية . ثم لما كان الحقد عبارة عن العداوة الباطنة ، وحقيقتها اضمار الشر وكراهة الخير لمن يعاديه ، فضده (النصيحة) التي هي قصد الخير وكراهة الشر ، لا المحبة — كما يتراءى في باديء الرأي — اذ هي ضد الكراهة دون العداوة — كما يأتي في محله — فمن معالجات الحقد ان يتذكر فوائد النصيحة ومدحها — كما يأتي — ليعين على ازالته .

ومنها :

العداوة الظاهرة

وهي من لوازم الحقد ، لانه اذا قوى قوة لا يقدر معها على المجاملة أظهر العداوة بالمكاشفة. والاخبار الواردة في ذمها كثيرة ،وقد تقدم بعضها. وعلاجها كما تقدم في الحقد ، وضدها النصيحة الظاهرة ، أعني فعلية الخير والصلاح لا مجرد قصدهما فليكلف نفسه عليها حتى تصير ملكة له ويزول ضدها.

ومنها :

الضرب والفحش واللعن والطعن

وهذه ناشئة غالبا عن العداوة والحقد ،وربما صدرت من مجرد الغضب وسوء الخلق ، وربما صدر الفحش من الاعتياد الحاصل من مخالطة الفساق ، وربما كان الباعث في بعض افرادها حب المال وفقده المعدود من رذائل قوة الشهوة، الا ان الفاعل المباشر لهذه الامور هي القوة الغضبية ، أو النفس لهيجان قوة الغضب ، وان كان الهيجان حاصلا بوساطة فعل قوة الشهوة. وعلى أي تقدير يكون من رذائل القوة الغضبية على قاعدتنا، ولذا أدرجناها تحتها فقط .

ثم لا ريب في كون هذه الامور مذمومة محرمة في الشريعة ، موجبة

لحبط الاعمال وخسران المال • وجميع ما يدل على ذم الايـذاء والاضرار يدل على ذمها ، لكونها بعض أفرادهما • والعقل والشرع متطابقان على شدة قبح كل واحد منها بخصوصه وايجابه للهلاك :

أما (الضرب) ــ فلأنه لا ريب في ان ضرب مسلم بلا داع شرعي مما يقبحه كل عاقل ، ويذمه جميع طوائف العالم ، حتى نفاة الاديان ، والاخبار الواردة في ذمه كثيرة ؛ وفي عدة منها : « ان من ضرب رجلا سوطا لضربه الله سوطا من النار » •

وأما (الفحش والسب وبذاءة اللسان) ــ فلا ريب في كونه صادرا عن خباثة النفس • قال رسول الله (ص) : « ليس المؤمن بالطعّان ولا اللعان، ولا الفاحش ولا البذي » • وقال (ص) : « اياكم والفحش ، فان الله لا يحب الفحش والتفحش » • وقال (ص) : « الجنة حرام على كل فاحش ان يدخلها » • وقال (ص) : «ان الفحش والتفحش ليسا من الاسلام في شيء» وقال (ص) : « البذاء والبيان شعبتان من شعب النفاق »وروي : ان المراد بالبيان : كشف ما لا يجوز كشفه • وقال (ص): « اربعة يؤذون أهل النار على ما بهم من الاذى » •• وعدّ منهم : رجلا يسيل فوه قيحا ، وهو من كان في الدنيا فاحشا • وقال (ص) : « لا تسبوا الناس فتكسبوا العداوة منهم »[٣٨] • وقال (ص) : « ان الله حرم الجنة على كل فحاش بذي قليل الحياء لا يبالي ما قال ولا ما قيل له ، فانك ان فتشته لم تجده الا لغية[٣٩] أو شرك شيطان » • وقال (ص) : « اذا رأيتم الرجل لا يبالي ما قال ولا ما قيل فيه فانه ــ لغية أو شرك شيطان » • وقال (ص) : « ان الله ليبغض الفاحش البذي والسائل الملحف » • وقال (ص) : « ان من شرار عباد الله من تكره مجالسته لفحشه» • وقال (ص) : « سباب المؤمن فسوق ؛ وقتاله كفر ؛ وأكل لحمه معصية ؛ وحرمة ماله كحرمة دمه » • وقـال (ص) : « سباب المؤمن كالمشرف على الهلكة » • وقال (ص) : « شر الناس عند الله تعالى يوم القيامة الذين يكرمون اتقاء شرهم » • وقال (ص) : « المتسابان

(٣٨) وفي بعض نسخ الكافي في باب السباب : (بينهم) بدل (منهم) .
(٣٩) قال في القاموس في مادة (غوى) : « ولدغية ــ ويكسر ــ اي زنية»، فيكون معنى (لغية) اي (لزنية) .

شيطانان متعاديان ومتهاتران » . وقال الصادق عليه السلام : «من علامات شرك الشيطان الذي لا يشك فيه أن يكون فحاشا لا يبالي ما[٤٠] قال ولا ما[٤٠] قيل فيه » . وقال عليه السلام : « البذاء من الجفاء ، والجفاء في النار » ، وقال عليه السلام : « من خاف الناس لسانه فهو في النار » ، وقال : « ان ابغض خلق الله تعالى عبد اتقى الناس لسانه » . وعن الكاظم عليه السلام في رجلين يتسابان : « فقال : البادي منهما أظلم ، ووزره ووزر صاحبه عليه ما لم يتعد المظلوم »[٤١] .

(تنبيه) اعلم ان حقيقة الفحش هو التعبير عن الامور المستقبحة بالعبارة الصريحة . ويجري أكثر ذلك في الفاظ الوقاع وآلاته وما يتعلق بهما، لان لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيه ،وأهل الصلاح يتحاشون من التعرض لها ، بل يكنون عنها ويعبرون عنها بالرموز . قال بعض الصحابة : « ان الله حيي كريم يعف ويكنى ، كنى باللمس عن الجماع » . فالمس ، واللمس ، والدخول ، والصحبة ، كنايات عن الوقاع ، وليست بفاحشة ، وعنه عبارات فاحشة يستقبح ذكرها . وليس هذا يختص بالوقاع بل الكناية بقضاء الحاجة عن التبول والتغوط أولى من لفظة التغوط والخراء وغيرهما ، وكذا التعبير عن المرأة ، فهذا ايضا مما يخفى ويستحيي منه ، فلا ينبغي ان تذكر ألفاظه الصريحة باللسان ، بل يكنى عنها ، فلا يقال : قالت زوجك أو امرأتك ، بل يقال : قيل في الحجرة ، او قيل من وراء الستر ، وقالت ام الاولاد ، وامثال ذلك . وكذلك من به عيوب يستحي منها ، فلا ينبغي ان يعبر عنها بصريح لفظها ، كالبرص والقرح والبطن ، وامثال ذلك ، بل يكنى عنها بعبارات غير صريحة ، مثل العارض الذي عرض وما يجري مجراه ، اذ التصريح بجميع ذلك داخل في الفحش .

ثم الفاظ الفحش لا ريب ـ حينئذ ـ في كونها محظورة باسرها مذمومة وان كان بعضها أفحش من بعض ، فيكون اثمه أشد ، سواء استعمل في الشتم والايذاء او لا يستعمل فيه ، بل في المزاح والهزل وغيرهما . وحينئذ

---

(٤٠) وفى بعض نسخ الكافى فى باب البذاء (بما) فى الموضعين .

(٤١) قد مضى فى الصفحة (٣٠٠) تصحيح الحديث على ما فى اصول الكافى فى باب السفه . فصححناه هنا أيضا .

لما كانت هذه العبارات متفاوتة في الفحش بعضها افحش من بعض ، وربما اختلف بعادة البلاد ، فيكون بعضها مكروها وبعضها محظورا ، فان من قال لغيره مزاحا أو اعتيادا حاصلا من مخالطة الفساق : (فرج امرأتك ضيق أم لا ؟) لا ريب في كونه فحشا محرما مذموما ، مع انه لم يستعمل في الشتم . وبالجملة: اوائل هذه العبارات مكروهة واواخرها محظورة ، وبينهما درجات تتردد بين الكراهة والحرمة .

وأما (اللعن) — فلا ريب في كونه مذموما، لأنه عبارة عن الطرد والابعاد من الله تعالى ، وهذا غير جائز الا على من اتصف بصفة تبعده بنص الشريعة وقد ورد عليه الذم الشديد في الاخبار ، قال رسول الله (ص) : « المؤمن ليس بلعان » . وعن الباقر عليه السلام قال : « خطب رسول الله (ص) ، فقال : ألا اخبركم بشراركم ؟ قالوا : بلى يارسول الله، قال : الذي يمنع رفده ويضرب عبده ، ويتزود وحده . فظنوا أن الله لم يخلق خلقا هو شر من ذلك ثم قال: ألا أخبركم بمن هو شر من ذلك ؟ قالوا : بلى يارسول الله قال: المتفحش اللعان الذي اذا ذكر عنده المؤمنون لعنهم ، واذا ذكروه لعنوه » . وقال الباقر عليه السلام : « ان اللعنة اذا خرجت من فم صاحبها ترددت بينهما فان وجدت مساغا والا رجعت الى صاحبها » .

ثم لما كان اللعن هو الحكم بالبعد او طلب الابعاد من الله . (والاول) غيب لا يطلع عليه الا الله . (والثاني) لا يجوز الا على من اتصف بصفة تبعده منه ، فينبغي الا يلعن احدا الا من جوز صاحب الشرع لعنه ، والمجوز من الشرع انما هو اللعن على الكافرين والظالمين والفاسقين ، كما ورد في القرآن ولا ريب في جواز ذلك بالوصف الاعم ، كقولك : لعنة الله على الكافرين . او بوصف يخص بعض الاصناف ، كقولك : لعنة الله على اليهود والنصارى .

والحق جواز اللعن على شخص معين علم اتصافه بصفة الكفر أو الظلم أو الفسق . (وما قيل) من عدم جواز ذلك الا على من يثبت لعنه من الشرع كفرعون وابي جهل ، لان كل شخص معين كان على احدى الصفات الثلاثة ربما رجع عنها ، فيموت مسلما أو تائبا ، فيكون مقربا عند الله لا مبعدا عنه (كلام ينبغي) ان يطوى ولا يروى ، اذ المستفاد من كلام الله تعالى وكلام

رسوله (ص) وكلام أئمتنا الراشدين : جواز نسبته الى الشخص المعين ، بل المستفاد منها ان اللعن على بعض أهل الجحود والعناد من أحب العبادات وأقرب القربات ، قال الله سبحانه :

« اولئك عليهم لعنة الله والملائكة والنـــاس أجمعين » (٤٢) . وقال : « أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون » (٤٣) .

وقال النبي (ص) : « لعن الله الكاذب ولو كان مازحا » . وقال (ص) في جواب ابي سفيان حين هجاه بألف بيت : « اللهم اني لا احسن الشعر ولا ينبغي لي ، اللهم العنه بكل حرف الف لعنة » . وقد لعن امير المؤمنين عليه السلام جماعة . وروي انه كان يقنت في الصلاة المفروضة بلعن معاوية وعمرو بن العاص وابى موسى الاشعري وابى الاعور الاسلمي ، مع انه احلم الناس وأشدهم صفحا عمن يسوء به ، فلولا انه كان يرى لعنهم من الطاعات لما يتخير محله في الصلوات المفروضات . وروى الشيخ الطوسي : « ان الصادق عليه السلام كان ينصرف من الصلاة بلعن اربعة رجال » . ومن نظر الى ما وقع للحسن عليه السلام مع معاوية واصحابه وكيف لعنهم ، وتتبع ما ورد من الأئمة في الكافي وغيره من كتب الاخبار والادعية في لعنهم من يستحق اللعن من رؤساء الضلال والتصريح باسمائهم ، يعلم ان ذلك من شعائر الدين ، بحيث لا يعتريه شك ومرية . وما ورد من قوله عليه السلام « لا تكونوا لعانين » ، ومثله : نهى عن اللعن على غير المستحقين ، وما روي ان امير المؤمنين عليه السلام نهى عن لعن أهل الشام ، فان صح ، فلعله كان يرجو اسلامهم ورجوعهم اليه ، كما هو شأن الرئيس المشفق على الرعية .

وبالجملة : اللعن على رؤساء الظلم والضلال والمجاهرين بالكفر والفسق جائز ، بل مستحب ، وعلى غيرهم من المسلمين غير جـائز ، الا ان يتيقن باتصافه باحدى الصفات الموجبة له . وينبغي الا يحكم باتصافه بشيء منها بمجرد الظن والتخمين ، اذ لا يجوز أن يرمى مسلم بكفر وفسق من غير تحقيق ، قال رسول الله (ص) : « لا يرمى رجل رجلا بالكفر فلا يرميـــه بالفسق الا ارتد عليه ان لم يكن كذلك » .

---

(٤٢) البقرة ، الآية : ١٦١ .
(٤٣) البقرة ، الآية : ١٥٩ .

ثم اللعن على الاموات أشد وزرا واعظم اثما ، لقول النبي (ص) : « لا تسبوا الاموات ، فانهم قد افضوا الى ما قدموا » . ولا ينبغي ان يلعن الجماد والحيوان ايضا . لما روى : « انه ما لعن احد الارض الا قالت : اللعن على اعصانا لله » ، وما روي : « ان النبي (ص) انكر على امرأة لعنت ناقة ، وعلى رجل لعن بعيرا » . ثم الدعاء على المسلم بالشر قريب من اللعن عليه ، فلا ينبغي ارتكابه ولو على الظالم ، الا اذا اضطر اليه لشره واضراره ، وقد ورد ان المظلوم ليدعو على الظالم حتى يكافيه ، ثم يبقى للظالم عنده فضيلة يوم القيامة . وقال علي بن الحسين عليهما السلام : « ان الملائكة اذا سمعوا المؤمن يذكر أخاه بالسوء ويدعو عليه قالوا : بئس الاخ انت لأخيك ! كف ايها المستتر على ذنوبه وعورته ، واربع على نفسك ، واحمد الله الذي ستر عليك ! »[٤٤] .

ثم ضد ذلك — اعني الدعاء للاخ المسلم بما يحب لنفسه — من أحب الطاعات وأقرب القربات ، وفوائده اكثر من ان تحصى ، بل عند التحقيق دعاؤك له دعاء لنفسك ، قال رسول الله (ص) : « اذا دعا الرجل لاخيه في ظهر الغيب قال الملك : ولك مثل ذلك » . وقال (ص) : « يستجاب للرجل في أخيه ما لا يستجاب له في نفسه » . وقال علي بن الحسين عليهما السلام : « ان الملائكة اذا سمعوا المؤمن يدعو لاخيه المؤمن بظهر الغيب أو يذكره بخير ، قالوا : نعم الاخ انت لأخيك ! تدعو له بالخير وهو غائب عنك ، وتذكره بالخير . قد اعطاك الله عز وجل مثلي ما سألت له ، واثنى عليك مثلي ما اثنيت عليه ، ولك الفضل عليه » ومثله ورد عن الباقر (ع) ايضا . والاخبار في فضيلة الدعاء للاخوان اكثر من ان تحصى ، واي كرامة اعظم لك من ان تصل منك الى المؤمن وهو تحت اطباق الثرى هدايا الاستغفار والادعية ، وهل تدري كيف تسر روحه منك بهذا العمل ؟ فان أهله يقسمون ميراثه ويتنعمون بما خلف ، وانت متفرد بحزنك تدعو له في ظلمة الليل ، وقد قال رسول الله (ص) : « مثل الميت في قبره مثل الغريق يتعلق بكل شيء ، ينتظر دعوة من ولد أو والد أو أخ او قريب ، وانه ليدخل على قبور الاموات

(٤٤) هذه الرواية من تتمة الرواية الآتية عن علي بن الحسين (ع) .

من دعاء الاحياء من الانوار مثل الجبال » وهو للاموات بمنزلة الهدايـا للاحياء ، فيدخل الملك على الميت معه طبق من نور عليه منديل من نور فيقول هذه هدية لك من عند أخيك فلان ، من عنـد قريبك فلان ، فيفرح كما يفرح الحي بالهدية(٤٥) .

وأما (الطعن) — فهو أيضا من ذمائم الافعال ،ويورث الضرر في الدنيا والعذاب في الاخرى. قال الباقر عليه السلام : «اياكم والطعن على المؤمنين». وقال (ع): « ما من انسان يطعن في عين مؤمن الا مات شر ميتة ، وكان قمنا ألا يرجع الى خير » .

واعلم ان هذه الامور — اعني الفحش واللعن والطعن وامثالها مما يأتي في موضعه : من الغيبة والكذب والبهتان والاستهزاء والمزاح والخوض في الباطل والتكلم بالفضول وما لا يعني : من آفات اللسان ، ويأتي ان لجميع آفات اللسان ضدا عاما هو الصمت ، ويأتي بيان فضيلته وكثرة فوائده ، ويأتي ايضا ما يدل بعمومه على ذم جميع آفات اللسان — اعني ما ورد في ذم اللسان ، وكون شره أعظم من شر سائر الاعضاء — فانه بعمومه يدل على ذم هذه الامور .

ومنها — أي ومن رذائل القوة الغضبية — :

العجب

وهو استعظام نفسه لأجل ما يرى لها من صفة كمال ، سواء كانت له تلك الصفة في الواقع أم لا . وسواء كانت صفة كمال في نفس الامر أم لا ، وقيل: «هو اعظام النعمة والركون اليها مع نسيان اضافتها الى المنعم» وهو قريب مما ذكر ، ولا يعتبر في مفهومه رؤية نفسه فوق الغير في هذا الكمال وهذه النعمة ، وبذلك يمتاز عن الكبر ،اذ الكبر هو ان يرى لنفسه مزية على غيره في صفة كمال ، وبعبارة اخرى هو الاسترواح والركون الى رؤية النفس فوق المتكبر عليه ، فالكبر يستدعي متكبرا عليه ومتكبرا به .

---

(٤٥) هذا الكلام من بعد الحديث الذي وضعناه بين قوسين رواه في احياء العلوم — ج٢ ص ١٦٤ — عن بعض السلف ، وبمضمونه احاديث مروية عن آل البيت (ع) . روى منها في الوسائل في ابواب الاحتضار من كتاب الطهارة (باب استحباب الصلاة عن الميت والصوم والحج) .

والعُجب لا يستدعي غير المعجب ، بل لو لم يخلق الانسان الا وحده تصور ان يكون معجبا ، ولا يتصور ان يكون متكبرا ، الا ان يكون مع غيره وهو يرى نفسه فوق ذلك الغير في صفة الكمال ، ولا يكفي ان يستعظم نفسه ليكون متكبرا ، فانه قد يستعظم نفسه ، ولكن يرى في غيره اعظم من نفسه أو مثل نفسه ، فلا يتكبر عليه ، فهو معجب وليس متكبرا ٠ ولا يكفي ان يستحقر غيره ، فانه مع ذلك لو رأى نفسه احقر او رأى غيره مثل نفسه لم يكن متكبرا ، بل المتكبر هو ان يرى لنفسه مرتبة ولغيره مرتبة، ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره ٠

والحاصل :ان العجب مجرد اعظام النفس لاجل كمال او نعمة ،واعظام نفس الكمال والنعمة مع الركون ونسيان اضافتهما الى الله، فان لم يكن معه ركون وكان خائفا على زوال النعمة مشفقا على تكدرها أو سلبها بالمرة ، أو كان فرحه بها من حيث انها من الله من دون اضافتها الى نفسه لم يكن معجبا ، فالمعجب الا يكون خائفا عليها ، بل يكون فرحا بها مطمئنا اليها ، فيكون فرحه بها من حيث انها صفة كمال منسوبة اليه ، لا من حيث انها عطية منسوبة الى الله تعالى ٠ ومهما غلب على قلبه انها نعمة من الله مهما شاء سلبها زال العجب ٠

ثم لو انضاف العجب — أي غلب على نفس المعجب — ان له عند الله حقا ، وانه منه بمكان ، واستبعد ان يجري عليه مكروه ، وكان متوقعا منه كرامة لعمله ، سمى ذلك (ادلالا) بالعمل ، فكأنه يرى لنفسه على الله دالة فهو وراء العجب وفوقه اذ كل مدل معجب ، ورب معجب لا يكون مدلا ، اذ العجب مجرد الاستعظام ونسيان الاضافة الى الله من دون توقع جزاء على عمله ، والادلال يعتبر فيه توقع الجزاء بعمله ، اذ المدل يتوقع اجابة دعوته ويستنكر ردها بباطنه ويتعجب منه ، فالادلال عجب مع شيء زائد ٠

وعلى هذا ، فمن أعطى غيره شيئا ، فان استعظمه ومنّ عليه كان معجبا وان استخدمه مع ذلك او اقترح عليه الاقتراحات واستبعد تخلفه عن قضاء حقوقه كان مدلا عليه٠ وكما ان العجب قد يكون مما يراه صفة كمال وليس كذلك العجب بالعمل قد يكون بعمل هو مخطيء فيه ويراه حسنا ، كما قال

سبحانه :

« أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا » (٤٦) .

وقال ابو الحسن عليهما السلام : « العجب درجات : ومنها ان يزين للعبد سوء عمله فيراه حسنا ، فيعجبه ويحسب انه يحسن صنعا . ومنها ان يؤمن العبد بربه ، فيمنّ على الله — عز وجل — ولله عليه فيه المنّ » .

فصل

(ذم العجب)

العجب من المهلكات العظيمة وارذل الملكات الذميمة ، قال رسول الله (ص) : « ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، واعجاب المرء بنفسه » . وقال (ص): « اذا رأيت شحا مطاعا، وهوى متبعا، واعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك نفسك » . وقال (ص): « لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ماهو اكبر من ذلك: العجب العجب » . وقال (ص) : « بينما موسى (ع) جالس[٤٧] ، اذ اقبل عليه ابليس وعليه برنس ذو الوان ، فلما دنى منه خلع البرنس ، وقام الى موسى عليه السلام فسلم عليه ، فقال له موسى: من أنت ؟ فقال : انا ابليس قال أنت ! فلا قرب الله دارك ، قال : اني انما جئت لاسلم عليك لمكانك من الله ، فقال له موسى عليه السلام : فما هذا البرنس ؟ قال : به اختطف قلوب بني آدم ، فقال موسى : فاخبرني بالذنب الذي اذا أذنبه ابن آدم استحوذت عليه ، قال : اذا اعجبته نفسه واستكثر عمله وصغر في عينه ذنبه » . وقال (ص) : « قال الله — عز وجل —: يا داود ! بشر المذنبين وانذر الصديقين، قال : كيف ابشر المذنبين وانذر الصديقين ؟ قال : بشر المذنبين انى أقبل التوبة واعفوا عن الذنب ، وانذر الصديقين ألا يعجبوا بأعمالهم ، فانه ليس عبد أنصبه للحساب الا هلك » . وقال الباقر (ع) : « دخل رجلان المسجد ، أحدهما عابد والآخر فاسق ، فخرجا من المسجد والفاسق صديق والعابد فاسق ، وذلك انه يدخل العابد المسجد مدلا بعبادته يدل بها ، فتكون فكرته في ذلك ، وتكون فكرة الفاسق في الندم على فسقه ، ويستغفر الله مما صنع من الذنوب » . وقال الصادق (ع) : « ان

---

٤٦) الفاطر ، الآية : ٨ .

٤٧) وفي بعض نسخ الكافي في باب العجب هكذا : (جالسا) — بالنصب —.

الله علم ان الذنب خير للمؤمن من العجب ، ولولا ذلك ما ابتلى مؤمنـا بذنب ابدا » . وقال عليه السلام : « من دخله العجب هلك » . وقال (ع) « ان الرجل ليذنب الذنب فيندم عليه ، ويعمل العمل فيسره ذلك ، فيتراخى عن حاله تلك ، فلأن يكون على حاله تلك خير له مما دخل فيه » . وقال عيله السلام : « اتى عالم عابدا فقال له : كيف صلاتك ؟ فقال : مثلي يسأل عن صلاته وانا اعبد الله منذ كذا وكذا ، قال: فكيف بكاؤك ؟ قال : ابكي حتى تجري دموعي ، فقال له العالم : فان ضحكك وانت خائف افضل من بكائك وانت مدل ، ان المدل لا يصعد من عمله شيء » . وقال(ع) «العجب كل العجب ممن يعجب بعمله وهو لا يدري بما يختم له ، فمن أعجب بنفسه وفعله ، فقد ضل عن نهج الرشاد ، وادعى ماليس له ، والمدعى من غير حق كاذب وان أخفى دعواه و طال دهره . وان اول ما يفعل بالمعجب نزع ما اعجب به ليعلم انه عاجز حقير ، ويشهد على نفسه ليكون الحجة عليه اوكد ، كما فعل بابليس . والعجب نبات حبها الكفر ، وارضها النفاق ، وماؤها البغي ، واغصانها الجهل ، وورقها الضلالة ، وثمرها اللعنة والخلود في النار ، فمن اختار العجب فقد بذر الكفر وزرع النفاق ، ولا بد ان يثمر »[٤٨] . وقيل له عليه السلام : الرجل يعمل العمل وهو خائف مشفق، ثم يعمل شيئا من البر فيدخله شبه العجب به ، فقال :« هو في حالة الاولى وهو خائف أحسن حالا منه في حال عجبه » . وقال عليه السلام : « ان عيسى بن مريم عليهما السلام كان من شرائعه السيح في البلاد ، فخرج في بعض سيحه ومعه رجل من اصحابه قصير ، وكان كثير اللزوم لعيسى ، فلما انتهى عيسى الى البحر قال : بسم الله ، بصحة يقين منه ، فمشى على ظهر الماء . فقال الرجل القصير حين نظر الى عيسى جازه : بسم الله ، بصحـة يقين منه ، فمشى على الماء ، ولحق بعيسى — صلى الله عليه — ، فدخـله العجب بنفسه فقال : هذا عيسى روح الله يمشي على الماء وانا امشي على الماء ، فما فضله علي ؟ قال : فرمس في الماء ، فاستغاث بعيسى (ع)، فتناوله

(٤٨) صححنا هذه الرواية على ما في البحار — الجزء الثالث من المجلد الخامس عشر في باب العجب — وقد نقلها عن مصباح الشريعة ، وفيه اختلاف عن نسخ جامع السعادات .

من الماء فأخرجه ، ثم قال له : ما قلت يا قصير ؟! قال قلت : هذا روح الله يمشي على الماء وانا امشي ، فدخلني من ذلك عجب ، فقال له عيسى : لقد وضعت نفسك في غير الموضع الذي وضعك الله ، فمقتك الله على ما قلت ، فتب الى الله عز وجل مما قلت ، قال : فتاب الرجل ، وعاد الى مرتبته التي وضعه الله فيها »[٤٩] .

فصل

آفات العجب

العجب آفاته كثيرة : (منها) الكبر لانه أحد اسبابه ـ كما يأتي ـ (ومنها) انه يدعو الى نسيان الذنوب واهمالها ، فلا يتذكر شيئا منها ، وان تذكر بعضا منها يستصغرها ولا يستعظمها ، فلا يجتهد في تداركها وتلافيها، بل يظن انها تغفر له . واما العبادات، فيستعظمها ويتبجح بها ويمن على الله بفعلها ، وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتمكين منها ، واذا اعجب بها عمى عن آفاتها . ومن لم يتفقد آفات الاعمال ضل سعيه ، اذ الاعمال الظاهرة اذا لم تكن خالصة نقية عن الشوائب قلما تنفع ، وانما يتفقد الخائف المشفق دون المعجب ، لانه يغتر بنفسه وبرأيه ويأمن مكر الله وعذابه ، ويظن انه عند الله بمكان، وان له عند الله حقا بأعماله التي هي من عطاياه تعالى ونعمه وربما يخرجه العجب الى تزكية نفسه والثناء عليها . وان اعجب برأيه وعقله وعلمه منعه ذلك من السؤال والاستفادة والاستشارة ، فيستبد بنفسه ورأيه ويستنكف عن سؤال الاعلم ، وربما يعجب بالرأي الخطأ الذي خطر له ، فيفرح بكونه من خواطره ولا يعتني بخواطر غيره ، فيصر عليه ، ولا يسمع نصح ناصح ولا وعظ واعظ ، بل ينظر الى غيره بعين الاستحقار والاستجهال فان كان رأيه الفاسق متعلقا بأمر دنيوي أضره وفضحه ، وان كان متعلقا بأمر ديني ـ (لا) سيما في أصول العقائد ـ أضله وأهلكه . ولو اتهم نفسه ولم يثق برأيه ، واستعان بعلماء الدين وسؤال اهل البصيرة ، لكان خيرا له واحسن ، وموصلا له الى الحق المتيقن . ومن آفاته انه يفتر في الجد والسعي ، لظنه انه قد استغنى وفاز بما ينجيه ، وهو الهلاك الصريح الذي

---

(٤٩) صححنا اكثر هذه الاحاديث على الكافي في باب العجب والحسد .

لا شبهة فيه .

فصـــل

(عـلاج العجب اجمالا وتفصيلا)

اعلم ان للعجب علاجين : اجماليا وتفصيليا [٥٠] :

أما العلاج الاجمالي — فهو ان يعرف ربه ، وانه لا تليق العظمة والعزة الا به ، وان يعرف نفسه حق المعرفة ؛ ليعلم انه بذاته أذل من كل ذليل وأقل من كل قليل، ولا تليق به الا الذلة والمهانة والمسكنة ؛ فما له والعجب واستعظام نفسه ، فانه لا ريب في كونه ممكنا ؛ وكل ممكن في ذاته صرف العدم ومحض اللا شيء ، كما ثبت في الحكمة المتعالية ؛ ووجوده وتحققه وكماله وآثاره جميعا من الواجب الحق ، فالعظمة والكبرياء انما تليق بمفيض وجوده وكمالاته ، لا لذاته التي هي صرف العدم ومحض الليس ، فـان شاء ان يستعظم شيئا ويفتخر به فليستعظم ربه وبه افتخر ، ويستحقر نفسه غاية الاستحقار وحتى يراها صرف العدم ومحض اللا شيء . وهذا المعنى يشترك فيه كل ممكن كائنا من كان .

وأما المهانة والذلة التي تخص هذا المعجب وبنى نوعه ، فكون اوله نطفة قذرة وآخره جيفة عفنة ، وكونه ما بين ذلك حمال نجاسات منتنة ، وقد مر على ممر البول ثلاث مرات . وتكفيه آية واحدة من كتاب الله تعالى لو كان له بصيرة ، وهي قوله تعالى :

« قتل الانسان ما أكفره . من أي شيء خلقه . من نطفة خلقه فقدره . ثم السبيل يسره . ثم أماته فاقبره . ثم اذا شاء أنشره » (٥١) .

فقد أشارت الآية الى انه كان أولا في كتم العدم غير المتناهي ، ثم خلقه من أقذر الاشياء الذي هو نطفة مهينة ، ثم أماته وجعله جيفة منتنة خبيثـة .

وأي شيء أخس وأرذل ممن بدايته محض العدم ، وخلقته من اتن الاشياء واقذرها ، ونهايته الفناء وصيرورته جيفة خبيثة . وهو ما بين المبدأ والمنتهى عاجز ذليل ، لم يفرض اليه امره، ولم يقدر على شيء لنفسه ولا

---

(٥٠) وفى النسخ : (اجمالي وتفصيلي) .
(٥١) عبس ، الآية : ١٧ — ٢٢ .

لغيره، اذ سلطت عليه الامراض الهائلة، والاسقام العظيمة ؛ والآفات المختلفة والطبائع المتضادة ، من المرة والدم والريح والبلغم ؛ فيهدم بعض أجزائه بعضا ، شاء أم ابى ؛ رضي أم سخط ؛ فيجوع كرهـا ؛ ويعطش كرها ؛ ويمرض كرها ، ويموت كرها ؛ لا يملك لنفسه نفعا وضرا ولا خيرا وشرا، يريد ان يعلم الشيء فيجهله ؛ ويريد ان يذكر الشيء فينساه ، ويريد ان ينسى الشيء فلا ينساه ، ويريد ان ينصرف قلبه الى ما يهمه فيجول في أوديـة الوساوس والافكار بالاضطرار • فلا يملك قلبه قلبه ، ولا نفسه نفسه • يشتهي الشيء وفيه هلاكه ، ويكره الشيء وفيه حياته ، يستلذ مـا يهلكه ويرديه ، ويستبشع ما ينفعه وينجيه ، ولا يأمن في لحظة من ليله أو نهاره أن يسلب سمعه وبصره وعلمه وقدرته ، وتفلج أعضاؤه ، ويختلس عقله؛ وتخطف روحه ، ويسلب جميع ما يهواه في دنياه ، وهو مضطر ذليل ان ترك فنى ؛ وان خلى ما بقى ؛ عبد مملوك ، لا يقدر على شيء من نفسه ولا من غيره • فأي شيء أذل منه لو عرف نفسه ؟ وانى يليق العجب به لولا جهله ؟• وهذا وسط أحواله •

وأما آخره، فهو الموت ـــ كما عرفت ـــ فيصير جيفة منتنة قذرة ، ثم تضمحل صورته ، وتبلى أعضاؤه ؛ وتنخر عظامه ؛ وتتفتت اجزاؤه؛ فيصير رميما رفاتا ، ثم يصير روثا في أجواف الديدان ؛ يهرب منه الحيـوان ؛ ويستقذره كل انسان ، وأحسن أحواله ان يعود الى ما كان ، فيصير ترابا تعمل منه الكيزان ، ويعمر منه البنيان ؛فما أحسنه لو ترك ترابا ، بل يحيى بعد طول البلى ليقاسي شدائد البلا ، فيخرج من قبره بعد جمع اجزائـه المتفرقة ، ويساق الى عرصات القيامة ، فيرى سماء مشققة ؛ وارضا مبدلة؛ وجبالا مسيرة ؛ ونجوما منكدرة ؛ وشمسا منكسفة ، وجحيما مسعرة ،وجنة مزينة، وموازين منصوبة؛ وصحائف منشورة ؛ فاذا هو في معرض المؤاخذة والحساب وعليه ملائكة غلاظ شداد ، فيعطى كتابه اما بيمينه او شماله ، فيرى فيه جميع أعماله وافعاله ، من قليل وكثير ونقير وقطمير • فان غلبت سيئاته على حسناته وكان مستحقا للعذاب والنار ، تمنى ان يكون كلبا أو خنزيرا ، لصير مع البهائم ترابا ولا يلقى عقابا ولا عذابا •ولا ريب في ان

الكلب والخنزير أحسن واطيب ممن عصى ربه القهار ويعذب في النار ، اذ اولهما وآخرهما التراب، وهو بمعزل عن العقاب والعذاب ، والكلب والخنزير لا يهرب منهما الخلق ، ولو رأى أهل الدنيا من يعذب في النار لصعقوا من وحشة خلقته وقبح صورته • ولو وجدوا ريحه لماتوا من نتنه ، ولو وقعت قطرة من شرابه الذي يسقاه في بحار الدنيا صارت انتن من الجيفة المنتنـــة •

فما لمن هذه حاله والعجب واستعظام نفسه ! وما أغفله من التدبر في أحوال يومه وأمسه ! ولو لم يدركه العذاب ولم يؤمر به الى النار فانما ذلك للعفو، لانه ما من عبد الا وقد أذنب ذنبا ، وكل من اذنب ذنبا استحق عقوبة ، فلو لم يعاقب فانما ذلك للعفو • ولا ريب في ان العفو ليس يقينا بل هو مشكوك فيه ، فمن استحق عقوبة ولا يدري ايعفى عنها أم لا ، يجب ان يكون ابدا محزونا خائفا ذليلا ، فكيف يستعظم نفسه ويلحقه العجب ، ألا ترى ان من جنى على بعض الملوك بما استحق به الف سوط مثلا ، فأخذ وحبس في السجن • وهو منتظر ان يخرج الى العرض وتقام عليه العقوبة على ملأ من الخلق، وليس يدري أيعفى عنه أم لا ، كيف يكون ذله في السجن ؟ أفترى انه مع هذه الحالة يكون معجبا بنفسه ؟! ولا اظنك ان تظن ذلك • فما من عبد مذنب ، ولو اذنب ذنبا واحدا ، الا وقد استحق عقوبة من الله ، والدنيا سجنه ؛ ولا يدري كيف يكون امره ؛ فيكفيه ذلك خوفا ومهانة وذلة • فلا يجوز له ان يعجب ويستعظم نفسه •

هذا هو العلاج الاجمالي للعجب •

واما التفصيلي — فهو ان يقطع اسبابه — اعني ما به العجب — وهي العلم ، والمعرفة ؛ والعبادة ؛ والطاعة ؛ وغير ذلك من الكمالات النفسية ؛ كالورع ؛ والشجاعة ، والسخاوة ، والنسب ، والحسب؛ والجمال ؛ والمال والقوة ؛ والبطش ؛ والجاه ، والاقتدار ، وكثـــرة الاعوان والانصـــار ، والكياسة ؛ والتفطن لدقائق الامور ؛ والرأي الخطأ •

أما (العجب بالعلم) : فعلاجه أن يعلم ان العالم الحقيقي هو الذي يعرف نفسه وخطر الخاتمة ، وان من تليق به العظمة والعزة والكبريـــاء هو الله

سبحانه ، وما عداه هالك الهوية والذات فاقد الكمال والصفات . وهذا العلم يزيد الخوف والذلة والمهانة والمسكنة ،والاعتراف بالقصور والتقصير في اداء حقوق الله ، والشكر بازاء نعمه ، ولذا قيل : « من ازداد علما ازداد وجعا » . فالعلم الذي لا يوجب ذلك ويورث العجب ، اما ليس علما حقيقيا بل هو من العلوم الدنيوية التي ينبغي ان تسمى صناعات لا علوم ، اذ صاحبه خاض فيه وهو خبيث النفس رديء الاخلاق لم يهذب نفسه اولا ولم يزكها بالمجاهدات ولم يرضها في عبادة ربه ، فيبقى خبيث الجوهر ، فاذا خاض في العلم وان كان علما حقيقيا صادف من قلبه منزلا خبيثا ، فلم يطب ثمره ولم يظهر في الخير اثره ، فان العلم مثله مثل الغيث ينزل من السماء عذبا صافيا ، فاذا شربته الاشجار والنباتات ازداد المر مرارة والحلو حلاوة كذلك العلم اذا صادف القلوب ازداد القلب المظلم الخبيث ظلمة وخباثة . والطيب الصافي طيبا وصفاء .

واذا علم ذلك ، يعرف انه لا ينبغي العجب بالعلم ، ويجب ايضا ان يعلم انه اذا اعجب بنفسه صار ممقوتا عند الله مبغوضا لديه ، لما تقدم من الاخبار ، وقد أحب الله منه الذلة والحقارة عند نفسه . وقال بواسطة سفرائه « ان لك عندي قدرا ما لم تر لنفسك قدرا ، فان رأيت لنفسك قدرا فلا قدر لك عندي » [٥٢]. وقال :« صغروا انفسكم ليعظم عندي محلكم» . فلا بد ان يكلف نفسه ما يحب مولاه ، وان يعلم ان حجة الله على أهل العلم أوكد ، وانه يتحمل من الجاهل ما لا يتحمل عشره من العالم ، لان العالم اذا زل زل بزلته كثير من الناس ، ولان من عصى الله عن علم ومعرفة كانت جنايته أفحش ، اذ لم يقض حق نعمة الله عليه في العلم ، ولذلك قال رسول الله (ص) : « يؤتى بالعالم يوم القيامة فيلقى في النار ، فتندلق اقتابه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى ، فيطيف به أهل النار ، فيقولون : ما لك ؟ فيقول : كنت آمر بالخير ولا آتيه وانهى عن الشر وآتيه » . وقد

(٥٢) هذا كلام بنصه مذكور في احياء العلوم — ج ٣ ص ٢١٢ — ويظهر منه انه من كلامه هو أو مقتبس من مضامين الاخبار ، لا انه نص حديث ، وكذا ما بعده وهو قوله : « صغروا ... » .

مثل الله تعالى علماء (اليهود) بالحمار [٥٣]، وبلعلم بن باعوراء بالكلب [٥٤] لعدم عملهم بما علموه . وقال رسول الله (ص) : « يــكون قوم يقرون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يقولون قد قرأنا القرآن فمن اقرأ منا ومن أعلم منا » ، ثم التفت الى اصحابه فقال : « اولئك منكم ايها الامــة ، اولئك هم وقود النار » . وقال (ص) : « ان اهل النار ليتأذون من ريح العالم التارك لعلمه ، وان اشد أهل النار ندامة وحسرة رجل دعا عبــدا الى الله فاستجاب له وقبل منه ، فأطاع الله فأدخله الله الجنة، وادخل الداعي النار بتركه علمه واتباعه الهوى وطول الامل » وقال روح الله (ع) : « ويل لعلماء السوء[٥٥] كيف تتلظى عليهم النار » . وقال الصادق عليه السلام: « يغفر للجاهل سبعون ذنبا قبل ان يغفر للعالم ذنب واحد » .

ولا ريب في أن كل عالم يأمر الناس بالتواضع وذل النفس وانكسارها، وينهاهم عن العجب والكبر ، وهو معجب متكبر ، يكون من علماء السوء وممن لم يعمل بعلمه ، فيكون داخلا تحت هذه الاخبار . وأي عالم يتصور في أمثال هذه الازمنة ان يجزم بأنه عمل بجميع ما علم وامر به ، ولم يضع شيئا من أوامر ربه من الجنايات الظاهرة والذنوب الباطنة ، كالرياء والحسد والعجب والنفاق وغير ذلك ؟ ووكيف يمكنه القطع بأنه امتثل ما امر به من التكاليف العامة والخاصة به ? فخطره اعظم من خطر غيره ، كيف وقد روي: « ان حذيفة صلى بقوم ، فلما سلم قال : لتلتمسن اماما غيري او لتصلن وحدانا ، فاني رأيت في نفسي انه ليس في القوم أفضل مني » . فاذا كان مثله لا يسلم ، فكيف يسلم الضعفاء من متأخري هذه الامة ، فما أعز على بسيط الارض في هذه الاعصار علماء الآخرة الذين أقبلوا على شــأنهم ،

---

(٥٣) اشارة الى قوله تعالى — فى سورة الجمعة الآية ٥ — : « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا » .

(٥٤) اشارة الى قوله تعالى — فى سورة الاعراف الآية ١٧٦ — : «فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث او تتركه يلهث» .

(٥٥) فى النسخ المصححة للكافى — باب لزوم الحجة على العالم — هكذا: « للعلماء السوء » — بتعريف العلماء — ونحن رجحنا نسخة جامع السعادات المطبوعة فاثبتناه بلا تعريف قال صاحب مجمع البحرين — مادة (سوء) —: « تقول هذا رجل سوء بالاضافة ، ثم تدخل عليه الالف واللام ، فتقول هذا رجل السوء . ولا يقال الرجل السوء . كذا قاله الجوهري » .

واستوحشوا من أوثق اخوانهم، وشغلهم عظيم الامر عن الالتفات الى الدنيا وزهرتها ، وازعجهم خوف الرحمن من مضاجعهم في حنادس الليالي وظلمتها ولا يشتهون من نعيم الدنيا حارا ولا باردا ، وصارت همومهم هما واحدا، هيهات ! فانى يسمح آخر الزمان بمثلهم، فهم ارباب الاقبال واصحاب الدول وقد انقرضوا في القرون الاول ، بل يعز ان يوجد في زماننا هذا عالم لا تكون له استطالة وخيلاء ،ولم يكن متكبرا على الفقراء ، ومتواضعا للاغنياء. فينبغي لكل عالم ان يتفكر في أحواله واعماله وما اريد منه ، وفي عظم خطره حتى تنكسر نفسه ، ويظهر خوفه وحزنه ويبطل كبره وعجبه .

وأما (العجب بالعبادة والطاعة):فعلاجه ان يعلم ان الغرض من العبادة هو اظهار الذل والانكسار ، وصيرورتهما ملكة للنفس ليحصل له معنى العبودية وحقيقتها ، فالعجب لمنافاته الغرض المقصود منها يبطلها، وبعد بطلانها فلا معنى للعجب بها . وايضا آفات العبادة الموجبة لحبطها كثيرة ، وكذلك شرائطها وآدابها التي لا يصح بدونها كثيرة ، فيمكن ان تدخلها بعض الآفات او تفقد عنها بعض الشرائط والآداب ، فلا تكون مقبولة عند الله ، ومع امكان ردها وعدم قبولها كيف يعجب العاقل بها ؟ ومن يمكنه القطع بسلامة طاعاته وعباداته عن جميع الافات ؟ ومن قطع بذلك فهو في غاية الجهل بحقائق الامور . على ان فائدة العبادة انما هو اذا كان عند الله سعيدا ، ومن جوز أن يكون عند الله شقيا ، وقد سبق القضاء الالهي بشقوته ، فأي نفع يتصور لعبادته حتى يعجب بها ؟ ولا ريب في انه لا يخلو عبد عن هذا التجويز ، فما لاحد الى العجب والتكبر في حال من الاحوال سبيل .

وأما (العجب بالورع ، والتقوى ، والصبر ، والشكر ، والسخاوة ، والشجاعة ، وغيرها من الفضائل النفسية) : فعلاجه ان يعلم ان هذه الفضائل انما تكون نافعة ومنجية اذا لم يدخلها العجب ، واذا دخلها العجب أبطلها وأفسدها ، فما للعاقل أن يرتكب رذيلة تضيع ما له من الفضائل ، وانى له لا يظهر الذلة والتواضع في نفسه حتى يزيد فضيلة على فضائلها ، ويختم لأجلها الجميع بالخير ، وتصير عاقبته محمودة ، وتكون مساعيه مقبولة مشكورة . وينبغي ان يعلم ان كل واحد من الفضائل التي يثبتها

لنفسه موجودة مع الزيادة في كثير من بني نوعه ، واذا علم اشتراك الناس معه في هذه الفضيلة زال اعجابه بها • وقد نقل ان واحدا من مشاهير الشجعان اذا قابل خصمه اصفر لونه وارتعدت فرائصه واضطرب قلبه ، فقيل له : ما هذه الحالة وانت أشجع الناس واقواهم ؟ فقال : اني لم امتحن خصمي ، فلعله اشجع مني • وايضا النصر والغلبة وحسن العاقبة مع الذلة والمسكنة، لا مع الاعجاب بالقوة والشجاعة ، فان الله عند المنكسرة قلوبهم•

ومن المعالجات النافعة للعجب بكل واحد من الصفات الكمالية : ان يقابل سببه بضده ، اذ علاج كل علة بمقابلة سببها بضده ، ولما كانت علة العجب هو الجهل المحض ، فعلاجه المعرفة المضادة له ؛ فنقول :

الكمال الذي به يعجب اما أن يكون يعجب به من حيث انه فيه وهو محله ومجراه ، أو من حيث انه نشأ منه وحصل بسببه وقوته وقدرته • فان كان (الاول) ، فهو محض الجهل ، لان المحل مسخر ، وانما يجري ما يجري فيه وعليه من جهة غيره ؛ ولا مدخل له في الايجاد والتحصيل ، فكيف يعجب بما ليس له • وان كان (الثاني) ، فينبغي ان يتأمل في قدرته وارادته واعضائه ، وسائر الاسباب التي بها يتم كماله وعمله ، انها من اين كانت له : فان كان علم ان جميع ذلك نعمة من الله اليه من غير حق سبق له ، فينبغي ان يكون اعجابه بجود الله تعالى وكرمه وفضله ، اذ أفاض عليه ما لا يستحقه ، وآثره به على غيره من غير سابقة ووسيلة ، فان ظن انه تعالى وفقه لهذا العمل لاتصافه ببعض الصفات الباطنة المحمودة ، كحبه له تعالى أو مثله ، فيقال له : الحب والعمل كلاهما نعمتان من عنده ، ابتدأك بهما من غير استحقاق من جهتك ؛ اذ لا وسيلة لك ولا علاقة ، فليكن الاعجاب بجوده ، اذ انعم بوجودك وبوجود صفاتك واعمالك واسباب اعمالك•

فاذن لا معنى لعجب العالم بعلمه ، وعجب العابد بعبادته ؛ وعجب الشجاع بشجاعته ، وعجب الجميل بجماله ، وعجب الغني بماله ، لان كل ذلك من فضل الله ؛ وانما هو محل لفيضان فضل الله وجوده• والمحل ايضا من فضله وجوده ، فانه هو الذي خلقك ، وخلق اعضاءك، وخلق فيها القوة والقدرة والصحة ؛ وخلق لك العقل والعلم والارادة ؛ ولو اردت ان تنفي

شيئا من ذلك لم تقدر عليه . ثم خلق الحركات في اعضائك مستبدا باختراعها من غير مشاركة لك معه في الاختراع ، الا انه خلقها على ترتيب ، فلم يخلق الحركة ما لم يخلق في العضو قوة وفي القلب ارادة ؛ ولم يخلق العلم ما لم يخلق القلب الذي هو محله ؛ فتدريجه في الخلق شيئا بعد شيء هو الذي خيل اليك انك مستقل بايجاد عملك، وقد غلطت ؛ فان تحريك البواعث وصرف العوائق ؛ وتهيئة الاسباب ؛ كلها من الله ؛ ليس شيء منها اليك .

ومن العجائب ان تعجب بنفسك ؛ ولا تعجب بمن اليه الامر كله ، ولا تعجب بجوده وكرمه ، وفضله في ايثاره اياك على الفساق من عباده ، اذ مكنهم من اسباب الشهوات واللذات، وزواها عنك ، وصرف عنهم بواعث الخير وهيأها لك ؛ حتى يتيسر لك الخير من غير وسيلة سابقة منك .

روي : « أن ايوب عليه السلام قال : (الهي انك ابتليتني بهذا البلاء، وما ورد على أمر الا آثرت هواك على هواي) ، فنودي من غمامة بعشرة آلاف صوت : يا ايوب ! انى لك ذلك ؟ قال : فأخذ رمادا فوضعه على رأسه ، وقال : منك يا رب ! فرجع عن نسيانه ، واضاف ذلك الى الله تعالى، ولذلك قال الله تعالى :

« ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد ابدا »(٥٦).

وقال النبي (ص) : « ما منكم من أحد ينجيه عمله » ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ! قال : « ولا انا الا ان يتغمدني الله برحمته » .

(فان قيل) : ما ذكرت من استناد الصفات والافعال ومحلها جميعا الى الله تعالى ، يؤدي الى الجبر ونفي التكليف ، وبطلان الثواب والعقاب ؛ (قلنا) : هذا فرع باب مسألة يتعلق بعلم آخر ، ولا يليق بيانها هنا [٥٧] .

ونحن لم نسلب القدرة والاختيار عن العبد بالكلية في متعلق التكليف ــ اعني افعاله العرضية ــ بل نفينا استقلاله فيها . نعم ، في غيرها من المحال والاسباب والصفات اللازمة، والتوفيق ، وتحريك البواعث ؛ وصرف الموانع ، لا قدرة له فيها اصلا ؛ ولا يلزم منه فساد .

---

(٥٦) النور ، الآية : ٢١ .

(٥٧) تقدم ذكر هذا الامر ص ١٤١ .

وأما (العجب بالحسب والنسب) : فعلاجه يتم بمعرفة امور :

الاول ـ ان يعلم ان التعزز بكمال الغير غاية السفاهةوالجهل ، فانه لو كان خسيسا في صفات ذاته ، فمن اين يجبر خسته كمال غيره ، ولو كان أباهاوجده ، بل لو كان الذي يعجب به بالانتساب حيا لكان له ان يقول الفضل لي لا لك وانت دودة خلقت من فضلتي ، افترى ان الدودة التي خلقت من فضلة الانسان أشرف من الدودة التي خلقت من فضلة حمار ؟! هيهات ! فانهما متساويان في الخسة ، ان الشرف للانسان لا للدودة ، ولذا قال امير المؤمنين عليه السلام :

انا ابن نفسي وكنيتي ادبي من عجم كنت او من العرب
ان الفتى من يقول هاأنذا. ليس الفتى من يقول كان أبي

وقيل :

لئن فخرت بآباء ذوي شرف لقد صدقت ولكن بئس ما ولدوا

وقد روي : « ان ابا ذر قال بحضرة النبي (ص) لرجل : (يا ابن السوداء !) ، فقال النبي (ص) : « يا ابا ذر ! طف الصاع طف الصاع ؛ ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل » . فاضطجع ابو ذر وقال للرجل: قم فطأ على خدي » . وروي : « ان بلالا لما أذن يوم الفتح على الكعبة قال جماعة : هذا العبد الاسود يؤذن ! فنزل قوله تعالى :

« يايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم » (٥٨) .

وقال رسول الله (ص): « ان الله قد اذهب عنكم عبية الجاهلية ـ أي كبرها ـ كلكم بنو آدم وآدم من تراب » . ونقل : أن واحدا من رؤساء اليونان افتخر على غلام ؛ فقال له : ان كان منشأ افتخارك آباؤك فالتفوق لهم لا لك ، وان كان لباسك فالشرافةله دونك ، وان كان مركوب فالفضيلة له لا لك، فليس لك شيء يصلح للعجب والمفاخرة . ولذا قال متمم مكارم الاخلاق (ص) : « لا تأتوني بأنسابكم وائتوني بأعمالكم » .

الثاني ـ ان يعرف نسبه الحقيقي ، فان أباه القريب نطفة قذرة ،

(٥٨) الحجرات ، الآية : ١٣ .

وجده البعيد تراب ذليل ، وقد عرفه الله نسبه فقال :

« وبدأ خلق الانسان من طين. ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين »(٥٩).

والاصل الذي يوطأ بالاقدام او تغسل منه الاجسام أي رفعه يكون لفرعه!

الثالث — ان يعلم ان من يعجب بهم بالانتساب من اسلافه ، ان كانوا من أهل الديانة والخصال المرضية والشرافة الحقيقية ، فظاهر انه ما كان من أخلاقهم العجب ، بل الذلة والازراء على النفس ومذمتها واستعظام الخلق، فان اقتدى بهم في اخلاقهم فلا يليق به العجب والتعزز ، والا كان طاعنا في نسبه بلسان حاله . وان لم يكونوا من أهل الديانة الواقعية والشرافة العلمية والعملية بل كان لهم مجرد شوكة ظاهرية ، كالسلاطين الظلمة وأعوانهم ، فأف لمن يفتخر بهم ويعجب بنفسه لاجلهم ! اذ الانتساب الى الكلاب والخنازير أحسن من الانتساب اليهم ، كيف وانهم ممقوتون عند الله معذبون في النار، بحيث لو نظر الى صورهم في النار وما لحقهم فيها من النتن والقذارة ، لاستنكف منهم وتبرأ من الانتساب اليهم . ولذلك قال (ص) : « ليدعن قوم الفخر بآبائهم وقد صاروا فحما في جهنم ، او ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدوف بآنافهم القذر » وروى : انه افتخر رجلان عند موسى (ع) ، فقال احدهما : أنا فلان بن فلان ، حتى عد تسعة ، فأوحى الله تعالى الى موسى : « قل للذي افتخر : بل التسعة من أهل النار وأنت عاشرهم ! » .

وأما (العجب بالجمال) : فعلاجه ان يعلم انه في معرض الزوال بالعلل والآلام والامراض والاسقام ، وأي عاقل يعجب بشيء تزيله حمى يوم او قرحة أو جدري !

بر مال وجمال خويشتن غره مشو كآن رابشبى برندواين رابه تبى[٦٠]

ولو لم يرتفع بها ، فهل يشك عاقل بزواله بذهاب الشباب ومجيء الشيب وبالموت الذي لا بد ان تذوقه كل نفس ؟ فانظر الى الوجوه الجميلة والابدان الناعمة، كيف تمزقت في التراب واتنت في القبور ، بحيث استقذرتها الطباع . على انه لو نظر نظر العقلاء في باطنه عند اتصافه بغاية جماله ، لرأى

---

(٥٩) السجدة ، الآية : ٧ — ٨ .

(٦٠) معنى البيت : (لا تغتر بمالك وجمالك ، فان ذلك يذهب بليلة وهذا بحمى واحدة) .

من الفضائح ما يكدر عليه العجب والتعزز به ، فانه وكلت اليه[٦١] الاقذار في جميع اجزائه : (البصاق) في فمه ، ، (والمخاط) في انفه ، (والوسخ) في اذنه ، (والنتن) تحت ابطه ، (والصديد) تحت بشرته ، (والفضلات) في معدته، (والرجيع) في امعائه ، (والديدان) في احشائه ، (والبول) في مثانته (والصفراء) في مرارته ، يتردد الى الخلاء كل يوم مرتين ، ويغسل الغائط كل يوم بيده مرتين ، يخرج من باطنه ما لو رآه بعينه لاستقذره فضلا ان يمسه أو يشمه• وفي أول امره خلق من الاقذار الشنيعة الصور : من النطفة ودم الحيض ، وخرج من مجاري الاقذار ، اعني الصلب والذكر والرحم والفرج • ولو ترك نفسه في حياته يوما لم يتعهده بالغسل والتنظيف ، لثارت منه الانتان والاقذار ، وصار اقذر وانتن من الدواب المهملة • هذا اوله ووسطه، وسيموت فيصير جيفة اقذر من سائر الاقذار • فما للعاقل أن يعجب ويتعزز بهيئة حاصلة لبدن هذه حقيقته !

واما (العجب بالمال) : فهو عجب بأمر خارج عن ذات الانسان ، فهو اقبح انواع العجب • وعلاجه ان يتفكر في آفات المال ، وكونه في معرض الفناء والزوال ، من الغصب والنهب والحرق والغرق ، وغير ذلك من الآفات السماوية والارضية ، ويتذكر ان في اليهود والهندو من يزيد عليه في المال واف لشرف يسبقه اليهود والهندو ! واف لشرف يأخذه السارق في لحظة فيعود صاحبه ذليلا مفلسا !! ويتذكر ما ورد في ذم المال وحقارة الاغنياء، وفي فضيلة الفقر وشرافة الفقراء ، وسبقهم الى الجنة في القيامة، وما ورد في عقوبة المعجب بالمال بخصوصه ، كقوله (ص) : « بينما رجل يتبختر في حلة له قد اعجبته نفسه ، اذ امر الله الارض فأخذته ، فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة »[٦٢] ، أشار به الى عقوبة اعجابه بماله ونفسه • وكيف يتصور المؤمن العاقل أن يعجب بالمال ويفرح به ، مع كثرة حقوقه وعظم غوائله ، وايجابه المؤاخذة وطول المحاسبة في القيامة ، والعقوبة والنكال ان كان حراما، وانحطاط المرتبة والدرجة ان كان حلالا ، بل ينبغي له ألا يخلو ساعة عن الخوف من تقصيره ، في القيام بحقوقه ، واخذه من حله ،

---

(٦١) وفي النسخ : « وكل به » ، ورجحنا ما اثبتناه .
(٦٢) هذا الحديث صححناه على ما في احياء العلوم — ٣ : ٣٢٢ —.

ووضعه في حقه .

وأما (العجب بالقوة وشدة البطش) : فعلاجه أن يتذكر ما سلط عليه من العلل والامراض ، وان حمى يوم تضعف قوته ويتحلل منها ما لا ينجبر في مدة ، وانه لو وجع عرق واحد من بدنه صار اعجز من كل عاجز وأذل من كل ذليل ، وانه لو سلبه الذباب شيئا لم يستنقذه منه ، وان بقة لو دخلت في أنفهأو نملة دخلت في أذنه لقتلته ، وان شوكة لو دخلت في رجله لاعجزته . ثم أقوى انسان لا يكون اقوى من حمار أو جمل او فيل او بقر، وأي عجب وافتخار في صفة يسبقه البهائم فيها ، هذا مع ان الغالب ان من يعجب بقوته يسلبها الله تعالى عنه بأدنى آفة يسلطها عليه .

وأما (العجب بالجاه ، والمنصب ، وولاية السلاطين ، وكثرة الاتباع والانصار: من الاولاد والاقارب والقبائل والعشائر والخدم والغلمان) : فعلاجه ان يعلم ان كل ذلك فيمعرض الانقطاع ، وعن قريبيقع بينه وبينها المفارقة ، اما بفنائه وموته أو بفنائها وهلاكها ، بل العاقل يجدها كسراب بقيعة ، وانما هي خيالات تظن شيئا وليست بشيء ، وستفترق عنه اذا مات ودفن في قبره ذليلا مهينا وحده ، لا يرافقه أهل واولاد ولا اعوان واتباع، فيسلمونه الى البلاء والى العقارب والحيات والديدان ، ولا يغنون عنه شيئا وهو فيأحوج أوقاته اليهم، وكيف يعجب العاقلبمن يفارقه في أشد احواله! على انهم في الدنيا يتبعونهما دام يحصل منه ما يشتهونه من البذلوالاعطاء، فلا بد له من ايقاع نفسه في المهالك وتعرضهلسخط الله وعقوبته ، لتحصيل الاموال من الوجوهالمحرمة وصرفها اليهم ، ليستمروا على متابعته واعانته، ولو نقص شيء مما يتمنونه تعرضوا لمقته وعداوته ، فضلا عن بقائهم على حمايته واطاعته . ثم المعجب بتمكين السلطان وولايته بناء امره على قلب هو أشد غليانا من القدر ، اذ لو تغير عليه كان اذل الخلق .

واما (العجب بالعقل والكياسة والتفطن لدقائق الامور) : فعلاجه ان يعلم ان ذلك يزول عنه بأدنى مرض يصيب دماغه ، وربما زال عقله دفعة. مع انه ان كانفي الواقع فطنا كيسا في الامور يلزم عليه ان يشكر اللهتعالى

على ذلك ، ويستصغر[٦٣] عقله وفطانته ، ليبقى الله تعالى عليه تلك النعمة، ولا يسلبها عنه لاجل عجبه .

واما (العجب بالرأي الخطأ الذي يزين له بجهله) : فهو أقبح انواع العجب ، اذ جميع أهل البدع والضلال والفرق الذين اختاروا مذاهب باطلة وآراء فاسدة انما أصروا عليها لعجبهم بها ، ولذا يفتخرون بمذاهبهم على غيرهم ، وبذلك هلكت الامم اذا افترقت فرقا ، وكل معجب برأيه ، و :

« كل حزب بما لديهم فرحون » (٦٤) .

فكل من استحسن ما يسوقه اليه الهوى والشبهة — مع ظن كونه حقا — يكون له هذا العجب ، وقد أخبر رسول الله (ص) : « ان ذلك يغلب على آخر هذه الامة » . وعلاجه أشد من علاج غيره ، لان صاحب الرأي الخطأ جاهل بخطأه ، ولو عرفه لتركه . ولا يعالج الداء الذي لا يعرف ، اذ العارف يقدر على ان يبين للجاهل جهله ويزيله عنه اذا لم يكن معجبا برايه وجهله ، واذا كان معجبا به يتهمه ولا يصغي اليه حتى يعالجه، فقد سلطت عليه بلية تهلكه وهو يظن انها نعمة . وكيف يطلب الهرب مما يعتقد انه سبب سعادته ! وانما علاجه في الجملة أن يكون متهما لرأيه لا يغتر به ، الا ان يشهد له قاطع عقلي أو نقلي لا يعتريه ريب وشبهة .

ومعرفة أدلة الشرع والعقل وشروطها ومكان الغلط فيها موقوفة على عقل ثابت ، وقريحة تامة مستقيمة ، مع جد وتشمير في الطلب ، وممارسة الكتاب والسنة ، ومجالسة أهل العلم ، ومدارسة العلوم طول العمر ، ومع ذلك لا يؤمن عليه الغلط ، فالصواب للكل — الا من أيده الله بقوة قدسية يتمكن بها من الخوض في غمرات العلوم — ألا يخوض في المذاهب الباطلة ولا يصغي اليها، ويتبع أهل الوحي فيما جاؤا به من عند الله في الاصول والفروع .

وصل

(انكسار النفس)

ضد العجب انكسار النفس واستحقارها وكونها في نظره ذليلة مهينة .

---

(٦٣) فى النسخ : « يستغفر » ، فرجحنا ما اثبتناه .

(٦٤) المؤمنون ، الآية : ٥٣ .

وكما ان العجب مجرد استعظام النفس من دون اعتبار استصغار الغير معه، فكذا ضده مجرد استحقار النفس من دون اشتراط اعظام الغير معه ، اذ الاول مع اعتبار الثاني تكبر، والثالث مع اشتراط الرابع تواضع، وهما ضدان.

ثم لاريب في فوائد انكسار النفس واستصغارها ، وكل من بلغ مرتبة عظيمة فانما بلغ بهذه الصفة ، لان الله تعالى عند المنكسرة قلوبهم ، وقال رسول الله (ص) : « ما من أحد الا ومعه ملكان وعليه حكمة (٦٥) يمسكانها ، فان هو رفع نفسه جبذاها (٦٦) ثم قالا : اللهم ضعه ، وان وضع نفسه قالا : اللهم ارفعه » (٦٧) . وروي : « أنه أوحي الله تعالى الى موسى (ع) : أن ياموسى ! أتدري لم اصطفيتك بكلامي دون خلقي ؟ قال: يارب ! ولم ذلك ؟ فأوحى الله تبارك وتعالى اليه : أني قلبت عبادي ظهرا لبطن ، فلم اجد فيهم احدا اذل نفسا لي منك ، ياموسى ! انك اذا صليت وضعت خدك على التراب » . وروي : « انه لما اوحى الله تعالى الى الجبال: أني واضع سفينة نوح عبدي على جبل منكن، فتطاولت وشمخت، وتواضع الجودي ، وهو جبل عندكم ، فضربت السفينة بجؤجؤها الجبل فقال نوح عند ذلك : (يا ماري اتقن) وهو بالسريانية : رب اصلح » (٦٨) ومنها :

الكبر

وقد عرفت :انه الركون الى رؤية النفس فوق الغير ، وبعبارة أوضح: هو عزة وتعظيم يوجب رؤية النفس فوق الغير واعتقاده المزية والرجحان عليه ،فهو يستدعي متكبرا عليه . وبه ينفصل عن العجب ، اذ العجب مجرد استعظام النفس من دون اعتبار رؤيتها فوق الغير ، فالعجب سبب الكبر والكبر من نتائجه .

ثم الكبر ــ أي العزة الموجبة لرؤية النفس فوق الغير ــ هو خلق الباطن يقتضي اعمالا في الظاهر هي ثمراته ، وتسمى تلك الاعمال الظاهرة

---

(٦٥) الحكمة بالتحريك : ما أحاط بحنكي الفرس من لجامه .
(٦٦) بمعنى جذباها .
(٦٧) صححنا الحديث على ما في احياء العلوم ــ ج ٢ ص ٣٢٩ ــ .
(٦٨) هذا الحديث وما قبله رواهما الكافي في باب التواضع، فصححناهما عليه.

الصادرة منه تكبرا ، ولذا من تعزز ورأى نفسه باطنا فوق الغير ، من دون صدور فعل على جوارحه ، يقال له (كبر) ، واذا ظهرت الاعمال يقال له (تكبر) • وهذه الاعمال الظاهرةالتي هي ثمرات خلقالكبر أفعالواقوال توجب تحقير الغير والازراء به، كالترفع عن مواكلته ومجالسته،والاستنكاف عن مرافقته ومصاحبته ، وابعاده عن نفسه ، وابائه عن الجلوس بجنبه ، وانتظاره ان يسلم عليه ، وتوقعه ان يقوم ماثلا بين يديه ، والاستنكاف من قبول وعظه ، وتعنيفه في ارشاده ونصحه ، وتقدمه عليه في المحافل والطرقات وعدم الالتفات اليه في المحاورات ، وتوقع التقديم عليه فيكل ما يدل على التعظيم عرفا • وبالجملة : الاعمال الصادرة عن الكبر كثيرة، ولا حاجةالى احصائها ، لكونها مشهورة معروفة ، ومن جملتها الاختيال في المشي وجر الثياب ، اذ فاعلهما يرى نفسه فوق الاكثر ويقصد بهما استحقارهم ، فهما يقتضيان متكبرا عليه ،فيكونان من انواع التكبر ، وما ورد في ذمهما يدل ايضا على ذمه ، كما يأتي • وهذه الافعال المعبر عنها بالتكبر قد تصدرعن الحقد او الحسد أو الرياء ، وان لم تكن في النفس عزة وتعظم •

فصـــل

(ذم الكبـــر)

الكبر آفة عظيمة وغائلته هائلة ، وبه هلك خواص الانام فضلا عن غيرهم من العوام ، وهو الحجاب الاعظم للوصول الى أخلاق المؤمنين، اذ فيه عز يمنع عن التواضع ، وكظم الغيظ ، وقبول النصح ، والدوام على الصدق ، وترك الغضب والحقد والحسد والغيبة والازراء بالناس ، وغير ذلك • فما من خلق مذموم الا وصاحب الكبر مضطر اليه ، ليحفظ به عزه، وما من خلق محمود الا وهو عاجز عنه • خوفا من فوات عزه • ولذا ورد في ذمه ماورد من الايات والاخبار ، قال الله سبحانه :

« كذلك يطبع الله علىكل قلب متكبر جبار »(٦٩) • وقال : **« ساصرف عن آياتي الـذين يتكبرون » (٧٠)** • وقال : **« والملائكـة باسطوا ايديهم**

(٦٩) غافر ، الآية : ٣٥ •
(٧٠) الاعراف ، الآية : ١٤٦ •

اخرجوا انفسكم ... الى قوله : وكنتم عن آياته تستكبرون » (٧١) .وقال: « ادخلوا ابواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين »(٧٢). وقال : « فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون » (٧٣). وقال : « ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين »(٧٤) . وقال: « ان في صدورهم الا كبر ماهم ببالغيه » (٧٥) .

وقال رسول الله (ص) : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر » [٧٦] ، وقال : « من تعظم في نفسه واختال في مشيته ، لقي الله وهو عليه غضبان » . وقال (ص) : « لا ينظر الله الى رجل يجر ازاره بطرا » . وقال (ص) : « قال الله . الكبرياء ردائي والعظمة ازاري ، فمن نازعني في واحد منهما ألقيته في جهنم ». وقال (ص): « لايزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين ، فيصيبه ما أصابهم من العذاب » . وقال (ص) : يخرج من النار عنق له اذنان تسمعان وعينان تبصران ولسان ينطق ، يقول وكلت بثلاثة : بكل جبار عنيد ، وبكل من دعا مع الله الها آخر ، وبالمصورين » . وقال : (ص) : « لايدخل الجنة جبار ، ولا بخيل ، ولاسيء الملكة » . وقال (ص) : « ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، وملك جبار ، ومقل مختال » .وقال (ص) : « بئس العبد عبد تجبر واعتدى ونسي الجبار الاعلى ،بئس العبد عبد تبختر واختال ونسي الكبير المتعال ، وبئس العبد عبد غفل وسها ونسي المقابر والبلى، وبئس العبد عبد عتا وبغي ونسي المبدأ والمنتهى » . وقال (ص) : «ألا أخبركم باهل النار : كل عتل جواظ جعظري متكبر» [٧٧] . وقال (ص) :

---

(٧١) الانعام ، الآية : ٩٣ .
(٧٢) الزمر ، الآية : ٧٢ .
(٧٣) النحل ، الآية : ٢٣ .
(٧٤) غافر ، الآية : ٦٠ .
(٧٥) غافر ، الآية : ٥٦ .
(٧٦) روي الحديث في الكافي عن احد الصادقين ــ عليهما السلام ــ في باب الكبر ، وجاء فيه هكذا : « الكبر » بتعريف كبر .
(٧٧) صححنا الحديث على كنز العمال ــ ج ٢ ص ١٠٧ ــ . والجواظ: المتكبر الجافي والجعظري : الفظ الغليظ .

« ان أبغضكم الينا وابعدكم منا في الآخرة الثرثارون والمتشدقون المتفيهقون»: أي المتكبرون . وقال (ص) : « يحشر المتكبرون يوم القيامة في مثل صور الذر ، تطأهم الناس ذرا في مثل صور الرجال ، يعلوهم كل شيء من الصغار ، ثم يساقون الى سجن في جهنم يقال له (يولس)، تعلوهم نار شر أنيار [٧٨]، يسقون من طينة الخبال وعصارة أهل النار » . وقال (ص): « يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة في صور الذر تطأهم الناس لهوانهم على الله تعالى » ، وقال : « ان في جهنم واديا يقال له (هبهب)؛ حق على الله أن يسكنه كل جبار » ، وقال : « ان في النار قصرا يجعل فيه المتكبرون ويطبق عليهم » ، وقال : « اذا مشت امتي المطيطاء وخدمتهم (فارس) و (الروم) سلط الله بعضهم على بعض » ، والمطيطاء : مشية فيها اختيال . وقال عيسى بن مريم : « كما أن الزرع ينبت في السهل ولا ينبت على الصفاء ، كذلك الحكمة تعمر في قلب المتواضع ولا تعمر في قلب المتكبر ، الا ترون أنه يتشمخ برأسه الى السقف شجه ، ومن يطأطيء أظله وأكنه » . ولما حضرت نوحا الوفاة ، دعا ابنيه فقال :« اني آمركما باثنتين وانهاكما عن اثنتين : أنهاكما عن الشرك والكبر وآمركما بلا اله الا الله وسبحان الله وبحمده » . وقال سليمان بن داود يوما للطير والجن والانس والبهائم : « اخرجوا ، فخرجوا في مائتي الف من الانس ومائتي الف من الجن ، فرفع حتى سمع زجل الملائكة بالتسبيح في السماوات ، ثم خفض حتى مست اقدامه البحر ، فسمع صوتا يقول : لو كان في قلب صاحبكم مثقال ذرة من كبر لخسفت به ابعد مما رفعته » .

وقال الباقر (ع) : « الكبر رداء الله ، والمتكبر ينازع الله رداءه »، وقال : « العز رداء الله والكبر ازاره ، فمن تناول شيئا منه اكبه الله في جهنم» . وقال الصادق (ع) : « ان في جهنم لواديا للمتكبرين يقال له(سقر) شكى الى الله شدة حره وسأله أن يأذن له يتنفس ، فتنفس فاحرق جهنم ».وقال عليه السلام : « ان المتكبرين يجعلون في صور الذر ، يتوطأهم الناس حتى

---

(٧٨) كذا في النسخ . وفي نسخة احياء العلوم — ج٢ ص ٢٩٠ — :(نار الانيار) ، ولم نعثر على جمع نار على انيار ، وانما جملة جموعها (نيار) .

يفرغ الله من الحساب » . وقال (ع) : « ما من رجل تكبر أو تجبر الا لذلة وجدها في نفسه » . وقال (ع) : « ان في السماء ملائكة موكلين بالعباد فمن تواضع رفعاه ، ومن تكبر وضعاه » . وقال(ع) : « الجبار الملعون من غمض الناس وجهل الحق » ، قال الراوي : أما الحق فلا أجهله ،والغمض لا ادري ما هو قال : « من حقر الناس وتجبر عليهم فذلك الجبار » .وقال عليه السلام : « ما من عبد الا وفي رأسه حكمة وملك يمسكها ، فاذاتكبر قال له : اتضع وضعك الله ، فلا يزال أعظم الناس في نفسه وأصغر الناس في أعين الناس ، واذا تواضع رفعها الله — عز وجل — ثم قال له : انتعش نعشك الله ، فلا يزال اصغر الناس في نفسه وارفع الناس في أعين الناس » .

فصل

(التكبر على الله وعلى النـاس)

التكبر قد يكون على الله ، كما كان لنمرود وفرعون ، وسببه الطغيان ومحض الجهل ، وهو أفحش أنواع الكبر ، اذ هو أعظم أفراد الكفر ، ولذا تكررت في ذمة الآيات ، كقوله تعالى :

« ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين»(٧٩).وقوله: « ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فيحشرهم اليه جميعا » (٨٠) .وقوله تعالى : «ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا» (٨١).وقوله : « فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون » (٨٢) .

وقد يكون على الرسل من حيث تعزز النفس وترفعها عن انقيادهم ، كما كان لمن يقول :

«أهؤلاء من الله عليهم من بيننا » (٨٣) . ولمن يقول : « انؤمن لبشرين مثلنا »(٨٤) . « ان انتم الا بشر مثلنا » (٨٥) . « ولئن اطعتم بشرا مثلكم

---

(٧٩) غافر ، الآية : ٦٠ .
(٨٠) النساء ،الآية : ١٧٢ .
(٨١) مريم ، الآية : ٦٩ .
(٨٢) النحل ، الآية : ٢٢ .
(٨٣) الانعام ، الآية : ٥٣ .
(٨٤) المؤمنون ، الآية : ٤٧ .
(٨٥) ابراهيم ، الآية : ١٠ .

انكم اذا لخاسرون »(٨٦) . ولمن قال : « لولا انزل علينا الملائكة او نرى ربنا لقد استكبروا فى انفسهم وعتوا عتوا كبيرا »(٨٧) .

وهذا في الشناعة قريب من التكبر على الله ، وان كان دونه .

وقد يكون على العباد بأن يستعظم نفسه ويستصغرهم ، وهذا وان كان دون الاولين ، الا أنه من المهلكات العظيمة ، من حيث أنه يؤدي الى مخالفة الله سبحانه ، اذ صاحبه اذا سمع من عبد استنكف من قبوله واشمأز بجحده ، ومن حيث ان العز والعظمة والعلى لايليق الا بالعلى الاعلى ، فمهما تكبر العبد نازع الله في صفة من صفاته ، ولذا قال الله سبحانه : « والعظمة ازاري والكبرياء ردائي ، فمن نازعني فيهما قصمته » .

فصل

(درجات الكبر)

الكبر درجات ثلاث :

(الاولى) أن يكون مستقرا في قلبه ، يرى نفسه خيرا من غيره ، ويظهره في افعاله : بالترفع في المجالس ، والتقدم على الاقران ، وان يصعر خده للناس كأنه معرض عنهم ، ويعبس وجهه ، ويقطب جبينه . وفي أقواله : باظهار الانكار على من يقصر فيما يتوقعه ، من التعظيم ، وابداء الدعوى ، والمفاخرة والمباهاة ، وتزكية النفس ، والتشمير لغلبة الغير في العلم والعمل . وهذه الدرجة أقبح الدرجات وأشدها ، اذ صاحبها قد رسخت في قلبه شجرة الكبر وارتفعت أغصانها وفروعها ، بحيث احاطت على جميع جوارحه .

(الثانية) كالاولى ، الا في اظهاره على اللسان ، وهي دون الاولى ، لكونها أقل اغصانا منها .

(الثالثة) أن يكون مستقرا في قلبه بحيث رأى نفسه خيرا من غيره ، الا انه يجتهد في التواضع ، ويفعل فعل من يرى غيره خيرا من نفسه . وهذا وان رسخت في قلبه شجرة الكبر ، الا انه قطع اغصانها بالكلية . فان كان مع ذلك منكرا على نفسه فيما رسخ فيها ، ومغضبا عليها ومتشمرا لازالتها ، الا انه لم يقدر على دفعه بسرعة وسهولة ، وتميل النفس الى ما تشتهيه في

---

(٨٦) المؤمنون ، الآية : ٣٤ .
(٨٧) الفرقان ، الآية : ٢١ .

بعض الاحيان بدون اختيار ، ولكنه كان في مقام المجاهدة ، فلعله لم يكن عليه كثير اثم ، ومثله يوفقه الله للوصول الى ما يطلبه بمقتضى وعده .

فصل

(علاج الكبر علما وعملا)

الكبر كالعجب في كيفية العلاج اجمالا وتفصيلا ، اذ الكبر لما تضمن معنى العجب ـ أي استعظام النفس ـ وكان العجب منشأ له ، فما ذكر لعلاج مطلق العجب هو العلاج لمطلق الكبر أيضا . ولكن مابه الكبر ـ اعني بواعثه ـ هي بواعث العجب بعينها ، فما ذكر لعلاج العجب بالبواعث المذكورة مشترك بينهما .

ومن المعالجات المختصة بالكبر : ان يتذكر ما ورد في ذمه من الآيات والاخبار المذكورةوغيرها ،ويتأمل فيما ورد فيمدحضده ـاعني التواضع ـ كما يأتي .ولكونالكبر مشتملا على شيء زائد على العجب هو رؤية النفس فوق الغير ، فينبغي ان يعلم ان الحكم بخيرية نفسه من الغير غاية الجهل والسفاهة ، فلعل في الغير من خفايا الاخلاق الكريمة ما ينجيه ، وفيه من الملكات الذميمةما يهلكه ويرديه . وكيف يجتريءصاحب البصيرة ان يرجح نفسه على الغير ، مع ابهام الخاتمة وخفاء الاخلاق الباطنة واشتراك الكلفي الانتساب الى الله تعالى ، وفي صدورها وترشحها منه ومعلوليتها ولازميتها له ، فالواقف بخطر الخاتمة واناطة النجاة والهلاك بالبواطن لا يرى لنفسه مزية على غيره ، والعارف بكونكل فرد من افراد الموجودات أثرا من آثار ذاته ولمعة من لمعات انوار صفاته ، بل رشحة من رشحات فضله وجوده وقطرة من قطرات تيار فيض وجوده ، لا ينظر الى أحد بنظر السوء والعداوة ، بل يشاهد الكل بعين الخيرية والمحبة .

اشكال وحل

(فإن قيل) : كيف يحسن ان يتواضع العالم الورع للجاهل الفاسق ويراه خيرا من نفسه ، مع ظهور جهله وفسقه ، وقطعه باتصافنفسه بالعلم والورع وخلوه عنهما ؟ وكيف يجوز له ان يحب فاسقا أو كافرا او مبتدعا ويتواضع له ولا يعاديه ، مع انه مبغوض عند الله ، فيكون مأمورا ببغضه والجمع بين الحب والتواضع وبين البغض جمع بين النقيضين ؟

(اجبنا) عن (الاول) بأن حقيقة التواضع ألا يرى النفس لذاتها مزية واقعية وخيرية حقيقية على الغير ، لا ألا يرى مزية لذاتها عليه في الصفات الظاهرة التي يجزم باتصاف نفسه بها وعدم اتصافه بها ، كالعلم والعبادة والسخاوة والعدالة والاجتناب عن الاموال المحرمة وغير ذلك ، اذ العالم ببعض العلوم لا يمكنه ان يدفع عن نفسه القطع بكونه عالما بها وكون فلان العامي غير عالم بها . لكن المزية الواقعية والخيرية النفس الامرية انما هو بالتقرب الى الله والوصول الى السعادة الدائمية ، ولا شك في ان ذلك لا يحصل بمجرد تعلم بعض العلوم والمواظبة على بعض العبادات او غير ذلك من الصفات المحسودة ، بل المناط فيه حسن الخاتمة ، وهو امر مبهم ، اذ العواقب مطوية عن العباد ، فيمكن ان يسلم الكافر ويختم له بالايمان ويضل هذا العالم الورع ويختم له بالكفر ، فعلى كل عبد ان رأى من هو شرا منه ظاهرا ان يقول: لعل هذا ينجو وأهلك أنا ، فلا يراه شرا من نفسه في الواقع خائفا من العاقبة ، ويقول : لعل برءً هذا باطن ، بان يكون فيه خلق كريم بينه وبين الله فيرحمه الله ويتوب عليه ويختم له بأحسن الاعمال ، ويرى ظاهر لا آمن ان تدخله الآفات فتحبطه . وبالجملة : ملاحظة الخاتمة والسابقة والعلم بأن الكمال في القرب من الله وسعادة الآخرة دون ما يظهر في الدنيا من الاعمال الظاهرة يوجب نفي الكبر والتواضع لكل أحد .

وعن (الثاني) ان الحب ينبغي ان يكون لاجل النسبة الشريفة المذكورة والتواضع لاجل ملاحظة الخاتمة ، وبغضه وغضبه عليه لاجل ما ظهر منه من الكفر والفسوق . وأي منافاة بين الغضب لله في صدور معصية من عبد وبين عدم الكبر والاذلال ؟! اذ الغضب انما هو لله لا لنفسك ، اذ امرك بأن تغضب عند مشاهدة المنكر ، والتواضع وعدم الكبر انما هو بالنظر الى نفسك ، بألا ترى نفسك ناجيا وصاحبك هالكا في حال غضبك عليه لامر الله ، بل يكون خوفك على نفسك مما علم الله من خفايا ذنوبك اكثر من خوفك عليه مع الجهل بالخاتمة ، فليس من ضرورة الغضب والبغض لله ان تتكبر على المغضوب عليه ، وترى قدرك فوق قدره .

ومثال ذلك : أن يكون لملك غلام وولد ، وقد وكل الملك الغلام على

ولده بأن يراقبه ويضربه مهما ساء أدبه ، ويغضب عليه اذا اشتغل بما لا يليق به ، فان كان الغلام مطيعا محبا لمولاه يغضب عليه اذا ساء ادبه امتثالا لامر مولاه ، ومع ذلك يحبه لانتسابه الى مولاه بالولادة ، ولا يتكبر عليه ويتواضع له ، ويرى قدره عند مولاه فوق قدر نفسه ، لان الولد اعز لامحالة من الغلام.

تذنيب

(العلاج العملي للكبر)

ما ذكرناه لعلاج الكبر انما هو العلاج العلمي ، وأما (العلاج العملي)، فهو ان يتواضع بالفعل لله ولسائر الخلق، ويواظب على اخلاق المتواضعين، ويكلف نفسه على ذلك الى ان تقطع عن قلبه شجرة الكبر باصولها وفروعها، ويصير التواضع ملكة له . وللقطع الكلي وحصول ملكة التواضع امتحانات يعرفان بها ، فلا بد ان يمتحن نفسه بها حتى يطمئن بأنه متواضع ، اذ النفس قد تضمر التواضع وتدعي البراءة من الكبر ، فاذا وقعت الواقعة عادت الى طبعها ونسيت وعدها :

(الاول) ان يناظر مع اقرانه في بعض المسائل ، فاذا ظهر شيء من الحق على لسانهم ، فان اعترف به مع السرور والاهتزاز والشكر لهم لتنبيههم اياه على ما غفل عنه فهو علامة التواضع، وان ثقل عليه القبول والاعتراف ولم يسر بظهور الحق على لسانهم فهو دليل بقاء الكبر بعد فليعالجه من حيث العلم بأن يتذكر سوء عاقبته وخسة نفسه وخباثتها ، من حيث ان قبول الحق يثقل عليها ، ومن حيث العمل بأن يكلف نفسه على ما يثقل عليها من الاعتراف بالحق واطلاق اللسان بالثناء والشكر، والاقرار على نفسه بالعجز والقصور ، ويقول : ما أحسن فطانتك ! لقد ارشدتني الى الحق ، فجزاك الله خيرا . فاذا واظب على ذلك مرات متوالية ، صار ذلك له طبعا ، وسقط ثقل الحق عن قلبه وطاب له قبوله ، وان لم يثقل عليه في الخلوة وثقل عليه في الملأ ، فليس فيه كبر ، بل فيه رياء ، فليعالج بما يأتي في معالجة الرياء .

(الثاني) ان يقدم الاقران والامثال على نفسه في المحافل ، ويمشي خلفهم في الطرق ، فان لم يثقل ذلك عليه فهو متواضع ، والا فمتكبر ، فليقدمهم بالتكلف ، ويجلس تحتهم ؛ ويظهر السرور والارتياح بذلك ،

حتى يسقط عنه ثقله . قال ابو عبدالله الصادق عليه السلام : « ان من التواضع ان يجلس الرجل دون شرفه » . وقال (ع) : « من التواضع ان ترضى بالمجلس دون المجلس ، وان تسلم على من تلقى ، وان تترك المراء وان كنت محقا ، ولا تحب ان تحمد على التقوى » . ومن المتكبرين من اذا لم يجد مكانا في الصدر يجلس في صف النعال ، او يجعل بينه وبين الاقران بعض الاراذل ولا يجلس تحتهم ، وغرضهم من ذلك استحقار الاقران او ايهام ان تركهم للصدر انما هو بالتفضل ، فهو اشد انواع التكبر .

(الثالث) ان يجيب دعوة الفقير ، ويمر الى السوق في حاجة الرفقاء والاقارب ، ويجعل حاجتهم وحاجة نفسه منه الى البيت ، فان لم يثقل عليه ذلك في الخلوة والملأ فليس فيه كبر ورياء ، وان ثقل عليه فيهما ففيه كبر ورياء ، وان ثقل عليه عند مشاهدة الناس دون الخلوة ففيه رياء دون الكبر . قال امير المؤمنين عليه السلام : « لا ينقص الرجل الكامل من كماله ما حمل من شيء الى عياله » . وروي : « انه اشترى لحما بدرهم فحمله في ملحفته فقال له بعضهم : احمل عنك يا امير المؤمنين ؟ فقال : لا ! ابو العيال أحق أن يحمل » . وروي : « ان الصادق عليه السلام : نظر الى رجل من اهل المدينة قد اشترى لعياله شيئا وهو يحمله ، فلما رآه الرجل استحيى منه ، فقال له ابو عبدالله عليه السلام : اشتريته لعيالك وحملته اليهم ، اما والله لولا أهل المدينة لاحببت ان اشتري لعيالي الشيء ثم أحمله اليهم » .

(الرابع) ان يلبس ثيابا بذلة ، فان لم يثقل عليه ذلك اصلا فليس فيه كبر ورياء ، والا كان متكبرا أو مرائيا . قال رسول الله (ص) : « من اعتقل البعير ولبس الصوف فقد بريء من الكبر » . وقال (ص) : « انما أنا عبد آكل في الارض ، والبس الصوف ، واعقل البعير ، والعق أصابعي ، واجيب دعوة المملوك ؛ فمن رغب عن سنتي فليس مني » . وقيل لسلمان : لم لا تلبس ثوبا جديدا ؟ فقال : «انما أنا عبد ، فاذا أعتقت يوما لبست جديدا » : أشار به الى العتق في الآخرة . وقال رسول الله (ص) : « البذاذة — أي الدون من اللباس — من الايمان » . وعوتب امير المؤمنين عليه السلام في ازار مرقوع ، فقال : « يقتدي به المؤمن وتخشع له القلوب » .

(الخامس) ان يأكل مع خدامه وغلمانه ، فان لم يثقل عليه فهو متواضع والا فمتكبر . وروي رجل من أهل بلخ ، قال : « كنت مع الرضا (ع) في سفره الى خراسان ، فدعا يوما بمائدة ، فجمع عليها مواليه من السودان وغيرهم ، فقلت : جعلت فداك ! لو عزلت لهؤلاء مائدة ، فقال عليه السلام ان الرب تعالى واحد ، والدين واحد ، والام واحدة ، والاب واحد ، والجزاء بالاعمال » .

والامتحانات لبقاء الكبر ليست منحصرة بما ذكر ، بل هي كثيرة :

كأن يحب قيام الناس له أو بين يديه ، قال امير المؤمنين عليه السلام: « من أراد ان ينظر الى رجل من أهل النار فلينظر الى رجل قاعد وبين يديه قوم قيام » . وقال بعض الصحابة : « لم يكن شخص أحب اليهم من رسول الله ، وكانوا اذا رأوه لم يقوموا له لما يعلمون من كراهته لذلك » .

وان يحب ان يمشي خلفه غيره ، وقد روي « انه لا يزال العبد يزداد من الله بعدا ما مشي خلفه » . وكان رسول الله (ص) في بعض الاوقات يمشي مع بعض الاصحاب ، فيأمرهم بالتقدم ويمشي في غمارهم .

وألا يزور غيره ، وان كان في زيارته فائدة دينية . وان يستنكف من مجالسة الفقراء والمعلولين والمرضى . روي انه دخل على رسول الله رجل وعليه جدري قد تقشر ، وعنده ناس من أصحابه يأكلون ، فما جلس عند أحد الا قام من جنبه . فأجلسه النبي (ص) الى جنبه . وكان (ص) في نفر من أصحابه يأكلون في بيته ، اذ دخل عليهم رجل به زمانة تتكره الناس لأجلها ، فأجلسه رسول الله على فخذه وقال له : «اطعم» ، وكأن رجلا من قريش اشمأز منه وتكره ، فما مات ذلك الرجل حتى كانت به زمانة مثلها . ومر سيد الساجدين عليه السلام على المجذومين[٨٨] وهو راكب حماره ، وهم يتغدون ، فدعوه الى الغداء ، فقال : «أما اني لولا اني صائم لفعلت» فلما صار الى منزله أمر بطعام فصنع ، وأمر ان يتنوقوا فيه ، ثم دعاهم فتغدوا عنده وتغدى معهم .. وقس على هذه غيرها من الامتحانات .

ولقد كانت سيرة رسول الله (ص) جامعة لجميع ما يمتحن به التواضع

---

٨٨) وفي بعض نسخ الكافي المصححة في باب التواضع هكذا : (المجذمين) .

بريئةعن جميع ما يصدر من الكبر من الافعالوالحركات ، فينبغي لكل مؤمن ان يقتدي به • وقد روى ابو سعيد الخدري : « انه (ص) كان يعلف الناضح ، ويعقل البعير ، ويقم البيت ، ويحلب الشاة ، ويخصف النعل ؛ ويرقع الثوب ؛ ويأكل مع خادمه ، ويطحن عنه اذا اعيى ، ويشتري الشيء من السوق ، ولا يمنعه‌الحياء ان يعلقه بيده او يجعله في طرف ثوبه‌وينقلب الى أهله • يصافح الغني والفقير والصغير والكبير ، ويسلم مبتدئا على كل من استقبله من صغير أو كبير أسود او أحمر حر أو عبد من أهل الصلاة، ليست له حلة لمدخله ولا حلة لمخرجه ، لا يستحيي من أن يجيب اذا دعي، وان كان أشعث أغبر ، ولا يحقر ما دعي اليه ، وان لم يجد الا حشف الرقل [٨٩] ، لايرفع غداء لعشاء ولا عشاء لغداء • هين المؤنة ، لين الخلق كريم الطبيعة ، جميل‌المعاشرة ، طلق الوجه ؛ بساما من غير ضحك، محزونا من غير عبوس ؛ شديدا في غير عنف ، متواضعا في غير مذلة ، جوادا من غير سرف ، رحيما لكل ذي قربى ، قريبا من كل ذمي ومسلم ، رقيق‌القلب دائم الاطراق ، لم يبسم قط من شبع ؛ ولا يمد يده الى طمع » • هذا وقال ابو الحسن عليهما السلام : « التواضع: أن تعطي الناس ما تحب ان تعطاه » • وسئل عن حد التواضع الذي اذا فعله العبد كان متواضعا ، فقال: « التواضع درجات: منها ان يعرف المرء قدر نفسه ، فينزلها منزلتها بقلب سليم لا يحب ان يأتي الى احد الا مثل ما يؤتى اليه ، ان رأى سيئة درأها بالحسنة ، كاظم الغيظ عاف عن الناس ، والله يحب المحسنين »•

وصل
(التواضع ومدحه)

قد اشير الى ان ضد الكبر (التواضع) ، وهو انكسار للنفس يمنعها من ان يرى لذاتها مزية على الغير ، وتلزمه افعال وأقوال موجبة لاستعظام الغير واكرامه ، والمواظبة عليها أقوى معالجة لازالة الكبر • ولا بد من الاشارة الى الاخبار الواردة في مدح‌التواضع وفوائده ، تحريكا للطالبين الى السعي في تحصيله الموجب لازالة ضده ، وهذه الاخبار كثيرة خارجة

---

(٨٩) في احياء العلوم — ج ٣ ص ٣٠٦ — اهكذا : (الدقل) وكل من النسختين يصح به .

عن حد الاحصاء ، فنكتفي بايراد بعض منها :

قال رسول الله (ص) : « ما تواضع احد لله الا رفعه الله » . وقال (ص) : « طوبى لمن تواضع في غير مسكنة ، وانفق مالا جمعه من غير معصية ، ورحم أهل الذلة والمسكنة ، وخالط أهل الفقه والحكمة » . وروي : « ان الله سبحانه أوحى الى موسى : انما اقبل صلاة من تواضع لعظمتي ولم يتعاظم على خلقي والزم قلبه خوفي وقطع نهاره بذكري وكف نفسه عن الشهوات من أجلي» . وقال رسول الله (ص) لاصحابه : « ما لي لا أرى عليكم حلاوة العبادة ! قالوا : وما حلاوة العبادة ؟ قال : التواضع» . وقال (ص) : « اذا تواضع العبد رفعه الله الى السماء السابعة » . وقال (ص) : « اذا هدى الله عبدا الاسلام وحسن صورته وجعله في موضع غير شائن له ورزقه مع ذلك تواضعا ، فذلك من صفوة الله » . وقال (ص) : « اربع لايعطيهن الله الا من يحبه : الصمت وهو اول العبادة ، والتوكل على الله ، والتواضع ، والزهد في الدنيا » . وقال (ص) : «ليعجبني ان يحمل الرجل الشيء في يده يكون مهنة لاهله يدفع به الكبر عن نفسه » . وقال (ص) : «من تواضع لله رفعه الله ، ومن تكبر خفضه الله ، ومن اقتصد في معيشة رزقه الله ؛ ومن بذر حرمه الله ؛ ومن اكثر ذكر الموت أحبه الله؛ ومن أكثر ذكر الله أظله الله في جنته » . وروي : « انه اتى رسول الله (ص) ملك ؛ فقال : ان الله تعالى يخيرك ان تكون عبدا رسولا متواضعا او ملكا رسولا . فنظر الى جبرئيل عليه السلام واومى بيده أن تواضع ، فقال : عبدا متواضعا رسولا ، فقال الرسول — يعني الملك — : مع انه لا ينقصك مما عند ربك شيئا» . وقال عيسى بن مريم عليه السلام : « طوبى للمتواضعين في الدنيا ! هم أصحاب المنابر يوم القيامة ، طوبى للمصلحين بين الناس في الدنيا ! هم الذين يرثون الفردوس يوم القيامة . طوبى للمطهرة قلوبهم في الدنيا ! هم الذين ينظرون الى الله تعالى يوم القيامة » . وقال (ص) : «ان التواضع لايزيد العبد الا رفعة ، فتواضعوا يرحمكم الله » . وأوحى الله تعالى الى داود عليه السلام: «يا داود ! كما ان اقرب الناس الى الله المتواضعون كذلك أبعد الناس من الله المتكبرون » . وروى : « ان سليمان بن داود اذا

اصبح تصفح وجوه الاغنياء والاشراف حتى يجيء الى المساكين فيقعد معهم ويقول مسكين مع مساكين» . وروي : « انه ورد على امير المؤمنين (ع) اخوان له مؤمنان ، أب وابن ، فقام اليهما واكرمهما واجلسهما في صدر مجلسه وجلس بين ايديهما ، ثم امر بطعام فأحضر فأكلا منه ، ثم جاء قنبر بطست وابريق خشب ومنديل ، وجاء ليصب على يد الرجل ، فوثب امير المؤمنين وأخذ الابريق ليصب على يد الرجل ، فتمرغ الرجل في التراب ، وقال : وقال : يا امير المؤمنين ! الله يراني وانت تصب على يدي ! قال: اقعد واغسل ، فان الله –عز وجل– يراك واخوك الذي لا يتميز منك ولا ينفصل عنك يخدمك ، يريد بذلك في خدمته في الجنة مثل عشرة اضعاف عدد أهل الدنيا . فقعد الرجل . وقال له علي عليه السلام : اقسمت عليك بعظيم حقي الذي عرفته لما غسلت مطمئنا كما كنت تغسل لو كان الصاب عليك قنبر ، ففعل الرجل ذلك ، فلما فرغ ناول الابريق محمد بن الحنفيه، وقال : يا بني ! لو كان هذا الابن حضرني دون ابيه لصببت على يده ، ولكن الله عز وجل يأبى ان يسوى بين ابن وابيه اذا جمعهما مكان ، لكن قد صب الاب على الاب فليصب الابن على الابن ، فصب محمد بن الحنفية على الابن »[٩٠] .

وقال الصادق عليه السلام : « التواضع أصل كل شرف نفيس ومرتبة رفيعة ، ولو كان للتواضع لغة يفهمها الخلق لنطق عن حقائق ما في مخفيات العواقب . والتواضع ما يكون لله وفي الله ، وما سواه فكبر . ومن تواضع لله شرفه الله على كثير من عباده . ولاهل التواضع سيماء يعرفها أهل السماوات من الملائكة وأهل الارض من العارفين . قال الله عز وجل :

« وعلى الاعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم »[٩١] .

وأصل التواضع من اجلال الله وهيبته وعظمته . وليس لله عز وجل عبادة يقبلها ويرضاها الا وبابها التواضع . ولا يعرف ما في معنى حقيقة

(٩٠) روي هذا الحديث في البحار – في الجزء الرابع من المجلد الخامس عشر ص ١٤٩ باب التواضع – عن الاحتجاج والتفسير المنسوب الى الامام العسكري عليه السلام .

(٩١) الاعراف ، الآية : ٤٦ .

التواضع الا المقربون من عباده المستقلين بوحدانيته ، قال الله عز وجل :

« وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » (٩٢) .

وقد امر الله — عز وجل — اعز خلقه وسيد بريتـه محمدا (ص) بالتواضع ، فقال عز وجل :

« واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » (٩٣) .

والتواضع مزرعة الخضوع والخشوع والخشية والحياء ، وانهن لا يأتين الا منها وفيها ، ولا يسلم الشرف التام الحقيقي الا للمتواضع في ذات الله تعالى[٩٤] . وقال الامام ابو محمد الحسن بن علي العسكري عليهم السلام: « اعرف الناس بحقوق اخوانهم واشدهم قضاءلهم اعظمهم عند الله شأنا ، ومن تواضع في الدنيا لاخوانه فهو عند الله من الصديقين ومن شيعة علي

تتميم

ابن ابي طالب عليه السلام حقا »[٩٥] .

(الـذلـــة)

لما عرفت أن كل فضيلة وسط له طرفان مذمومان ، فأحد طرفي التواضع (الكبر) — كما عرفت — وهو من طرف الافراط ، وآخرهما (الذلة) والتخاسس ، وهو من طرف التفريط . فكما ان الكبر مذموم ، فكذلك المذلة والتخاسس ايضا مذموم ، اذ كلا طرفي الامـور ذميم ، والمحمود : هو التواضع من دون الخروج الى شيء من الطرفين ، اذ أحب الامور الى الله اوسطها . وهو ان يعطى كل ذي حق حقه ، وهو العدل ، فلو وقع في طرف النقصان فليرفع نفسه ، اذ ليس للمؤمن ان يذل نفسه ، فالعالم اذا دخل عليه اسكاف فخلى له مجلسه وأجلسه فيه ، وترك تعليمه وافادته ، واذا قام عدا الى الباب خلفه ، فقد تخاسس وتذلل ، وهو غير محمود ،

(٩٢) الفرقان ، الآية : ٦٣ .
(٩٣) الشعراء ، الآية : ٢١٥ .
(٩٤) روي هذا الحديث في البحار ايضا في الموضع المتقدم عن مصباح الشريعة.
(٩٥) هـذا الحديث من نفس الحديث المتقدم عن الاحتجاج والتفسير المنسوب الى الامام .

بل هو رذيلة في طرف التفريط . فاللازم اذا وقع فيه أن يرفع نفسه الى أن يعود الى الوسط الذي هو الصراط المستقيم . فان العدل ان يتواضع بمثل ما ذكر لأمثاله ولمن يقرب درجته . فأما تواضعه للسوقي ، فبالبشر في الكلام ، والرفق في السؤال ، واجابة دعوته ، والسعي في حاجته ، وأمثال ذلك ، وألا يرى نفسه خيرا منه ، نظرا الى خطر الخاتمة .

ثم ينبغي الا يتواضع للمتكبرين ، اذ الانكسار والتذلل لمن يتكبر ويتعزز مع كونه من التخاسس والمذلة المذمومة يوجب اضلال هذا المتكبر، وتقريره على تكبره ، واذا لم يتواضع له الناس وتكبروا عليه ربما تنبه وترك التكبر ، اذ المتكبر لايرضى بتحمل المذلة والاهانة من الناس ، ولذا قال رسول الله (ص) : « اذا رأيتم المتواضعين من امتي فتواضعوا لهم ، واذا رأيتم المتكبرين فتكبروا عليهم ، فان ذلك لهم مذلة وصغار » .

ومنهـا :

الافتخـار

أي المباهاة باللسان بما توهمه كمالا ، والغالب كون المباهاة بالامور الخارجة عن ذاته ، وهو بعض أصناف التكبر ــ كما أشير اليه ــ فكل ماورد في ذمه يدل على ذمه ، والاسباب الباعثة عليه هي أسباب التكبر . وقدتقدم أن شيئا منها لايصلح لأن يكون منشأ للافتخار ، فهو ناش من محض الجهل والسفاهة . قال سيد الساجدين (ع) : « عجبا للمتكبر الفخور الذي كان بالامس نطفة ثم (هو) [٩٦] غدا جيفة » . وقال الباقر (ع) : « عجبا للمختال الفخور ، وانما خلق من نطفة ثم يعود جيفة ، وهو فيما بين ذلك لايدري ما يصنع به » . وقال (ع) : « صعد رسول الله (ص) المنبر يوم فتح مكة ، فقال : أيها الناس ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتفاخرها بآبائها ، ألا انكم من آدم وآدم من طين ، ألا ان خير عباد الله عبد اتقاه » . وقال له (ع) عقبة بن بشير الاسدى : أنا في الحسب الضخم عزيز في قومي، فقال له : « تمن علينا بحسبك ! ان الله تعالى رفع بالايمان من كان الناس يسمعونه وضيعا اذا كان مؤمنا ، ووضع بالكفر من كان الناس يسمعونه

(٩٦) في بعض نسخ الكافي في باب الفخر والكبر زيادة كلمة (هو) .

شريفا اذا كان كافرا . فليس لأحد فضل على أحد الا بتقوى الله » . وقال الصادق (ع) : « قال رسول الله (ص) : آفة الحسب الافتخار والعجب» . وقال (ع) : « أتى رسول الله (ص) رجل ، فقال : يارسول الله ! أنا فلان بن فلان ... حتى عدَّ تسعة ، فقال رسول الله : أما انك عاشرهم في النار ! » . ونقل : أن قريشا تفاخروا عند سلمان ، فقال : « لكني خلقت من نطفة قذرة ثم أعود جيفة منتنة ثم الى الميزان ، فان ثقل فأنا كريم وان خف فأنا لئيم » . ثم ضده استحقار نفسه وترجيح غيره عليها بالقول .

ومنها :

البغي

ويسمى البذخ أيضا ، وهو صعوبة الانقياد والتابعية لمن يجب أن ينقاد (له) ، وقد فسر بمطلق العلو والاستطالة ، سواء تحقق في ضمن عدم الانقياد لمن يجب أن ينقاد (له) ، أو في ضمن أحد أفعال الكبر ، او في ضمن الظلم والتعدى على الغير . وعلى أي تقدير هو أفحش أنواع الكبر ، اذ عدم الانقياد لمن يجب ان ينقاد (له) — كالانبياء وأوصيائهم — يؤدي الى الكفر الموجب للهلاك الابدي . ولقد هلك بذلك اكثر طوائف الكفار ، كاليهود والنصارى وكفار قريش وغيرهم . وكذا الظلم والتعدي على المسلم واذلاله بالمقهورية والمغلوبية من المهلكات العظيمة ، ولذا ورد في ذمه ماورد، قال رسول الله (ص) : « ان أعجل الشر عقوبة البغي » . وقال (ص) : « حق على الله عز وجل ألا يبغي شيء على شيء الا أذله الله ، ولو أن جبلا بغى على جبل لهد الله الباغي منهما » . وقال أمير المؤمنين (ع) : « أيها الناس ! ان البغي يقود أصحابه الى النار ، وان أول من بغى على الله عناق بنت آدم ، وأول قتيل قتله الله عناق ، وكان مجلسها جريبا في جريب ، وكان لها عشرون أصبعا في كل اصبع ظفران مثل المنجلين ، فسلط الله عليها أسدا كالفيل ، وذئبا كالبعير ، ونسرا كالبغل ، فقتلنها . وقد قتل الله تعالى الجبابرة على أفضل أحوالهم وأمن ما كانوا » . وقال الصادق (ع) : « يقول أبليس لجنوده : القوا بينهم الحسد والبغي فانهما يعدلان عند الله الشرك» . وكتب (ع) الى بعض أصحابه : « انظر ألا تكلمن بكلمة بغى أبدا ، وان

اعجبتك نفسك وعشيرتك » .

وعلاجه : ان يتذكر ـ أولا ـ هذه الاخبار الواردة في ذمه ، و ـ ثانيا ـ ما ورد في مدح ضده ـ اعني التسليم والانقياد لمن يلزم اطاعته وتابعيته ـ كقولهم عليهم السلام : « شيعتنا المسلمون » . والآيات والاخبار الواردة في وجوب اطاعة الله واطاعة النبي (ص) واولى الامر ، وغيرهم من العلماء والفقهاء الذين هم نواب الائمة في زمن الغيبة . وبعد ذلك يكلف نفسه التابعية والاطاعة لمن يجب ان يطاع ، ويتخضع له قولا وفعلا ، حتى يصير ذلك له ملكة .

ومنها :

تزكية النفس

أي نفي النقائص عنها ، واثبات الكمالات لها . وهو من نتائج العجب. وقبحه أظهر من ان يخفى ، اذ من عرف حقيقة الامكان ، ثم أطلع على خلق الانسان ، يعلم انه عين القصور والنقصان ، فلا يطلق بمدح نفسه اللسان . على أنه يتضمن بخصوصه قبحا يشهد به الذوق والوجدان ، ولذا قال أمير المؤمنين (ع) : « تزكية المرء لنفسه قبيحة » . وقد تقدم ما يكفيك لمعرفة حقارة الانسان وخساسته .

ثم ضد التزكية عـدم تبرئة نفسه من العيوب والاقرار بها واثبات النقائص لها ، فاذا كلف نفسه عليه وفعل ذلك مرات متوالية ، يصير معتادا له ، ويزول عنه ما اعتاده من مدح نفسه .

ومنها :

العصبية

وهي السعي في حماية نفسه أو ماله اليه نسبة : من الدين ، والاقارب والعشائر ، وأهل البلد ، قولا أو فعلا : فان كان ما يحميه ويدفع عنه السوء مما يلزم حفظه وحمايته ، وكانت حمايته بالحق من دون خروج من الانصاف والوقوع في مالا يجوز شرعا ، فهو الغيرة الممدوحة التي هي من من فضائل قوة الغضب ـ كما مر ـ . وان كان مما يلزم حمايته ، او كانت حمايته بالباطل ، بان يخرج عن الانصاف وارتكب ما يحرم شرعا ، فهو

التعصب المذموم ، وهو من رداءة قوة الغضب . والى ذلك يشير كلام سيد الساجدين (ع) حيث سئل عن العصبية ، فقال : « العصبية التي يأثم عليها صاحبها أن يرى الرجل شرار قومه خيرا من خيار قوم آخرين ، وليس من العصبية أن يحب الرجل قومه ، ولكن من العصبية أن يعين قومه على الظلم » .

والغالب اطلاق العصبية في الاخبار على التعصب المذموم ، ولذا ورد بها الذم ، كقول النبي (ص) : « من تعصب او تعصب له فقد خلع ربق الايمان من عنقه » . وقوله (ص) : « من كان في قلبه حبة من خردل من عصبية بعثه الله يوم القيامة مع أعراب الجاهلية » . وقال السجاد (ع) : « لم يدخل الجنة حمية غير حمية حمزة بن عبد المطلب ، وذلك حين أسلم غضبا للنبي (ص) في حديث السلى الذي ألقى على النبي (ص) » . وقال الصادق (ع) : « ان الملائكة كانوا يحسبون أن ابليس منهم ، وكان في علم الله أنه ليس منهم ، فاستخرج مافي نفسه بالحمية والغضب ، فقال :

خلقتني من نار وخلقته من طين (٩٧) .

ومنها :

كتمان الحق

والانحراف عنه ، وباعثه اما العصبية او الجبن ، فهو من نتائج واحدة منهما ، فعلى (الاول) يكون من رذائل قوة الغضب من جانب الافراط ، وعلى (الثاني) يكون من رذائلها من جانب التفريط . وربما كان الباعث في بعض أفراده الطمع المالي ، الا ان الظاهر كون الفاعل المباشر النفس مع رداءة قوة الغضب ، كما في نفس الغضب وغيره ، اذ مالم يحصل في النفس ضعف وفي القوة الغضبية خمود لم يتحقق كتمان الحق . ويندرج تحته الميل في الحكم ، وكتمان الشهادة ، وشهادة الزور ، وتصديق المبطل ، وتكذيب المحق ، وغير ذلك .

والظواهر الدالة على ذمه مطلقا ، وعلى كل واحد من الاصناف المندرجة تحته كثيرة ، ولا حاجة الى ذكرها لاشتهارها . وعلاج العصبية وكتمان الحق : أن يتذكر — أولا — ايجابهما لسخط الله ومقته ، وربما تأديا الى

---

(٩٧) الاعراف ، الاية : ١٢ . ص ، الاية : ٧٦ .

الكفر ، و — ثانيا — فوائد ضدهما ، أعنى الانصاف والاستقامة على الحق. وبعد ذلك يكلف نفسه على اظهار ما هو الحق والعمل به ، ولو بالمشقة الشديدة ، الى ان يصير ذلك عادة له ، فيزول عن نفسه ما صار لها ملكة من التعصب وكتمان الحق .

وصـل

(الانصاف والاستقامة على الحق)

لما كان ضدهما الانصاف والاستقامة على الحق ، فلنشر الى بعض ما ورد في مدحهما تحريكا للطالبين الى الاخذ بهما ، قال رسول الله (ص): « لايستكمل العبد الايمان حتى يكون فيه ثلاث خصال : الانفاق من الاقتار ، والانصاف من نفسه ، وبذل السلام » . وكان (ص) يقول في آخر خطبته : « طوبى لمن طاب خلقه ، وطهرت سجيته ، وصلحت سريرته وحسنت علانيته ، وأنفق الفضل من ماله ، وامسك الفضل من قوله ، وانصف الناس من نفسه »وقال (ص) : سيد الاعمال انصاف الناس من نفسك .. » الى آخره .وقال(ص) :«من واسى الفقير من ماله وأنصف الناس من نفسه،فذلك المؤمن حقا » . وقال (ص) « ثلاث خصال من كنّ فيه أو واحدة منهنّ كان في ظل عرش الله يوم لاظل الاظله : رجل اعطى الناس عن نفسه ماهو سائلهم . . . » الحديث . وقال أمير المؤمنين (ع) في كلام له : « ألا انه من ينصف من نفسه لم يزده الله الا عزا » . وقال الصادق (ع) : « من يضمن لي أربعة باربعة ابيات في الجنة : انفق ولا تخف فقرا ، وافش السلام في العالم ، واترك المراء وان كنت محقا ، وانصف الناس من نفسك » . وقال (ع) : » ألا اخبركم بأشد مافرض الله على خلقه » ، فذكر ثلاثة أشياء أولها : (انصاف الناس من نفسك) . وقال (ع) : « من انصف الناس من نفسه رضى به حكما لغيره » . وقال (ع) : « ماتدارى اثنان في أمر قط فأعطى احد النصف صاحبه فلم يقبل منه الا أديل منه » . وقال (ع) : « ثلاثة هم أقرب الخلق الى الله تعالى يوم القيامة حتى يفرغ من الحساب : رجل لم تدعه قدرة في حال غضبه على أن يحيف على من تحت يده ، ورجل مشى بين اثنين فلم يمل مع أحدهما على الآخر بشعيرة ،

ورجل قال بالحق فيما له وعليه » . وقال (ع) : « ان لله جنة لا يدخلها الا ثلاثة ، أحدهم من حكم في نفسه بالحق » [٩٨] .

ومنها :

القساوة

وهي ملكة عدم التأثر عن تألم ابناء النوع . ولا ريب في كونه ناشئا من غلبة السبعية ، واكثر ذمائم الصفات : من الظلم والايذاء ، وعدم اغاثة المظلومين ، وعدم مواساة الفقراء والمحتاجين وغير ذلك يترتب عليه . وضده الرحمة والرقة ، وهو التأثر عن مشاهدة تألم ابناء نوعه ، ويترتب عليه من الصفات المرضية أضداد ما ذكر . وقد ورد به المدح والترغيب في الاخبار الكثيرة ، كقول النبي (ص) : « يقول الله تعالى : أطلبوا الفضل من الرحماء من عبادي تعيشوا في أكنافهم ،فاني جعلت فيهم رحمتي . ولا تطلبوه من القاسية قلوبهم ، فاني جعلت فيهم سخطي » . وكقول الصادق (ع) : « اتقوا الله وكونوا أخوة بررة متحابين في الله متواصلين متراحمين ... » . وقوله (ع) : « تواصلوا وتباروا وتراحموا وكونوا أخوة بررة كما أمركم الله » . وقوله (ع) : « يحق على المسلمين الاجتهاد في التواصل والتعاون على التعاطف والمواساة لاهل الحاجة وتعاطف بعضهم على بعض ، حتى تكونوا كما أمركم الله عز وجل : رحماء بينهم متراحمين مغتمين لما غاب عنكم من أمرهم على ما مضى عليه معشر الانصار على عهد رسول الله (ص) . وقد ورد : ان من ترحم على العباد يرحمه الله . والاخبار الواردة في فضيلة مطلق الرحمة ، وفي فضيلة خصوص كل واحد واحد فيما يندرج تحته : من أعانة المحتاج ، واغاثة المظلوم ، ومواساة الفقير ، والاغتمام بمصائب المؤمنين ، وأمثال ذلك ، اكثر من أن تحصى .

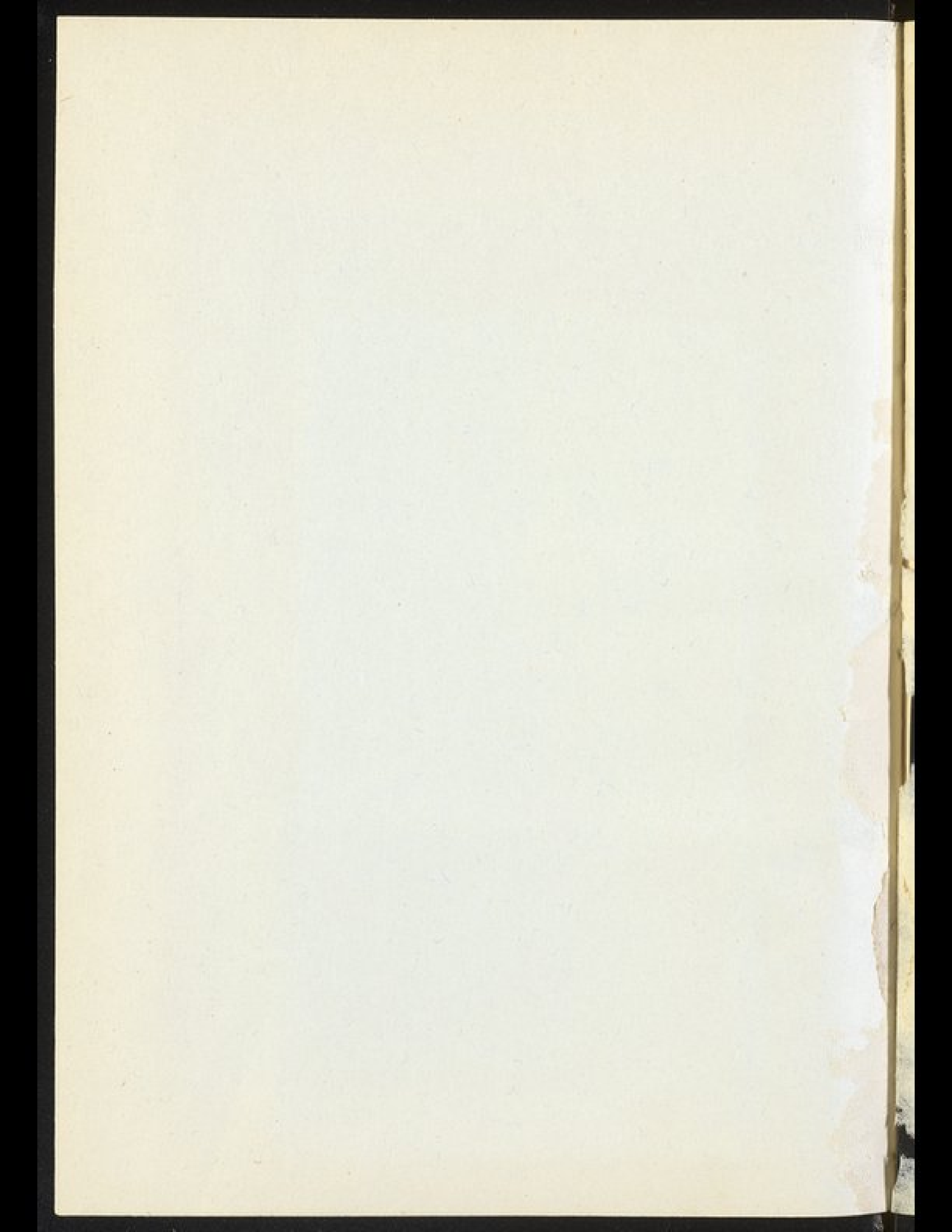
ثم ان ازالة القساوة واكتساب الرحمة في غاية الاشكال ، اذ القساوة صفة راسخة في القلب لا يقدر على تركها بسهولة ، فطريق العلاج ان يترك لوازمها وآثارها من الافعال الظاهرة ، ويواظب على ما يترتب على الرحمة من الصفات الاختيارية ، ويكلف نفسه على ذلك حتى يرتفع على التدريج مبدأ الاولى ويحصل مبدأ الثانية .

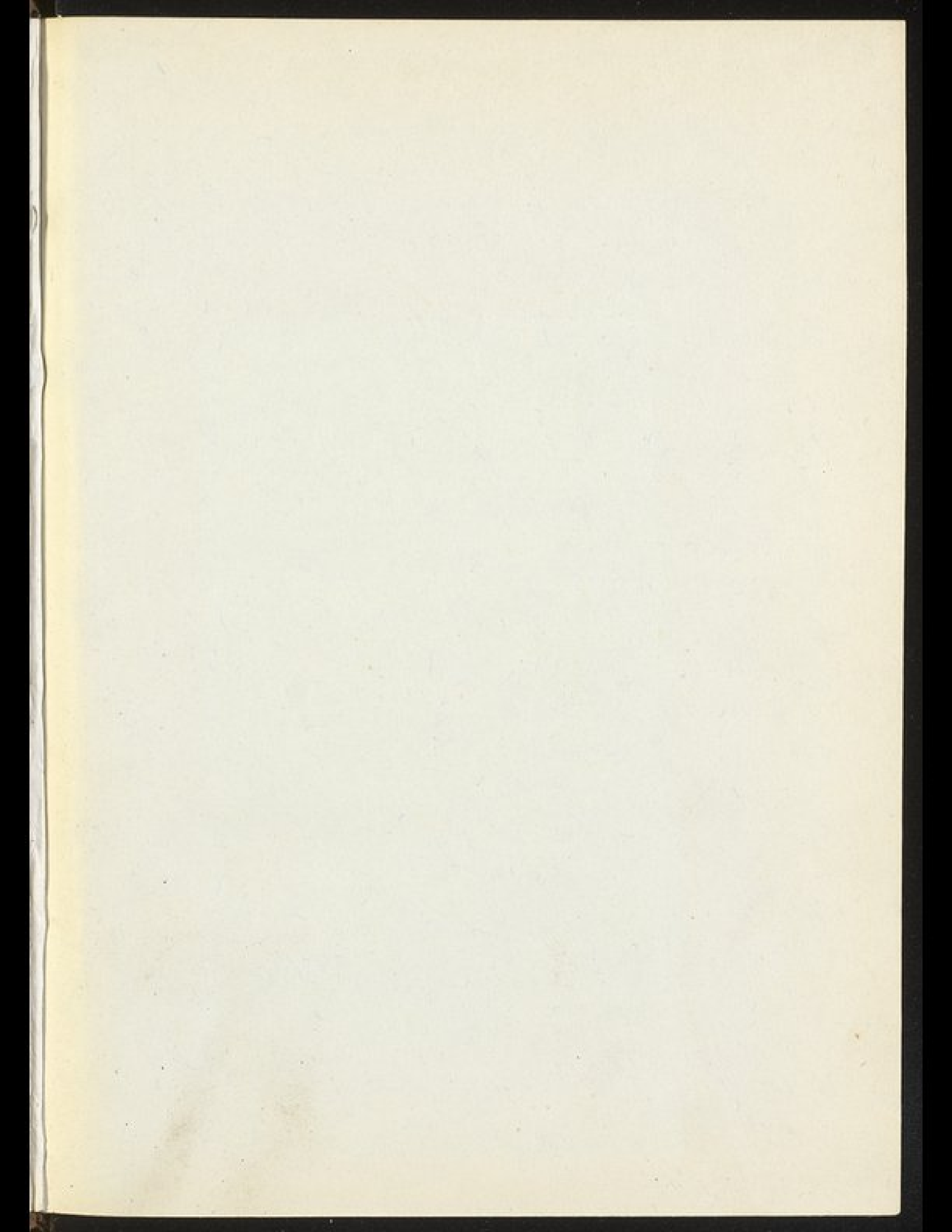
---

(٩٨) هذا الحديث رواه في الكافي في باب الانصاف والعدل عن الباقر (ع) .

فهرس الجزء الاول من جامع السعادات

مطبعة النعمان النجف الاشرف تلفون ٩٩٧






COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES
0036758213

